

# عالم الفكر

المجلد السابع - العدد الثالث - أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٧٦

## الطفولة والمراهقة

- النمو الجسدي في مرحلتى الطفولة
- النمو النفسي من الطفل الى الراشد
- الانفصال عن العالم والرحيل الى الاعماق
- النمو الروحي والخلقي
- والتنشئة الاجتماعية





## الطفولة والمراهقة

### تقديم

زاد الاهتمام في السنوات الأخيرة ، وبخاصة منذ الستينات ، بدراسة مشكلات الطفولة والمراهقة ازدياداً كبيراً تمثل في كثرة الكتابات التي تتناول المشكلات المتعلقة بنمو الطفل ، والتغيرات التي تطرأ على تكوينه الجسمي ، وتطور حياته العقلية والانفعالية ، وعمليات التنشئة الاجتماعية او التطبيع الاجتماعي ، التي يخضع لها الاطفال في مختلف المجتمعات والثقافات . وتعتمد هذه الكتابات في الاغلب على الملاحظة المباشرة الطويلة ، التي تعتبر هي الاداة الرئيسية في البحوث الحقلية والتجريبية ، وقد امكن من طريق هذه الوسيلة التعرف على كثير من التفاصيل والدقائق عن حياة الطفل في سنى حياته المبكرة ، وفي مرحلة المراهقة الخطيرة التي كثيرا ما يكون لها آثار عميقة وبعيدة المدى في حياته وتكوين شخصيته وقدرته على التلاؤم مع المجتمع الذي يعيش فيه ، والتواؤم مع ثقافة ذلك المجتمع وعاداته وتقاليده وقيمه ، وتقبل الاوضاع السائدة فيه او التمرد عليه . ولكن على الرغم من كثرة هذه الكتابات التي تتناول جوانب كثيرة من المشكلة فلا تزال هناك نواح كثيرة في حاجة الى مزيد من الدراسة والبحث . ومع ذلك فانه يمكن القول بوجه عام ان الطفولة والمراهقة قد وجدتا منذ بداية القرن العشرين ، وبالذات منذ الستينات ،



من عناية العلماء في مختلف التخصصات ما لم تجده من قبل ، وإن كان هذا لا يعنى انصراف الكتاب والعلماء والفلاسفة والادباء تماما عن الكتابة في الموضوع قبل القرن العشرين ، اذ الواقع ان حياة الطفل بالذات كثيرا ما كانت تثير خيال الكتاب والادباء الذين عالجوها في بعض قصصهم ورواياتهم ، وقدموا لنا صورا دقيقة لما كان يعانيه الاطفال ، وبخاصة في القرن التاسع عشر ، نتيجة للتصنيع والثورة الصناعية ، وما أحدثته من تغيرات في حياة المجتمع في الغرب .

والواقع ان الظروف والامور الاجتماعية والاقتصادية التي سادت المجتمع الانساني عموما ، والمجتمعات الغربية بوجه خاص ، والتغيرات الهائلة التي طرأت على بناء هذه المجتمعات بعد الثورة الصناعية ، كانت من اهم اسباب زيادة الاهتمام بدراسة مشكلات الطفولة دراسة علمية ، والعمل على تشخيص هذه المشكلات ، ومحاولة ايجاد حلول لها . ذلك ان الانتقال من الحياة التي تعتمد في المحل الاول على الزراعة وعلى الانشطة المتعلقة بها ، الى الاعتماد على الصناعة وما يرتبط بها من زيادة التخصص والمهارة وتقسيم العمل ، والتحركات السكانية نتيجة لجذب المراكز الصناعية والحضرية لليد العاملة من المناطق الريفية ، وانفصال العامل بالتالي عن عائلته الكبيرة ، وما نجم عن ذلك من تداخل البناء العائلي التقليدي ، وظهور الاسر الصغيرة او العائلات النواة - كما يسميها علماء الاجتماع والانثروبولوجيا - التي أصبحت تؤلف الشكل الرئيسي للتنظيم العائلي في المجتمعات الصناعية والمتقدمة عموما ، كل هذا كانت له آثار عميقة على تنشئة الطفل وعلى تغيير النظرة الى الطفولة والمعاملة التي يلقاها الاطفال ، كما كان وراء ذلك الاهتمام الطبيعى والعميق بدراسة مشكلات الطفولة ووضع الطفل ثم المراهق في المجتمع الحديث .

فالمعروف مثلا ان الامور الاقتصادية في المجتمع الصناعى الحديث تستلزم خروج الرجل والمرأة على السواء للعمل . وقد ترتب على ذلك ظهور امور كثيرة كان لها اثرها في حياة الطفل ونوع الرعاية التي يلقاها ، اذ ان انصراف الام - ولو جزئيا - عن حياة البيت ورعاية الاطفال كان يتطلب ضرورة ايجاد من يحل محلها للقيام بهذه الوظيفة سواء كان ذلك عن طريق الاعتماد على اشخاص آخرين او على مؤسسات متخصصة ، وهي كلها بدائل لم تكن العائلة التقليدية الكبيرة تعرفها ، اذ كان الطفل ينشأ بين افرادها العديدين في وسط صحي يوفر له ما يحتاج اليه من حسن الرعاية والعناية والاهتمام . بل ان هذه الظروف الاقتصادية ذاتها ، واستقلال المرأة اقتصاديا وعدم اعتمادها في حياتها على الرجل كما كان عليه الحال في المجتمع التقليدي ، أدت بالضرورة الى انكماش دور الاب في حيات الاسرة الحديثة ، بحيث لم يعد يؤدي نفس الوظيفة القديمة - او على الاقل لم يعد هو المركز الرئيسى الذى تدور حوله حياة الاسرة ، وأصبح عدم وجود الاب في المجتمع الصناعى الحديث ظاهرة مألوفة ، بحيث تجد من بعض علماء الاجتماع من يتكلم الآن عما يسمى بالمجتمع الذى لا يعرف نظام الابوة او المجتمع بدون آباء fatherless society ، وهو تعبير يكشف عن كثير من المخاطر والمشكلات التي يعاني منها المجتمع الحديث ، وهى مشكلات تتراوح بين انفصال الزوجين الى الطلاق الى ظهور العلاقات الجنسية

خارج الزواج وانجاب اطفال لا يعرفون لهم آباء شرعيين . ومحصلة هذا كله قلة الرعاية التي يجدها الاطفال في الاسرة ، وزيادة الانحرافات السلوكية بينهم وبخاصة بين المراهقين ، وان كانت هناك بغير شك أسباب وعوامل أخرى لهذا السلوك الانحرافى ، الى جانب قلة الاهتمام بالاطفال داخل الاسرة . ولكن الذى يهمنا هنا انصراف الاسرة عن بذل العناية اللازمة للاطفال ، وظهور مؤسسات متخصصة للقيام بهذه المهمة ، وما ارتبط بهذا كله من مشاكل تعترض حياة الطفل وأساليب تربيته كانت كلها من أهم الأسباب التي دفعت الى زيادة الاهتمام بدراسة هذه المشكلات ، أو الى اعتبار الطفولة والمراهقة كمشكلة من المشاكل التي يجب على المتخصصين في العلوم الاجتماعية والسلوكية ان يعطوها ما تستحقه من جهد وعناية .

وليس المقصود بذلك ان الاهتمام بمشكلات الطفولة والمراهقة لم يظهر الا في القرن العشرين ، اذ الواقع ان حياة الطفل والمراهق كانت تثير دائما قدرا من الاهتمام ، وكل ما نقصده هو ان القرن العشرين شهد تغيرا كبيرا في نوع الاهتمام نتيجة لتلك التغيرات الاجتماعية والاقتصادية . ولقد تجلى ذلك في النظريات الكثيرة والآراء الجديدة المتضاربة التي ظهرت بكثرة منذ بداية هذا القرن وهي نظريات وآراء نجد عرضا لها في الدراسات التي يقدمها لنا الاساتذة الدكتور سيد خيرى والدكتور سيد غنيم والدكتور عبد الرحمن عيسوى ، والتي يعالجون فيها نواحي هامة في التطور الفيزيقي والعقلي والانفعالي لدى الطفل والمراهق . ولقد كان لعلم النفس والتحليل النفسى اكبر الفضل في القاء كثير من الاضواء على هذه الجوانب . ولقد دفعت كتابات فرويد وبياجيه Piaget الدراسات السيكولوجية والسيكوتحليلية في هذا المجال دفعة قوية . بل ان كثيرا من العلماء عكفوا ليس على دراسة الطفولة والمراهقة كمرحلة قائمة بذاتها أو كوحدة متميزة بل على دراسة فترة صغيرة محدودة من هذه المرحلة بقصد التعمق في أسرارها . فقد زاد الاهتمام مثلا بدراسة التطور العقلي لدى الطفل خلال الشهور الستة الاولى من حياته ، واعتمد هؤلاء العلماء في ذلك على ألعاب الطفل باعتبارها تعبيرا رمزيا عن تجاربه وتخیلاته وأحواله الانفعالية . وربما كانت ميلاني كلاين Melanie Klein وهي من تلميذات فرويد - من أهم من عمل في هذا المجال بقصد الكشف عن التطورات التي يمر بها الطفل في هذه المرحلة المبكرة من حياته ، ثم عمل نيكوت Winnicott وهو طبيب أطفال ومحلل نفسي - بعد ذلك على تطوير أفكار ميلاني كلاين ، وآرائها وأساليبها وطرائقها ، بحيث استطاع ان يتغلغل في عقل الطفل في شهره السادس ، وذلك على أساس ان هذه المرحلة المبكرة لها أهميتها القصوى في تكوين الطفل ونموه وتطوره العقلي والجسماني على السواء . فسن الستة شهور تعتبر هي « المرحلة الحاسمة التي يبدأ فيها المخ باستخدام الخلايا العصبية الاضافية التي يحصل عليها في اثناء نموه والتي رفعت الانسان فوق مرتبة باقي الرئيسيات ، وتصبح حاسة اللمس والمناولة الوسيلة المفضلة لادراك العالم الخارجى ... وفي تلك المرحلة فقط يبدأ الطفل في ادراك حقيقة وجود عالم خارجي ، وبالتالي عالم داخلي ايضا وهو ( الأنا ) . اما قبل تلك المرحلة فان معظم الميادين

من الخلايا العصبية للمخ لم تكن قد استخدمت بعد في مجالات التجربة والذاكرة والمنطق . . . » وهكذا . ( انظر موسوعة الهدف ٢٠٠٠ ، صفحة ١٤٧٤ من الترجمة العربية ) . وبصرف النظر عن الأهمية العلمية والعملية لمثل هذه المعلومات ، فالهم هنا هو ان الاهتمام بالطفل وبحياته وتطوره بلغ درجة عالية جدا ، بحيث أصبحت مرحلة الطفولة تقسم الى مراحل فرعية قصيرة وصغيرة تتوفر على دراسة كل منها فريق من العلماء بغية التوصل الى مزيد من المعلومات والتفاصيل الدقيقة ، التي قد يمكن الاستعانة بها في تحديد نوع التربية والطريقة السليمة لمعاملة الطفل ، وتنشئته اجتماعيا في المجتمع والثقافة اللتين ينتمي اليهما .



ولقد أسهم علماء الاجتماع بنصيب وافر في دراسة مشكلات الطفولة والمراهقة ، وان كانت معظم دراستهم تدور بطبيعة الحال حول موضوع التنشئة الاجتماعية ، وبخاصة دور العائلة في هذه العملية المعقدة ، والدور الذي يلعبه الوالدان بالذات في تربية الطفل ، او على الاصح في تطويعه وتشكيله لنمط الحياة في المجتمع الحديث ، وللقيم والقواعد التي تحكم سلوك أعضائه . كذلك اهتم البعض منهم بدراسة العلاقة بين نمو شخصية الطفل او المراهق ، واختلاف الادوار التي يضطلع بها ، والاضاع التي قد تؤدي الى انحرافات السلوك لدى كل منهما . والملاحظ هنا على العموم ان معظم الكتابات السوسولوجية التي تعالج هذه المسائل متأثرة الى حد كبير بنظريات علم النفس والتحليل النفسي ، وان كان ثمة اتجاه قوى الان الى دراسة التنشئة الاجتماعية على انها عملية تفاعل اجتماعي بكل معاني الكلمة ، اذ يتفاعل فيها الاطفال مع البالغين في العائلة وفي المجتمع ككل وفي كل مناشط الحياة . فهي ليست مجرد عملية تلقين او توجيه وتدريب من البالغين للاطفال الذين كانوا يعتبرون مجرد صفحة بيضاء يمكن للآباء ان يسطروا عليها تعاليمهم وتوجيهاتهم التي يتقبلها الاطفال ويستوعبونها ويتمثلونها ، وبحيث تصبغ شخصياتهم بصبغة معينة محددة . ومع التسليم بان عملية التنشئة تهدف في آخر الامر الى تنمية قوى الطفل وملكاته العقلية ، وتعمل على تلاؤمه مع المجتمع وتوجيه طاقته واستغلالها الى ابعد حد ممكن ، وتنمية خلقه وارادته وشخصيته عموما ، وتعريفه كيف يتقبل عادات المجتمع وانماطه السلوكية وأوامره وقوانينه ، فان علماء الاجتماع الان يرون ان هذه العملية لا يمكن ان تؤدي الى ان يفقد الفرد شخصيته وفرديته ، على الاقل لان كل طفل يولد مختلفا عن غيره من الناحية الفيزيائية ، كما يمر بتجارب وخبرات تختلف تماما عن تلك التي يتعرض لها غيره من الاطفال . فكان المسألة - في نظر هؤلاء العلماء - ليست مجرد عملية صب الاطفال في قالب جامد ، وانما للطفل دوره الايجابي الذي يقوم به في عملية التنشئة ، وهو دور يجب ان يدرس عن طريق مقابله بدور البالغين والكبار .

وعلى أية حال فإنه يمكن القول أن علماء الاجتماع في مجموعهم يحرصون في كتاباتهم حول هذا الموضوع على إبراز أثر الظروف والأوضاع الاجتماعية على سلوك الطفل والمراهق ، وتأثيرهما بأعضاء المجتمع الآخرين ، وتأثيرهما فيهم . ومن هنا كنا نجد معظم الكتابات السوسيولوجية تعالج موضوعات مثل أثر العائلة في الطفل ، وأثر المدرسة والعوامل المؤثرة في سلوكهم كالعنف والتسامح في التربية ، وذلك إلى جانب البحوث « التجريبية » التي تعتمد على ملاحظة الأطفال الذين يخضعون لنوع معين من التنشئة كما هو الحال بالنسبة للتنشئة في مؤسسات معينة أو في مستعمرات خاصة ، لها نظمها وقواعدها وقوانينها وفلسفاتها المتعلقة بالتربية وهكذا . وقد أدت هذه الدراسات كلها آخر الأمر إلى ظهور سوسيولوجيا التربية أو علم الاجتماع التربوي ، الذي يحتل في الوقت الراهن مكانة هامة بين فروع علم الاجتماع ، وإن لم يحظ بالاهتمام الكافي في جامعاتنا وبين علمائنا ودارسينا .



وأخيراً فقد أفلح علماء الأنثروبولوجيا في إرتياد مجالات جديدة وطريقة في دراسة مشكلات الطفولة والمراهقة وذلك حين بذلوا كثير من الجهد والاهتمام في التطور الاجتماعي للفرد في المجتمعات التقليدية التي كانت تعرف عمومًا باسم المجتمعات ( البدائية ) وهي تسمية آخذة الآن في الاختفاء نظراً لما تحمله من مدلولات تقويمية . ولقد اتجهت الدراسات والبحوث الأنثروبولوجية عدة اتجاهات ربما كان أهمها الاتجاه الذي يعني بدراسة المراحل الاجتماعية التي يمكن التمييز بينها ضمن دورة الحياة بالنسبة للفرد ، وبخاصة في المجتمعات القبلية التي يعتمد تنظيمها الاجتماعي على عامل السن اعتماداً مباشراً ، بحيث يتوزع جميع أعضاء المجتمع في فئات متميزة كل التمايز ، وبحيث تضم كل فئة منها الأفراد الذين ينتمون إلى مجموعة عمومية واحدة ، ويحتلون بفضل عامل السن مرتبة اجتماعية معينة ، ويمارسون معاً نوعاً محدداً من النشاط الاجتماعي أو الاقتصادي أو السياسي أو الحربي أو الديني يتفق مع عمر أفرادها ، ومع قدراتهم الفيزيائية وخبراتهم في شئون الحياة والمجتمع . ويعرف هذا النظام في الكتابات الأنثروبولوجية باسم نظام طبقات العمر ، على اعتبار أن السن هو العامل الرئيسي أو حتى العامل الوحيد في التفاضل أو التفاوت الاجتماعي ، وبصرف النظر عن الاختلافات والفوارق الأخرى مثل تفاوت الثروة أو غير ذلك . وتعتبر الطفولة والمراهقة في مثل هذه المجتمعات مرحلة عمرية واجتماعية واحدة ، تتميز بارتباط الطفل والمراهق ارتباطاً شديداً بمجتمع النساء ، بحيث لا يسمح لأى منهما في الأغلب بالاختلاط بالرجال البالغين إلا بقدر وحساب ، كما أن الطفل أو المراهق ينتقل إلى مرحلة الشباب والبلوغ التي يمارس أصحابها مهمة الحرب والبطولة والإغارات إلا بعد أن يمر بطقوس وشعائر خاصة تختبر فيها قدراته الجسمية على تحمل المشاق والصمود للصعوبات والقدرة على الحرب ، وهي الشعائر المعروفة في الكتابات الأنثروبولوجية باسم

التكريس التي تتميز بما فيها من قسوة وعنف . فبمقتضى هذه الشعائر ينتقل الفرد رسمياً من مرحلة الطفولة والمراهقة الى مرحلة الشباب والرجولة المبكرة ، كما يدخل اجتماعياً الى مجتمع الرجال وينفصل عن مجتمع النساء ، ويعتبر لأول مرة عضواً كاملاً في المجتمع ككل . وهذا معناه ان مرحلة الطفولة والمراهقة ليست مجرد حالة فيزيقية او فسيولوجية ، وانما هي في المحل الأول مرتبة اجتماعية خاصة اذا عرفنا ان هذه ( المرحلة ) تضم افراداً تتراوح أعمارهم بين سن الولادة ، وسن الخامسة عشرة او أكثر ما دام هؤلاء الافراد لم يتم تكريسهم . ومن هذه الناحية يعتبرون - بصرف النظر عن أعمارهم الفيزيكية التي تقدر بعدد السنين - اقرباً وزملاء في الطبقة ، ويعاملون معاملة واحدة متشابهة ، ويحتلون مكانة اجتماعية مجدداً مع بعض التمييزات الطفيفة داخل الطبقة لا تؤثر في خصائص النظام كنظام . ( انظر في ذلك كله مقالنا عن : « نظام طبقات العمر » - مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ١٩٦٣ ) .

**والاتجاه الرئيسي الثاني** الذي اتجهت اليه بحوث الانثروبولوجيين في دراسة الطفولة والمراهقة ، وافلحوا في الاسهام فيه اسهاماً وافراً هو الدراسات المقارنة التي تعنى بمقارنة العادات والتقاليد المتبعة في معاملة الطفل او المراهق في مختلف الشعوب والثقافات ، وكذلك مقارنة الطقوس المرتبطة بذلك ، واختلاف نظرة المجتمع الى كل منهما ، والمتاعب او المشكلات التي يقابلها كل منهما مع الاهتمام بابرار العلاقة بين المقومات الثقافية وتلك المشكلات .

وربما كانت كتابات عالمة الامريكية مارجريت ميد هي أشهر هذه الاسهامات وان لم تكن أكثرها عمقاً أو أشدها دلالة . فكتابات ميد - كما يقول إيفانز بريتشارد بحق - كتابات « أنثوية بمعنى الكلمة » فيها « كثير من الجدل والاستطراد اللذين يبلغان حد الثثرة » ، كما انها تنزع الى « تصوير الأشياء في صورة زاهية خلابة » . ولعل أفضل مثال لذلك هو كتابها الشهير عن « البلوغ في مجتمع ساموا *Coming of Age in Samoa* » الذي ظهر أول مرة عام ١٩٢٩ واعيد نشره عشرات المرات ، وفيه تقارن بين متاعب المراهقة لدى الفتيان في هذا المجتمع ( البدائي ) وفي المجتمع الامريكي المتقدم الحديث . ويلخص إيفانز بريتشارد الكتاب بقوله - وأنا أنقل هنا عن ترجمتي العربية لكتابه عن « الانثروبولوجيا الاجتماعية » - « الكتاب يهدف في أساسه الى ان يبين ان مشكلات المراهقة - وبخاصة عند الفتيات - التي تعتبر ظاهرة عامة أساسية في الحياة الامريكية لا توجد في ساموا ، وان ظهورها يلزم نوعاً معيناً من البيئة الاجتماعية ، بمعنى أنها لا تنشأ عن الطبيعة ، وانما تنجم عن القيود التي تفرضها الحضارة الحديثة . وعلى ذلك تشرع الدكتورة ميد في دراسة الاختلافات القائمة بين الظروف التي تصاحب مراهقة الفتاة في كلا المجتمعين . وقد اضطررها ذلك الى ذكر كل ما تعرفه عن الوضع الاجتماعي العام للفتاة الساموية . فهي تتكلم مثلاً عن طريقة تنشئتها ونوع الطفولة التي تمر بها والمكانة التي تشغلها في حياة الاسرة والقرية والمجتمع المحلي الكبير ،

كما تتكلم عن علاقاتها الجنسية المتنوعة مع مختلف الشبان . ولكنها تحرص أشد الحرص اثناء ذلك كله على ان تربط هذه المسائل بمشكلة البحث الأساسية لكي تبين مدى تأثير الظروف الاجتماعية في تشكيل شخصية الفتاة المراهقة ، ونوع رد الفعل الذي يصدر عن هذه الشخصية ازاء التغيرات الفسيولوجية التي يحدثها البلوغ .

والنتيجة التي تنتهي اليها مارجريت ميد من هذه الدراسات هي انه لا توجد فوارق بين الفتاة الأمريكية والفتاة الساموية في عملية المراهقة ذاتها ، وانما تكمن الفوارق والاختلافات في الاستجابة لها . فالمراهقة في ساموا تطور رتيب منظم للميسول والاهتمامات ومختلف انواع النشاط ، ولا ينجم عنها أى اجهاد أو كرب أو أزمات ، وبذلك تكون عقول الفتيات بمنأى عن الأهواء المختلفة المتضاربة والصراعات المتعارضة المتباينة ، فلا تراودها التأملات الفلسفية أو المطالب الجامحة التي يصعب تحقيقها . والواقع ان الفتاة هناك لا تطمح في أكثر من أن تعيش لأطول مدة ممكنة قبل زواجها مع أكبر عدد ممكن من العشاق والمحبين ، ثم تتزوج من بعد ذلك في نفس قريتها لتعيش مع أهلها واقاربها وتنجب عددا كبيرا من الاطفال .

وعلى العكس من ذلك تماما تعاني الفتاة الأمريكية المراهقة كثيرا من الارهاصات والتوتر والاجهاد بسبب اختلاف بيئتها الاجتماعية . فماهى اذن الفوارق البارزة الهامة بين الحالتين ؟ تعتقد الدكتورة ميد ان أهم الفوارق يرجع الى انعدام الوجدانات الشخصية والقيم المتصارعة في ساموا . فالفتاة الساموية لا تهتم لانسان معين أو لشيء معين اهتماما بالغا شديد العمق ، كما انها لا تبنى آمالا عريضة على أية علاقة واحدة بالذات . وقد يكون ذلك راجعا الى ان الفتاة لا تنشأ هناك في محيط العائلة الضيق المحصوره، وانما تجد نفسها تتحرك منذ الصغر في محيط الأقارب الواسع الرحب ، حيث تتوزع السلطة والمحبة بين عدد كبير من الاشخاص ، ولا تنحصران في افراد العائلة وحدهم . ولكن الأهم من ذلك هو أن الثقافة السائدة في ساموا ثقافة متجانسة الى حد بعيد . فهم جميعا يتبعون نفس معايير السلوك ، ويعتقدون نفس المعتقدات الدينية ، ويخضعون لنفس القانون الخلقى . وعلى ذلك فليس هناك أى مجال للمفاضلة أو الاختيار مما يقلل فرص النضال والاحتكاك بالآخرين ، ومما يساعد الفتاة المراهقة على تجنب الصراع الداخلي الذي يدور في النفس عادة اثناء عملية الاختيار بين القيم المختلفة ، وما يترتب على ذلك الصراع من سوء التوافق ومن العصابات . اما الفتاة الأمريكية المراهقة فانها على العكس من ذلك تجابه في بيئتها الاجتماعية انواعا عديدة من القيم الاجتماعية المتنافرة ، مما يضطرها الى المفاضلة والى الاختيار . والاختيار هو مقدمة الصراع والنضال ( الطبعة الاولى من الترجمة العربية - منشأة المعارف ١٩٥٨ - صفحات ١٤٣ - ١٤٥ ) .

والاساس القوى الذى تقوم عليه كل هذه البحوث الحقلية العديدة التى يضطلع بها علماء الانثروبولوجيا ويقومون بها في مجتمعات محددة ومعينة بالذات لدراسة عملية التنشئة الاجتماعية



والثقافية ، والتعرف على أساليب التربية والمشكلات التي يواجهها الطفل والمراهق ، ويعتمدون في ذلك على الاتصال المباشر والمعيشة لفترة طويلة من الزمن تتجاوز السنة الكاملة في معظم الأحيان مع استخدام أسلوب الملاحظة المباشرة . فكتابات هؤلاء الباحثين وتقاريرهم هي التي تزود غيرهم من العلماء من أصحاب النظريات بالمعلومات الأساسية التي يقيمون عليها نظرياتهم ويصوغون أفكارهم وآراءهم العامة حول المشكلة . . ولذا كانت هذه البحوث والتقارير الحقلية تحتل مكانة خاصة لدى المهتمين بالموضوع .



كل هذه الدراسات والبحوث والنظريات والآراء المتضاربة تدل على الأهمية البالغة التي تحظى بها الآن مشكلات الطفولة والمراهقة في مجال العلوم الاجتماعية من ناحية ، كما تعكس من الناحية الأخرى مدى الاهتمام العام ، وبخاصة بين الآباء ، بالتعرف على خير الوسائل التي يمكن اتباعها في تنشئة الأطفال والمراهقين ، بحيث يتحقق الهدف من التنشئة ، وهو تنمية مدارك الأطفال والمراهقين وقواهم وملكاتهم ، مع الحرص على تحقيق تلائمهم مع قيم المجتمع وتقاليد . ومن هنا كان السؤال الملح الذي يواجه العلماء والآباء على السواء الآن هو كيف نعامل الأطفال ؟ وما هو الغرض من التربية ؟ وكيف يمكن تحقيق الشخصية السوية ؟ هذه كلها أسئلة لم تكن تتردد في الغلب - على الأقل بنفس هذه الدرجة من الإلحاح - في الماضي . إذ أنه على الرغم من كل ما يقال عن الثورة الصناعية والتغيرات التي أحدثتها في المجتمع فقد كانت هناك في القرن التاسع عشر أوضاع محددة ترسم لكل شخص مكانته ومركزه ودوره وطريقة سلوكه ، سواء ضمن الجماعة التي ينتسب إليها عمرياً ، أو مع الأجيال السابقة واللاحقة عليه . ولقد كانت العلاقات بين الآباء والإبناء بالذات تتصف بالجدية والصراحة التي قد تخفي وراءها كثيراً من الاهتمام والحب الأبوي ، وإن لم يكن الأب يهتم بإظهار ذلك الحب أو التعبير عن عواطفه نحو أولاده ، ويعتبر ذلك نوعاً من التدليل والافساد . ولذا كانت وظيفة التنشئة تنحصر في تشكيل الطفل وتطويعه بحيث يتلاءم مع تلك الأوضاع القائمة . ورغم كل ما يؤخذ على هذه الطريقة من جمود وصرامة فلقد أفلحت - كما يقول درايتزل Hans Peter Dreitzel في أن تنجب رجالاً ونساء لعبوا دوراً هاماً في تاريخ القرن التاسع عشر في أوروبا . كذلك فإنها رغم كل ما يؤخذ عليها كانت تخفي وراءها كثيراً من الاهتمام الحقيقي والحب والتماسك العائلي بحيث كان الطفل يشعر بكثير من الاطمئنان والارتياح والاحساس بالأمن ، وهي كلها عناصر يفتقر إليها كثير من الأسر الحديثة في المجتمعات المتقدمة والصناعية . وهذا لا يعني بطبيعة الحال أنه لم تكن هناك حالات من الانحراف في السلوك ، إذ لكل عصر ولكل مجتمع أسبابه وأوضاعه التي تدفع إلى انحراف بعض أعضائه .

هذه الصرامة في المعاملة يقابلها الآن التسامح والحرية الزائدة التي يلقيها الأطفال والتي تدفع

الكثيرين الى التساؤل الناجم عن الحيرة عن أى الاسلوبين فى التربية هو الصحيح والمجدى ، أو على الأقل الأكثر جدوى ؟ وأين هو الحد الفاصل بين الصرامة الزائدة والحرية الزائدة والذي يمكن أن يؤدى الى خلق الطفل السوى ؟ ومثل هذه التساؤلات تبين لنا أن موقف الآباء من أطفالهم قد تغير تغيراً جذرياً ، وأن الآباء لم يعودوا يأخذون أطفالهم على أنهم مجرد مسألة مسلم بها أو تحصيل حاصل ، وإنما على أنهم مشكلة تستحق التفكير والاهتمام . ويقول آخر لم تعد الأم أو الأب الذى يفشل أحد أطفاله فى حياته يكتفى بأن يندب حظّه الشمس ويشفق على نفسه من سلوك طفله ، بل أصبح بدلاً من ذلك يعيل الى التعرف على أسباب انحراف الطفل أو فشله ، وقد يرد ذلك فى كثير من الأحيان الى نوع المعاملة التى لقيها الطفل . والموقف الصعب الذى يجد البالغون والأطفال على السواء أنفسهم فيه الآن هو كيف يمكن التوفيق أو الاختيار بين الأفكار التقليدية التى نشأت والبالغون يميلون الى فرضها ويؤمنون بجداوها ، وبين النظريات والاتجاهات الحديثة التى تعطي للطفل مكانة واعتباراً لم يكن يتمتع بهما فى الماضى ؟ والمعروف أن التنشئة الاجتماعية هي بالضرورة - ومهما يقل عن الاتجاهات التقدمية فيها - عملية فيها جانب كبير ( رجعي ) أو ( محافظ ) أن صح هذا التعبير لأنها - وإن كانت تهدف الى خلق الشخصية السوية - فإنها تهدف فى الوقت ذاته الى المحافظة على البناء الاجتماعى والثقافى التقليدى حتى يمكن ضمان استمرارية الحياة الاجتماعية عن طريق نقل التراث الاجتماعى والثقافى الى الأجيال التالية . والمعادلة الصعبة هى فى إيجاد وسيلة للتوفيق بين هذين الاتجاهين لضمان الاستمرار مع التجديد ، بحيث يمكن أعداد الطفل لعصر يختلف فى مفاهيمه واتجاهاته وقيمه ونظراته الى الحياة عن العصر الذى يعيش فيه الآباء . أن الوصول الى حل هذه المعادلة الصعبة هو فى الأغلب الوسيلة الفعالة لضمان عدم تمرد الشباب والأجيال التالية ، وهى المشكلة التى تعاني منها المجتمعات الحديثة . ويعرض لنا الاستاذ الدكتور جواد رضا فى دراسته عدداً من اللوحات التى تكشف لنا عن كثير من هذه الأمور .

الآن المشاهد على العموم أن معظم الدراسات التى تعالج هذه المسائل تؤكد موقف الآباء الأكثر تسامحاً ازاء الأطفال ، ويعتبرون ذلك موقفاً صحيحاً يقوم على التقدير الصحيح والفهم الصائب لمشكلات الطفولة والمراهقة . كما يكشف عن استعداد الآباء لمراجعة أنفسهم ومواقفهم من أطفالهم . وهذا هو ما كنا نقصد اليه حين قلنا أن الاتجاه يزيد الآن نحو عدم اعتبار الأطفال عنصراً سلبياً فى عملية التنشئة ، أو أنهم يستجيبون دائماً للمؤثرات الخارجية التى ترد اليهم من البالغين والكبار ، وأن الكبار أنفسهم ليسوا دائماً عوامل ثابتة فى بيئة الطفل الاجتماعية ، ولكنهم خليقون بأن يتغيروا تحت تأثير التحدى الصادر من أطفالهم . ومن الغريب أنه حتى عهد قريب جداً لم تكن معظم بحوث التنشئة الاجتماعية تعتبر الأطفال « كائنات سيكولوجية واجتماعية وتاريخية فى ذاتهم » على ما يقول درائزل ، ولم تكن تعتبر الطفولة تصوراً أو مفهوماً متميزاً فى ذاته ، وأنه لم يساعد على ظهور هذا المفهوم إلا إنشاء المدارس الحديثة بعد التغيرات الواضحة التى طرأت على بناء المجتمع الحديث . كذلك من الغريب أن نجد أنه رغم كل الاهتمام الذى يبديه المجتمع الحديث

بالأطفال والمراهقين ولعمليات التنشئة فإن هذا المجتمع الحديث نفسه يخلق جواً غير ملائم تماماً للأطفال بوجه عام ، لدرجة أن الكثيرين من الكتاب يتشككون فيما إذا كانت هذه المرونة أو هذا التسامح آراء الأطفال ناجم حقيقة عن فهم مشاكل الطفولة والرغبة في العمل على حلها ، والايان بضرورة الاهتمام بمتطلباتها ، أو أنه ناجم عن الشعور بالعجز واليأس والاستسلام للأوضاع الراهنة التي لا يجد الآباء والعلماء لها حلاً بعد أن فقدت المؤسسات والنظم الاجتماعية التقليدية ، وبخاصة الأسرة ، دورها ووظيفتها في تنشئة الأطفال ، وبعد أن أصبحت المدرسة ذاتها تعاني الكثير من المشكلات ، نظراً لأن المدارس في العادة توجه التلاميذ نحو سياسة تربوية محددة ومرسومة ، بدلاً من أن تعمل على الكشف عن القدرات الخاصة بكل طفل وتوجيهها الوجهة الصحيحة للإفادة منهم . إن هذا التشكك وما يتعلق به من تساؤلات كثيرة وما يدور حوله من آراء خليك بأن يجد من علمائنا ومفكرينا ما يستحقه من عناية ودراسة واهتمام ، حتى يمكن أن نتجنب في أساليب ووسائل تنشئة الأطفال والمراهقين في مجتمعاتنا كثيراً من المشكلات التي يعاني منها الآباء والابناء في المجتمعات الغربية الأكثر تقدماً .



## النمو الجسدي في مرحلتي الطفولة

من الطريف أن نجد أن الاهتمام بدراسة الاطفال وخبراتهم وسلوكهم يعتبر مركز جذب لأشخاص عديدين غير أولئك الذين يرتبطون ارتباطا طبيعيا وثيقا بتربية الطفل ، وأهم هؤلاء جميعا الآباء والأمهات، فهم الذين، بحكم حبهم لاطفالهم،، يميلون للملاحظة في ولع واهتمام عاطفى ، ويتتبعون تطور شخصياتهم ، ويلمحون معالم التغير في كل ظاهرة من ظواهر حياتهم ، يشاركونهم في ذلك كل مهتم بعملية التربية والتنشئة لهؤلاء الاطفال كالمدرسين والمدرسات والمربين والمربيات، وغير هؤلاء كثيرون . الا أن هذا الاهتمام الشديد كثيرا ما يجعل ملاحظاتهم ونتائج تتبعهم لما يطرأ على هذه الشخصيات من تغير يشوبها كثير من التحيز والاتجاه الى جانب واحد في أحكامهم لما يلاحظونه ، فغالبية الآباء يلاحظون كل ما يؤيد امتياز اطفالهم عقليا ، ويتذكرون في ذلك كل حادثة صغيرة مرت أمام أعينهم تسير في هذا الاتجاه ، بل وينحون في تفسيراتهم هذا المنحى ، ولهذا فان الاعتماد على تقارير الآباء والأمهات وذاكرتهم المتعلقة بمراحل النمو التي مر عليها اطفالهم ينبغي لدارس نمو الطفل أن يأخذها بحذر شديد ، وان يجمع ملاحظاته من مصادر

متعددة حتى يستطيع المقابلة بين مختلف الملاحظات والذكريات ويخرج بأكبر قدر من الصحة فيما يتعلق بهذه التغيرات .

أما المتخصصون العلميون ، فانهم يهتمون كذلك بدراسة الاطفال في فروع كثيرة مختلفة من فروع المعرفة العلمية ، فانهم بالرغم من أن موضوع دراستهم غالبا ما تكون مشتركة موحدة تنحصر في نمو الطفل وتطوره الا أن كلا منهم ينظر الى هذا النمو من وجهة نظر خاصة ترتبط بناحية تخصصه ، وهذه النظرات المختلفة في تجميعها تعطى الصورة المتكاملة عن عملية النمو في شخصية الطفل جسميا ونفسيا من مرحلة ما قبل الميلاد حتى مرحلة النضج التي يستقر فيها النمو ، بل ويذهب الكثيرون الا أن دراسة النمو لا تتوقف عند مرحلة معينة ، فدراسة المسنين مرتع خصيب في الوقت الحالي للفحوص العلمية الشيقة .

**ولعل أهم هؤلاء العلماء اتصالا بموضوع النمو هو التخصص في علم النفس الارتقائي ،**  
أو سيكولوجية التطور Developmental Psychology أو علم نفس الطفل كما يسمى عادة Child Psychology وبالرغم من أن الدراسة العلمية لهذا التخصص تنصب على متابعة نمو الطفل وتطوره ، الا أنه يستمد خبراته وبياناته التي تخدم أغراضه هذه من فروع مختلفة من فروع المعرفة ، ويبدو ذلك طبيعيا اذا تتبعنا المجموعة الهائلة والمتنوعة من العوامل الداخلية والخارجية التي تحدث وتؤثر في عملية النمو .

فبعض هذه المحددات نستمدتها من علم الوراثة العضوية والوظيفية ، وبعضها الآخر نستمدتها من علم الطب عندما تتعرض للخصائص المرضية والعوامل المؤثرة على صحة الطفل ونموه الجسمي والوظيفي ، ويدخل في ذلك علم وظائف الاعضاء Physiology والتشريح Anatomy وعلم الحياة Biology وأكثر اتصالا من ذلك فروع علم النفس المختلفة كعلم النفس التجريبي Experimental Psychology وعلم النفس المرضي Psychopathology والصحة النفسية Mental Hygiene والتوجيه التعليمي Educational Guidance وغير ذلك من العلوم المرتبطة ارتباطا وثيقا بعلم النفس كعلم الاجتماع Sociology والانثروبولوجي Anthropology وبوجه خاص التربية .

**فدراستنا الحالية لنمو الطفل لا يمكن أن تخلو من التعرض لحقائق مختلفة من هذه العلوم التي ذكرناها وغيرها بالقدر الذي يحتاج اليه توضيح معالم هذه الدراسة .**

وهذه الفروع المختلفة المرتبطة بدراسة النمو تلقى ضوءا هاما على ما يحدث للطفل في مراحل طفولته المختلفة وقد رأينا أن نبدا بمرحلة ما قبل الولادة . فحتى عهد حديث كانت دراسة النمو تبدأ من ميلاد الطفل ، أما اليوم فانه من المعترف به أن هناك مظاهر كثيرة على جانب كبير من الأهمية تؤثر في النمو بعد الميلاد تتم قبل الولادة ولهذا فان تحديد دراستنا في السنوات التي تلي الميلاد تكون بمثابة مشاهدة رواية تمثيلية من منتصفها أو بعد مرور عدد من فصولها . فاذا بدأنا دراستنا من يوم الميلاد أصبح ما تم قبل ذلك مجهولا لنا تماما ، بالضبط كما يحدث في حضور الرواية من منتصفها عندما تغيب عنا أشياء كثيرة عن خلفيات الشخصيات التي تقوم

## النمو الجسمى فى مرحلة الطفولة

بالأدوار المختلفة ، وأنه ليصعب علينا أن نتتبع نموذج النمو والتطور للطفل إلا إذا عرفنا الكثير عنه قبل الميلاد . فلهذا أصبحت دراسة نمو الطفل تبدأ منذ الحمل وتمتد حتى نهاية مرحلة النضج . ولهذا فإن دراسة نمو الطفل ينبغى أن تبدأ من مرحلة ما قبل الميلاد لما لهذا المرحلة من أهمية فى توضيح مظاهر ومفاهيم كثيرة فى عملية النمو ، علاوة على مساعدة ذلك على إيضاح ما يزود به الطفل عند ولادته من إمكانيات جسمية وعقلية يتضمنها مفهوم النمو أو التطور ، وقد رأينا قبل عرض مراحل النمو المختلفة للطفل أن من واجبنا أن نوضح ما نعنيه بمصطلح النمو ، ونعرفه تعريفاً إجرائياً واضحاً ، ثم نعرض أهم الطرق العلمية لدراسة هذه النمو .

ولما كانت عملية النمو خلاصة لتفاعل النضج الطبيعي Maturation مع عوامل التدريب والتعليم Learning من البيئة وجدنا من اللازم أيضاً توضيح هذا التفاعل بشيء من التفصيل قبل عرض المراحل المختلفة لهذا النمو .

وبالرغم من تداخل هذه المراحل المتدرجة تداخلاً كبيراً نظراً لطبيعتها ونظراً لأن النمو فى ذاته عملية متكاملة فإن الدراسة العلمية للنمو تتطلب تقسيمه إلى مراحل متميزة ، ونوضح المعالم الرئيسية لكل مرحلة من هذه المراحل .

ولعل أنسب تقسيم لمرحلة الطفولة ينحصر فى التمييز بين أربعة مراحل مختلفة :

١ - مرحلة ما قبل الميلاد

ب - مرحلة الرضاعة

ج - مرحلة الحضانه

د - مرحلة الطفولة : المبكرة والمتأخرة

ويمكننا أن نحدد هذه المراحل الأربع بأعمار تقريبية متدرجة فنقول ان مرحلة ما قبل الميلاد تتم خلال الشهور التسعة التى يتم فيها نمو الجنين فى بطن أمه منذ تلقيح البويضة حتى وقت الميلاد . أما مرحلة الرضاعة فتبدأ من الميلاد حتى نهاية السنة الأولى تقريباً . وأما مرحلة الحضانه فتتمدد من السنة الثانية حتى نهاية السنة الثالثة . وأما مرحلة الطفولة فتنتهى بمرحلة المراهقة ويمكن أن نحددها بين الثالثة والثانية عشرة تقريباً ، وهناك اختلافات كثيرة وخاصة حول المراحل التى تسبق الطفولة الأولى ( المبكرة ) التى تبدأ من الثالثة .

والمرحلة الأولى تستمر حوالى ٩ شهور أو ٢٨٠ يوماً ، وبالرغم من صغر مدتها إلا أن النمو فيها يتم بفاية السرعة ، وأهم مظهر لهذا النمو هو المظهر الفسيولوجى الذى يتكون خلاله التركيب الجسمى ، أما المرحلة الثانية فهى التى تتضمن انتقال الرضيع الى بيئة مخالفة تماماً للبيئة التى نشأ فيها وتعتبر مرحلة ركود فى نمو الطفل الرضيع ، ووظيفتها أحداث عملية التوافق مع جسم الأم الخارجى ، وتستمر فيها عملية النمو وراكدة حتى تتم عملية التوافق هذه . ووظيفة مرحلة الحضانه تدرج الطفل من الاعتماد على غيره فى قضاء لوازم حياته الى أن يصل



الى القدرة على التحكم في عضلات جسمه ، فيستطيع ان يأكل بنفسه ويلبس ويتكلم ويلعب ، وتعتبر مرحلة الطفولة امتدادا لذلك ، فالطفل الذى تعلم التحكم في عضلاته يتعلم هنا السيطرة على يئته كما يتعلم كيف يتوافق توافقا اجتماعيا ، وهذا يبدأ في سن السادسة تقريبا ، ولهذا يفضل الكثيرون تقسيم هذه الفترة الى فترتين الطفولة الاولى وتنتهى عند السادسة والطفولة المتأخرة وتبدأ بدخول المدرسة . وهاتان المرحلتان هما اللتان يتعلق بهما بحثنا هذا (١) .



### المقصود من النمو :

هناك لفظان يستخدمان بمعنى واحد غالبا ، وهما النمو Growth والتطور Development ونرى منذ البداية التفريق بينهما بالرغم من أنه يصعب الفصل بينهما ، فهما يحدثان معا ودائما ولا يمكن ان يحدث احدهما في غياب الآخر . والنمو يقصد به التغيرات الكمية في اجزاء ووظائف الكائن الحى كزيادة في الحجم والتركيب وزيادة الوزن وزيادة حجم الجمجمة والتغير في وزن الاعضاء الداخلة في بنيان جسمه ووزن وحجم المخ ، وقد ينتج عن ذلك زيادة في قدرة الطفل على التذكر أو التفكير أو الاستدلال أو التعلم أو الادراك ، فالطفل ينمو بهذه الصورة عقليا وجسيميا .

وأما التطور فنقصده به هنا التغير النوعى ، ويمكن ان نعرفه بأنه التتابع المستمر المرتب المتسق من التغيرات والتحولات التى تؤدي في نهايتها الى هدف النضج ، ويقصد باستمرار هذا التتابع في هذا المجال ان التغيرات تسير في اتجاه واحد وهو الاتجاه الى الامام لا الى الخلف ، كما ان تعريفنا كهذا يفترض ان هناك دائما علاقة بين كل مرحلة والمرحلة أو المراحل التى قبلها ، وبالإضافة الى ذلك فان التتابع لا يحدث عن مجرد اضافة بحيث يصبح طول القائمة زائدا عن طولها الاصلى ببضعة سنتيمترات ، أو يصبح حجم المخ أكبر من حجمه الاصلى بقدر من السنتيمترات المكعبة ، ولكن المفروض في التطور ما يحدث من تفاعل ، فهو عملية معقدة متكاملة بين مختلف التركيبات والوظائف ، ولهذا فان كل تغير يعتمد على المراحل السابقة وبالتالي يؤثر على المراحل المقبلة . فالنمو اذن عملية ديناميكية تفاعلية متكاملة ، وينتهى النمو بطبيعة الحال بمرحلة النضج الذى يصل فيه التغير التركيبى نهاية مراحل ، وتستطيع الاعضاء المختلفة القيام بوظائفها على الوجه الاكمل بالمستوى الذى تتيحه له خصائص الطفل وقدراته وامكانياته الجسمية والنفسية ، وبالرغم من أن كل مرحلة من مراحل النمو تقرب الشخص من مرحلة النضج الا أنها في حد ذاتها تعتبر فترة كاملة تعطى دليلا على مدى مطابقة سرعة نمو الفرد بالسرعة الطبيعية واقترب قدرات الشخص وامكانياته الجسمية والعقلية من المعدل أو المتوسط المفروض الوصول اليه في هذا السن المعين في تلك البيئة التى يعيش فيها ، فالسن الاولى التى تظهر للطفل تعتبر دليلا على دخوله مرحلة مميزة من مراحل النمو فهى تدل على الأقل على أنه

( ١ ) الارقام بين القوسين تدل على رقم المرجع في قائمة المراجع في نهاية البحث .

لم يتأخر في عملية التسنين وأن هذه العملية تسير بتقدم طبيعى في حالات وأنه متأخر او متقدم في حالات أخرى .

أن الكائن الحى دائما في تغير مستمر جسميا وعقليا منذ يوم ولادته ( او قبله ) حتى يوم وفاته ، وهذه التغيرات تمر في مراحل مختلفة فقد تكون في بدايتها في أحد الاعمار ، وقد تبلغ اقصاها في أعمار أخرى ، وقد تصل الى نهايتها في أعمار ثالثة .

وهذه التغيرات المختلفة تؤثر على النمو بأساليب مختلفة ويمكن تقسيمها الى أربعة أنواع رئيسية :

١ - **التغير في الحجم** : ففى كل عام كلما ينمو الطفل فان ارتفاع قامته ووزنه ومحيط جسمه يزداد عادة ، كما أن الاعضاء الداخلية والتركيبات الحشوية تنمو في الحجم لتواجه المطالب المتزايدة للجسم . وليس هذا قاصرا على المظاهر الجسمية بل يلاحظ كذلك في الوظائف العقلية كالمحصول اللغوى وقدراته العقلية المختلفة .

٢ - **التغير في النسب** : لا يمكننا ان نعتبر الطفل رجلا صغيرا كما كان يظن سابقا ، فان ابعاد جسمه تتغير مع زيادة النمو ، فنسبة حجم الجمجمة والبطن والساقين بالنسبة الى حجم الجسم كلها لا تستمر ثابتة أثناء عملية النمو بل تتغير من مرحلة الى أخرى ، وكما ذكرنا في التغير في الحجم فاننا نلاحظ هذا أيضا في الوظائف والعمليات العقلية ، وهذا ما يميز كل مرحلة عن غيرها من مراحل النمو ، فنسبة الخيال والعدوان والانانية مثلا تزداد في مراحل خاصة وتقل في غيرها بالنسبة لسلوك الطفل .

٣ - **اختفاء بعض المعالم العضوية** : كشعر الجسم الرفيع الذى يكسو الجلد في الرضيع ، وشعر الرأس الناعم والاسنان اللبنية وبعض الافعال المنعكسة والمناغاة والصراخ وغير ذلك تعتبر من المظاهر الجسمية التى تختفى لعدم الحاجة اليها كلما ازداد الطفل نموا ، ويتبع ذلك اختفاء بعض المظاهر العقلية والانفعالية كحب التملك والاثرة والزهو بالانتصار وجمع الاشياء والمنافسة وغير ذلك وكلها مظاهر لا تثبت مع الطفل بعد ظهورها في مرحلة من مراحل النمو .

٤ - **ظهور بعض المعالم العضوية الجديدة** : وذلك لأن بعض المعالم العضوية او العقلية قد تظهر نتيجة لعملية التعلم ، كما أن عملية النضج Maturatim تدفع ببعض المؤشرات للظهور كظهور الاسنان الثابتة والمعالم الجنسية الاولى والثانية ، وفي العمليات العقلية يمكننا أن نذكر حب الاستطلاع والمعرفة والدافع الجنسي والتأمل والتفكير الدينى وغير ذلك .

**وبوجه عام نقول ان عملية النمو تتضمن عمليتين متضادتين ، اولاهما ينتج عنها اضافة اجزاء ومميزات جديدة ، والثانية تتضمن اختفاء وزوال بعض المعالم القديمة ، وبطبيعة الحال فان عملية الاضافة تزداد اثرا في الاعمار الصغيرة وتبدو اكثر وضوحا ، فهى تساعد على التكوين وملاءمة الصغير للمطالب المتزايدة للحياة المقبلة بينما تزداد عملية الحذف كلما ازداد النمو ودخل الطفل في مراحل جديدة ، ولكن هذا لا يمنع من وجود العمليتين دائما في عملية النمو .**

كما أن بعض هذه العمليات تتأزر في وظيفتها وتسير جنباً لجنب في تأدية وظيفة واحدة ، كما يظهر ذلك في تغير الحجم ونسب وأبعاد الجسم وازدياد الوزن فانه يكون نتيجة عادة لنمو في العضلات والعظام ، وكما يحدث ذلك التأزر في المظاهر البدنية يبدو أيضاً في المظاهر النفسية والعقلية كما يحدث نمو في الذاكرة وفي مستوى الذكاء والقدرة على الاستدلال تبعاً لازدياد نمو الطفل .

ان النمو سواء كان جسمياً أو عقلياً لا يسير بطريقة منتظمة فهو يبلغ أقصى سرعة خلال الأشهر التسعة الأولى قبل الميلاد ( اثناء الحمل ) ، حيث ينمو الجنين من خلية ميكروسكوبية الى طفل يزن ٧ أرطال في المتوسط و ٢٠ بوصة في طول القامة .

وبوجه عام فان النمو تزداد سرعته بدرجة ملحوظة خلال السنوات الأولى من حياة الطفل ، ويبدو ذلك واضحاً اذا قارنا بين الطفل الوليد والطفل الذي يصل عمره الى ثلاث سنوات ، فمثلاً في هذه المدة تجد أن النمو يكون ملحوظاً وواضحاً حتى للوالدين اللذين يقضيان مع الطفل طول الوقت ، وهذا الاسراع في النمو الجسمي يصحبه اسراع في النمو العقلي كذلك ، واما في المرحلة التالية التي تبدأ في سن الثالثة وتنتهي في سن السادسة فان النمو فيها يسير بسرعة كذلك ، ولكن هذه السرعة لن تصل الى السرعة السابقة ، وزيادة عن ذلك فان سرعة النمو تبطئ أكثر بعد السادسة تدريجياً حتى مرحلة البلوغ ، فالطفل ينمو في هذه المرحلة الا أن نموه هذا لا يقاس بالنمو الذي يحدث في السنوات الثلاث الأولى .

وهذا النمو بوجه عام قد لا يلحظه الطفل نفسه ، بل هذا ما يحدث عادة حيث لا ينتبه الطفل لما يحدث بجسمه من تغير الا اذانه به اليه غيره أو سمع تعليقاً عليه ، أما الاطفال الأكبر سناً فانهم يكونون أكثر وعياً لما يحدث في أجسامهم من تغيرات وخاصة في المراحل التي تحدث تغيرات وظيفية كمرحلة المراهقة .

ان معرفتنا للنموذج الذي يتبعه النمو البشري يمكننا أولاً أن نعرف ما نتوقعه من اطفالنا في السنوات المختلفة ، فدراسة النمو وملاحظته يؤدي الى تفهم طبيعة المرحلة وما يحدث فيها من نمو جسمي وعقلي ، وعن طريق التنبؤ مادام الطفل ينمو بأسلوب عادي بوجه عام يستطيع المربي أن يعرف من قبل ما سيحدث له جسمياً وعقلياً فيعد العدة لاستقبال هذا التغير المنتظر . وبذلك لا نتطلب من طفلنا أكثر مما يستطيع أداءه جسمياً أو عقلياً ، ولنضرب مثلاً على ذلك أن استخدام القلم والقبض عليه بأصابع اليد بطريقة يسهل معها توجيهه الوجهة التي يريد بها الطفل تتطلب أن يكون الطفل قد مر بمرحلة معينة يستطيع معها التحكم في أطراف الأصابع وأحداث التأزر بين ثني وتحريك أصابع اليد المختلفة ، وقد تجبر الطفل على هذه العملية قبل أوانها ، ونطالبه بالتحكم فيها وننتهمه بالتأخر اذا لم يستطع إتقانها ، وبالمثل فان ما يحدث من اجبار الطفل أحياناً على التحكم في عمليات النظافة في التبول والتبرز قبل المرحلة العادية

الطبيعية فيه اشعار للطفل بعدم كفاءته للقيام بما كان يجب عليه القيام به مما يسبب له مشكلات انفعالية فى المستقبل ، والطفل فى هذه المرحلة ينظر الى أوامر وتوجيهات والديه على أنها الأوامر الطبيعية للطفل العادى فى نفس سنه وبذلك يحرم الطفل دائما من الحوافز والمشجعات التى تعينه على تحقيق ثمراته نموه. وقد يؤدى هذا به الى مقاومة دائمة لكل من يقلل من شأن قدراته وامكاناته الطبيعية .

**والقيمة التشخيصية الأخرى** لدراسة مراحل النمو ومعدلاته تنحصر فى وضع معايير المعدلات التى يصل اليها الطفل العادى فى مرحلة من المراحل ، فنحن نعلم مثلا أن التسنين الاول يبدأ عند الطفل العادى فى مرحلة معينة ، وأن المشى أو الحبو يبدأ فى المتوسط فى سن متوسط محدد ، فإذا تأخر الطفل فى عملية من عمليات النمو عما يحدث عادة فى الطفل العادى كان هذا نذيرا بتأخر جسمى أو عقلى لدى الطفل ، واستوجب هذا عناية خاصة منا بالطفل ، ومن الطبيعى أن هذا المعدل بالرغم من أنه عام إلا أنه يتغير نسبيا بين الجنسين ، كما يتغير فى كل جنس منهما من مكان الى آخر ، فنعلم مثلا أن مرحلة المراهقة تبدأ فى بعض المناطق مبكرة عن غيرها ، ذلك لأن المعروف أن النمو دالة للسن أى أن ( ن = (د س ) وليس معنى ذلك أنه يتوقف على السن وحده بل يتوقف على عوامل وراثية وبيئية كثيرة يمكن تحديدها الى حد كبير كالمرض والتغذية والعوامل النفسية وغير ذلك ، فإذا حدث لدى الطفل ما قد ادى الى تأخر نموه فى مرحلة معينة كانت مهمتنا بعد ذلك مهمة تشخيصية ، حيث يضع الشخص أمام عينيه جميع العوامل المحتملة ، وبطريق الحذف يستطيع أن يحدد نفسه فى عدد من العوامل القليلة ، وبالرغم من أن هذه العملية التشخيصية تبدو سهلة هينة إلا أنها فى حقيقتها عملية شاقة ، حيث لا تتوفر لدى الاخصائى النفسى عادة المعلومات الكافية التى تساعد على رسم الصورة الكاملة ، ويصبح واجبه اولاً تحديد الناقص ثم كيف يملأ هذه الفراغات الناقصة ، وفى بعض الأحيان لا يساعده التقدم العلمى الحالى لاكتشاف هذه الفجوات ، ويكون السبيل الوحيد الى ذلك هو استخدام البحث العلمى ، وقد يتطرق هذا البحث العلمى الى فروع كثيرة غير علم النفس كالطب والتربية والانثروبولوجى والاجتماع مثلا ، فمن علم الانثروبولوجيا عرفنا الكثير عن أثر نموذج التدريب فى الطفولة على سرعة النمو وطبيعته ، وقد أمدنا علم الاجتماع بحقائق كثيرة عن العلاقة بين حجم الأسرة والعلاقات العائلية وخاصة بين الاخوة مما يؤثر على النمو نفسه ، ولما كانت التفيرات الجسمية والنفسية التى تحدث خلال فترات النمو ترتبط ارتباطا وثيقا بالتفيرات العضوية والوظيفية كان من اللازم دائما أن نلجأ الى الطب وعلم وظائف الاعضاء فى بحوثنا عن النمو ومسببات سرعته ، أما التربية فهى التى تتيح الفرصة لعامل النضج الوظيفى والعضوى لأن يسير فى مجراه الطبيعى ، ويمكننا أن نقبس هنا المعايير الشائعة الاستخدام وهى توضح الامكانيات التى يستطيع الطفل فى كل مرحلة القيام بها .

## أولا - مرحلة الحضانة Infancy والطفولة الأولى Early Childhood ( من الميلاد حتى ٦ سنوات ) •

- القدرة على المشي
- القدرة على تناول المأكولات الصلبة
- القدرة على الكلام
- القدرة على التحكم في التخلص من فضلات الجسم
- ادراك الفروق الجنسية
- احراز الاستقرار الفسيولوجي
- تكوين المفاهيم البسيطة عن الحقائق الاجتماعية
- القدرة على ادراك علاقته انفعالياً بوالديه وأخوته وباقي أفراد مجتمعه .
- القدرة على التمييز بين الصواب والخطأ وظهور ما يمكن ان نطلق عليه الضمير .

## ثانياً - الطفولة المتأخرة ( ٦-١٢ سنة ) Late Childhood

- اكتساب المهارات اللازمة للالعاب العادية
- بناء اتجاهات عامة نحو نفسه باعتباره كائناً نامياً
- تعلم التصرف مع زملائه من نفس عمره .
- ادراك دوره كشخص مذكر أو مؤنث .
- تنمية المهارات الأساسية للقراءة والكتابة والحساب .
- تنمية المفاهيم اللازمة للحياة اليومية .
- تنمية الضمير الأخلاقي وادراك مجموعة القيم الأساسية .
- تحقيق الاستقلال الذاتي .
- تكوين اتجاهات نحو الجماعات والمؤسسات الاجتماعية (٢) .

وقد ذكرنا أن هذه المعايير بغض النظر عن الفروق البيئية والفردية البسيطة نسبياً فهي واحدة وثابتة لجميع الأطفال في كل سن ، وبهذا نستطيع أن نكتشف الانحراف في كل طفل عن هذا المعيار، والبحث بالطرق العلمية عن الجوانب التي أدت إلى هذا الانحراف ، ونعمل على علاجه سواء من الناحية الجسمية أو الانفعالية أو الاجتماعية . وينبغي أن ندرك أن هذه المظاهر المختلفة في كل مرحلة مرتبطة متشابكة بحيث لا يتسنى لنا أن نمزج مظاهر النمو العضوي أو الجسدي عن الانفعالي أو الاجتماعي ، ولنضرب مثلاً بسيطاً على ذلك : لنفرض أن الطفل كان

حجمه في سن معين زائدا عن المعدل بحيث يبدو أكبر من سنه فان مجرد كبر حجم جسمه هذا يجعله يعاني من مشكلات كثيرة انفعالية واجتماعية فهو لا يستطيع أن يتكيف بسهولة مع الاطفال الذين في سنه لانهم يعتبرونه أكبر منهم ، ويجد هو نفسه حرجا في اللعب معهم ، كما أنه لا يستطيع أن يتكيف بسهولة مع الاطفال الذين يناسبونه في الحجم ، ذلك لانهم سيكونون أكبر سنا ولهم ما يناسب هذا السن الكبير من القدرات والميول والاهتمامات ، وهذه بطبيعة الحال لابد وأن تختلف عن خصائصه النفسية والاجتماعية ، مما قد يدفع به الى الميل للعزلة وتجنب الآخرين ، والسبب هنا مشكلة جسمية غاية في البساطة كما تبدو .



### الدراسة العلمية للنمو :

ان بداية الاهتمام بدراسة الطفل لم تأت من اهتمام علماء النفس بالطفل نفسه بل من اهتمامهم بطريقة تربيته ومعاملته المعاملة المناسبة لسنه وتتبع ما يظهر عليه من تقدم أو تأخر لجعل طرق تربيته تمشي مع ما يظهر عليه من هذه المظاهر .

ومن أول المصلحين التربويين كان Johnn Amos Comenius الذي عاش في القرن السابع عشر والذي كان ينادي دائما بدراسة الطفل كما هو لا على اعتبار أنه رجل صغير وقد كتب كتابين أولهما المدرسة في مرحلة الحضانة « الذي نشر في سنة ١٦٢٨ School of Infancy الذي وصف فيه نمو الطفل حتى السادسة من عمره .

وبعد كومنيس ظهر اتجاهان مختلفان في دراسة الطفل : الاتجاه الأول كان متميزا بالمعالجات الفلسفية للتربية ، بينما كان الثاني مباشرا في دراسة الطفل عن طريق الملاحظة . ويمثل الاتجاه الأول لوك Loke في انجلترا وروسو Rousseau في فرنسا ، وبستالوزي Pestalozzi في سويسرا ، وهربارت وفروبل في ألمانيا . وقد كان الاتجاه الثاني أكثر فائدة في دراسة النمو ، ولعل أول خيط في هذا الاتجاه ظهر في سنة ١٧٧٤ وتمثل في مذكرات بستالوزي عن طفلة في سن الثالثة والنصف ، وبعد ذلك في ملاحظات تأيد مان Tidemann التي دونها عن أطفاله ، كما كانت ملاحظات Millicent Skinn التي ظهرت سنة ١٩٠٠ عن نمو طفلة ابنة أختها خلال السنة الأولى من عمرها طريفة للغاية .

وببداية الدراسة العلمية للطفل التي قام بها Stanley Hall في جامعة كلارك Clark في سنة ١٨٩١ اتجهت الدراسات بعد ذلك الاتجاه العلمي ، واتخذت الاسلوب العلمي المبني على الملاحظة الدقيقة المضبوطة ضبطا علميا ، واصبح الاهتمام الاساسي هو دراسة الطفل ذاته في أعمارهِ المختلفة وفي مواقفهِ المتباينة .

ومن ذلك يتضح أن دراسة وتتبع نمو الطفل قد اتخذ أهدافا متعددة ، فبينما كانت الدراسة في أولها تهدف الى النهوض بأساليب تربية الطفل انصرف التركيز الى الاهتمام بالطفل



قبل مرحلة المدرسة بهدف الوصول بتدريبه على العمليات الجسمية والعضوية البسيطة الى اقصى ما يتيح وسائل التدريب ، ثم تركزت الدراسة بعد ذلك في معرفة الامكانيات الطبيعية ( الفطرية ) التي يزود بها الطفل في مراحله الاولى بحكم فطرته وطبيعته ، حتى يمكن معرفة ما يمكننا بعد ذلك اكسابه من مهارات والى اى حد نسير معه في عملية التدريب . كما ان من بين الاهداف الرئيسية التي اتخذتها دراسة الاطفال الصغار اكتشاف مدى صدق بعض النظريات السيكلوجية التي ظهرت في هذا الوقت كنظريات Watson المتعلقة بالانفعالات الفطرية الثلاثة ، او باكتساب الانفعالات عن طريق الاشتراط ، وغير ذلك من الجوانب العقلية من شخصية الطفل ، كثبات معامل الذكاء والعلاقة بين ذكاء الطفل وذكاء والديه ، والعلاقة بين ذكائه ومهنة الوالد وهكذا (٣) .



### طرق دراسة نمو الطفل :

مما سبق يتضح ان دراسة نمو الطفل تنحصر في :

١ - **الملاحظة الحالية لسلوك طفل معين** في مرحلة معينة ، وقد تتسع هذه الطريقة فتتضمن ملاحظة عدة اطفال في نفس المرحلة من العمر ، والخروج بسلوك متوسط تتميز به هذه المرحلة سواء كان ذلك في الجوانب الحسية الحركية ام في النواحي الوظيفية العقلية ام في النواحي الانفعالية .

٢- **استرجاع نتائج ملاحظات سابقة Retrospective Reports** لطفل معين ، والحصول من هذه التقارير على مميزات كل مرحلة مر عليها الطفل .

٣ - **الاستجابات التي يحصل عليها الباحث من استبيان يملأه الوالد او الوالدة او الاخوة** او الافراد الذين يحتكون بالطفل غالبا كالمربية او احدى القريبات .

وسواء استخدم الباحث وسيلة او غيرها من هذه الوسائل فان دراسته لابد ان تكون واحدة من نوعين :

أ - **الدراسة المستعرضة Cross-Sectional** حيث يضم الباحث عدة دراسات تخصص كل منها في جانب معين من جوانب الشخصية ونخرج من هذه الدراسات بمميزات مرحلة من المراحل ، تضم الجوانب الجسمية - الحركية والجوانب الوظيفية والنمو الانفعالي ومختلف مظاهر النمو ، ويتكرر ذلك في كل مرحلة ، وبذلك يخرج الباحث بصور متتابعة لشخصية الطفل ، والمهم في هذه البحوث ان تكون العينات التي تدرس عينات ممثلة تمثيلا احصائيا صادقا لمجتمع الدراسة ، وجميع نتائج هذه الدراسات التي أجريت على عينات مختلفة يمكننا ان نتخلص من الآثار البيئية بقدر الامكان في المجتمع الواحد .

وبالرغم من المزايا العديدة لهذا النوع من الدراسات ، واتباعها المنهج العلمي السليم بقدر الامكان الا أن لها مثالب لا يمكن أن نغفلها ، فهي لا تعطينا الا صورة تقريبية للنمو وتابعه، ولا يمكن أن نصل بها الى صورة دقيقة للنمو في بيئة محددة ، فاذا أردنا أن ندرس النمو الذي يطرا على سن الرابعة عشرة مثلا فلا بد أن تتضمن العينات الأولاد والبنات في أماكن مختلفة قد يختلف فيها النمو الجنسي والعضوي مع ما يتبع ذلك من تغيرات نفسية ، والنتائج التي نحصل عليها في هذه الحالة لا تنطبق على نتائج دراسة النمو لهذه المرحلة في مكان معين ولجنس معين فهي لا تأخذ في اعتبارها الاختلافات البيئية التي تحدث خلال حياة الفرد الواحد من مرحلة لمرحلة أخرى .

كما أنها لا تدلنا على سرعة التغير في مهارة معينة من مهارات الشخصية ، ولتأخذ مثلا مهارة استخدام اطراف الاصابع وتطور هذه المهارة من الميلاد حتى نهاية السنة السادسة فان الدراسة المستعرضة لا تصل في تفاصيلها والدقة في دراستها الى تتبع مظهر دقيق من مظاهر التغير ، كما أن هذه الدراسة لا تدلنا على الوقت الذي يزداد فيه تطور هذه المهارة والفترة التي تبطيء فيها .

ب - الدراسة الطولية Longitudenal وتتضمن هذه الدراسة فحص مجموعة من الاطفال عدة فحوص في فترات مختلفة متتابعة هي اقسام فترة الدراسة التي يخططها الباحث لنفسه قبل بحثه ، وهذه الدراسة اذا توخى الدقة كانت حريصة على الحصول على نفس افراد العينة من الاطفال خلال نموهم ، ولكن الباحث كثيرا ما تضطره ظروف بحثه الى التنازل عن هذا الاشتراط فيأخذ عينات مختلفة في المراحل المختلفة في نفس الوقت الذي يجري فيه البحث مفترضا في ذلك افتراضا فيه مغالطة كبيرة وهي أن العينات المختلفة تعادل في خصائصها نفس العينة الاولى عندما تصل الى نفس سنها ونفس مرحلة العمر التي تمر بها الآن ، وبذلك يتغلب الباحث على عامل الوقت الطويل الذي كان يمكن أن تستغرقه الدراسة الطولية لو سارت كما يجب ، وتضمنت الدراسة نفس العينة في مختلف أعمارها ، وفي هذه الحالة تستغرق الدراسة عشرات السنوات ، وعلاوة على ذلك فان الباحث لا يضمن بقاء افراد العينة تحت سيطرته وملاحظته المضبوطة دون تغير حتى في حالتهم الدافعية وتقبلهم لوضعهم موضع الدراسة طول هذه الفترة .

ولكن هذه الدراسة بالرغم من الصعوبات الإنفة تساعد الباحث على دراسة التغير في ظاهرة أو وظيفة معينة مهما كانت دقتها خلال فترة النمو ، ولهذا فنحن نفضلها ونستخدمها في هذا البحث ، ويعتقد كثير من الباحثين النفسيين أن هذه الطريقة هي المسؤلة عن وجود فجوات في معرفتنا عن النمو في الوظائف المختلفة في مختلف المراحل ، لان الباحث عادة لا يستطيع أن يتتبع النمو خلال كل فترة صغيرة من فترات النمو بل يأخذ دراسته في قفزات زمنية لا بد أن يفصل بينها فترات مهما كانت صغيرة ، هي التي تخرج عن الدراسة ، وتظل هذه الفترة مجهولة مع ما قد يصاحبها من تغيرات قد تكون حاسمة في دراسات معينة .

وبالرغم من أن هاتين الطريقتين هما الطريقتان الرئيسيتان في دراسة النمو فإن كلا منهما قد تتخذ الاساليب العلمية المناسبة للدراسة ، ومن بين هذه الاساليب العلمية : التجريب عن طريق التحكم في العوامل المؤثرة ، وثبتت بعض العوامل وتغير غيرها ، وطريقة التجريب على الحيوان على أساس ما بين نمو الطفل الأدمى والطفل الحيوان من عوامل متشابهة ، أو الدراسة المقارنة بين الإنسان والحيوان في مرحلة معينة من مراحل النمو ، كما يتبع بعض الدارسين طريقة عزل فرد أو أفراد من العينة للتخلص من بعض العوامل البيئية والاجتماعية ، وهذه تتبع بدرجة أكثر مع الحيوان لصعوبة تطبيقها على الإنسان . ومهما كان أسلوب الدراسة فيجب ألا نسقط من اعتبارنا الفروق الواسعة بين تغير الإنسان والحيوان خلال انتقالهما من مرحلة إلى أخرى ، وما قد يتخلل هذا التغير من اختلاف في النضج العضوي والبيولوجي ، وفرص التدريب خلال الحياة وهذا الموضوع هو الذي سنعالجه في النقطة الآتية :



#### النضج والتدريب Maturation and Learning (training)

قد نستنتج مما ذكر عن الأهمية الكبرى للنضج، الذي يتضمن ظهور نماذج سلوكية على الطفل مهما كان أسلوب التدريب الذي يلقاه من البيئة، أن واجب الوالدين لا يزيد عن انتظار حدوث عملية النضج كي تتم في مجراها الطبيعي دون أن نتدخل في استعجالها أو تحويلها ، والواقع يختلف عن ذلك كثيرا فالعوامل البيئية والتدريب الذي يتلقاه الطفل الصغير من بيئته يلعب دورا هاما في عملية النمو فالعمليتان تسيران معا ، ولكن يمكن تمييز أحدهما عن الأخرى ، وعلى المربي فعلا أن يميز بين هاتين العمليتين ، فزراع النبات لابد أن يميز ما إذا كان سبب رداءة النبات راجعا إلى ضعف في البلده أو قلة الرعاية وسوء الظروف البيئية حتى يستطيع تحسين الناتج في المستقبل . ولا يكفي الآن أن نسلم بأن العمليتين تتفاعلان في عملية النمو بحيث نستطيع أن نرجع كل مظهر من مظاهر النمو إليهما معا ، ولكن الأهم من ذلك أن نحدد طبيعة عملهما وإلى أي حد يؤثر كل منهما في نمو الطفل .

ويجدر بنا بادئ ذي بدء أن نبين أن عملهما لا يكون على صورة الإضافة بل التفاعل التام ، بمعنى أننا لا نستطيع أن نقول أن النمو = النضج + التدريب ولكن الأصح أن نقول أن النمو = النضج × التدريب ، وذلك لأنه إذا انعدم أحد الاثرين فإن الناتج ينعدم تماما ويختفى النمو .

فالطفل الرضيع يكون لديه الطاقة الطبيعية لأن يحبو على الأرض في وقت معين ، ولكن عملية الحبو في هذا الوقت لن تتم بنجاح إلا أن وجد الطفل أمامه فسحة من أرض وكانت لديه حرية الحركة في وقت من أوقات نموه ، والطفل تكون لديه القابلية في وقت معين لينطق ببعض حروف ويستخدم حنجرته في اظهار الاصوات ، ولكنه يحتاج في هذا الوقت إلى عملية التشجيع

والتدريب من المحيطين به حتى تتم عملية الكلام والتحدث بطريقة سلسلة وفى تيارها الطبيعى .  
ويمكننا أن نلخص هنا القواعد التى يتم عليها التفاعل بين العمليتين فيما يلى :

( ١ ) ان التدريب الذى يلقاه الطفل من البيئة التى تحيط به هى الوسط الذى تعمل فيه الامكانيات الطبيعية التى يزود بها الطفل والتى تنضج لديه فى سن معين .

( ٢ ) كلما كانت الظروف المادية التى تحيط بعملية التدريب مناسبة أسرع النمو وكانت نتائجه أكثر ضبطا واتقاناً .

( ٣ ) بالرغم من ان عملية النضج تتم طبيعيا فان عوامل التدريب قد تعطل من اثر هذه العملية .

ولكن هذا التعطيل غالبا ما يكون محدودا للتأثير وكامنا ، بحيث اذا أعطيته الظروف المناسبة عادت سرعة عملية النضج الى طبيعتها ، بل قد تعوض الفترة التى أدت الى تعطيلها من عدم اتاحة الظروف المناسبة .

ولقد لخص جيزيل Gesell هذه القواعد فى جملة واحدة حيث يقول (٤) :

« ان النمو الداخلى هبة من الطبيعة ، فنحن يتسنى لنا أن نوجهه ولكننا لا نستطيع أن نخلقه . كما أننا لا نستطيع أن نمنعه بأية قوة بيئية » . ومعنى هذا ان عملية التدريب وما تحدثه من توافق إنما هى محدودة بالخصائص الذاتية والداخلية للكائن الحى الذى ينمو . وينبغى مراعاة هذا فنيا فى عمليات التربية والتدريب والتوجيه التعليمى ، حيث أن قدرا كبيرا من الانسداد لطبيعة الطفل تحدث عندما ندفع بالطفل دفعا لعملية لم يستعد لها ولا تناسب خصائص نموه وامكانياته النفسية فى هذه المرحلة التى يمر بها ، وهذا ما أوضحه جيزيل فى تجاربه العديدة على الاطفال العاديين والتوائم . والقدرات الجسمية الحركية تخضع لهذا التفاعل بين النضج والتدريب ، فبالرغم من أن الاطفال فى بعض البلاد كانوا يقيدون فى حركاتهم برباط محكم اثناء فترات حياتهم الاولى الا أنهم يلحقون بغيرهم من الاطفال الآخرين عندما تترك لهم فرصة الحركة العادية .

واذا قلنا ان التدريب يتيح للامكانيات الطبيعية الفرصة لأن تعمل فى اعلى حدودها فاننا نفترض عادة وجود حد اعلى لكل وظيفة من وظائف النمو يمكن أن تصل اليه ، ولكن هذا افتراض فقط . ولكننا لابد وأن نعترف بأن التدريب له اثره الفعال فى نتائج عوامل النضج ، فالاطفال الذين يربون فى مؤسسات فى سنواتهم الاولى يظهر تأخرهم عندما تحل مرحلة انطلاق القدرة على الكلام حيث يبدو تأخرهم فى هذه المهارة عن الاطفال العاديين بدرجة ملحوظة الى أن يسير تفاعلهم الاجتماعى سيرا عازيا فتتحسن قدرتهم على التعبير والانطلاق اللغوى والى أن يستردوا امكانياتهم الطبيعية فى ذلك .

ولعل النقطة الأساسية فى عملية التفاعل بين التدريب والنمو تنحصر فى عملية التوقيت ، فالتدريب لا يجدى اذا بذل فى مرحلة سابقة على مراحل النضج . فالامكانيات الفسيولوجية

ينبغي أن تكون معدة قبل أن تظهر القدرة العقلية ، ومعنى هذا أنه بالرغم من أن الوظيفة والتكوين الجبلي يعملان جنباً لجنب وفي تفاعل تام إلا أن التكوين الجبلي ينبغي أن يسبب الوظيفة ، وهذا ينطبق على المهارات الحركية ، والمهارات العقلية والسلوك الجنسي على حد سواء . فالأطفال الصغار لا يمكن أن يكتسبوا مهارة مبينة على فعل منعكس شرطى إلا إذا كانت مرحلة النضج في الجهاز العصبي مهية لذلك مهما أكسبناهم من تدريب ، وقدر الرضيع على قبض الأشياء بيديه لا يجدى معها التدريب قبل أن يكون هو معدا لذلك .

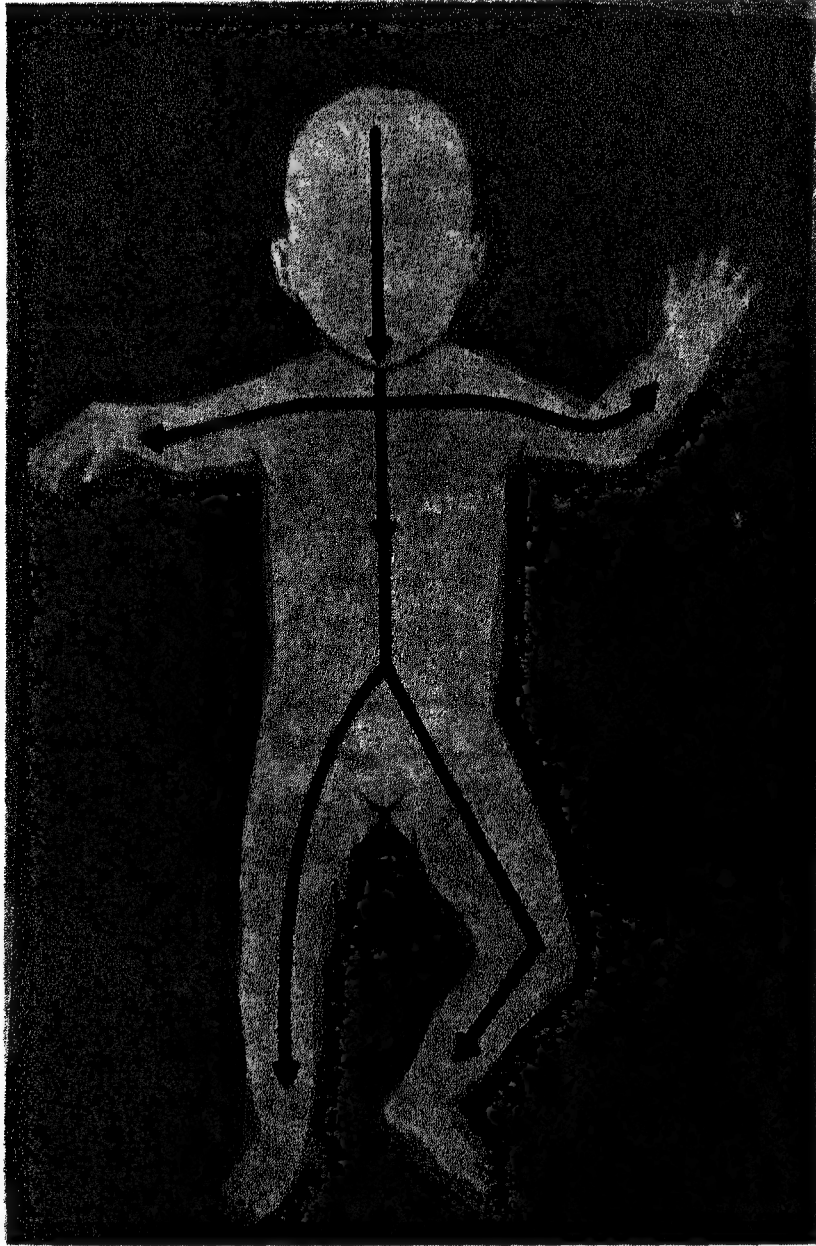
ولعل الصعوبة تنحصر في تحديد السن المناسب تماماً بوجه عام في جميع الأطفال في سر معينة لكي يجرى التدريب معهم ، وذلك لسببين : السبب الأول هو أننا لم نستطع حتى الآن الوصول إلى تحديد علمي للسن الذي يتم فيه نضج الوظائف الجسمية والعقلية وذلك لوجود الاختلافات الواسعة والفروق الفردية والبيئية بين الأطفال ، وثانياً بسبب الأفكار غير الصحيحة التي سادت تربية الطفل فترة من الزمن والتي لازالت مؤثرة على المربين ، ومؤداها أن كل طفل ينبغي أن يكون قادراً على التعلم إذا دخل المدرسة أو اتاحت له فرصة التدريب المثمر . والواقع أن هذا يتوقف على أمور ثلاثة :

( ١ ) اهتمام الطفل بالتعليم واحراز التقدم مهما كان صغيراً .

( ٢ ) مدى بقاء هذا الاهتمام ودوامه لدى الطفل .

( ٣ ) مدى التقدم الذي يحرز نتيجة للتدريب والتعلم ، وهذه العوامل ينبغي أن تكون متوفرة جميعاً عندما تحل مرحلة الوصول إلى النضج في المهارة التي يقوم المربي بتدريبها لدى الطفل .

وبالرغم من الأثر الواضح لتفاعل التدريب مع النضج فإن النمو عادة يتخذ نموذجاً عاماً في تقدمه مع وجود الفروق الفردية التي أوضحناها . والمراحل التي يمر بها النمو في جميع الأطفال لا تختلف كثيراً من طفل إلى طفل في بيئة معينة . ويكون أثر هذا التفاعل في حدود السياق الذي تشترك فيه جميع الأطفال في معاملة . فالنمو مثلاً ينتقل من الخصائص العامة إلى الخاصة ، فالدراسات العلمية قد أوضحت أن الطفل الصغير يتعلم أولاً الكلمات العامة قبل الكلمات الخاصة ، والجنين قبل الولادة مثلاً يحرك جسمه كله أولاً قبل أن يستطيع أن يحدث استجابات محددة ، وحتى في الجانب الانفعالي : فإن انفعالات الطفل الصغير تبدأ عامة ثم تتميز بعد ذلك إلى انفعالات محددة وهكذا . كما أن النمو يبدأ بالأجزاء القريبة أولاً ثم يتدرج إلى الأجزاء البعيدة وهذا ما يطلق عليه Propimodistal Law ويمكن أن نطلق عليه القانون التقاربي أي يبدأ مثلاً من المحور المركزى للجسم إلى الأطراف البعيدة ، وينطبق هذا على النمو قبل الميلاد حيث ينمو الرأس والجذع قبل أن تظهر مبادئ الأطراف وحتى في الناحية الوظيفية فإن الطفل يستخدم ذراعيه جيداً قبل أن يستخدم يديه ، ويستخدم يديه قبل أن يستخدم أصابعه وسيطر على حركاتها .



شكل ( ١ ) قوانين اتجاه النمو ، مأخوذة من ( ١٧ )



ولعل ظهور الأسنان دليل آخر على ثبوت نمط التتابع والسياق في النمو لدى الاطفال فبوجه عام تظهر الأسنان السفلى قبل العليا والقواطع قبل الاضراس وبوجه عام نستطيع أن نقول أن الاسنان التي تظهر أولا للطفل هي أولى الاسنان التي تستبدل بأسنان دائمة وهكذا وهذا ما يجعلنا نستطيع أن نرتب التطور السلوكي في مراحل عامة على النحو الآتي :

من ٤ أسابيع الى ١٦ أسبوعا يستطيع الرضيع السيطرة على عضلاته الحركية .

من ١٦ الى ٢٨ أسبوعا يستطيع الرضيع السيطرة على عضلاته التي تحمل رأسه وتحرك ذراعه ، وهذا ما يجعله يبدأ في محاولة الوصول الى الأشياء البعيدة عن جسمه .

من ٢٨ الى ٤٠ أسبوعا يسيطر على جذعه ويديه ، وهذا يمكنه من الجلوس والقيض والانتقال وتداول الأشياء بيديه .

من ٤٠ الى ٥٢ أسبوعا تمتد سيطرته الى ساقيه وقدميه والى أصابعه . كما أنه يستطيع أن يقف ، وخلال السنة الرابعة يسأل أسئلة كثيرة ، وبدأ في التعميمات وتكوين بعض المفاهيم المبسطة - أما في الحياة اليومية المنزلية ففي هذه المرحلة يبدأ في الاعتماد على نفسه ويزيد هذا الاعتماد حتى نهاية السنة السادسة حين يبدأ بالتعامل مع بيئته حتى نهاية مرحلة الطفولة المتأخرة كما سبق ايضاحه .

**ونظرا لأن هذا البحث يتعلق بالنمو والجسمي لمرحلة الطفولة فإن التركيز سيكون على مرحلة الطفولة المبكرة التي تنحصر بين السادسة والثانية عشرة ومع هذا فلا يمكننا أن نتجاهل المراحل السابقة وهي ما قبل الميلاد ومرحلة الرضاعة والحضانة بالقدر الذي نوضح به تأثير هذه المراحل على مرحلة الطفولة .** إلا أن دراستنا ستكون طويلة فنتبع مظاهر معينة منذ الولادة حتى نهاية الطفولة دون تقسيم لهذه المراحل في هذا التبع ولكننا سنفرد جزءا خاصا موجزا عن مرحلة ما قبل الميلاد نظرا لتمييزها وارتباط مظاهرها ارتباطا يضطربنا الى دراستها كوحدة متكاملة .



### **مرحلة ما قبل الميلاد \***

منذ القدم تداولت أفكار أغلبها خرافية عن تأثير خبرات الأم على تطور الجنين في بطنها، فنواحي الشدوذ الجسمي والعقلي في الطفل كانت تعزى لتأثير دم الأم ، ولكن الآن بعد أن أوضح العلماء أن دم الطفل ودم الأم لا يختلطان، واتضح أن دم الجنين إنما يتكون من الاوكسجين

\* المعايير الخاصة بالنمو المذكورة في هذا البحث مستمدة من

HURLOCK, E.B. : Child development M.C. Graw-Hill Book Company

والماء والمواد الغذائية التي تمتص الى دم الجنين عن طريق تركيب يشبه المصفاة تعدل الرأى السابق . وقد اتخذت دراسة الجنين أساليب متعددة يمكن تلخيصها في :

- ( ١ ) التقارير التي تقدمها الأم عن تحركات الجنين .
- ( ٢ ) صوت ضربات الجنين والحركات التي يمكن تتبعها بأدوات تتصل ببطن الأم .
- ( ٣ ) الملاحظة المباشرة لأجنة أخرجت عن طريق العمليات الجراحية من بطون أمهاتهم .
- ( ٤ ) دراسات الأجنة في الحيوان .

ولسنا بصدد توضيح لعملية الوراثة في هذا المجال لشرح التكوين الكروموزومي للجنين بما فيه من مورثات ، كما لا تعيننا أيضا الأساليب الموضوعية والعلمية لتحديد جنس الجنين قبل الولادة ، ولكن الذي يعنينا ما يتصل بما يكون عليه الجنين عند ولادته مباشرة . فبمجرد أن تلقح البويضة بالحيوان المنوي الذكري يبدأ النمو ويتطور من خلية واحدة الى طفل قد يصل تكوينه الى ٢٠٠ بليون خلية من أنواع مختلفة ، يتم هذا كله خلال تسعة أشهر في المعتاد ، ويظهر التغير من خلية مفردة ليس لها قدرة في ذاتها الى طفل يتكون من عظام وعضلات وجلد وأعضاء داخلية وجهاز عصبي مستعد للعمل حتى قبل الميلاد . وتدل البحوث على أن النمو لا يتخذ فقط صورة ظهور أعضاء جديدة بل قيام الجسم بوظائف جديدة كذلك بحيث يبدو النشاط على الجنين متخذا صورا مختلفة .

وقد وجد أن بعض الأجنة تكون نشطة خلال ٧٥٪ من وقتها ، بينما نجد أن بعضها الآخر لا يملأ نشاطها أكثر من ٥٠٪ من وقتها . وبعض الأجنة تدير رأسها ، وقد بينت الدراسات أن الحركة في كل أجزاء الجسم تحدث في اوقات محددة يمكن التنبؤ بها على قدر من الدقة ، وقد تبين أنه حتى في حالة الأطفال الذين يولدون عن طريق عملية جراحية فإن الحركة تسير تبعاً لنفس النمط وهي تشبه حركة الدودة بالقباض الأذرع والساقين . ويمكن تقسيم حركة الوليد الى نوعين .

- ( ١ ) نشاط عام يتضمن جزءا كبيرا من الجسم .
- ( ٢ ) أفعال منعكسة أكثر تحديدا ، وحركة الوليد تتوقف على عوامل كثيرة فبعد الولادة مباشرة تقل الحركات في الدقائق الخمسة الأولى ثم تزداد تدريجيا حتى الدقائق الثلاثين الأولى . وقد وجد أن الأطفال الذين كانت حركاتهم زائدة وهم في بطون أمهاتهم يكتسبون بعض المهارات الحركية في وقت أسرع بعد ميلادهم عن الأطفال الذين كانت حركاتهم قليلة ، وعلى العكس بالنسبة للتوافق مع البيئة الخارجية فالأجنة الكثير والحركة يجدون صعوبة أكثر من الأجنة قليلة الحركة في توافقهم مع بيئتهم ، وهناك دراسات عديدة تدور حول أثر طريقة الولادة على نمو الطفل الجسمي والعقلي بعد ذلك ولكن أغلبها غير مؤكد ، اللهم الا اذا كانت الولادة العسرة قد أحدثت فعلا تلفا في دماغ الطفل نتيجة استخدام الادوات الميكانيكية في اخراج الطفل . فقد وجد وايل وديفر Wile, S. and R. Davis أن الأطفال الذين يولدون

بمساعداً ميكانيكية تظهر عليهم زيادة الحركة عن المعتاد وعدم الاستقرار ، ثم في كبرهم يجدون صعوبة في النطق وفي تركيز الانتباه أكثر من غيرهم ممن يولدون بالطرق العادية ، إلا أنه لا يؤكد أن هذه النتائج المتأخرة تعزى حتماً إلى أسلوب الولادة ، وبوجه عام فإن مشكلة تلف الدماغ أثناء الولادة ليست شائعة لدرجة تستحق معها معالجة نظرية خاصة . فنسبة من يولدون بتلف في أدمغتهم لا تتعدى ٧٠ ٪ من الأطفال الأحياء .

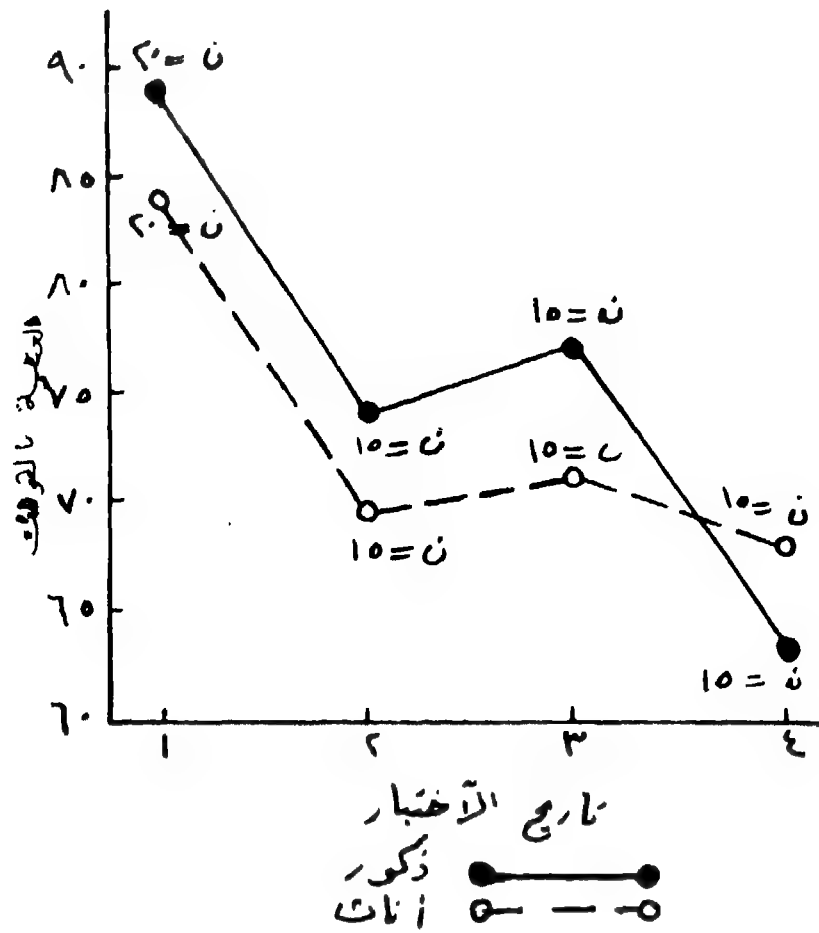
ومن المهم أن نشير هنا إلى أن نوع تغذية الأم وكمية ما تتناوله من غذاء يؤثر في حجم المولود ، فهناك علاقة بين حجم المولود وكمية البروتين الذي تتناوله الأم أثناء الحمل كما ظهر لدى كثير من الباحثين ، كما أن ميرديث Meredith يشير إلى أن المولود الأول يكون أصغر حجماً من المواليد بعد ذلك (٥) .

أما عن نشاطه فإن حركاته تكون عشوائية سواء كانت حركات كلية أو جزئية ، فإذا استثير أى جزء من الجسم في النوع الأول من الحركات فإن الجسم يتحول كله كجزء واحد ، وقد يكون أكثر شدة في الجزء المستثار . والحركة في هذه الحالة تكون غير متناسقة ويكون أكثر أجزاء الجسم نشاطاً هو الجذع والساقان ، وهناك فروق فردية بين الأطفال حديثي الولادة في كمية هذه الحركة . أما النوع الثانى فيتمثل في حركات خاصة كالتركيز البصرى على الضوء ، والحركات التلقائية للعينين ، والحركات المنتظمة للفم ، والتثاؤب ، وتحريك ورفع الرأس ، والحركات العشوائية لليدين والساقين ، ومد الذراعين والقدمين .

وعند الميلاد تكون أعضاء الحس مستعدة للعمل ، إلا أن بعض هذه الأعضاء تكون أكثر اكتمالاً ونشاطاً من غيرها ، فحاسة الشم والذوق والاحساسات الجلدية ( كاللمس والضغط والالام والحرارة ) كما أن الاحساسات العضوية ( كالجوع والعطش ) كل هذه تكون أكثر استعداداً للعمل قبل غيرها ( مثل النظر والسمع ) التى تتأخر قليلاً ، كما أن الاحساس بالالام يزداد بسرعة بعد الميلاد بسرعات مختلفة في مواضع مختلفة من الجسم ، فعتبة الالام تكون أقل في الرأس عنها في الأطراف ، وهناك فروق فردية أيضاً لدى الأطفال حديثي الولادة للاحساس بالالام كما يتضح من شكل (٢) .

تلك باختصار أهم المظاهر التى تهتمنا فى دراسة هذه المرحلة التى تقودنا بعد ذلك إلى دراسة الطفولة بمراحلها ، ولن نقسم الدراسة تبعاً لهذه المراحل ، متبعين فى ذلك الطريقة العرضية بل نفضل فى هذه المعالجة الطريقة الطولية ، فسنتناول المظاهر والمهارات التى تظهر على الطفل واحدة واحدة متتبعين تطورها منذ ولادته حتى نهاية طفولته ، مبيينين السنة التى يظهر فيها كل تغير حتى تتضح معالم التطور الذى يحدث فى هذه الامكانات كل على حدة وستدخل فى هذه الدراسة مرحلتا الرضاعة والحضانة ، دون الحاجة إلى فصلها وتمييزها وسنطلق على هذه المراحل معاً الطفولة المتقدمة والمتأخرة مندمجتين ، فتمتد الدراسة فى هذا الجزء لتشمل حياة الطفل من الميلاد حتى نهاية السنة الثانية عشرة .

النمو الجسمي في مرحلة الطفولة



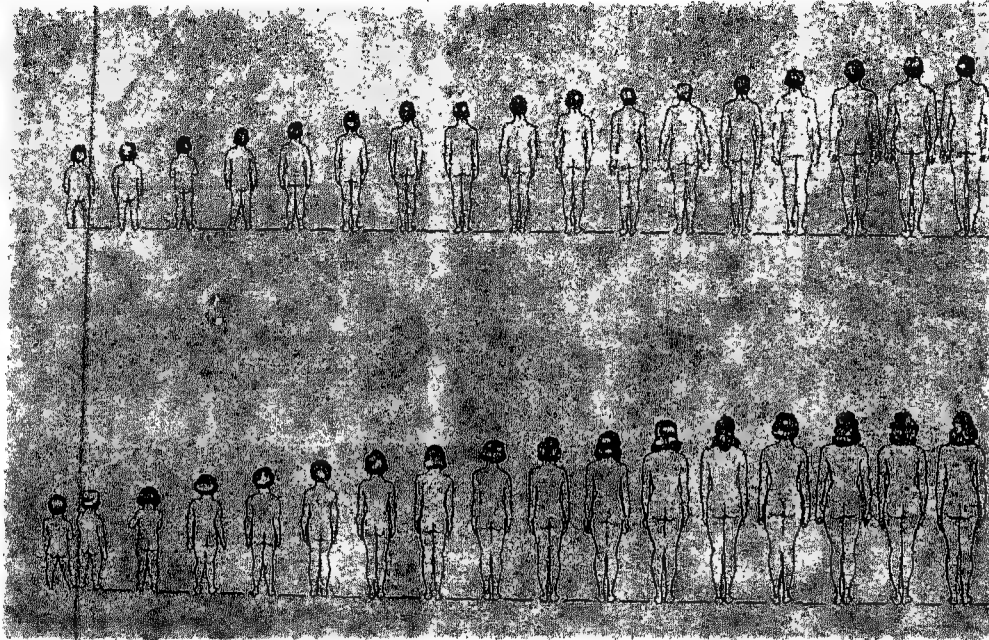
شكل ( ٢ ) الفروق الفردية في محتويات الالحم عند الرضع الذكور والإناث مأخوذ من ( ١٩ )

## ( الطفولة المتقدمة والمتأخرة )

**دورات النمو :** ينمو الطفل عادة في دورات ولا ينمو بانتظام ، فالطفل مثلاً يزداد وزنه عدداً ثابتاً من الأرباط شهرياً ، أو يزداد طوله عدداً من البوصات بانتظام في كل فترة . ولقد بينت دراسة النمو أن هناك أربع دورات للنمو اثنتان منها تتميزان بنمو بطيء والاثنتان الأخرى تتميزان بنمو أسرع من ولادة الطفل حتى استقرار نموه في نهاية مرحلة النضج . وتتم منها مرحلتان حتى نهاية الطفولة المتأخرة . فمن وقت ميلاد الطفل إلى نهاية السنة الثانية تزداد سرعة النمو، يلي ذلك فترة من النمو البطيء تتم في نهاية مرحلة الطفولة المتأخرة حوالي السنة الثانية عشرة .

وينطبق هذا على النمو بوجه عام كما ينطبق على الأعضاء الخاصة وأجزاء الجسم المختلفة ، فالنمو بها يتم على دورات منتظمة وثابتة كذلك .

فلكل عضو أو جزء من الجسم فترة خاصة من النمو السريع أو البطيء ، وكل منها يصل إلى حجمه الناضج في وقت خاص به وهذه الظاهرة يطلق عليها « النمو المنفصل Asynchronous growth » وبالرغم من أن هناك معامل ارتباط موجب بين نماذج النمو في الأعضاء المختلفة أو في العظام فإن في كل مجال من مجالات جسم الطفل تباين كبير في سرعة وبطء النمو



شكل ( ٣ ) مميزات الفروق الجنسية في النمو الجسمي مأخوذة من ( ٧ ) ويتضح في الشكل دورات النمو في الجنسين

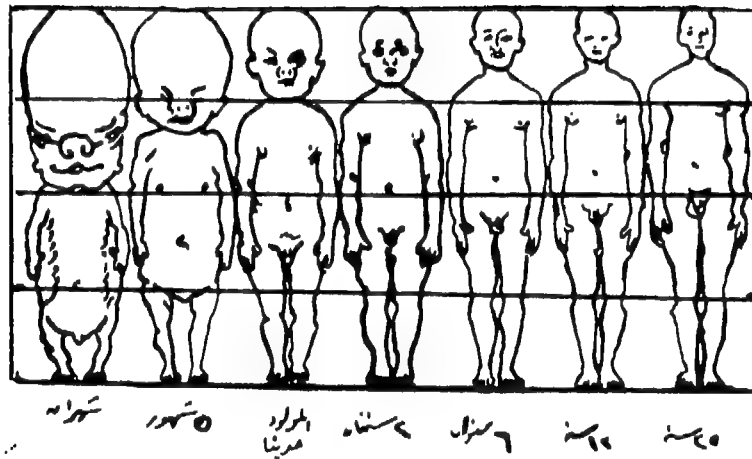
فى اية مرحلة من مراحل الطفولة . ويبدو هذا بوضوح اكثر فى مرحلة المراهقة كما يتضح من شكل (٤) .

ولقد اوضحت منحنيات النمو المتعلقة بطول القامة والوزن أنه اذا استثنيا السنة الاولى من العمر فان نمو الوزن يسير بسرعة اكبر من نمو الطول كما يتضح من شكل (٥) . وفى المراحل الأخيرة من الطفولة ( الطفولة المتأخرة ) فان الاطراف تنمو أسرع من الجذع ، لدرجة أن الطفل فى هذه المرحلة يبدو وكأنه لا يتكون الا من يدين ورجلين .

وتبدو قاعدة النمو المنفصل أيضا فى الوجه، حيث ينمو الجزء الأسفل أسرع مما ينمو الأعلى ، وخاصة بين سن الخامسة والثامنة من عمر الطفل . كما بينت بحوث دجنز Duggins التى نشرها سنة ١٩٥٠ أن شعر الرأس يزداد حجمه بانتظام خلال السنوات الثلاث الاولى من عمر الطفل ، ثم يسير النمو بدرجة ابطأ بعد ذلك (٦) .

كما أن هذه القاعدة تنطبق أيضا على العضلات والعظام والرئتين ، حيث تزداد نموا حتى مرحلة النضج بما يقرب عشرين مرة عن حجمها الاصلى ، بينما نجد أن العينين وحجم المخ وبعض الاعضاء الاخرى التى تكون اكثر نضجا فى وقت الميلاد لا تزيد كثيرا عن حجمها خلال مراحل النمو .

وبالاضافة الى قاعدة النمو المنفصل نجد قاعدة أخرى تسير فى اتجاه عكسى وهى قاعدة « اتجاه النمو » Developmental Direction فهناك اتجاه عام لنمو الوظائف والاعضاء المختلفة ، ففى جميع اجزاء الجسم نجد أن التغيرات فى اجزاء الجسم لها قاعدة معينة أيضا ، فالتغيرات فى نسب الجسم تكون طفيفة خلال الاشهر الستة الاولى من حياة الطفل ، ومن



شكل ( ٤ ) تطور ابعاد الجسم من الميلاد حتى النضج مأخوذة من ( ١١ ) ويتضح فيه ببطء نمو حجم الرأس وسرعة نمو الاطراف

هذا الوقت حتى نهاية النضج نجد أن حجم الرأس ينمو ببطء والاطراف تنمو بسرعة والجذع ينمو بسرعة متوسطة كما أن المخ وملامح الوجه تنضج وتصل الى نهاية تغيرها في الحجم قبل ان تصل باقى الاعضاء وأجزاء الجذع والاطراف الى هذه المرحلة من نهاية النمو .

ولنتناول الآن نمو أجزاء الجسم ومعاله بشئ من التفصيل واحدة واحدة من وقت الميلاد حتى نهاية الطفولة المتأخرة دون ان نهتم بالتقسيمات الداخلية في هذه الفترة حتى تتضح وحدة النمو وتكاملها في هذه الفترة التى تعتبر وحدة أساسية في حياة الانسان ونفصلها فيما يلى :

أ - حجم الجسم وطول القامة والوزن .

ب - نسب الرأس والوجه .

ج - نسب الجذع .

د - نسب الذراعين والساقين .

هـ - العظام والعضلات .

و - الاسنان .

ز - الجهاز العصبى .

#### أ ( ١ ) حجم الجسم : طول القامة والوزن

يتحكم في نمو حجم الجسم الهرمون الخاص بالنمو Growth Hormone الذى يفرز من الفص الداخلى للغدة النخامية . فاذا كان افراز هذا الهرمون بدرجة معتدلة وفي الوقت المناسب فان حجم الجسم ينمو بدرجة معتدلة ويصبح الجسم عاديا مناسباً لمرحلة النمو التى يمر بها الطفل ، أما اذا قل افراز هذه الغدة من المعتاد فان نمو حجم الجسم يتوقف قبل ان يصل الى نهايته المعتادة ولا يصل الطفل الى الحجم الذى تؤهله له امكانياته الوراثية ، أما اذا زاد افراز هذ الهرمون فان النمو يزداد عن طبيعته . ولا يتوقف حجم الجسم على هذا الافراز وحده بل يتعلق كذلك بافرازات غدد اخرى كالفدة الدرقية وغيرها .

أما فيما يتعلق بطول القامة فانه بالرغم من الاختلافات الواسعة التى توجد بين طول قامة الاطفال في مرحلة معينة فان هناك نموذجات تشابه فيه جميع اطفال المرحلة الواحدة . ويمكننا أن نضع هذا النموذج في صورة معدلات نيعطينا صورة واضحة للنمو العادى للطفل العادى . فالمولود في وقت ولادته يبلغ بين ١٩ ، ٢٠ بوصة ( نصف متر تقريبا ) في طول القامة ، واثناء السنتين الاوليين تزداد سرعة نمو طول القامة حتى يصل في الشهر الرابع الى ٢٣ بوصة أو ٢٤ بوصة ( ٦٠ سم تقريبا ) وعندما يصل الطفل الى الشهر الثامن يصل

طول القامة الى ٢٦ أو ٢٨ بوصة ( ٦٥ - ٧٠ سم ) . وعند تمام السنة الاولى يرتفع الطول الى ٢٨ - ٣٠ بوصة ( ٧٥ سم تقريبا ) . وفي نهاية السنتين يصل طول القامة الى ٣٢ - ٣٤ بوصة ( ٨٥ سم تقريبا ) . حتى يصل الى سن الخامسة يرتفع طول القامة الى ضعف ماكان عليه وقت الميلاد ( متر تقريبا ) ومن ذلك الوقت حتى مرحلة المراهقة نجد ان طول القامة يزداد ببطء بمعدل ٣ بوصات فى كل سنة . ومن الطبيعى ان يختلف طول القامة فى البنين عنه فى البنات ، فبما ان مرحلة المراهقة تبدأ فى البنين متأخرة عنها فى البنات قليلا ( قد يكون الفرق ستة اشهر ) فان طول قامة الولد غالبا ما تقل بوصة أو نصف بوصة عن البنت العادية ، كما ان هذه المعايير لابد وأن تختلف باختلاف البيئات ، فقد تنخفض قليلا فى البيئات العربية عنها فى البيئة الامريكية التى أجريت فيها هذه البحوث ، فالمنحنيان المرسومان فى شكل ( ٥ ) يمثلان تدرج الوزن والطول لاحد الاطفال الامريكيين .

والتنبؤ بطول قامة الطفل يمكن احرازه بقدر لابس به من الدقة اليوم باستخدام الاشعة السينية لطول العظام ، وبالإضافة الى ذلك فان قامة الطفل تميل دائما لان تزداد زيادة مرتبطة بطول قامة الوالدين ، وبذلك نجد ان طول قامة الوالدين تصلح فى التنبؤ بطول قامة الطفل . وقد وجد بايلى Bayley أن معامل الارتباط بين طول قامة الطفل وطول قامة والديه يزداد كلما نما الطفل وازداد عمره ، وهذا يزيد من قيمة التنبؤ مع ازدياد مرحلة نمو الطفل ( ٧ ) .

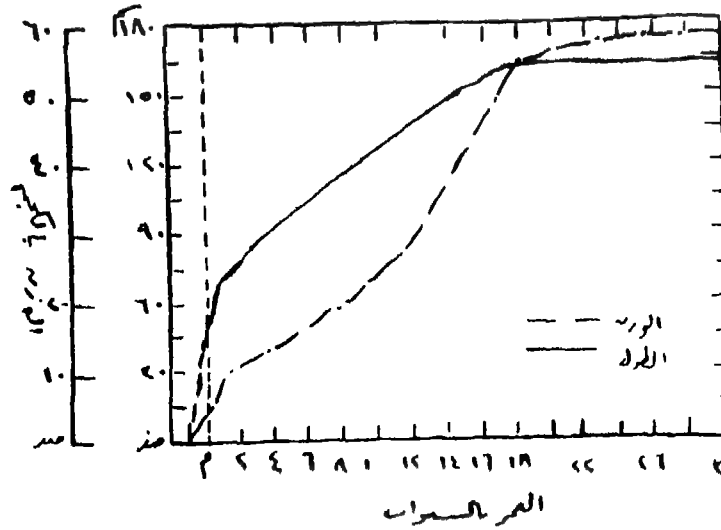
اما عن الوزن فان وزن المولود عند الميلاد يتراوح بين ٦ و ٨ أرطال ( مايعادل ٣ او ٣ ١/٢ كيلو جرامات تقريبا ) ، وقد يقل الوزن كثيرا عن ذلك فى حالة بعض الاطفال ، فقد يصل الى نصف ذلك بينما قد يصل البعض الى ضعف ذلك ، ولكن هذا الاختلاف فى وزن الاطفال قد يسير بنفس النظام بعد ذلك . ففي نهاية الشهر الخامس نجد ان الرضيع العادى لا ينحصر نموه فى تعويض الوزن الناقص اثناء الميلاد بل يستطيع ان يضيف عليه بقدر اضافى من النمو ، ففي نهاية الشهر الرابع نجد ان وزن الرضيع العادى يعادل ضعف وزنه عند الميلاد . وفى نهاية العام الاول نجد ان الوزن قد بلغ ثلاثة اضعاف هذا الوزن عند الولادة . وفى خلال العام الثانى والثالث نجد انه يكتسب من ٣ الى ٥ أرطال سنويا ، الا ان الوزن بعد السنة الثالثة يتزايد ببطء نسبيا الى ان يبلغ الطفل بداية المراهقة ، ففي نهاية السنة الخامسة ينبغى ان يصل وزن الطفل الى خمسة اضعاف وزنه عند الميلاد ، وفى بداية المراهقة او عند نهاية مرحلة الطفولة المتأخرة يتراوح الوزن بين ٨٠ و ٩٠ رطلا ( مايقرب من ٤٠ كيلو جراما ) .

يزداد وزن البنت قليلا عند بداية المراهقة أو نهاية مرحلة الطفولة المتأخرة ، حيث تزن فى المتوسط ٨٨ رطلا بينما يقل الولد العادى أقل من ذلك بثلاثة أرطال تقريبا .

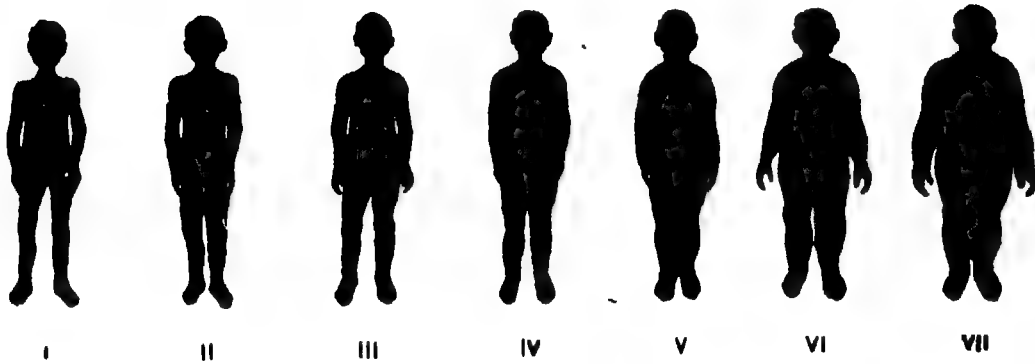


والمعايير التي توضع لكل طفل في أية مرحلة تتوقف الى حد كبير على البنيان الجسمي Body built ويمكن تقسيم هذا البنيان الجسمي الى ثلاثة انواع :

- ١ - النوع المكتنز Endomorph ويتميز بجسم زائد السمنة .
- ٢ - النوع المفتول Mesomorph ويتميز بجسم ثقيل ومتين .
- ٣ - النوع الدقيق Ectomorph ويتميز بجسم طويل ملتف ذي عضلات ملتفة رفيعة نسبيا وعظام طويلة ورفيعة .



شكل ( ٥ ) منحني نمو طول القامة والوزن . مأخوذة من ( ١٨ )



شكل ( ٦ ) انواع البنيان الجسمي مدرجة ( I ) النوع الدقيق جدا ( II ) النوع الدقيق ( III ) النوع الدقيق نوعا ( IV ) النوع المفتول نوعا ( V ) النوع المكتنز نوعا ( VI ) النوع المكتنز ( VII ) النوع المكتنز جدا الرسم مأخوذ من ( ١ ) .

وازداد الوزن اثناء النمو لا يتوقف على ازدياد نسبة الدهن في الانسجة بل يتوقف أيضا على ازدياد حجم العظام وانسجة العضلات . اما في مرحلة الحضانة فان الازدياد في الوزن يرجع اساسا الى ازدياد الانسجة الدهنية ، نظر الازدياد كمية الدهن في اللبن الذي يعتبر الوجبة الاساسية في هذا السن ، وكلما نما الطفل وتقدم في مراحل نموه فان وزنه يرجع الى نسبة العظام والعضلات اكثر من الانسجة الدهنية . وفي المراحل المتأخرة من الطفولة تقل أهمية الانسجة الدهنية عن ذلك حتى تصبح مسئولة عما يقرب من ٢١ الى ٢٩٪ من الوزن الكلي للطفل ( ٨ ) .

### ب - نسب الرأس والوجه :

ينمو حجم الرأس بسرعة أقل نسبيا من باقي الجسم منذ ولادة المولود . فعند الميلاد نجد ان طول الرأس يبلغ ٢٢٪ من طول الجسم كله ، فاذا بقيت النسبة كما هي لأصبح طول الرأس في نهاية النضج ما يقرب من ١٦ بوصة بدلا من ٨ او ٩ بوصات كما هي في الواقع . فمن وقت الولادة الى نهاية النضج نجد ان طول الرأس يبلغ ضعف ما كان عليه عند الميلاد بينما يبلغ طول القامة ما يقرب من ثلاثة أمثال ما كان عليه ، واذا رجعنا الى مساحة الرأس وقت الميلاد وجدنا ان المساحة الكلية للرأس تبلغ ٢١٪ من المساحة الكلية للجسم ، بينما تصل نفس النسبة الى ١٣٪ بعد خمس سنوات و ١٠٪ عند نهاية مرحلة الطفولة المتأخرة ، واذا فحصنا أبعاد الرأس وجدنا أن مؤخرة الرأس تكون أكبر حجما من الجزء الوجهي من الرأس وتكون النسبة بين عرض الرأس وطوله أكبر منها في الاطفال عن الكبار ، فعرض الرأس يكون قد وصل الى نهاية نموه عندما يصل الى الثالثة من عمره ، ولكنه يستمر في الزيادة في الطول حتى بعد نهاية مرحلة الطفولة المتأخرة .

والنموذج الذي تتبعه زيادة الرأس طولا وعرضا لا يختلف في البنات عنه في الاولاد ، ولو ان رأس الولد يكون عادة أكبر حجما قليلا من رأس البنت في جميع مراحل النمو تقريبا .

ولنتناول الآن نسبة الوجه بشيء من التوضيح : نلاحظ ان الجزء الاسفل من الرأس اثناء فترة الحضانة ومرحلة الطفولة الاولى يكون صغيرا وناقص النمو ، ويرجع ذلك أساسا الى صغر أسنان الطفل الصغير ، وتزداد نسبة الهيكل الوجهي الى الجزء الخلفي من الرأس من بداية الولادة حتى نهاية السنة الثامنة ، وفي هذه السن يختفي مظهر الطفولة الاولى نتيجة لذلك ، حيث تحل مرحلة نمو سريع بين سن الخامسة والثامنة وخاصة بين الاولاد أكثر من أي وقت آخر . ولولا حدوث هذا التغير في نسبة الوجه لأصبحت العين في منتصف الوجه .

وبانتقال الطفل من مرحلة الرضاعة الى مرحلة الاسنان الدائمة تزداد الموازنة بين الفكين العلوي والسفلي ، وتصبح أسنان الفكين أكثر انطباقا ، وهذا يؤثر بطبيعة الحال على شكل الوجه في الطفل ، وسوء الموازنة بين الفكين قد ينتج من عدم انتظام في نمو الفكين أو الاختلاف بين حجم الاسنان العليا والسفلى ، أو عن طريق مص الاصابع وخاصة قبل سن الخامسة ، أو التنفس عن طريق الفم أو الضغط على الدقن وخاصة في النوم على الوجه أو عض اللسان في مراحل الرضاعة .

وقد يؤثر سوء الموازنة بين الفكين على طريق المضغ عند الصغير وبذلك يؤثر على عملية الهضم، وبالرغم من أن هذا المظهر قد يتحسن مع تقدم النمو إلا أن العلاج التصحيحي قد يكون لازماً في مثل هذه الحالات حتى تنمو لدى الطفل معالم صحيحة للوجه مع وجود الأسنان والدقن في نسبها المعتادة، وخطوطها المعتدلة.

ويتقدم النمو تحدث تغيرات في معالم الوجه وشكله، فمنذ البداية تكون مقدمة الوجه كبيرة مستديرة وبارزة، ثم تصبح مسطحة تدريجياً، وتقل في الحجم بالنسبة إلى باقي الوجه حتى يصل الطفل إلى الخامسة من عمره، وتبلغ العينان حجمهما الأقصى كلما اقترب الطفل من نهاية مرحلة طفولته المتأخرة، وتتباعد العينان بعضهما عن بعض، كما أن الشفتين الرفيعتين تزدادان امتلاءً حتى تصلان إلى شكلهما الثابت عندما ينضج الطفل جنسياً.

ولعل الأنف هو العضو الذي يبدو في الطفولة أقل تناسبا عن باقي أجزاء الوجه، فهو يكون في البداية صغيراً وأكثر انبساطاً وتسطحاً على الوجه، ومن سن الخامسة إلى العاشرة ينمو بسرعة أكبر من أي جزء آخر بالوجه، وينتج عن ذلك أن الأنف هو أول أجزاء الوجه التي تصل إلى نهاية نموها، وهذا يحدث في حوالي الرابعة عشرة.

ونلاحظ أنه كلما نمت أعضاء الوجه وقربت من نهاية نضجها يزداد الوجه تحديداً وتثبت ملامح الوجه مع تقدم النمو (١٠ و ٩). (راجع شكل (٤) في هذا البحث).

### (ج) نسب الجذع

أن زيادة وزن الطفل أثناء نموه تؤدي طبيعياً إلى صعوبة اتزان الجسم ويجب العمل على تخفيفها قبل أن يتعلم الجلوس أو الوقوف أو المشي، فكلما كبر الطفل فإن التغيرات في نسب الجسم اللازمة لحصوله على الاتزان المناسب تتحقق عن طريق استطالة الجذع والساقين والرقبة، وإذا وصل الطفل إلى سن السادسة فإن طول جذعه وعرضه يصل إلى ما يقرب من ضعف طوله وعرضه عند الميلاد، ومنذ ذلك الحين حتى البلوغ فإن طول الجذع يزداد بما يقرب من ٥٠٪ مما كان عليه، ورقبة الطفل في مرحلة الرضاعة تكاد لا توجد، حيث يستند رأسه تقريباً على كتفيه، وبالتدريج في مرحلة الطفولة الأولى تظهر له رقبة قصيرة ممثلة تتصل بكتفيه المنحدرين. وحوالي سن الخامسة تبدأ القبة في الاستطالة وتبدو أكثر استدارة، بينما يأخذ الكتفان في أن يكونا أكثر عرضاً وأكثر ثباتاً، وكلما انخفض الكتفان مع استطالة الرقبة فإن وزن الطفل يزداد تناسقاً وتوزعاً على أنحاء جسمه.

كما أن شكل الجذع أيضاً تحدث به تغيرات سريعة، ففي السنة الأولى يكون جسم الطفل أكثر سمكاً من أي مرحلة أخرى ويرجع ذلك إلى الزيادة الكبيرة في المحيط العرضي عن الطول. وحتى سن الرابعة أو الخامسة يكون شكل الجذع شبيهاً بالكيس حيث لا يتميز فيه خط الوسط بشكل ظاهر، كما يكون الكتفان منحدرين ويكون الصدر مستديراً ويكون البطن بارزاً مستديراً، ومنذ ذلك الحين حتى نهاية مرحلة الطفولة يحدث نقص تدريجياً في كثافة وامتلاء

الجلد ، ويتجه الجسم لأن يأخذ الشكل المخروطى أو الاسطوانى المنبسط المنسق الذى يتميز فيه الوسط عن باقى الجسم . وفى هذا الشكل المخروطى فان الاكتاف تأخذ الشكل المستطيل المستعرض وخاصة عند الاولاد ، كما أن شكل البطن ينسط ويقل امتلاؤه واستدارته وبروزه، ويصبح خط الوسط ظاهرا بشكل واضح، كما أن الحوض يصبح أكثر عرضا وأقل استقامة .

وبطبيعة الحال فان شكل الجلد عند الكبار البالغين يتأثر كثيرا بالسن الذى تنضج فيه المظاهر الجنسية. فقوم الذكر الذى يتصف بعرض فى الكتفين وضيق فى المقعدين يظهر فى الاولاد العاديين، والبنات اللواتى تبدو لهن اكتاف مريضة هن اللواتى يتأخر نضجهن ، وبوجه عام فانه بدون اعتبار للسن الذى يتم فيه النضج فاننا نلاحظ أن الشكل العام للجلد عند البنت يختلف عن الشكل العام لدى الولد ، فالاجزاء التى يتميز النمو فيها فى الولد غالبا ما يقل النمو فيها عند البنت ، وتعتبر هذه المميزات فى كل جنس دليلا على أن النمو عند كل منهما لم يتخذ مجراه الطبيعى ، وقد يحتاج الى العلاج الذى يعيد لكل فرد من الجنسين الشكل المميز لجنسه ، وهذه الفروق بين الجنسين تختلف مرحلة ظهورها بشكل مميز باختلاف البيئة ، فهى عند الشرقيين تختلف الى حد ما عنها عند الغربيين وقد تقل أو تظهر بشكل أوضح فى بيئة عن غيرها (١١) .

#### ( د ) نسب الذراعين والساقين

ان التغيرات التى تطرأ على نسب الذراعين والساقين اثناء مراحل العمر المختلفة هى التى تعطى الجسم صورة الجسم البشرى وتبعده عن الصورة الحيوانية . فعند الميلاد يكون ساقا الوليد قصيرين بشكل ظاهر بالنسبة لاجزاء الجسم المختلفة ، كما أن الذراعين يكونان زائدى الطول ، وتكون اليدين والساقان صغيرين نسبيا . فنحن اذا تصورنا انطباق نفس الوليد على الشخص البالغ فان ساقى الشخص البالغ تبلغان من القصر حدا يجعل مقعديه فى مستوى يعادل مستوى الركبتين أو اعلى قليلا ، وهذا ما يوضح ضرورة اختلاف السرعة التى تنمو بها الاجزاء المختلفة من الجسم .

فالذراعان والساقان تنموان بمقدار ٦٠ الى ٧٥ ٪ من وقت الميلاد الى ان يصل الطفل الى سنتين من العمر ، وعندما يبلغ الطفل سن الثامنة فان الذراعين يزداد طولهما بمقدار ٥٠ ٪ على طولهما فى سن الثانية . ونظرا الى قلة سمك الذراعين عادة لدى الطفل بالنسبة لجذعه فان النمو فى عضلاتهما فى الشخص العادى لا يكون ملحوظا ، ويكون للذراعين عادة شكل اسطوانى عام فى هذه المرحلة . وبعد سن الثامنة ينمو الذراعان نموا بطيئا فى معدله بالنسبة لطولهما ، بينما نموها فى السمك يزداد بشكل أوضح نظرا لزيادة عضلات الذراع فى السمك والامتلاء .

اما الساقان عند المولود حديثا فتكونان قصيرتين متجهتين بطريقة تجعل بطن القدمين يتجهان كل منهما للآخر . وكلما نما الساقان ازدادا انبساطا واستقامة ، فعندما يصل الطفل الى سن السادسة ينبغي أن يكون الساقان والركبتان مستقيمتين لا اعوجاج فيهما ولا تقوس ،

وخلال السنتين الأوليين في حياة الطفل تنمو الساقان بمعدل ٤٠٪ من طولهما الأصلي ، وعندما يصل الى سن الثامنة يزداد طول الساقين بمعدل ٥٠٪ من طولهما الأصلي عندما كان في سن الثانية ، ومعنى هذا أن الساقين ينموان بمعدل أبطأ من نمو الذراعين في بداية مرحلة الطفولة . وإذا طبقنا ما ذكر عن الذراعين فإن الساقين تبدوان رفيعتين وأسطوانيتين حتى نهاية سن الطفولة ، وفي الوقت نفسه عندما تبطئ سرعة نمو طول الساقين نجد أن الزيادة تتم في النمو العضلي لهما وينتج عن ذلك تغير ملحوظ في شكلهما . ونلاحظ أن الاطفال الذين يكون نموهم مبكرا عن الاطفال العاديين يميلون لأن يكون لهم ساقان قصيران مختلفان عند تمام نضجهما ، بينما نلاحظ أن الاطفال الذين يتأخر نموهم عن المعتاد عادة ما يكون لهم ساقان طويلان أسطوانيان .

وإذا تعرضنا لليدين والقدمين وجدنا أنهما لدى الطفل الرضيع ينموان في الحجم كما ينموان أيضا في الناحية العضلية قبل أن يتم استخدامهما، فخلال الطفولة الأولى والطفولة المتوسطة ( المرحلة المتوسطة بين سنوات نهاية مرحلة الطفولة الأولى وبداية مرحلة الطفولة المتأخرة ) نجد أن الاصابع تكون قصيرة بسبب النمو البطيء للعظام ثم يزداد نموها بعد ذلك حتى يصل الى حجمها العادي بعد نهاية الطفولة المتأخرة ( حوالى سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة ) وهذا يحدث أيضا في القدمين واليدين على حد سواء في وقت واحد ، ويلاحظ أن الاولاد عادة تكون أقدامهم أكبر من أقدام البنات ، وتصل الى نهاية نموها متأخرة عن البنات، ومن الطريف أن نعرف بأن البحوث قد دلت على وجود معامل ارتباط موجب بين حجم القدم وطول قامة الفرد (١١) .

### ( هـ ) العظام والمضلات

ينحصر نمو العظام في ازدياد حجمها وفي عددها وفي تكوينها ، وهذه المظاهر كلها تتبع نفس السياق الذى سبق أن أوضحناه في ازدياد حجم الطفل ، ومعنى هذا أن النمو تزداد سرعته خلال السنة الأولى من العمر ، ثم تبطئ هذه السرعة نسبيا بعد ذلك حتى نهاية مرحلة الطفولة المتأخرة ( راجع شكل (٤) من هذا البحث ) .

ففى الشهور الأولى بعد الميلاد تكون أنسجة العظام هشة واسفنجية التركيب ، كما أنه تنشأ للوليد غضاريف أو أغشية سميكة في الأماكن التى تظهر فيها العظام بعد ذلك ، وتكون عظام الوليد محتوية على مقدار أكبر من الماء والموارد الشبيهة بالبروتين ، كما تحتوى على كميات أقل من المحتويات المعدنية عن عظام الشخص الكبير البالغ . كما نجد أن هناك تدفقا أكبر للدم وكمية من الأوعية الدموية وذلك لتزويد الطفل بالمواد اللازمة للنمو وتكون الاغذية الخارجية للطفل سميكة بالقدر الذى يمنع به حدوث الكسور المركبة . وفى ذلك الوقت نفسه تكون العظمة ضعيفة الالتحام ببعضها وعلى عكس ذلك كثيرا ما توجد فجوات بين نهايات العظام .

ويكون نمو العظام كما ذكرنا في الطول من أطرافها حيث تتحول مواضع الالتحام بين العظام بعضها ببعض الى مناطق عظمية مع تقدم النمو . ومع وصول الطفل الى نهاية الطفولة

المتأخرة وبداية المراهقة تتوقف العظام عن النمو. أما نمو العظام فى العرض فينتج عن اضافة أنسجة عظيمة الى حافتها الخارجية فيتضخم السمك وتزداد العظام متانة . وازدياد المتانة والصعوبة لا يحدث الا بعد الميلاد ، ويتدرج من الجزء المتقدم من السنة الاولى حتى نهاية الطفولة المتأخرة وبداية المراهقة ، وينتج ذلك من تدخل عنصرى الكالسيوم والفسفور وبعض الأملاح المعدنية فى تركيب العظام كلما تقدم النمو .

أما ما يتعلق بالعضلات فانها تلعب دورا فعلا فى تنظيم نمو الاعضاء الاساسية للجسم كالقلب واعضاء الجهاز الهضمى والغدد ، كما أنها المسئولة الاساسية عن قوة الجسم وتأزر النشاط. وفى وقت الميلاد تكون الألياف العضلية فى حالة غير ناضجة ، وهذا ما يجعل الوليد ضعيف القوة وقليل النشاط ، وبالرغم من أنه لا تنشأ أنسجة عضلية جديدة بعد الميلاد فان الأنسجة الموجودة منذ الميلاد تتغير فى الحجم والشكل والتركيب ، كما تزداد طولاً وعرضاً وسمكاً وينتج عن ذلك زيادة فى وزنها .

فى الشخص العادى نجد أن وزن العضلات يزداد من وقت الميلاد الى نهاية النضج ما يقرب من ٤٠ مرة . وحتى سن الخامسة فان نمو العضلات يتم بنفس نسبة وزيادة وزن الجسم عامة ، ومن الخامسة حتى السادسة تزداد سرعة نمو العضلات وفى هذا الوقت تبلغ زيادة وزن الجسم عموماً ١٥ ٪ تقريباً من وزن العضلات فقط . أما بعد هذه المرحلة فان نمو العضلات يصبح بطيئاً نسبياً، ولكن يتبعها مرحلة تتميز بسرعة النمو ، كما أنه مما يلاحظ كذلك أن العضلات فى الطفولة المبكرة تكون محتوية على قدر كبير من الماء وقدر قليل من الاجسام الصلبة والبروتينات اكثر مما يتوفر فى عضلات الشخص البالغ نسبياً . وبالإضافة الى ذلك فانها تكون اكثر رقة واقل متانة فى اتصالها بالعظام ويصل سمكها عند تمام النضج الى ما يقرب من خمسة أمثال سمكها عند الميلاد . كما أن تكوينها يتحول من ٧٢ ٪ من الماء و ٢٨ ٪ مواد صلبة الى ٦٦ ٪ من الماء و ٣٤ ٪ مواد صلبة فى البالغ وينتج عن ذلك أن العضلات تصبح اكثر صلابة وثباتاً ، فنجد أن الطفل تتولد لديه تدريجياً الدوافع القوية للقيام بالنشاط العضلى . وقد يدفعه ، وهذا ما يحدث كثيراً ، الى التحفز وعدم الاستقرار فى الحالات التى يجد نفسه فيها عديم النشاط .

وكأى وظائف عضوية اخرى نجد أن هناك فروقا فردية واسعة فى القدرة العضلية لدى الاطفال ، فالافراد الذين يمتلكون العضلات العريضة السمكة يكتسبون قوة عضلية فائقة كما أن ذوى العضلات الصغيرة يبدون قدراً احسن من التأزر فى أوجه النشاط العضلى وبينما نجد أن بعض الاطفال تتعب عضلاتهم بسرعة نجد أن البعض الآخر لهم عضلات لها قدرة كبيرة على التحمل والمشقة .

وتتوقف حالة عضلات الطفل جزئياً على امكاناته الوراثية وجزئياً على حالته الصحية فى الوقت الراهن وبوجه عام ، ومدى استخدامه لعضلاته ، فحتى فى الطفل الواحد نجد اختلافات فى حالة العضلات ، فهى بعد حالة المرض مثلاً غير حالتها قبله ، حيث نجده بعد حالة المرض

سريع الاجهاد والتعب . وبالرغم من أن الفروق بين نمو العضلات في الجنسين لا تكون ظاهرة بالقدرة الكافي في الطفولة فانها تبدأ في الظهور بعد ذلك حيث تصبح عضلات الذكر اكبر واكوى من عضلات الانثى منذ المراهقة (١٢) .

### (٩) الأسنان :

ينمو للطفل نوعان من الاسنان : اللبنية والدائمة ، وهذان النوعان يختلفان من نواح كثيرة .

(١) هناك عشرون فقط من الاسنان اللبنية ، بينما الاسنان الدائمة عددها اثنان وثلاثون .

(٢) يكون حجم الاسنان اللبنية اصغر من الاسنان الدائمة .

(٣) تكون الاسنان الدائمة افضل جودة ونوعا من الاسنان اللبنية ، ولذلك تكون اكثر استدامة ، وتبدأ عملية ظهور الاسنان منذ الشهر الثالث بعد الميلاد وتستمر هذه العملية فترة طويلة حيث تصل اسنان العقل الى نهاية حجمها من سن الواحدة وعشرين الى الخامسة وعشرين ، ويكون ظهور الاسنان اللبنية مصحوبا بالام قد تسبب للرضيع فقدا للشهية وقد تجعله قليل الاستقرار ظاهر العصبية ، بينما الاسنان الدائمة قد تبرز من اللثة دون أن تصاحبها أية آلام .

وفي المعتاد تظهر اولى الاسنان اللبنية بين الشهر السادس والثامن ولكن سن الظهور هذا يختلف من طفل لآخر ويتوقف على الصحة والاستعدادات الوراثية والتغذية قبل وبعد الميلاد . كما أن للجنسية والجنس وبعض العوامل الاخرى اثرها في ذلك . وقد اتضح من الملاحظات العلمية أن الطفل العادي عندما يصل الى الشهر التاسع تكون ثلاثة من الاسنان اللبنية قد ظهرت له ، كما اتضح أيضا أن الاناث كقاعدة عامة يظهر السن الاول لديهن قبل الذكور ، ولكن بين الشهر التاسع والسنة الثانية فان الذكور يسبقون الاناث في ذلك .

اما ما يتعلق بالاسنان الدائمة فان الطفل العادي عندما يصل الى سن السادسة يكون لديه سن واحد أو اثنان ، ويزداد عددها الى ١٠ أو ١١ سنا عند الثامنة ، ثم من ١٤ الى ١٦ سنا في سن العاشرة ، وفي الثانية عشرة قد تصل الى ٢٤ أو ٢٦ سنا ثم الى ٢٨ سنا حوالي سن الثالثة عشرة ، اما الاسنان الاربعة الاخيرة فهي أضراس العقل التي تظهر بين السابعة عشرة والخامسة والعشرين وقد لا تظهر اطلاقا .

وقد تظهر حالات تسوس الاسنان حتى قبل أن يكتمل نمو الاسنان الدائمة ، وهذه الظاهرة تظهر بنوع خاص أثناء النمو السريع للطفل حيث تكون مطالب التغذية اكثر الحاحا ، وتكون أغذية الطفل من اصناف ينقصها التنوع المتزن ولذا تظهر كثيرا في مرحلة المراهقة .

والمرحلة التي تفصل بين ازالة الاسنان اللبنية وظهور الاسنان الدائمة تمثل فترة تظهر فيها صعوبات في نطق بعض الحروف ، حيث يوجد عادة فراغ في مقدمة الفكين يسبب صعوبة في نطق بعض الحروف ويظهر ذلك من حديث الطفل ، ولهذا فان معظم الاطفال يتعجلون ظهور الاسنان

الدائمة علاوة على ما يحدثه ظهور الاسنان الدائمة من آثار نفسية على الطفل ، فهى دليل على اتجاه النمو نحو الاكتمال (١٣) .

### ( ز ) الجهاز العصبى

ان نمو الجهاز العصبى يكون سريعاً قبل الميلاد خلال السنوات الثلاث أو الاربعة الاولى . وينحصر نمو الجهاز العصبى في فترة ما قبل الميلاد في ازدياد عدد وحجم الخلايا العصبية بينما ينحصر النمو بعد ذلك في تطور ونضج الخلايا التى لم تكن قد نضجت بعد عند الميلاد . وبعد سن الثالثة أو الرابعة يسير نمو الجهاز العصبى بسرعة بطيئة نسبياً .

أما ما يتعلق بنمو المخ فان دراسته دراسة مباشرة تصبح مستحيلة ، ولكن يمكن دراسته بطريقة غير مباشرة ، وتكون الدراسة تقديرية وليست دقيقة ، ويتم ذلك عن طريق فحص مخ الافراد بعد الممات أو عن طريق قياس أبعاد الجمجمة في حالة الحياة .

وتدل هذه الدراسات على أن نمو المخ يكون سريعاً جداً من الميلاد الى نهاية السنة الرابعة ، وتبطئ سرعة نموه بين الرابعة والثامنة من العمر ، ثم يستمر النمو أكثر بطئاً حتى حوالى سن السادسة عشرة أى بعد مرحلة الطفولة المتأخرة بكثير ، وعند ذلك يكون حجم المخ قد وصل الى نهايته ، ونظراً لأن عظام الجمجمة تكون مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً غير وثيق عن طريق الأغشية خلال الشهور القليلة الاولى من الحياة فان فراغاً كبيراً في حجم الجمجمة يترك لنمو المخ .

ومن حيث وزن المخ فان وزن المخ يبلغ في المتوسط ٣٥٠ جراماً ، بينما يتراوح وزن مخ البالغ الكبير من ١٢٦٠ - ١٤٠٠ جراماً ، ولعل النمو السريع في حجم المخ خلال السنوات الاولى من الحياة هو أحد الأسباب التى تؤدي الى اعطاء الجمجمة وزنها الثقيل نسبياً وحجمها غير المتناسب .

ومهما كانت العلاقة بين نمو الاجزاء المختلفة من المخ والنمو العقلى للطفل فان ملاحظة سلوك الاطفال تدل على انهم يكونون قادرين على التذكر وترابط المعانى بين الاشياء والاشخاص ، وعلى القيام ببعض الاشكال البسيطة من الاستدلال . وكلما ارتقى النمو سنة بعد سنة تزداد هذه القدرات العقلية تطوراً واكتمالاً . وليس المجال في هذا البحث متعلقاً بربط النمو الجسمى بالنمو العقلى فهو موضوع آخر يخرج عن نطاق هذا البحث (١٤) .



عرضنا في الجزء السابق بعضاً من أهم مظاهر النمو الجسمى في الطفل من وقت ميلاده حتى نهاية مرحلة الطفولة المتأخرة وقد رأينا ( كما سبق ايضاحه ) أن نورد النمو في هذه الفترة التى يمكن تقسيمها الى عدة فترات واحدة واحدة في كل مظهر من مظاهر النمو الجسمى حتى يسهل تتبعه وملاحظة سياق التطور دون قطع الدراسة بطريقة مصطنعة الى أجزاء تحددها هذه المراحل التفصيلية .



وبهنا الآن بعد أن أوضحنا هذا النمو الجسمي في هذه الفترة ان ننتقل من الجانب البنائي Structural الى الجانب الوظيفي Functional فنتتبع النمو الحركي عارضين في هذا النمو ما يحدث من تطور في أهم المهارات الحركية التي تظهر لدى الطفل خلال هذه الفترة . ويمكن تلخيص أهمية النشاط الحركي في الجوانب الآتية :

(١) ان الصحة الجيدة التي تعتبر حيوية بالنسبة لنمو الطفل وسعادته تتوقف جزئيا على تدريبه على المهارات الحركية ، فاذا كان تناسقه الحركي ضعيفا كان اداؤه غالبا اقل من زملائه ، ولا يشعر الطفل بارتياح يذكر في قيامه بالنشاط الحركي ، ويقل بذلك دافعه للاشتراك فيه .

(٢) ان النشاط الحركي يخلص الطفل عادة من الطاقة الزائدة التي يزود بها ويجعله مقبلا على النشاط الذي يزيد من قوة عضلاته ويحسن صحته بوجه عام .

(٣) يعتبر النشاط الحركي أسلوبا من أساليب التغيير والترويح على الطفل ، فنشاط الطفل في اللعب بأدوات اللعب في الصغر يساعده على تركيز انتباهه واستخدام وظائفه العقلية ، ومن ثم يساعد على أحداث التغيير والمتعة في حياته .

(٤) كما ان النشاط الحركي يعطى الطفل فرصة للتفاعل الاجتماعي ، فالنشاط الحركي في الاطفال عادة لا يتم حينما يكون الطفل منفردا بل يؤدي الى الاتصال بغيره والتعامل معه .

(٥) يساعد النشاط الحركي الطفل على تنمية مفهوم الذات عنده ، فنجاح ادائه ايا كان يزيد من مشاعره بالأمن تجاه البيئة التي يتفاعل معها .

وسنتناول فيما يلي النمو الحركي في الاجزاء الآتية من الجسم :

(أ) منطقة الرأس .

(ب) الجذع .

(ج) الأطراف .

( ١ ) منطقة الرأس .

تبدأ في هذه المنطقة بتأخر العين الذي يكون ضعيفا خلال الساعات الاولى من الميلاد ، ولكن ذلك يتحسن بسرعة ، لدرجة ان الوليد العادي في نهاية الشهر الرابع يكون قادرا على أغلب الحركات اللازمة في عينيه ، فهو في نهاية الشهر الثاني يستطيع ان يركز عينه على شيء ثابت وبعد شهر يستطيع ان يتتبع عادة شيئا متحركا . ولكن التناسق اللازم في حركة العين لا يكتمل عادة بشكل يمكنه من القراءة دون اجهاد للعين قبل ان يصل الطفل الى سن السادسة .

ومن الملاحظ ان انعكاسات الابتسام استجابة للمثيرات اللمسية والحركية تظهر على الوليد من نهاية الاسبوع الاول من حياته ، اما الابتسامة ( الاجتماعية ) لشخص أو استجابة لابتسامة

أخرى لا تحدث حتى الشهر الثالث من العمر . ويرى بعض الباحثين أن هذه الظاهرة تعتبر أولى الاستجابات الاجتماعية للطفل .

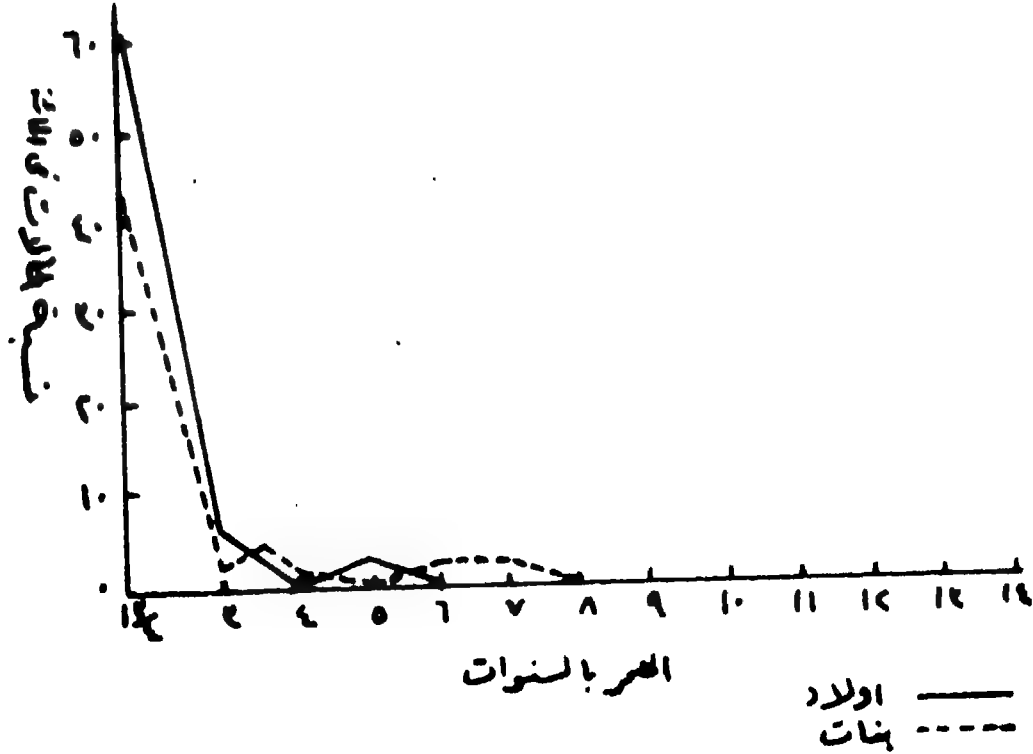
كما نلاحظ أيضا أن أغلب الاطفال الذين ولدوا حديثا يستطيعون أن يرفعوا رؤوسهم للحظات قصيرة ، فالوليد في الشهر الاول قد يحتفظ برأسه أفقية مستقيمة مع جسمه اذا حمل أفقيا ، وبعد شهرين يستطيع أن يرفع رأسه مائلة على الأفقى بحوالى ٣٠ درجة وكلما تقدمت الشهور يستطيع أن يرتفع برأسه وصدره أثناء نومه . ثم يستطيع بعد ذلك أن يدير رأسه بإدارة كتفيه واستخدام عضلات الجزء الأعلى من الجذع ، ولكنه لا يستطيع أن يحتفظ برأسه راسية عندما يجلس دون مساعدة الا عند نهاية الشهر السادس ، وبتقدمه في العمر تطول المدة التي يستطيع فيها الاحتفاظ برأسه على هذا الوضع (١٥) .

### ( ب ) الجذع

أن دوران الجسم من جانب لآخر أثناء النوم لا يتوفر للطفل المولود ، ولكن عندما ينتهى الشهر الثانى فإن الوليد يستطيع أن يتنقل من النوم على جانبه الى أن يصير نائما على ظهره وفى نهاية الشهر السادس يستطيع الرضيع أن يدير جسمه دورة كاملة . وقد لا يتم له ذلك دفعة واحدة ، بل يتم على مراحل ، وفي دوراته عادة يبدأ بمنطقة الرأس ثم الاكتاف ثم الجزء الأسفل من الجسم ، وعن طريق الدفع بالساقين يستطيع الرضيع أن يدير كل جسمه .

ويصبح جذعه تحت سيطرته قبل أن يتمكن من الجلوس بنفسه فهو عندما يصل الى الأسبوع العشرين يستطيع أن يجلس بمساعدة محتفظا بجسمه معتدلا . وبين الشهر التاسع والعاشر فإن الوليد العادى يستطيع الجلوس دون مساعدة لدقائق معدودة ، وفي بداية تعلمه الجلوس يميل بجسمه قليلا الى الامام ليحتفظ بتوازنه ، كما أن ذراعيه يكونان ممتدين على جانبي جسمه وكما يكون ساقاه مقوسين بقدميه متقابلين ليعطيه هذا الوضع حيزا كبيرا للاتزان .

ومن بين عضلات منطقة الجذع تكون أعضاء الإخراج وتأخر قدرة الطفل للسيطرة عليها وذلك لحاجتها الى عضلات دقيقة ، فالتحكم فى الإخراج معناه كف العمليات التى كانت بطبيعتها لا ارادية . وهذا التحكم لن يتم الا اذا أصبحت عضلاته قوية ومتآزرة ، حتى يستطيع أن يمنع بذلك الفضلات التى تعمل على الخروج من الجسم . وبالرغم من أن هناك فروقا فردية بين الاطفال فى القدرة على هذا التحكم الا أن هذا يبدأ عادة عندما يتم الرضيع شهره السادس بينما التحكم فى المثانة قد يتأخر حتى الشهر الخامس عشر أو السادس عشر حتى السنتين أو السنتين والنصف ، مع حدوث هفوات فى حالة مرض الطفل أو اجتهاده أو قلقه الانفعالى . اما الامتناع عن التبول ليلا فانه يحتاج الى سنة أخرى من النمو . وبوجه عام فإن الطفل عند دخوله المدرسة ينبغي أن يكون قد اكتسب عادة التحكم فى البول حتى فى حالات الاجهاد والقلق الانفعالى والاستثارة (١٦) .



شكل ( ٧ ) نمو عادات النظافة في الطفل ( التحكم في التبول ) مأخوذة من ( ١ )

(ج) الأطراف

من أول ما يظهر في أشكال الحركات المتأخرة في الذراعين ينحصر في الحركات الدفاعية . وتبدو هذه من الأيام الأولى من الحياة . وتكون في بداية الأمر حركات ضعيفة التأزر والتنسيق ولكنها في نهاية الأسبوع الثاني بعد الولادة تكتسب قدرا كبيرا من التأزر - أما الوصول إلى الأشياء والقبض على الأشياء ، ما عدا في الحالات التي تلمس اليد الشيء صدفة ، فإنها تحتاج إلى قدر من التأزر بين العين واليد . حيث يجب أن تعمل العينان معا ، ويرتبط عملهما بحركة اليدين . وفي المراحل الأولى من التأزر بين العين واليد ينظر إلى الشيء الذي أمامه دون أن يصل بيديه إليه . وخلال الشهر الرابع يبدأ بالقبض على الأشياء ولكن بشكل بطيء وغير منتظم ، ويتحسن ذلك بعد شهرين . وبعد عدة شهور يستطيع الرضيع الوصول إلى الشيء بيديه والقبض عليه ثم يحوله مباشرة إلى فمه .

وفي انعكاس القبض على الأشياء Grasping Reflex الذي يظهر عند الميلاد أو بعد ذلك بقليل يقوم الإبهام والأصابع مقام الخطاف ، ويتم ذلك قبل أن يستخدم الرضيع يده لأغراض أخرى وفي هذه الحالة فإن الإبهام يعمل في اتجاه مخالف للأصابع ، ومعنى هذا أنه يعمل كوحدة منفصلة .

وانفصال الابهام عن باقى الاصابع يتم عادة بين الشهر الثالث والرابع ، اما اخذ الاشياء فانه يتأخر حتى الشهر الثامن أو التاسع . كما أن القدرة على القبض على أكثر من شيء واحد أو أخذها معا يظهر فى شهور متأخرة . فالطفل العادى فى الشهر الخامس ينبغي أن يكون قادرا على أن يقبض على شيء يقدم له ، بينما فى الشهر السابع يستطيع أن يقبض على شيئين ، وفى الشهر العاشر على ثلاثة أشياء (١٧) .

ولنبدا الآن بالنمو الحركى فى الساقين والقدمين : نلاحظ ان الحركات اللازمة للمشى تبدأ عند الميلاد أو حتى قبل ذلك . فالطفل المولود حديثا يقوم بحركات بقدمية تشبه الركلات أو تشبه الخطو ، وكنتيجة لامتداد الساق والركلات فان الوليد يتعلم التأزر بين عضلات ساقيه وجذعه ، ثم يتعلم بعد ذلك احراز الاتزان بين أجزاء جسمه ، وهذا كله أساسى لعملية المشى ولا يمكن تحقيقه فى فترة زمنية بسيطة ، وكثير من الرضع يكون لديهم استعداد للمشى بين الشهر التاسع والخامس عشر ، فعظام وعضلات وأعصاب الساق والجذع تكون معدة لذلك ، ولكن الرضيع يلزمه الاستثارة والمعاونة من الكبار قبل أن يستطيع المشى .

ونشاهد أن الرضيع فى نهاية الأسبوع الثانى يستطيع عن طريق حركات ساقيه أن يحرك جسمه عن موضعه ، كما أن أول مظهر للانتقال يتم فى الرضيع عن طريق الرفس ثم الحبو الذى يبدأ فى حوالى الشهر الرابع ، ويصل الى قمة اتقانه بين الشهرين السابع والتاسع . وبعض الرضع لا يمرون فى هذه المراحل وينتقلون مباشرة الى المشى ، بينما نجد الآخرين يقعون فى مرحلة من هذه المراحل فترة قد لا تطول ثم ينتقلون الى المشى .

وفى المراحل المتقدمة من الحركة التى تسبق المشى نجد أن الرضيع يقوم بحركات زائدة فى انحاء جسمه ، وبالتدريب ينتقل التأزر من الرأس حتى منطقة الساقين ، ويظهر التأزر جيدا ومتقنا فى مرحلة الزحف ، ويتقدم هذه المهارات تزداد سرعة الطفل فى الانتقال .

ويسبق المشى عادة القدرة على الوقوف ويحدث غالبا أن الوقوف مع المساعدة يسير جنبا لجنب مع الزحف ، والسن المعتاد للوقوف مع المساعدة لمدة دقيقة واحدة هو اربعون اسبوعا حتى خمسين اسبوعا . ولكى يحافظ الرضيع على توازنه فانه يقف متباعد الساقين وأصابع القدم متجهة للخارج والركبتان متقاربتان ، ويتجه الرأس والجزء العلوى من الجسم الى الامام ، وبالتدرج يقلل الرضيع من الضغط الذى يبذله على من يساعده فى الوقوف الى أن يستطيع الوقوف بمفرده تماما .

ويستطيع بعض الصغار المشى بمجرد وقوفهم بينما يتأخر البعض الآخر قادرا من الوقت حتى يكتسب الثقة فى نفسه ليخطو الخطوة الاولى . ويحدث المشى التدريجى بمساعدة عادة مع الوقوف فى وقت واحد . وفى دراسة لأحد الاطفال وجد أن فترة ٢٥ يوما قد مرت بين الوقوف بمفرده واتخاذ الخطوة الاولى فى المشى .

وفي كل انواع الانتقال نجد ان الرضيع يحتفظ براسه معتدلا حتى يكتشف طريقه ، وفي المشى يكون الجسم معتدلا وتكون الحركة عن طريق تحريك الساقين وحدهما ، وكمساعدة لاحتفاظه بتوازنه فان ذراعى الرضيع تتجهان للخارج ، وتتجه القدمان للخارج ، وتتصلب الساقان ، وتتجه العينان الى الامام دون اهتمام بالنظر الى الارض ، وكثيرا ما يتسبب عن هذا وقوع الصغير اثناء المشى لغياب ما تحت قدميه عن نظره ولصعوبة اتزانه في البداية ولقيامه بحركات زائدة لا تفيده في عملية التحرك .

وينمو الصغير يحدث تغيران في عملية المشى :

( ١ ) يتناقص ارتفاع مركز ثقل الساقين

(ب) ويتم بذلك سهولة في الخطو . فبعد ان كانت الساقان ترتفعان الى اعلى مما يجب في بداية المشى ، وبعد ان كان يبذل جهدا وطاقة كبيرين في نقل قدميه وتتابع الحركة فيها يقل الجهد تدريجيا وتزداد الخطوة اسعاعا ويقل ارتفاع الساقين ويتم ذلك حوالى السنة الثانية او الثالثة من العمر (١٨) .



### اكتساب المهارات في الطفولة

بعد ان يكتسب الطفل القدرة على التحكم في حركاته الكبيرة يبدأ في تنمية مهاراته ، ويقصد بذلك مجموعة التآزرات الدقيقة التى تلعب العضلات فيها دورا هاما . ويمكننا ان نصف المهارة بتعابير خاصة بها مثل « آلية وسريعة ودقيقة ومرنة » وينبغى ان ننظر الى المهارة على انها عمل مفرد دقيق ، فكل مهارة مهما صغرت « حتى كتابة حرف من الحروف الهجائية هو سلسلة من مئات عمليات التوافق في خلايا الجهاز العصبى ، وتصبح الحركة المعتمدة على اية مهارة عملية معقدة للغاية تتضمن عمليات من التكامل والتمايز في الحركات الدقيقة ومراحل متتابعة من المحاولات وحذف الاخطاء . وتنقسم المهارات الحركية الى نوعين مختلفين :

(١) المهارات العضلية الكبيرة Gross Mucular Skills وهذه مثل الجرى والقفز والرفع والتسلق .

(٢) المهارات العضلية الدقيقة Fine Muscular Skills مثل الكتابة والعزف على الادوات الموسيقية الصغيرة ، او القيام بالاعمال الدقيقة التى تتطلب مهارة في الاداء .

ومن خصائص المهارات ان تعلمها يؤدي الى « العادات الحركية » فالنشاط الذى يتكرر حدوثه بسهولة وارتياح يؤدي هذا التكرار الى اكتساب العادات التى تسهل من ادائه وتتابع الحركات فيه وتقليل الانتباه عند القيام به ، فتكرار الصغير لعملية الخطو والمشي يسهل من اداء حركاته وتتابعها بعد ذلك ، ويصبح المشى عادة حركية لا تحتاج الى تركيز الانتباه عند الطفل الكبير كما كانت تحتاج عند الطفل الصغير .

والمهارات لا يكفى مجرد النضج Maturation فى ارتقائها بالرغم من أن الاساس فى القيام بها فسيولوجى الطبيعة ، اذ يتطلب نضج الاعصاب والعضلات ومناطق المخ المتصلة بعمليات هذه المهارات ، والتحكم فى أوجه النشاط الارادى المتآزر .

فبالإضافة الى النضج فان المهارات تتطلب تدريباً ، ولكن الاهم فى التدريب هو كميته ونوعه ودقته ، فبالرغم أن المهارة تكتسب وتزداد إتقاناً مع تكرار المرات المتتالية ، الا أن نوع التدريب لهذه المهارات له أكبر الأثر فى إتقانها وسهولة أداء حركاتها بعد ذلك ، وكما سبق أن أوضحنا فى الجزء الخاص بالنضج والتدريب فان أهمية التدريب وما ينتجه من محصول وقيمة لا يحصل عليها الطفل الا اذا جاء فى الوقت المناسب الذى يرتبط ارتباطاً مباشراً بمرحلة النضج الخاصة بالعمليات التى تتضمنها المهارة المطلوبة . ويمكننا أن نفصل ذلك فنوضح العوامل التى يتوقف عليها إتقان الطفل لمهارة معينة :

#### ١ - التدريب فى السن المناسب .

٢ - التوجيه والإرشاد بدلاً من ترك الطفل ليعتمد على المحاولة والخطأ فى اثناء العمليات اللازمة ، وقد يحدث الإرشاد حتمياً عن طريق تقليد الطفل لحركات أحد والديه ، وحتى فى هذه الحالة يحتاج الطفل الى توجيهه ليحدث التقليد بأسلوب متقن بعيد عن الخطأ .

٣ - الدافع لإتقان المهارة وقد ينتج الدافع عن طريق تحقيق الطفل للهدف الذى يصرف من أجله الوقت والجهد . فالطفل الصغير حين يبذل جهده فى عملية المشى عند تعلمها ، ويجد أنه قد حقق بذلك أحراراً الانتقال من مكانه والوصول الى الأشياء التى لم يكن يستطيع الوصول اليها فى وضعه الثابت فان ما يصاحب ذلك من ارتياح نفسى ومشاعر الانتصار تساعد الصغير على مواصلة بذل الجهد وتكرار العمليات اللازمة التى تؤدى الى الوصول الى الهدف .



وبعد ، فتلك عجالة عن تتبع النمو خلال مرحلتى الطفولة ، وقد قدمنا لها بمرحلة ما قبل الميلاد ، وأدمجنا بها الفترات القصيرة التى بها يبدأ نمو الطفل ، وبذلك جعلنا الدراسة تتضمن الطفل من وقت ميلاده الى نهاية طفولته ، أى خلال ما يقرب من اثنى عشر عاماً . وقد تتبعنا خلال هذه الفترة النمو الجسمى والنمو الحركى ، وحاولنا بقدر الامكان بيان الاعمار التى تظهر فيها مراحل التغير فى كل جزء من الاجزاء الهامة من جسم الطفل ، وفى كل مظهر من مظاهر نموه وكل مهارة حركية يكتسبها .

### الراجع

- (1) Hurlockb, E. : **Child development.** Mc Craw-Hill., 1964.
- (2) Havighurst, R. T. : **Leisure and life-style., Amer. J. Sociology,** 1959.
- (3) Shinn, M. W. : **The biography of a baby.** New York : Macmillan, 1900.
- (4) Geseell, A.: **Maturation and the patterning of behavior.** in C. Murchisorn (Ed). **A handbook of child Psychology.** Worecester : Clark University press., 1933.
- (5) Meredith, H. V.: **Adiscriptive concept of physical development.,** In D. R. Harris (Ed.) **The concept of development : an issue in the study of human behavior.** Minneapolis : University of Minnesota press, 1957.
- (6) Duggins, O. H., and M. Trotter: **Age changes in head hair from birth to maturity.** **Amer. J. phys. Anthropol.,** 1950.
- (7) BAYLEY, N. : **Some Psychological correlates of somatic androgyny.** **Child Developm.,** 1951.
- (8) Garn, S. M.: **Fat thickness and growth process during infancy** **Num. Biol.,** 1948.
- (9) Allen, I.: **Facial growth in children five to eight years of age.** **Hum. Biol.,** 1948.
- (10) Meredith, H. V.: **A time series Analysis of growth in nose hight during childhood.** **Child Developm.,** 1958.
- (11) Thompson, H. : **Physical growth.** In L. carmichael (Ed.) **Manual of Child Psychology,** New York : Wiley 1954.
- (12) Walker, R. N.: **Body build and behavior in young children,** **child developm.** 1962.
- (13) Massler, M., and B. S. Savara : **Natal and neonatal teeth.** **J. Pediat.,** 1950.
- (14) Fiavell. J. H. : **The developmental Psychology of Jean piaget.** Princeton : van Nostrand, 1963.
- (15) Breckenridge, M. E., and E. L. Vincent : **Child Developsment** philadelphia saunders, 1960.
- (16) Spits, R. A. : **Purposing grasping.** **Personality,** 1951.
- (17) E. L. Vincent, and P. C. Narvin : **Human psychological development,** Ronald, 1961.
- (18) Carmichael L. : **Manual of child psychology,** 1954.
- (19) Lipsitt, L. P. and N. Levy : **Electrotactual threshold in the child Developm,** 1959.

سَيِّدُ مُحَمَّدٍ غَنِيمٍ

## النمو النفسي من الطفل إلى الراشد

### مقدمة

يلقى علم نفس الطفل اهتماما كبيرا من جمهرة المشتغلين بعلم النفس . وقد يكون مرجع هذا الاهتمام هو الطفل ذاته ، نظرا لما للطفولة من جاذبية شديدة نحسها نحن الكبار تجاه الاطفال . وليس من شك أن غالبية الآباء في الأزمنة القديمة كانوا يحبون أبناءهم ويهتمون بتربيتهم ، كما نحبههم نحن اليوم ونهتم بتربيتهم ، مع اختلاف وجهات النظر الى الطفل والطفولة . لقد أشار فيليب أريس في استعراضه « للطفولة عبر القرون » ( ١٩٦٢ ) الى أن اطفال القرون الوسطى كانوا ابتداء من سن الثالثة أو الرابعة وما بعدها يشاركون في كثير من أنشطة الكبار . ولم تكن للاطفال شخصياتهم المستقلة كأطفال . وقد تطلب الامر مرور مئات السنين في الأزمنة الحديثة ، قبل أن تتغير نظرتنا الى الاطفال عامة باعتبار أن لهم شخصياتهم المتميزة عن شخصيات الراشدين . وقد سار المجتمع الحديث خطواته واضحة في فصل عالم الاطفال عن عالم الكبار .



والاهتمام الكبير بعلم نفس الطفل أمر تمليه ضرورة فهم الطفل الذي نتعامل معه . فقد أصبح لزاما على الآباء والمربين أن يفهموا الاطفال من أجل أن يتوافقوا معهم ومع مشكلاتهم التي يواجهونها ، وأن يساعدوهم على حل هذه المشكلات بما يهيئ المجال أمام نمو نفسي سليم . فمن خلال الدراسة المنظمة لعملية النمو النفسي والاجتماعي للطفل يمكن ان نقف على ما هو عادي وما هو شاذ في سن معينة ، وأن نعرف الكثير من جوانب شخصيته ، وأن نوجهه التوجيه السليم الذي يتوافق مع مرحلة نموه والظروف التي يعيش فيها . وقد يكون هذا الاتجاه من نتاج الأفكار الحديثة ، إذ لم تكن ثمة حاجة قديما ، لفهم الطفل ولا حتى معرفة خصائص المرحلة النمائية التي يمر بها ، كما كانت تسود علاقته بالكبار بعض الأفكار التي أثرت في نظرتهم اليه وأسلوب معاملتهم معه ، فهو مثلا يرى ولا يسمع ، ومن ثم لسنا في حاجة لمعرفة ما يجري في عقله من أفكار أو ما يتكون لديه من ميول واتجاهات . ولقد حدث تغير ملحوظ في تفكيرنا عندما بدأنا ننظر الى التربية كشيء ضروري بالنسبة للطفل ، وكان هذا التغير نتيجة لما طرأ على العالم من تغير اجتماعي ومن ثورة صناعية ، وما نجم عن ذلك من تغير في اقتصاديات هذا العالم ، والأدوار الوظيفية المعقدة التي ظهرت والتي لا يمكن اكتسابها عن طريق التقليد أو النموذج على نحو ما كانت تسير عليه التربية القديمة .

**وإذا كان النظام التربوي القديم يتسم بالشدّة والصرامة في معاملة الطفل ، إلا أن عقلاء المفكرين والمربين سرعان ما أدركوا أهمية الدافعية وأن « الحصان الذي يقاد الى الماء قسرا لا يشرب بالضرورة حتى لو ضرب » ، كما أدركوا أهمية الفروق الفردية بين الاطفال في النواحي الجسمية والعقلية والانفعالية وفي الشخصية .** ومن هنا ظهرت الحاجة الماسة الى ضرورة ادخال تعديلات على مناهج الدراسة كي تتلاءم ومستويات نضج الطفل . وإذا كان الالتحاق بالمدارس الى عهد قريب قاصرا على طبقات معينة يمكنها الانفاق على العملية التعليمية ، فقد أصبح اليوم عاما واجباريا . وإذا كان الوقت الذي يقضيه الطفل في المدرسة قليلا في البداية ، فقد أصبح في الغالبية العظمى من أنظمة التعليم في العالم اليوم ، يمثل جانبا كبيرا من ساعات نهار الطفل ، هذا بالإضافة الى انشغاله بعد عودته من المدرسة ، بالكثير من الواجبات المدرسية . وقد تطلب هذا الامر وجود قدر كبير من المهارات والقدرات لمواجهة هذه الواجبات ، مما دعا المدرسين الى الاستعانة بعلماء نفس الطفل للاجابة على كثير من المشكلات التي تواجههم في العملية التعليمية .

غير أن المشكلات التي تواجه المدرسين ليست شيئا بالقياس لتلك التي تواجه الآباء في تربيتهم للأبناء ، فحين يصبح الآباء أكثر تعلما وثقفا وإدراكا ووعيا ، فإنهم يبدأون في إثارة الكثير من الشكوك حول الرغبة في الالتجاء الى أسلوب التربية أو النظام الذي تربوا هم أنفسهم عليه . فربما كانت هناك الرغبة الشعورية أو اللاشعورية في أن يكون أسلوب تربيتهما لابنائنا افضل بكثير من أسلوب تربية آبائنا لنا . ومن ثم أصبح أسلوب « التعقل والفهم » هو الأسلوب السائد اليوم ، أما الالتجاء الى توقيع العقاب والضرب ، فإنه - إذا حدث - يكون للذنب وقع

فيه الطفل ، أو يكون نتيجة احساس شخص بالفشل . والواقع أن معظم الاسر اليوم تتخذ أسلوب الفهم والتعقل في معالجة مشكلات أبنائها ، كما تميزت الكثير من المفاهيم والافكار عن الطفل . فهو اليوم يرى ويسمع ، بل ويؤثر الى حد ما في قرارات الأسرة ، وخاصة اذا ما حفزناه الى القيام بمثل هذه المشاركة . والحقيقة أن هذا التغير هو نتيجة لرغبتنا في أن نصبح أكثر ديمقراطية في أسلوب معاملتنا مع الآخرين . ففي المجتمعات الأكثر تقليدية ، تقاس قيمة الفرد الى حد كبير بمركزه ووضع في البناء الاجتماعي . ولما كانت مثل هذه المجتمعات متجهة نحو الكبار ونحو سيطرة الرجال ، فإن مركز الطفل والمرأة كان فيها وضعاً وضعياً ومغبوناً أو مهملًا ، ونادراً ما كانت تسمع آراؤهم كأفراد .

**وثمة سبب آخر للاهتمام الموجه نحو دراسة علم نفس الطفل في السنوات الأخيرة** يتلخص في الرغبة في فهم انفسنا كراشدين . فآخذ الاساليب الهامة لفهم الذات أو اكتشافها يمكن في دراستنا لسيكولوجية الطفل . فمن خلال دراستنا للطفل ، يمكن أن نعثر على بعض المفاتيح لمعرفة غموض انفسنا ومعرفة من نحن . اننا جميعاً ندرك أننا الآن وبالتأكيد أكثر مما كنا عليه في طفولتنا ، وأن اكتشافنا للآحداث والخبرات التي مرت بطفولتنا من شأنه أن يملأ الفراغ القائم بين انفسنا في الطفولة وانفسنا اليوم . فنحن ندرس تقارير هذه الأحداث والخبرات التي مرت بنا في الطفولة ، بحثاً عن انفسنا ، وعن تفسيرات لنجاحنا أو فشلنا ، وعن نواحي الكف والإعاقة التي تعرضنا لها ، واثراً في سلوكنا وقدراتنا وامكانياتنا . وكما يقول **كونجر وموسن وكيغان** أن دراسة سيكولوجية الطفولة تزودنا بالاساس الذي لا بد منه لدى فهم سلوك الراشدين فهما أكثر دقة . فالبيانات الاكلينيكية المستمدة من تواريخ الحالات الخاصة بالمجرمين والمرضى في العيادات والمستشفيات العقلية تكشف لنا عن أن سوء التوافق الشخصي والاجتماعي الذي يشيع بين الكبار يعود بصفة دائمة تقريباً الى الخبرات التي يقيمها الفرد في حياته المبكرة . ولقد كان لسيجموند فرويد ، أبى التحليل النفسي ، الفضل في أن أظهر بقوة ما لآحداث الطفولة من أهمية ، كما استطاع بتحليلاته النفاذة للمرضى الذين كان يعمل معهم أن يوضح صدق قول الشاعر « الطفل أبو الرجل » ( الترجمة العربية ١٩٧٠ ) .

• • •

### ● المجالات والطرق والنظريات :

وبهنا الآن أن نلقى نظرة على مجالات دراسة الطفل وتطورها ، والطرق التي استخدمت في هذا المجال بما يسمح لنا بالقاء المزيد من الضوء على النظريات التي عالجت النمو النفسي للفرد في طفولته ورشدته . .

### ولنبدا الآن بمجال دراسة الطفل :

ارتبطت دراسة الطفل — كمجال من مجالات الاهتمام — بغيرها من المجالات الكبرى . إذ تمتد أصولها القديمة الى الفلسفة والتربية والتاريخ الطبيعى ، كما ترتبط حديثاً بمصادر

كثيرة مثل علم النفس التجريبي وعلم النفس الاكلينيكي والطب النفسي والفسولوجيا وطب الاطفال وعلم الاجتماع والانثروبولوجيا واللغويات . ورغم اختلاط أصوله ، فمن الممكن النظر اليه باعتباره مجالا شبه مستقل . ومع ذلك فحدوده لاتزال غير محددة ، كما ان اهدافه واهتماماته متنوعة . ومن الممكن ان نشير الى ثلاثة مجالات ينقسم كل منها الى قسمين ، تعتبر بمثابة اطار لجميع الوان النشاط التى تجرى في هذا الميدان .

**فالدراسة قد تتجه أولا :** اما الى ناحية البحث او الى ناحية التطبيق ، أى اما الى الكشف عن كيف يعمل الطفل ، وكيف ينمو ، او الى القيام بعمل اشياء للطفل ومن اجل الطفل . ومجالات التطبيق المتصلة بالطفل كثيرة ومتعددة تتجلى في مجالات العيادات النفسية ، وعيادات الطب النفسي ، وفي التوجيه المدرسي ، ومحاكم الاحداث وفي برامج توجيه الآباء والابناء .

**وقد تتجه الدراسة ثانيا :** اما الى الطفل العادى او الى الطفل الشاذ . اعنى اما الى النمو الذى يسير سيره الطبيعي او الى النمو الذى يشذ عن الطريق العادى او الطبيعي .

**وقد يتجه مجال الاهتمام ثالثا :** اما الى الطفل نفسه وما يجرى به داخليا من عمليات عقلية ونفسية وما يعتريه من انفعالات ، او الى البيئة المحيطة به وكيف تؤثر في سلوكه ونموه من خلال عملية التطبيع الاجتماعى التى نأخذ بها الطفل منذ وقت مبكر في عملية نموه .

ومع ذلك ، وبصرف النظر عن ناحية الاهتمام ، فان الهدف هو معرفة شئ او الكشف عن شئ يتصل بالطفل . ولقد تعددت النواحي التى يركز الباحثون عليها دراستهم للاطفال . فالبعض يهتم بالاطفال كأطفال ، أى باعتبارهم مجموعة فرعية مستقلة عن الكبار ، وبالطرق المميزة التى يسلك بها الاطفال جميعا او الاطفال فى سن معينة او الاطفال من نوع خاص او الاطفال الذين يعيشون تحت ظروف بيئية معينة على نحو ما يتضح فى دراسات وودكوك ( ١٩٤١ ) ، وبابير وميرفي ( ١٩٤٢ ) وكذلك فى دراسات جيزل المستعرضة التى اجراها على اعمار خاصة .

اما البعض الآخر فقد ركز الاهتمام على كيف يتغير الطفل اكثر مما ركزه على كيف يسلك فى وقت معين . وهذا الاهتمام بالتغيرات النمائية قد يتركز على التغيرات الجسمية ، او على النمو العقلى او على النمو الانفعالى او على النمو عامة . والامثلة فى هذا الصدد لا حصر لها ويكفى الرجوع الى ما كتبه اليراييت هرلوك وشارلوت بهلر وأرنولد جيزل وجان بياجيه وجوردون البورت وغيرهم كثيرون .

**وثمة جماعة ثالثة ركزت اهتمامها على عملية النمو ذاتها مستقلة الى حد كبير او صغير عن الشئ النامى ،** طفلا كان ام حيوانا ام حضارة . وهذا الاتجاه يتضح على وجه الخصوص فى كتاب هاينز فرنر حيث تساءل فى مقدمة كتابه « علم النفس المقارن للنمو العقلى » عن ما هو علم النفس النمائى وما مشكلاته ؟ ورد على ذلك بقوله : ان مفهوم علم النفس النمائى يتضح تماما اذا فهمنا انه يعنى العلم الذى يختص بدراسة نمو الحياة العقلية والذى يتخذ منهاجا محددًا ، ونعنى به منهج ملاحظة الظواهر السيكولوجية من وجهة نظر نمائية .

**وهناك جماعة رابعة تهتم بدراسة اطفال مفردين ، وكيف يؤدون وظائفهم ، وكيف ينمون** وذلك اما بقصد التشخيص الاكلينيكي ، اوبقصد البحث في نواحي الشخصية أو نمو الشخصية ودينامياتها على نحو ما يتضح في دراسات ميرفى عن المهارات والمصادر التي يستعملونها مع البيئة .

**وأخيرا** يمكن أن نشير الى الدراسات التي تجرى بطريقة عرضية على الاطفال والتي يستخدم فيها الاطفال كموضوعات للدراسة التجريبية ، لا لان الباحث يهتم بمعرفة شئ عن الاطفال ، ولكن لأن الاطفال هم الاشخاص الذين في متناول يده ، ويمكنه ان يجرى عليهم أبحاثه وتجاربهم باعتبارهم عينات للجنس البشرى عامة. ومن أهم دراسات هذا النوع تلك التي تتصل بأبحاث التعليم ، سواء أجريت في المعمل أو في الفصل ، والتي تحاول أن تحدد الظروف الخارجية للتعليم ، والتي يمكن فيها أن يستخدم الكبار أو القيران مكان الاطفال . ومع ذلك يمكن القول انه حتى في هذا النوع من الدراسات التي لا نخبرنا بشئ عن الاطفال من حيث هم كذلك ، فقد يكون لها أهمية تطبيقية بالنسبة للمدرسين أو للآباء .

**وهكذا يتبين لنا أن دراسة الطفل تمثل لنا أشياء كثيرة مختلفة يمكن أن يقوم بها أناس كثيرون مختلفون .**



### ● طرق البحث في دراسة النمو

ليس الهدف هنا تقديم عرض تفصيلي لمناهج البحث ، بقدر الإشارة الى بعض الطرق الاساسية والافكار المنهجية التي ظهرت كأدوات خاصة في دراسة النمو . وقد وصلت الينا هذه الادوات من مجالات متعددة ، ومن وجهات نظر مختلفة في دراسة الطفل . ولذا يحسن النظر اليها في ضوء المشكلات والفروض التي أوجدتها، اعنى في ضوء نظرة تاريخية تربط فيها بين الادوات والحقب الزمنية أو التاريخية التي ظهرت فيها ، بشكل يلقي لنا الضوء على تطور استخدام هذه الادوات في دراسة الطفل .

ومن الممكن أن نتبع بالدراسة أربعة أنواع من الادوات الرئيسية هي : طرق الملاحظة ، والطرق المعملية ، والاختبارات والمقاييس ، والطرق الاكلينيكية . وكل طريقة منها تقابل حقبة زمنية ظهرت فيها . وهذه الحقبة الزمنية الأربع هي الحقبة الطبيعية Naturalist Era والتي بدأت في القرن الثامن عشر وبلغت ذروتها في منتصف القرن التاسع عشر ، وحقبة علم النفس التجريبي القديم ، والتي بلغت ذروتها في الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، ثم حقبة الفروق الفردية والتي سادت الثلث الاول من القرن العشرين ، ثم حقبة دراسة الشخصية والتي بلغت ذروتها في السنوات العشرين الاخيرة من هذا القرن . وهذا التقسيم التاريخي يقوم على المفهوم المتغير للفرد على نحو ما سوف يتضح من خلال المناقشة التالية لها.

**أولا : الحقبة الطبيعية :** من المعروف لنا أن الاهتمام بدراسة الطفل ليس وليد العصر الحديث ، بل يمتد الى عهود قديمة . فقد ورد في الكتب السماوية ما يشير الى تربية الصغار وتكوينهم ، وكذلك في النظريات التي نادى بها فلاطون في الجمهورية ، وفي كتابات المحدثين من الفلاسفة من أمثال جون لوك ، وجان جاك روسو وغيرهما عن تنشئة الطفل . لقد كان جون لوك ( ١٦٣٢ - ١٧٠٤ ) من أوائل المفكرين الذين مهدوا لهذه الحقبة ، فناقش الكثير من الافكار القديمة التي تتصل بتربية الطفل ونشر سنة ١٦٩٣ مقالته « بعض الافكار المتصلة بالتربية » نصح فيها المربين بترك الحرية للطفل كي يعبر عن مشاعره ، والا تقيده حرته الا قليلا . ولم يكن يتفق والآراء التي تذهب الى تدريب الطفل على الصيانة ، أو تأجيلهم للعمل ، لان من واجب الآباء ان يهتموا بتربية ابنائهم وأن يقووا الى جوارهم ما أمكنهم ذلك . وكون الآباء نماذج طيبة أمام الابناء هو أحسن نمط يمكن التأثير به في شخصية الابناء . ولقد كان **لوك** أحد المفكرين الأقوياء من أصحاب التأثير في تنمية الأسلوب العلمي . فرفض الاعتقاد بأن المعرفة فطرية ، وأكد أن كثيرا من معرفتنا إنما مبعثه الاحتكاك بالبيئة ، وأن هذه النتائج يجب أن تدعم من خلال الطرق التجريبية . وتعتبر أعمال لوك في الإدراك الحسي والتذكر وتداعي الأفكار والانفعالات ونمو اللغة من الأعمال التي ساهمت فيما بعد في أرساء قواعد علم النفس التجريبي .

وثمة مفكر آخر كان له تأثير عظيم على الاتجاهات نحو الاطفال ونعنى به **جان جاك روسو** ( ١٧١٢ - ١٧٧٨ ) والذي رفض - شأنه شأن لوك - الكثير من الافكار التي كانت سائدة في العصور الوسطى عن الاطفال . أن ما نخرج به من قراءتنا لروسو هو الاحترام الكبير للاطفال كأفراد . فمثلا يجب ألا يصر الآباء على اعتذار الطفل لانه لا يهدف بطبعه الى القيام بالخطيئة . انه مخلوق طيب بطبعه ، وأن ما يفرضه مجتمع الكبار عليه من قيود وتحريات هو الذي يعرقله ويضطره الى أن يكون شخصا أقل نبالة وفضيلة ، وقد كانت نظريته تخالف ما تواضع عليه المجتمع فدعا الى تشجيع الطفل على أن يعبر تعبيرا حرا غير مقيد عن نوازه الاصلية التي هي في جوهرها وأصلها نوازع نبيلة .

لقد بدأت لحقبة الطبيعية في أواخر القرن الثامن عشر حين أخذ نفر من الباحثين في دراسة الاطفال باستخدام منهج الملاحظة الفعلية . من ذلك ما قام به المربي السويسري **جوهان هاينريش بستالوتزي** ( ١٧٤٦ - ١٨٢٧ ) من نشر مذكرات تقوم على الملاحظة الدقيقة التي قام بها لنمو ابنه الذي يبلغ من العمر الثالثة والنصف . وقد أعلن هو الآخر أهمية فهم الاطفال وسلوكهم . وقد نظر الى الام باعتبارها أول وأهم مرب للطفل ، وحفزها على أن تصدق مشاعرها نحو الطفل ، وأن تفتح أمامه آفاق هذا العالم وتعدده لاستخدام حواسه وتقوية ملاحظته .

**وفي القرن التاسع عشر بدأت تظهر سلسلة متتابعة من تراجم حياة الاطفال . فقد قدم العالم المشهور تشارلس دارون ( ١٨٠٩ - ١٨٨٢ ) من بين أعماله العديدة ، مقالة أورد فيها ملاحظاته عن طفله الأول . كما قدم العالم الفسيولوجي ولهم تيري براير Preyer ملاحظاته الدقيقة عن النمو العقلي لطفله خلال السنوات الأربع الأولى من حياته .**

النمو النفسي : من الطفل الى الراشد

لقد لاحظ نمو الانعكاسات منذ الولادة ، كما لاحظ أثر الخبرة والتعلم . ويعد كتابه « عقل الطفل *The Mind of the Child* » وهو خلاصة ملاحظاته أحد أهم الكتب القديمة في علم نفس الطفل .

فالمنهج الطبيعي في دراسة الطفل - شأنه شأن المنهج الطبيعي في علم البيولوجيا - يقوم أساساً على الملاحظة والتسجيل الدقيقين لما يقوم به الطفل في موقف طبيعي وفي مجال نشاطه اليومي . فلم يكن الاهتمام موجهاً اذن بوجه عام نحو تحليل أو معالجة التغيرات في الموقف بقصد دراسة الانواع الخاصة للاستجابات أو التأثير على النمو .

وثمة مظهر آخر لمنهج الطبيعيين ونعني به الدراسة الطولية *Longitudinal* والتي تقوم على تكرار الملاحظات على نفس الفرد في فترات متعاقبة ( وهذه الطريقة الطولية تختلف عن الطريقة المستعرضة *Cross-Sectional* حيث ندرس النمو بمقارنة أطفال مختلفين في أعمار مختلفة ) .

والحقيقة أن الكثير من ملاحظات الطبيعيين القدامى تبدو لنا اليوم بسيطة وساذجة . فهي ملاحظات غير منهجية ، وتتم على فترات غير منتظمة . وطالما أنها كانت تفتقر الى المقارنات بين الاطفال وبين المواقف والظروف المختلفة للنمو بين الملاحظين ، فإنها كانت اذن دراسات غير مضبوطة تماماً . هذا بالإضافة الى أن الملاحظين في الاغلب كانوا لا يحجمون عن أقحام مشاعرهم الذاتية وتفسيراتهم الشخصية على ما يرونه من سلوك الطفل ، والذي هو في الاغلب ابنه أو أحد أقاربه . ومع ذلك ، ورغم كل هذه الانتقادات ، فلا تزال مثل هذه التراجم الاولى مصدر ثروة للمادة العارضة في نمو الطفل . كما أنها تعد بمثابة دراسة للفردية بالمعنى الحديث فالباحثون القدامى كانوا يوجهون اهتمامهم الى دراسة سلوك الطفل « بعامة » أكثر من اهتمامهم بدراسة النواحي التي يختلف فيها طفل عن الآخر .

وبطبيعة الحال استمر المنهج الطبيعي في خلال الحقبة الثانية وهي حقبة علم النفس التجريبي القديم ، ولكن بصورة معدلة وحتى وقتنا الحاضر . فالباحثون القدامى الذين اهتموا بدراسة الطفل كانوا أساساً طبيعيين في اتجاهاتهم ولكنهم بدأوا في تكييف مناهجهم القديمة مع الاتجاه التجريبي الجديد . ومن ثم نجد سير ستانلي هول (١٨٤٦ - ١٩٢٤) والذي كان مهتماً ببحث « محتويات عقول الاطفال » يلجأ الى استخدام منهج جديد للبحث هو منهج الاستخبار *questionnaire* والذي يتألف من سلسلة من الاسئلة وضعت للحصول على المعلومات عن سلوك الطفل والمراهق ، واتجاهاتهم واهتماماتهم ، كما كان يجمع الاستجابات المكتوبة على هذه الاستخبارات من كل من الاطفال وآبائهم على السواء . ويمكن القول أن عمل «هول» الذي استمر في القرن العشرين يحدد بداية الدراسة المنظمة لعلم نفس الطفل . لقد بدأ يركز الانتباه على جوانب معينة من نشاط الطفل ، كما أنه يعد من الناحية المنهجية أكثر موضوعية من المناهج الفلسفية وتراجم الحياة ، هذا بالإضافة الى مكان معالجة نتائج هذه الاستخبارات في صورة كمية .

**ثانياً : حقبة علم النفس التجريبي القديم:** وعلى خلاف الطبيعيين الذين اهتموا بالتركيب على الوظائف الكلية للطفل - والطفل دائماً - فان التجريبيين الاول قد ركزوا اهتمامهم على دراسة الوظائف الجزئية كعمليات التفكير والتذكر والادراك والتصور وما اشبه . ولكنهم كانوا يشبهون الطبيعيين في ناحية البحث عن القوانين العامة أو الصور الكلية لهذه الوظائف المجردة النقية . ومن أجل البحث وراء العمومية والنقاء ، تركوا المجال الطبيعي ودخلوا المعمل حيث يمكن تجنب الكثير من تعقيدات الحياة اليومية وتعقد الظروف فيها . وفي المعمل يمكن استخدام الطرق السيكوفيزيكية وتغيير الظروف بشكل منتظم واستخدام كل ظرف على حدة . ولجعل الظروف نقية تماماً لجأ بعضهم الى تخلص المثيرات ، قدر الامكان ، من جميع المعاني على نحو ما فعل ابنجهوس في تجاربه المشهورة على التذكر ، والتي استخدم فيها مقاطع صماء عديمة المعنى ، كما أنهم في بحثهم عن العمومية نظروا الى الفروق الفردية التي توجد بين الافراد في الاستجابة للمثيرات المختلفة باعتبارها شوائب تجريبية أو أخطاء في القياس ، ولجأوا الى تكرار الاقيسة من أجل الحصول على متوسطاتها . وبالمثل لم يكن يرحب هؤلاء بالتغيرات أو الاختلافات في الفروق النمائية . فالتجريبيون الاول كانوا مهتمين أساساً بالوظائف الجزئية عند الكبار ودراستها في ظروف نقية قدر الامكان ، بقصد الوصول الى القوانين العامة التي تخضع لها . ولذا كان نصيب التجريب المعمل على الاطفال في هذه الحقبة السيكوفيزيكية المبكرة ضئيلاً .

ولكن بعد ذلك ، أخذ علماء النفس المعمل يوجهون اهتمامهم نحو التغيرات النهائية، وأجريت دراسات على التغير مع السن في مظاهر السلوك المختلفة مثل زمن الرجوع ، وفترات التذكر والنسيان وحل المشكلات وغيرها .

يضاف الى ذلك أن المناهج التجريبية في المعمل أصبحت قابلة للتطبيق على عدد كبير من المشكلات خارج جدران المعمل حيث يمكن دراسة الآثار المباشرة والبعيدة المدى لظروف أكثر تعقيداً ، مثل دراسة القيادة السلطوية ضد القيادة الديمقراطية ضد القيادة المطلقة ، أو دراسة منهج تعليم القراءة عن طريق السمع في مقابل البصر . والواقع أن المنهج الاساسي للتجريب والذي استعمر من السيكوفيزيقا يتطلب فقط ضبط الظروف والمقارنة بينها .

**ثالثاً : حقيقة الفروق الفردية** ثم ظهر مجال جديد من مجالات الاهتمام في علم النفس العلمى في السنوات الاولى من القرن العشرين . لقد أخذ هذا الاتجاه الجديد مظهرين : الاول النظر الى الناس على أساس وجود سمات متعددة لديهم . والثانى كيفية توزيع هذه السمات على المجموع العام من الناس . فمجال الاهتمام والتركيز في هذه الحقبة لم يكن منصّباً على طبيعة الوظائف العقلية أو العمليات العقلية المفردة - كما كان في الحقبة السابقة ، بل على مقدار وجودها وتوزيعها بين الناس .

**والفكرة الاساسية التي يقوم عليها هذا الاتجاه ،** هي تلك العبارة التي دوى صداها في تلك الايام والتي تعزى الى ثونديك حيث يقول « أن كل ما يوجد ، يوجد بمقدار ، وكل

ما يوجد بمقدار يمكن قياسه » . وفي هذه الحقبة ، كانت الاختبارات كأداة ، هي موضع اهتمام بالغ لدى علماء النفس . فمع بداية الحرب العالمية الاولى ظهرت الحاجة ماسة الى اجراء الاختبارات السيكولوجية على نطاق واسع على المجندين الجدد في الجيش . ومن ثم ظهر العديد من اختبارات الذكاء . وكان من نتيجة ذلك أيضا أن ظهرت الاختبارات الجمعية التي يمكن أن تطبق على عدد كبير من الافراد في وقت واحد . وبعد الحرب استخدمت الاختبارات العقلية على نطاق واسع في مجال المدرسة وميدان التعليم . ومن قياس الذكاء انتشرت الاستخدامات المختلفة للاختبارات ، فاستخدمت في قياس القدرات الخاصة عند الفرد كالقدرة اللغوية أو الرياضية أو الميكانيكية أو الموسيقية ، كما استخدمت أيضا في قياس الشخصية .

ومن أئمة حركة القياس نذكر **جالتون وجيمس ماكدكنازل وثورنديك وترستون وترمان وسبيرمان** وغيرهم كثيرون ممن أتى بعدهم . وكانت حركة القياس والتي تعرف الآن باسم « السيكومترية » ظاهرة من ظواهر علم النفس الأمريكي ، وان كانت هذه الحركة قد بدأت أولا في فرنسا على يد طبيب فرنسي مشهور هو « الفردينيه » ويعتبر بينيه أحد الرواد الاول في قياس الذكاء ، حيث وضع اختبار المشهور وزميله سيمون والذي عرف فيما بعد باسم « مقياس استنفورد - بينيه - للذكاء » - والذي خرجنا منه بفكرة هامة في قياس الذكاء هي فكرة العمر العقلي . وكانت هذه الفكرة هي بداية كثير من الافكار التي من هذا النوع والتي استخدمت على نطاق واسع بعد ذلك في دراسة الطفل : كالعمر التحصيلي والعمر التعليمي والعمر القرائي الخ . . ومن المهم أن نلاحظ أن قياس السمات على أساس العمر أو أي مقياس أخرى هو دائما نسبي بالنسبة للمجموع العام من الناس . ومع ذلك فقد عولجت في الاغلب كما لو كانت مقاييس مطلقة تعبر عن المقدار الفعلي للذكاء أو أي سمة أخرى لدى الفرد .

ويجدر بنا أن نشير الى أن اهتمام السيكومترين الاول بالفروق الفردية كان في الحقيقة موجها الى اختلاف الجماعات في سمة ما في وقت واحد ، وليس الى الطريقة التي بها يختلف فرد عن آخر . ومع ذلك ، فقد طبقت المقاييس العقلية على الافراد بقصد التصنيف التربوي أو المهني . واستخدام اختبار بينيه أساسا كوسيلة تساعد على تقدير قدرة الفرد على التعليم ، وفي التمييز بين العاديين وغير العاديين .

ولقد حاول نفر من السيكومترين بعد ذلك الوصول الى تقدير شامل للفرد بتحديد درجته في مجموعة من الاختبارات توضع لقياس سمات مختلفة . ورغم أن هذه الطريقة مكنت المختبر من وضع عدد من الاحكام المستقلة المنفصلة عن الفرد موضع الدراسة ، إلا أنها لم تبين لنا كيف ترتبط هذه السمات بعضها ببعض .

وغالبا ما يركز السيكومتريون على وسائل القياس ذاتها ، وعلى الانماط العامة لتغير الجماعة في حدود منحنى التوزيع الاعتدالي ، واغفال الافراد موضوع الدراسة ( أو حتى السمات ) . وعلى الرغم من استخدام الاطفال كافراد عند تطبيق الاختبارات ، إلا أن الاهتمام



الرئيسى لحركة القياس لم يكن موجهاً الى دراسة طبيعة الطفل كطفل . ولكن حديثاً ، أصبح المختبرون أكثر مرونة في تفسير نتائج القياس ، واصبحت الاختبارات وسيلة ضرورية وهامة في دراسة الطفل .

**ولكن كى تكون النتائج التى نحصل عليها من استخدام الوسائل السيكومترية مفيدة وناقعة ، يلزم أن تتوفر فكرتان أساسيتان في نفس المقياس ونعنى بهما الثبات والصدق .**

**أما الثبات** فمعناه أن المقياس يعطى أساساً نفس التقدير عند إعادة تطبيقه على الافراد .

**أما الصدق** فمعناه أن الاختبار يقيس ما وضع لقياسه . والاختبار الجيد يمكننا من التنبؤ بما سيكون عليه سلوك الطفل أو الفرد بوجه عام . فمثلاً اختبار الذكاء يمكننا من التنبؤ بمدى تحسن التلميذ أو الطفل في المدرسة ، ومدى استعداده للدراسة في مستقبل أيامه . ولكن الاحكام الخاصة بأداء الطفل في المدرسة ليست ثابتة تماماً ، حيث تتأثر بعدد كبير من العوامل الأخرى غير الذكاء . وعلى العموم ، فنتائج اختبار الذكاء ترتبط ارتباطاً عالياً بالتحصيل ، أعنى أن الذين يحصلون على تقديرات عالية في اختبار الذكاء ، يحتمل أن يكون تحصيلهم للدراسى عالياً ، كذلك والعكس لكن تحدث استثناءات فردية يمكن أن ترجع الى خطأ في احكام المدرسين أنفسهم أو الى عمل عدة عوامل أخرى تتدخل الى جانب الذكاء أو الى الاختبارات ذاتها .

ويجب الا يظن القارئ أن الاختبارات كانت هي وحدها الادوات الجديدة التى استخدمت في هذه الحقبة الخاصة بالاقيسة العقلية . ذلك أن مناهج الملاحظة التى اتبعت في الحقبة الطبيعية قد عدلت واخذت هي الأخرى صورة كمية . فقد ظهرت لدينا طريقتان جديدتان انتشرتا انتشاراً واسعاً ، ونعنى بهما مقياس التقدير rating scale والعينة الزمنية time sample وهذه الأخيرة بالذات وضعت للاستعمال مع الاطفال ، وعلى العموم فقد استخدمت كلا منهما استخداماً واسعاً في دراسة الطفل .

**وطريقة مقياس التقدير** طريقة يحدد فيها الحكم Judge درجة الفرد بالنسبة لسمة أو مجموعة من السمات كالأمانة والتعاون والخضوع أو السيطرة . ويمكن أن يكون هذا التقدير نسبياً أى بالنسبة لأعضاء نفس الجماعة التى ينتمى إليها الطفل في ضوء قوائم وضعية توضع لذلك ، أو قد يكون تقديراً تقريبياً كى يقوم على أساس الاحساس الذاتى للحكم . وتقوم التقديرات في هذه الحالة على أساس الملاحظات الخاصة التى يقوم بها الحكم للسلوك الخاص للطفل ، أو المواقف الخاصة أو على أساس المعرفة الطويلة الأمد بالطفل على نحو ما هو الحال في تقدير الآباء والمدرسين للطفل . وبمقارنة تقديرات نفس الطفل على نفس السمة في أوقات مختلفة ، أو بالنسبة لتقديرات حكاهم مختلفين يمكن أن نصل الى معرفة لمدى ثبات هذه التقديرات . وعندما تتوفر للتقديرات درجة ثبات عالية ، فإن التقديرات تسمح لنا في هذه الحالة بإجراء مقارنات بين الافراد ، وبين الجماعات أو بين الظروف - على نحو ما يحدث بالنسبة لمناهج التدريس - التى تؤثر في الافراد أو الجماعات . ويمكن أن تطبق التقديرات على الأشياء كما تطبق

النمو النفسي : من الطفل الى الراشد

على الاشخاص ، على نحو ما تستخدم مثلاً في الحكم على رسومات الاطفال تحت ظروف مختلفة . وتعتبر تقديرات الذكاء احدى الوسائل الهامة التي تستخدم في تقدير صدق اختبارات الذكاء ، رغم أن الاختبارات يقصد منها في الحقيقة أن تحل محل هذه النتائج الذاتية . والمشكلة الرئيسية في مقاييس التقدير هي في الواقع تحديد السمات المراد تقديرها بحيث يمكن أن تطبق بطريقة مفهومة على جميع الافراد .

**اما النوع الثاني ونقصد به العينة الزمنية** فهي طريقة من طرق الملاحظة يتركز فيها انتباه الملاحظ على حدوث أو عدم حدوث أنواع من السلوك تحدد سلفاً ، وتعتبر ممثلة للسمة المراد دراستها . وتجري الملاحظات على عدد محدود من الاطفال في فترات زمنية ، وتحدد من قبل وتعطى عينة من نشاط الطفل بصرف النظر عن التأثيرات المعارضة ، كالحالة المزاجية للطفل أو الاحداث الخاصة وما شابه . فمثلاً استخدمت طريقة العينة الزمنية في دراسة العلاقة بين كون الطفل لديه عدد قليل أو كثير من اللعب ، وبين تكرار انفجارات أو ثورات الغضب والعُدوان لديه ، وظهور أو انتشار سمات معينة كالعصبية والاتجاهات الاجتماعية في اعمار مختلفة أو تحت ظروف مختلفة .

**وهناك اتجاه آخر** ظهر في الحقبة السيكمترية يلقي الضوء على الاهتمام بالفردية في الحقبة التي تلى ذلك ، ونعني به ظهور عدد من **الدراسات الطولية** . ولكن ابتداء من أعمال ستانلي هول تحولت معظم دراسات نمو الطفل الى دراسات مستعرضة ، أي مقارنة اطفال مختلفين في اعمار مختلفة . وهذه الطريقة المستعرضة اثارت مشكلة منهجية خطيرة وهي هل وصف عمليات النمو التي تقوم على أساس مادة مستمدة من أفراد مختلفين في اعمار مختلفة ، يمكن أن تعتبر حقاً دراسة أو وصفاً للنمو؟ وكانت الدراسات الطولية التي اجريت للاجابة عن هذا السؤال هي تخطيط النمو بالنسبة لنفس الافراد منذ الولادة وما بعدها ، وقد اوضحت بالطبع أن منحنيات نمو الافراد تختلف اختلافاً دالاً عن المنحنيات التي تجرى لها تسويات والتي تقوم على أساس متوسطات الجماعات . ونحن ندين للدراسات الطولية بمعرفة فترات الكمون والطفرات في النمو ، والمسالك النمطية للنمو والتي يسير فيها الافراد المختلفون . ورغم تركيز الباحثين على النمو الفردي ، فإن دراسات النمو قد نظر اليها داخل اطار الاقيسة ، كما ركزت على الطرق السيكمترية أو مقاييس السمات الجسمية .

**رابعا : حقبة دراسة الشخصية** : ان علم النفس يهتم أساساً بمعرفة كيف يسلك الناس . والسيكولوجيون العلميون الاول وكذلك السيكمطريون ، كانوا مع ذلك مهتمين أساساً بالمشكلة الفنية ، وهي كيف يمكن فصل العمل الانساني من أجل الدراسة السهلة . ولكن ابتداء من منتصف الثلاثينات كان هناك احساس متزايد بالشكوى من مصادر متعددة من أن دراسة الانسان انتهت الى أن تصبح دراسة أجزاء متعددة ، وأن الوقت قد حان الى النظر اليه ككل ، وتجميع هذه الأجزاء في كل متكامل . لانه اذا نظر للكائن الحي جزءاً جزءاً ، فإن الخصائص الانسانية المميزة التي تنتمي الى هذا الكل النامي تميل الى الاختفاء : مشاعره واحساساته وأهدافه وأسلوبه الشخصي .

فالفرد ليس حزمة بسيطة من السمات التي يمتلكها بمقادير متفاوتة في الكبر والصغر . فسماته المتعددة انما تخضع - وظيفيا في نمط منظم - الى اهتماماته الانسانية الخاصة ، وانه مهما كانت لديه سمات مشتركة بينه وبين الاشخاص الآخرين ، فان هذه السمات تأخذ معناها الفردى الخاص بالنسبة للمحتوى العام الذى يتميز به سلوك الفرد . والحقيقة انه تحت تأثير مدرسة الجشتلت ومدرسة التحليل النفسى ، أصبح علماء النفس أكثر اهتماما بمفهوم الشخصية ودراساتها وطبيعة الفردية، وكيف ينتظم الناس مع هذه الطبيعة . واذا كان السيكونفزيون الاول بحثوا قياس الوظائف النقية « مستقلة عن المعنى » ، واذا كان السيكونمزيون الاول بحثوا قياس الدكاء الخالص مستقلا عن الخبرة السابقة والسمات الاخرى كالانفعالية ، فان هذا الجيل الجديد من الباحثين أراد أن يعطى لكل هذه الامور دورها الكامل ، وأن يرى الانسان ككل يتفاعل مع بيئته الحقيقية. وبهذا المعنى ، فان هذه الحقبة الجديدة تعتبر عودة الى الحقبة الطبيعية ، ولكنها تختلف عنهما من حيث اهتمامها بالفرد وبوحدة الشخصية وبالاختلافات والعموميات على حد سواء .

وقد عادت بعض الطرق التى ظهرت في الحقبة الطبيعية الى الظهور ثانية ولكن بصورة معدلة . فالتقارير اليومية استخدمت بشكل أكثر دقة، وامن تدريب الملاحظين لسلوك الاطفال من اجل أن تكون التقارير أكثر ثباتا ودقة ، كما درب الملاحظ أيضا كيف يبقى بعيدا في نفس الوقت الذى يلاحظ فيه سلوك الاطفال ، بمعنى الا تصبح مشاعره مختلفة بما يقوم بملاحظته من سلوك الطفل ، أعنى بعبارة أبسط درب الملاحظ على أن يكون موضوعيا في ملاحظته . كما عادت الى الظهور الدراسات الميدانية . فباحث ليفين عن القيادة حاولت أن تهيب تجريبيا ، بيئة طبيعية بدرجة كبيرة أو صغيرة لجميع الاشخاص ، كما استخدمت طرق ملاحظة المجال .

غير أن الطرق الحقيقية التى تنتمى الى هذه الحقبة ، فهى تلك التى أطلق عليها «جوردون البورت » اسم المنحى الناموسى nomothetic الذى يهدف الى الكشف عن القوانين العامة والمنحى المتفرد أو الاكلينيكى idiographic الذى يهدف الى الكشف عن الوحدة المتفردة للكائن الحى . ذلك أن من عادة العلماء أن يتجه اهتمامهم الى الكشف عن القانون العام أو القاعدة السائدة في السلوك الانسانى ، والى وضع المبادئ العامة والكشف عن العلاقات والتفاعلات بين المتغيرات ، أو الى استخراج معايير النمو . وهم يستعينون من أجل تحقيق ذلك بدراسة مجموعات كبيرة من الافراد يقومون بدراساتهم أو يطبقون عليهم اختباراتهم وملاحظاتهم بقصد معرفة القانون العام الذى تخضع له هذه الظاهرة موضوع الدراسة . حقيقة، هناك خصائص عامة مشتركة بين افراد الجنس الواحد ، وقوانين عامة تنطبق عليهم ، ولكننا مع ذلك لا نجد اثنين من البشر متطابقين تمام التطابق . فالتناس فى تفردهم أشبه ببصمات الاصابع ، ومن المستحيل أن نجد بصمتين متشابهتين لشخصين مختلفين . كما أن عالم النفس والرأى كثيرا ما يضطر الواحد منهما الى أن يركز انتباهه على فرد معين بالذات

النمو النفسي : من الطفل الى الراشد

ليحاول فهمه فهما دقيقا شاملا ، ومن ثم يجد نفسه مضطرا الا يقتصر على مجرد فهم المبادئ العامة للنمو والتطور والقوانين العامة التى تحكم سلوك الفرد ، بل يركز اهتمامه على الفرد ككل . فالخاصية المميزة للانسان هى فرديته ، اعنى اعتباره مخلوقا فريدا في الطبيعة وانه مستقل مكانيا عن غيره من الافراد ، ولا يشبه تماما أى فرد آخر ، وان يسلك في مجاله الخاص في الحياة وعلى طريقته الخاصة .

**وفي بداية الثلاثينات** شاعت بعض الطرق التى تعنى بالمنحى المتفرد والتى من أهمها تلك المسماة بالطرق الإسقاطية ، وهذه التسمية اطلقها عليها لورانس فرانك سنة ١٩٣٩ .

وهذه الطرق تواجه الفرد بموقف أو مادة غير محدودة وغير متشكلة وغامضة الى حد ما ليستجيب اليها كما يشاء وكما يحب . والدلالات الخاصة التى يعزوها للموقف تعتبر ذات أهمية بالنسبة له ولطريقة ادراكه لهذا العالم . ومن أشهر الاختبارات الإسقاطية المعروفة والواسعة الانتشار والتى تستخدم على نطاق واسع في دراسة الشخصية اختبار بقع الحبر لهرمان رور شاخ حيث يفسر المفحوص طفلا كان أم كبيرا ، عددا من بقع الحبر غير المتشكلة . وكذلك اختبار تفهم الموضوع لهنرى مورى حيث يكون الفرد قصة عن كل صورة من الصور التى تعرض عليه ، يكشف فيها عن مشاعره واتجاهاته نحو الموضوعات الرئيسية التى تتضمنها الصورة . وهناك اختبار تداعى الكلمات لـ « كارل يونج » حيث يستجيب المفحوص لقائمة من الكلمات التى تعرض عليه شفاهة كلمة كلمة ، ويسجل زمن الرجوع والاستجابة التى يذكرها المفحوص ، والذى بواسطته يمكن الكشف عن مجالات الضغوط في حياة الفرد . وإذا كانت هذه الاختبارات قد وضعت للصفار والكبار على السواء ، فان هناك عددا آخر قد وضع خصيصا للأطفال كاختبار اللعب ( لويزا ديز ) واختبار تفهم الموضوع للأطفال . وعلى العموم يمكن القول بأن ليس هناك استجابات صحيحة وأخرى خاطئة للاختبارات الإسقاطية ، وان ما يراه كل فرد انما يتشكل وفق ادراكه وحالاته الانفعالية واتجاهاته وميوله وقيمه . وهذه الاختبارات الإسقاطية يمكنها ان تكشف عن التنظيم الداخلى للفرد دون ان يشعر الفرد بذلك ، أو دون أن توجه اليه الاسئلة بطريقة مباشرة على نحو ما نجده مثلا في الاستخبارات التى يحاول المفحوص أحيانا الا يجيب عنها بصراحة أو دقة متناهية .

وفي خلال هذه الحقبة أيضا كان هناك اهتمام متزايد « بالتجربة الطبيعية » هذا المنهج الذى استخدم في ميادين مختلفة كالفلك والاجتماع والطب ، أو حيث تكون الظروف التى تقوم بدراستها خارج قدرة الباحث ويصعب عليه اخضاعها للتجريب وعوامل الضبط ( اما لأسباب خلقية أو لأسباب عملية ) . ولذا فليس على الباحث الا ان ينتظر حتى تتفضل الظاهرة بالمثل بطريقة طبيعية للملاحظة ، ودراستها . والدراسات التى أجريت على اثر اصابات المخ في الانسان تدخل بالضرورة تحت هذا النوع . وبالمثل أيضا الدراسات التى قام بها شبيتز Spitz عن اثر الحرمان المبكر على الاطفال ، وكذلك دراسات آنا فرويد والمجلس القومى للبحوث في أمريكا عن الآثار النفسية للكوارث . وبالمثل فان أى باحث يهتم

بدراسة النمو الشاذ ، نجده مضطرا للتعامل مع مثل هذه الحالات التي يقابلها . وبالطبع يمكن اجراء الدراسة على الحيوان حيث يكون الباحث أكثر قدرة على اجراء التجارب واعداد الظروف التي يستحيل اجراؤها على الانسان. والجدير بالذكر ان جانبا كبيرا من الافكار في سيكولوجية النمو ، يأتي من دراسات اجريت على الحيوانات ويمكن ان نشير الى دراسات ليدل Liddell وغيره على الماعز والخراف ، في علاقة الصفار بالام ، وعلى العصاب التجريبي . ولذلك تعتبر التجربة الطبيعية هي منهج السيكلوجي الاكلينيكي او الطبيب النفسي ، الذي يريد دراسة شخص فرد نتيجة اهتمامه بآثار ظروف خاصة ، او البحث عن فروق في الشخصية او في المناهج العلاجية .

**تلك هي المناهج الاربعة الرئيسية في دراسة النمو - الملاحظة والتجربة والاختبارات والمقاييس الاكلينيكية .** وقد ظهرت بالتتابع نتيجة اهتمامات واتجاهات مختلفة لدى الباحثين ، ولكنها جميعها اثبتت نفعها لعدد من الاغراض في دراستنا للكائن الحي الانساني .



### ● نظرة الى دراسات النمو النفسي

اعتاد غالبية علماء نفس الطفل عند دراستهم لعملية النمو ، النظر الى التفيرات المختلفة التي تطرأ على الكائن الحي منذ اللحظة الاولى التي تبدأ فيها الحياة جنينا في بطن الام ثم تعقبه بالدراسة حتى الرشد . وقد اخذ هؤلاء بفكرة تقسيم النمو الى مراحل زمنية يمر بها الكائن الحي . فهناك مرحلة ما قبل الولادة والطفولة المبكرة والمتأخرة والمراهقة . وعادة يتتبع الباحث داخل كل مرحلة دراسة مظاهر النمو المختلفة وتطورها . فهناك النمو الجسمي والعقلي والاجتماعي والانفعالي . وقد يأخذ الباحث مرحلة بعينها ويعالج فيها جوانب النمو المختلفة ثم ينتقل الى التي تليها وهكذا ، او قد يأخذ مظهرا بعينه من مظاهر النمو ويتتبعه بالدراسة في جميع المراحل ثم ينتقل الى مظهر آخر وهكذا . والنتيجة واحدة في كلتا الحالتين وان اختلف الاسلوب الذي يتبعه الباحث ، ولواظمنا على الكثير من كتب علم نفس النمو ، سواء ما كتب منها بالعربية او باللغات الاجنبية ، نجد انها قد سلكت سبيل هذه الدراسة الوضعية او الشكلية . ومن امهات الكتب في هذا المجال ما قدمته اليزابيث هرلوك في مجموعتها الثلاثية الهامة .

Developmental Psychology ( ١ )

Child Development ( ٢ ) و

Adolescent Development, ( ٣ ) و ما قدمه ارنولد جيزل وآخرون في تلك السلسلة الرائعة من كتب النمو والتي تعد دراسة تطويرية هامة من الطفولة المبكرة حتى الشباب والتي وردت بكتبهم .

## ( ١ ) Infant and child in the culture of today

## و ( ٢ ) Child from five to ten

و ( ٣ ) Youth والتي ترجمت كلها الى اللغة العربية ، وكذلك كتاب آرثر جيرسلد وآخرون Child psychology . ولا يمكن حصر الكتب التي سارت على هذا النحو في هذا المجال .

غير ان ثمة اتجاهات آخر ركز على الكائن الحي ككل واهتم بالاطار النظري العام لعملية النمو واقتربت الدراسة فيه من دراسة لنمو الشخصية . والنظرة هنا في شمولها نظرة دينامية اكثر منها وصفية . فقد ركزت معظم النظريات التي اتبعت هذا المنحى الاخير على دراسة العوامل المؤثرة في نمو الشخصية ابتداء من الطفل حتى الرشد ، وكيف أثرت هذه العوامل او المحددات في بناء الشخصية وفي نوع النمو الناتج عنها . وكان من الطبيعي ان تتعدد ايضا النظريات التي سلكت هذا السبيل . ذلك ان ابنية الشخصية وعملياتها لا يمكن ملاحظتها بشكل مباشر ، وانما يتطلب الامر الاستدلال عليهما من النمط للاستجابات التي يقوم بها الفرد داخل اطار موقف معين . ولذا فليس مما يشير الدهشة اذن ان تختلف نظرة الباحثين لنمو الشخصية او بمعنى اوسع النمو النفسي للفرد . فاذا كان فرويد مثلاً يؤكد في تحليله للنمو النفسي على تطور الدوافع والانفعالات وبخاصة خلال السنوات الثلاث الاولى من الحياة ، فان كتابا آخرين من اصحاب الاتجاه النمائي من أمثال هاينز فرير ، وجان بياجيه لا يلقون اهتماما بالكلية الى نمو الدوافع او الانماط الانفعالية ، بل يوجهون اهتمامهم باكماله الى النمو المعرفي ، والتفكير التكيفي ، على حين يتمسك آخرون بالنظرية الفرويدية ولكنهم يدخلون عليها بعض التعديلات والاضافات على نحو ما فعل أريكسون .

واذا كانت النظريات التي كتبت في هذا الاتجاه الثاني كثيرة ومتعددة ، فان ضيق المجال لا يسمح لنا بالتعرض لها جميعها . ولذا سوف يخصص الباحث هنا بالذكر نظريات اربعة لها اهميتها وهي نظرية النمو النفسي - الجنسي لفرويد ، ثم نظرية النمو النفسي - الاجتماعي لأريكسون ، والتي تعد تعديلاً للأولى واطرافاً عليها ، ثم نظرية نمو الذات عند جوردون البورت ، واخيراً نظرية النمو العقلي المعرفي عند جان بياجيه . وسوف نشير الى كل نظرية منها بشيء من الاضافة .

اولا : النظرية النفسية - الجنسية لفرويد :

ان مادة التحليل النفسي وكتاباته لا حصر لها . ومن المستحيل في مثل هذا المجال ان نقدم عرضاً وافياً لمثل هذه النظرية الضخمة . ولذا سوف نقصر أنفسنا هنا على الجوانب التي من شأنها ان تساعدنا في التعرف على النمو النفسي عند اصحاب نظرية التحليل النفسي . ويحسن قبل ان نتعرض لمراحل النمو النفسي الجنسي في نظرية فرويد ان نلقى الضوء على ديناميات الشخصية وبنائها ثم نعرض لمراحل النمو .

### ديناميات الشخصية :

● ان نظرية التحليل النفسي - ككل النظريات الدينامية - تدور حول القوى أو الحوافز ، فهي أساسا نظرية دافعية . والظواهر العقلية ينظر اليها على أنها نتيجة قوى متفاعلة يمكن ان تفهم من وجهة نظر تاريخية . وبعبارة أبسط ان فرويد ينظر الى الاحداث الراهنة باعتبارها نتاج نمو سابق تمتد جذوره الى الماضي .

والمصطلح الذى استخدمه فرويد للدلالة على الطاقات او القوى التى تستثير النشاط الانساني هو المصطلح الالماني Trieb والذي ترجم الى اللغة الانجليزية ، بالمصطلح Instinct والذي يعرف فى اللغة العربية بالفريزة . ولكن هذه الترجمة للمصطلح الالماني ادت الى الخلط فى فهم هذا المصطلح . ذلك ان Trieb كما استعمله فرويد ، لا يتضمن معنى النمط الثابت غير القابل للتغير ، والدئى يعنيه المصطلح Instinct . فتحت الظروف والتأثيرات البيئية ، يمكن للفريزة بمعانيها فى المصطلح الالماني ، ان تغير من اهدافها وموضوعاتها .

ومفهوم الفريزة من المفاهيم الاساسية فى كتاب فرويد وتفكيره . ومعظم كتابات فرويد تملئها فكرته وهى ان الانسان ولد مزودا بفرائز معينة . ولقد صادق فرويد على وجود نوعين من الحوافز الانسانية أو الفرائز وكلاهما بيولوجى فى طبيعته . اما النوع الاول فيتكون من الحاجات الجسمية البسيطة كالجوع والعطش والاخراج والتنفس ، هذه الحوافز أو الدوافع تستثيرها التغيرات البدنية التى تحدث داخل الكائن الحي العضوى . وشباع هذه الحوافز أو الحاجات الاساسية أمر حيوى لبقاء الانسان ، كما أن اهدافها لا يمكن تغييرها أو تعديلها . ولذا ، فان الاختلاف بين الافراد بالنسبة لهذه الحاجات قليل للغاية ومن ثم فانها تعد قليلة الاهمية نسبيا لعالم النفس .

**اما المجموعة الثانية من الحوافز فهي تلك التى وصل اليها فرويد من دراساته للمرضى النفسيين .** وهذه يمكن تقسيمها الى قسمين: فريزة الحياة وفريزة الموت . الاولى تخدم غرض الحفاظ على الحياة وتكاثر الجنس ، ويطلق فرويد على القوة الحيوية الدافعة لها اسم « الليبيدو » وهو هذا الجزء من تركيب «الهو» الذى يبحث عن اشباعه من الحوافز الجنسية . ومعنى الجنس عند فرويد أوسع بكثير من مفهومه الدارج فى حياتنا اليومية وفى لفتنا الدارجة . فهو يتضمن بالإضافة الى معناه المتصل بالحوافز الجنسية عند الكبار - كل ما يؤدى الى الشعور باللذة من خلال استثارة المناطق الشبقية للجسم ، وهى المناطق التى لها قدرة على إثارة الاحساس السار أو الشعور باللذة عند الفرد . وهى غالبا المناطق الحساسة فى جسم الانسان كالشفاه والتجويف الفمى والمنطقة الشرجية وأعضاء التناسل . والفريزة الثانية وهى فريزة الموت فهى تخدم أغراض الهدم والتدمير .

**وتتميز الفريزة عند فرويد بأربع خصائص وظيفية أساسية هى : المصدر والهدف والموضوع والقوة الدافعة .** ولتوضيح هذه الخصائص لنفرض أن انسانا ما يحس بألم فى

النمو النفسي : من الطفل الى الراشد

أسنانه ، فان نتيجة هذا الاحساس تدفعه من خلال مبدأ التوازن الداخلى الى خفض التوتر على النحو التالى :

**المصدر Source :** وهو الحالة البدنية للشخص وهو هنا الالم الذى يحسه الفرد في أسنانه .

**الهدف Aim :** وهو التخلص من الاستثارة أو التهيج البدنى . وهو هنا ازالة الالم الناتج عن تسوس السن والعودة الى حالة الارتياح التى كان يحس بها قبل حدوث الالم .

**الموضوع Object :** وهو يشير الى ضروب النشاط التى تقع بين ظهور الحاجة وتحقيقها . فهو لا يشير الى شيء بعينه أو حالة تشبع الحاجة فحسب ، بل انه يتضمن كذلك كل أشكال السلوك الذى يحدث مستهدفا الحصول على الشيء أو الحالة اللازمة . وهو فى هذا المثال ترتيب موعد مع الطبيب والذهاب اليه والجلوس على الكرسي .

**القوة الدافعة Impetus :** ويقصد بها قوة أو شدة الحاجة المحركة . فآلم الاسنان حين تخف حدته أثناء النهار تقل قيمة المثير الى حد ما ، ولكن حين يصبح الالم غير محتمل خلال الساعات الاولى من الليل تزداد قوة المثير بشكل واضح وتصبح القوة الدافعة أكثر شدة فيزداد اصرار الشخص على ضرورة الذهاب الى الطبيب .

ويرى فرويد أن مصدر الفريزة وهدفها يظلان ثابتين طوال الحياة ، مالم يتغير المصدر أو يزول نتيجة النضج الفيزيقي . أما الموضوع أو الوسيلة التى يحاول بها الفرد اشباع الحاجة فهى تتباين تبانيا ملموسا خلال حياة الفرد ، وذلك نتيجة قابلية الطاقة النفسية للازاحة من موضوع لآخر . وإذا كان هذا الإبدال أو هذه الازاحة ممكنة بالنسبة للموضوع فهى غير ممكنة بالنسبة لمصدر الفريزة أو هدفها .



### ✽ بناء الشخصية :

**وتتكون الشخصية من ثلاثة نظم أساسية: الهوى ، والأنا ، والأنا الأعلى .** ورغم أن لكل جزء منها وظائفه وخصائصه ومكوناته ومبادئه ودينامياته وميكانيزماته التى يعمل وفقا لها ، الا أنها جميعا تتفاعل معا تفاعلا وثيقا بحيث يستحيل فصل تأثير كل منها عن الآخر وتقدير وزنه النسبى فى سلوك الانسان . فالسلوك ، فى الأغلب ، هو محصلة تفاعل هذه الانظمة الثلاثة . ونادرا ما يتفرد أحداها بالعمل دون الآخرين . وسوف نوضح فيما يلى كل واحدة منها على حدة وباختصار .



**الهو :** لقد كتب الكثير عن هذا المصطلح الذى وضعه فرويد . و « الهو » هو النظام الاصلى للشخصية والذى يعتبر أساسا لكل حياة انسانية . فهو يوجد مع الانسان منذ لحظة ولادته ، ويظل معه طول حياته . هو ذلك الجزء من النفس الذى يحوى كل ما هو موروث أو غريزى ، كما يحوى العمليات العقلية المكبوتة التى فصلتها المقاومة عن الحياة النفسية الشعورية . فالهو مستودع الطاقة النفسية كما أنه يزود العمليات التى يقوم بها النظامان الاخران بطاقةهما .

ويخضع **الهو** لمبدأ اللذة فقط ولا يهتم بأى شيء آخر . أنه هذا الجزء الخام ، غير المرتب ، غير المهذب ، الباحث عن اللذة . أنه الزاد الاساسى الذى يحرك الانسان خلال حياته ، أنه لا يعرف القوانين ولا يخضع لقواعد ويبحث فقط عن شهواته . أنه القوة المحركة لوجود الانسان . وعلى الرغم من أنه وثيق الصلة بالعمليات الجسمية التى يستمد منها طاقته ، فان « الهو » نظام نفسى حقيقى ، وليس له مكان محسوس فى جسم الانسان ، كالقلب أو المخ مثلا .

ولا يمكننا أبدا أن ندرك الهو فى صورته الخام . وربما كانت أقرب صورة للهو ، ما يبدو لنا فى دراسة الطفل الصغير أو فى سلوك الدهانى ( المريض عقليا ) . فالطفل الصغير يسلك سلوكا انانيا تماما ، يهدف الى اشباع رغباته وتحقيق لذاته دون مراعاة لحاجات الآخرين ، فهو يخضع لمبدأ اللذة فحسب . وكذلك الدهانى الذى يسلك كيفما يحب ويعجبه ، فسلوك الطفل والذهانى أقرب الى ما يعنيه فرويد بمفهوم « الهو » .

**الآنا :** ومن المفترض أن الهو فى صورته الخام ، اذا ترك لاساليبه الخاصة فقد يحطم نفسه . فهو فى حاجة الى ما يضبط طاقته ويوجهها نحو اكبر اشباع ويقدر ما تسمح به مطالب الحياة ودون أن يهدم نفسه أو يحطمها . ويذهب فرويد الى أن الآنا تحقق هذه الوظائف وتحققها جيدا . فالآنا تتبع مبدأ الواقع وتعمل وفق العمليات الثانوية . فاذا كان الهو يعمل وفق مبدأ اللذة ويستخدم العملية الاولى وتفرغ التوتر بتكوين صورة لموضوع من شأنه أن يزيل التوتر ، الا أن الكائن الحى يتطلب معاملات مناسبة واشباعا واقعا ، ومن ثم يفرق الآنا بين الاشياء التى توجد فى العقل والاشياء التى توجد فى العالم الخارجى . ومن هنا تطبع الآنا مبدأ الواقع الذى يعمل على الحيلولة دون تفرغ التوتر حتى يتم اكتشاف الموضوع المناسب لاشباع الحاجة . فمبدأ الواقع يرجىء مبدأ اللذة مؤقتا ، لان مبدأ اللذة هو الذى سوف يخدم فى نهاية الامر عندما يوجد الموضوع المرغوب فيه ، ومن ثم يخفض التوتر .

**فالآنا إذن امتداد للهو وغير مستقل عنه أبدا .** والآنا هو الجزء المنظم وهو الذى يبحث فقط عن إيجاد مخارج تخدم أغراض الهو ، دون أن يترتب على ذلك تحطيمه . أن الآنا يستمتع بكل الاشباع التى يسمح للهو أن يستمتع بها أيضا ، ولكنه يستمتع بها بدكاء وبتعقل فى ضبط واختيار وتقرير ما يشبع وكيف يشبع . فالآنا إذن يخضع لمبدأ الواقع ، يفكر تفكيراً موضوعياً ومعتدلاً ومتمشياً مع الاوضاع الاجتماعية المتعارف عليها . أما وظيفته

فهى الدفاع عن الشخصية والعمل على توافقها مع البيئة وحل الصراع بين الكائن الحى والواقع أو بين الحاجات المتعارضة للكائن الحى .

**الانا الاعلى :** وهذا هو المكون الثالث لشخصية الفرد ، وهو مكون يقع فى الطرف الآخر من الهو ، والانا الاعلى هو الاخير فى عملية النمو النفسى لهذه الابعاد الثلاثة للشخصية . انه الممثل الداخلى للقيم التقليدية للمجتمع ، وهو شئ موجود داخل الفرد وليس خارجه . انه مكون داخلى وليس مجموعة من القوانين الحاكمة ، وعندما ينمى الفرد « انا اعلى » داخل نفسه ، يكون حينئذ قد أصبح شخصية ناضجة . فالانا الاعلى هو هذا الجانب الخلقى للشخصية ، انه مثالى وليس واقعيا ، هدفه الكمال وليس اللذة . انه هو الذى يقرر ما اذا كان نشاط ما حسنا أم سيئا وفق معايير المجتمع التى يتقبلها ، والقوانين الاجتماعية لا تعنى شيئا بالنسبة اليه ما لم يتقبلها ويتوحد معها .

### ويمكن تلخيص الوظائف الأساسية للانا الاعلى فيما يلى :

- ١ - كف دفعات الهو وبخاصة تلك الدفعات ذات الطابع الجنىسى أو العدوانى ، حيث ان هذه الدفعات هى التى يقابل التعبير عنها من المجتمع بأشد صور الادانة والرفض .
- ٢ - اقناع الانا باحلال الاهداف الاخلاقية محل الاهداف الواقعية .
- ٣ - العمل على بلوغ الكمال ، أى ان الانا الاعلى يميل الى معارضة الهو والانا معا ، والى تشكيل العالم على صورته . الا انه يشبه « الهو » فى انه غير خلقى ، ويشبه الانا فى محاولته ممارسة التحكم فى الفرائز ، ويختلف « الانا الاعلى » عن « الانا » فى انه لا يحاول ارجاء الاشباع الفريزى فحسب ، بل انه يحاول الحيلولة دونه على الدوام .

تلك هى ديناميات الشخصية وبنائها فى نظرية التحليل النفسى . وفى ضوءها قام فرويد بتفسير أساليب السلوك المختلفة والمراحل النمائية التى تمر بها ابتداء من الطفولة حتى الرشد . ويمثل هذا الانتقال من مرحلة الى مرحلة النمو النفسى الجنىسى للفرد ، والذى قد يتخذ صورة سوية أو غير سوية نتيجة المؤثرات المختلفة التى يتعرض لها الفرد . وسوف نشير باختصار الى هذه المراحل المختلفة التى يمر بها الفرد فى نموه النفسى من الطفولة حتى الرشد .



### \* مراحل النمو :

ولفظ مراحل يشير الى تتبع نمو الانسان وشخصيته ابتداء من الولادة حتى الكبر . فالطفل قد يمر عبر سلسلة من المراحل المحددة تكوينيا ، ومالم يتعرض هذا النمو فى سيره الى تدخل ظروف شاذة أو معوقة ، فمن المتوقع له ان يسير على نحو طبيعى ، وعلى شاكلة مانجده عند الغالبية العظمى من الناس .

ان فكرة بناء الشخصية ونموها عند فرويد اشبه ما يكون بالطريقة التي يقوم بها البناء حائطا من الطوب حيث توضع طوبة طوبة ، ويسير البناء من اسفل الى اعلى ، وترتبط قمة البناء بأساسه او اصله . فشكل البناء وسمكه وجميع خصائصه ترسي قواعده في الاساس الذى يقام عليه . وتغيير شكل البناء تغيير ملحوظا قد يترتب عليه هدم البناء بأكمله . والشخصية بالمثل - في نموها - ترسي قواعدها في السنوات الاولى من حياة الكائن الحي . وهذا الاساس غير قابل للتغير وهو يحدد ما يمكن ان يقام عليه بعد ذلك . فان كان الاساس ضعيفا مهزوزا وغير مستقر ، نشأت الشخصية وتطورت بشكل ضعيف مهزوز غير مستقر كذلك . ومن هنا جاء قول فرويد أن « الطفل أبو الرجل » ، وأن الاساس الذى يوضع في الطفولة هو الذى يحدد ما سيكون عليه الفرد في الكبر . ولكن ليس معنى ذلك أنه حين ينمو البناء لا يمكن تغييره . ان من الممكن أحداث تغييرات طفيفة ، ولكنها لا تتجاوز أبدا حدود ما يتحملة الاساس أو الشكل الذى اتخذه . فان حدث هذا التجاوز انهار البناء ( على نحو ما نجد في الشخصيات الذهانية والعصائية ) . وفي العادة يتغير الكثيرون منا مع النمو ، ولكن احساسا منا بخطر الانهيار ، وخوفا على انفسنا من اهتزاز البناء ، فاننا نحذر الابتعاد كثيرا عما يمكن أن يتحملة بناء شخصياتنا .

وعلى هذا النحو ، نجد فرويد يعطى أهمية كبرى لعملية البناء طوبة طوبة من أجل بناء شخصية الفرد في المستقبل ، كما يعطى أهمية كبرى للسنوات الخمس الاولى من حياتنا ، باعتبارها أهم سنى العمر والاساس الذى يقام عليه كل بناء .

ومن حسن الحظ أن عوامل البناء تتوافر للغالبية العظمى من الناس . فغالبننا ينشأ في أحضان أبوين يتكاتفان معا على تربيته وتنشئته بشكل يجعل الرحلة الطويلة للحياة تسير في خطى وئيدة مطمئنة متعاقبة . فأكبر العوامل ذات الأثر في نمونا النفسى السوي وصحتنا العقلية في الرشد ، توضع خلال السنوات الاولى من الحياة .

ان الوليد عندما يرى النور لأول مرة تتركز اهتماماته على اشباع حاجاته الاساسية التى يولد مزودا بها ، وأهمها حاجته الى الطعام الذى يحصل عليه عن طريق الفم ، وقراءة نهاية السنة الاولى تبدأ عمليات ضبط الاخراج والتدريب على العادات المتعلقة به ، ومن ثم يتركز اهتمامه حول هذه العمليات وتصبح محور التركيز من الناحية الجسمية . وفي حوالى سن الثالثة يبدأ الطفل فى استطلاع غوامض تشريح أعضائه التناسلية أو أعضاء المحيطين به . هذا ما يحدث لكل فرد . فكل طفل يمر بثلاث مراحل نمائية رئيسية تقع كلها في السنوات الأربع الاولى من حياته ، ويهتم كل منها بجزء خاص من تشريحات جسمه يكون مؤقتا موضع الاهتمام الاول بالنسبة للطفل . فهناك الفم ثم الشرج ثم الجهاز التناسلى . وهذه لا تصبح فقط موضوعات الاهتمام الخاص عند الطفل ، بل ان الخبرات التى ترتبط بها تصبح الطرق التى تؤدى الى الحصول على الاشباع وتؤدى الى الاحباطات أيضا .

فالطفل الصغير يركز اهتمامه أساساً طوال السنة الأولى تقريباً في المنطقة الفموية ، ثم ينتقل هذا التركيز بعد ذلك طوال السنة الثانية والثالثة تقريباً حول منطقة الشرج ، ثم يتركز الاهتمام أخيراً حول المنطقة التناسلية ، وذلك بعد سن الثالثة الى سن السادسة . وطبعاً أن ليست هناك قواعد ثابتة محددة لمرور الزمن الذي يتحول فيه الطفل من خبرة الى أخرى ، لأن ذلك يتوقف الى حد كبير على أسلوب المعاملة الأسرية ، كما أن ليس هناك بالتأكيد فواصل مميزة دقيقة بين كل مرحلة وأخرى .

« لقد سمي فرويد هذه المراحل باسم «مراحل النمو النفسي الجنسي» وهذا هو التعبير الذي لا زالت تعرف به . . أن هذا التعبير يعنى أن الطفل على طول تطوره النفسي ، يمر بعلامات مميزة ومحددة لمراحل النمو النفسي الخاصة كلما كانت القوى والدوافع الداخلية في هذا الشخص الجديد تحاول أن تصله بالناس المحيطين به ، وأن تجد الطرائق التي تعطيه الاشباع من هذا الاتصال . »

### وسوف نوضح مراحل النمو النفسي الجنسي هذه دون الاضافة في ذلك :

( ١ ) **المرحلة الفموية :** ترتبط أول مرحلة من مراحل النمو في تكوين شخصية الفرد بالمنطقة الشبقية الفموية وعلى وجه الخصوص بالشفيتين . فالطفل يبدأ عقب الولادة بقليل استخدام الشفتين في الحصول على الطعام ، ويصبح فم الطفل وسيلة الاتصال الهامة بالعالم ، وهو لا يستعمله للحصول على هذا الطعام الشهى اللذيذ الذي من شأنه أن يخفف من حدة التوتر الذي يشعر به في أحشائه فحسب ، بل وأيضاً ليستمتع بحنان الأم التي تضمه الى صدرها وقت اشباع هذه الحاجة . ويتكرر هذا الحدث الهام في حياة الطفل كل ثلاث أو أربع ساعات ، كما يكتسب الشخص الذي يحتضنه وهو يطعمه من الثدي أو الزجاجاة بمرور الزمن نفس أهمية الطعام .

وليس ثمة شك أن هذا الطعام الذي يحصل عليه الطفل يعتبر مصدر اشباع ولذة . فهو طعام شهى ولذيذ (وهذا هو مبدأ اللذة) . وسواء كان يحصل عليه عن طريق الثدي أو عن طريق الزجاجاة ، فإن الوليد في شهره الأول سرباً ما يتعلم ( عن طريق مبدأ اجبار التكرار ) أن التجويف الفمي واللسان والشفيتين عند ملامس هذه الأشياء تصبح مصدر لذة وسعادة بالنسبة له ( منطقة شبقية ) . ومن الطبيعي أن يتعلم الطفل استخدام الشفاه كلما أراد الحصول على هذا الاحساس السار أو اللذة ، فهو عندما يحس ثمانية بالجوع ، تقوم المنطقة الفموية بدورها وتؤدي به الى الشعور باللذة . ولما كان الطفل في هذه المراحل الأولى من حياته يعتمد كثيراً على العادات التي يكونها ، فإنه يلجأ الى استخدام الشفاه في الحصول على اللذة أياً كانت حالة الجوع التي يكون عليها . وتبعاً لذلك ، وبعد أن يكون قد درب الشفاه على أحداث اللذة ، فقد يلجأ الى استخدام الاصابع أو أى مثير آخر ( كأصابع القدم مثلاً ) من أجل الحصول على اللذة سواء كان جائعاً أم غير جائع ( خفض التوتر ) . وهكذا تصبح الشفاه من الآن فصاعداً مصدراً للحصول على اللذة .

ولما كانت الاشياء التى تظهر أولا فى نظامها ، تكون آخر ما يترك هذا النظام ، فان المرحلة الفنية والمنطقة الشبقية الفنية تكونان على هذا الاساس اطول واقصى مراحل حياة الانسان . فهو دائما يبحث عن لذة المنطقة الفنية ، وهو يقوم بذلك حتى اذا كان مثل هذا النشاط غير مجد فى حل المشكلة او فى خفض التوتر .

(ب) **المرحلة الشرجية :** والمجموعة التالية من الخبرات ذات الاهمية البالغة فى تشكيل طباعنا وعلاقاتنا بالناس هى التدريب على عملية الاخراج وعاداته . وكما كان الحال خلال المرحلة السابقة لا يتركز الانتباه فقط على جزء معين من تشريح الجسم ، ولكن على وظيفة هامة ترتبط به . وتختلف الاتجاهات التى تتكون فى هذه المرحلة اختلافات بينة ، الامر الذى يتوقف على ما يظنه الآباء أحسن مران ونظام للتدريب يمكن استعماله .

وحين يتجمع قدر كاف من فضلات الطعام لدى الطفل ، فان ذلك يسبب له توترا فى الامعاء يؤدى الى الشعور بعدم الارتياح أو الألم . وطرد الفضلات واخراجها يزيل عنه مصدر القلق ، ويحدث له الشعور بالراحة . وعند بداية التدريب على النظافة - وهذا ما يحدث عادة فى السنة الثانية من العمر - يلتقى الطفل بأول خبرة حاسمة له مع التنظيم الخارجى لدفعة غريزية . فعليه أن يتعلم ارجاء اللذة التى يحققها له تخلصه من توتره الشرجى ، أى عليه أن يتعلم الخضوع لمبدأ الواقع ، وان يقوم بعملية الاخراج حين تصل هذه الضغوط الى حد معين ، وان يقوم بها فى أماكن معينة وليس فى أى مكان يشاء . وتتوقف نتائج هذا التدريب على الاسلوب الذى تتبعه الام فى تدريبه على ضبط عملية الاخراج . فان كان أسلوبا شديدا صارما ، فقد يقبض الطفل على فضلاته ويصاب بالامساك . وحين يعمم هذا الاسلوب فى الاستجابة الى مجالات من السلوك فيما بعد ، فقد ينمو لدى الفرد خلق قابض ويصبح عنيدا شحيحا . . . اما اذا كانت الام من النوع الذى يتودد الى الطفل ليخرج فضلاته وتسرف فى مديحه عندما يستجيب لذلك ، فان الطفل تتكون لديه فكرة قوامها أن النشاط الخارجى بأكمله امر بالغ الاهمية .

وقد تكون هذه الفكرة اساس الخلق والانتاج . وعلى العموم ، يقال أن العديد من السمات الاخرى ترجع جذورها الى المرحلة الشرجية ( هول ولندزى ص ٧٦ ) .

وبالتأكيد يستطيع الطفل أن يحس بأن عملية التدريب على الاخراج هامة جدا بالنسبة لأمه وأبيه ، والا فلماذا كل هذه الضجة التى تثار حولها . أنه يتعلم فى وقت مبكر أن ما يقوم به من عمل أو مال يؤديه يكون له اثره على المحيطين به . وليس من شك فى أن الخبرات التى ترتبط بالتدريب على الاخراج ، وما ينتج عن ذلك من اتجاهات الاطفال نحو الآباء ، تضع اللبنة الاولى لكثير من الاتجاهات والاعمال التى يقوم بها الفرد فى مستقبل حياته . انها اول عهده بالتأديب والنظافة ، وربما قد يتعلم منها أشياء أخرى كثيرة . فقد يتعلم من هذه العملية « أن يثابر على العمل حتى ينتهى من العملية الاخراجية » ، وهذه بلا شك خبرة لها علاقة بالثابرة والاصرار فيما بعد ذلك من أيام الحياة فى أى عمل تقوم به ، كما قد تغذى عنده الاحساس بالقوة اذ يمكنه التحدى والعناد ومنع الاخراج ، وليس هناك من يجبره على القيام بذلك اذا اراد الامتناع عن القيام به .

(ج) **المرحلة الجنسية** . وتتفجر في حياة كل كائن بشري في حوالى سن الثالثة أو الرابعة رغبة في استطلاع أمور الجنس ، ويرتبط بهذه الرغبة قدر معين من الاستثارة الجنسية . والمنطقة الشبقية الثالثة التى تلى المنطقتين السابقتين هى الأعضاء التناسلية . ولا شك أن الطفل يستمد لذة من العبث بهذه الأعضاء . وتكون حياة الطفل الانفعالية أى علاقته الوجدانية بأفراد الوسط المحيط به في هذه الفترة ، أشبه بالحياة العاطفية للكبار . وفي خلال هذه الفترة ( من سن ٣ - ٥ ) تكون علاقاته العاطفية والاجتماعية بوالديه قد أخذت تنمو وتتعدد وتتهىء السبيل لظهور عقدة أوديب . وتستمد عقدة أوديب اسمها من أساطير الإغريق حيث كان أوديب طفلاً لـأحد الملوك ، وتكهن المنجمون أنه سوف يقتل أباه حين يكبر ، فنبذ الملك في العراء . ولما كبر أوديب التقى بالملك وتنازع على أمر ما ، فقتل أوديب الملك دون أن يعرف أنه أبوه ، ثم دخل المدينة وتزوج ملكتها ، وهى أمه ، دون أن يعرف أنها أمه . وقد اتخذ فرويد من هذه الأسطورة صورة لما يعانى به الطفل الإنسانى أبان طفولته المبكرة في صلتة بوالديه والتي تسمى باسم « الصراع الأوديبى » .

ذلك أن أول موضوع يمر بخبرة الطفل - عدا نفسه - هى أمه . إنها أول إنسان يطعمه ويلبسه ويحبه ويجيب كل مطالبه وحاجاته . والطفل يعتمد على الأم في هذه المرحلة الأولى من حياته اعتماداً كلياً . ومن هذا الاعتماد من أجل الحياة والتوحد معها ، ينمو الإحساس بالحب للأم .

ثم أن الطفل بالإضافة إلى حبه لأمه واكتشافه لجسمه وأعضائه التناسلية يصبح أيضاً على معرفة بالدور الذى يقوم به الأب في حياته . فالأب إنسان أكبر وأقوى منه بكثير ، وأنه أقل وجوداً معه في البيت ، وأنه يشبهه في الجنس ، أنه يشاركه في حب الأم ويحظى باهتمامها .

وفي الحقيقة يبدو أن له بعض الأولوية في وقت الأم ومحبتها ، وتكون النتيجة الطبيعية لهذا هو الإحساس بمنافسة خفية وغير مصاحبة . وفي المراحل الأولى لهذه المعرفة ، لا يفعل الطفل الذكر شيئاً لكبح إحساسه بالغيرة . ومع ذلك يبدأ الكبت في الظهور مع استمرار النمو . ثم هو يلاحظ أيضاً أنه من الناحية الجسمية ، أقرب شبهاً بأبيه منه بأمه ، وهى حقيقة تؤدى به إلى التوحيد مع الأب مثلما توحد مع الأم . وينشأ التناقض الوجداني ( مبدأ ازدواج أو الثنائية ) عن هذه الشحنة الوجدانية نحو شخصين مختلفين كلاهما يعتبر ضرورياً وهما لسعادته وراحته . فهو من ناحية يحب أن يشارك الأب في حب الأم ، تلك المشاركة التي لا يحبها نظراً لرغبته في الاستئثار بحبها ، ولكنه من ناحية أخرى أكثر شبهاً بالأب منه بالأم ، وهو إحساس بالتوحيد يجلب له السرور والرضا . وطالما أنه مع استمرار النمو ينمو أيضاً مبدأ الواقع ، فإنه قد يتوقع نوعاً من العقاب يوقعه به الأب ، أعنى عقاب الأب له على مشاركته في حب الأم . ولما كانت معرفته بالعالم لا تزال قاصرة ، ولما كانت تربيته لا تزال تدور حول المناطق الغمية والشرجية والجنسية ، فإن أى عقاب يمكن أن يوقعه به الأب ، سوف يتصل بهذه المناطق الشبقية . ولما كانت الصفة الجسمية الوحيدة التي تميزه عن الأم هى عضوه

الذكرى ، اذن ، فان هذا العضو هو الذى يمكن أن يوجه اليه الثأر والانتقام من جهة الاب ، حتى يجعله اقرب شبيها بالانثى ويبعد عنه فى الوقت نفسه صفته الذكرية الوحيدة . ويشبه ذلك من حيث الاهمية أيضا أن عضو الذكر هو عضو التحريم الذى يجب أن يزال من أجل استبعاد أى احتمال لمجرد التفكير فى قيام أية علاقة محرمة مع الام . وهذا الخوف الشديد هو الذى أشار اليه فرويد باسم عقدة « الخشاء » . فالطفل الذكر يخاف من ازالة هذا العضو الذى يجعل منه ذكرا شبيها بالاب مما يترتب عليه فقد التوحد مع الاب ، كما يخاف أيضا من منافسته المستمرة للاب فى حب الام ، وجذب اهتمامها . ومبدأ الثنائية هذا يترتب عليه ظهور القلق عند الطفل بشكل يعجز معه عن احداث التوافق الى أن يدخل مبدا الواقع ميكانيزم الدفاع عن الانا ونعنى به ميكانيزم الكبت . وبذلك يجد الطفل طريقا لحل مشكلته .

**وتعتبر الفترة من الثالثة حتى الخامسة والسادسة من اقوى فترات النضال العنيف لدى الطفل . ومع ذلك فهى تستمر كاملا حيوى خلال حياة الفرد ، كما يكون لها اثر فى اتجاه المراهق نحو الجنس الآخر ونحو مصادر السلطة وفى علاقته بزوجه واطفاله .**

هذا فيما يتصل بالولد الذكر . أما عن البنت ، فان عقدها تسمى باسم « عقدة الكترا » . وتتطور علاقتها بأبيها تطورا أكثر تعقيدا ، يتأثر بما تستشعره البنت من احساس بالفيرة من الام لمشاركتها فى حب الاب . وما تستشعره من وجودها بغير هذا العضو الذكرى واعتبارها أمها مسئولة عن ذلك . وإلى جانب اتهامها لامها بأنها المسئولة عن حالة الفقد هذه ، فانها تتوحد بقوة مع الاب ، لانه يمتلك هذا العضو الذى تحسده عليه ، ويظهر حسدها واضحا فى المقارنة مع أبيها الذى يمتلك شيئا تفتقده هى .

ومرة أخرى تظهر الثنائية عند الفتاة . ذلك ان مشاركتها لامها من حيث افتقارهما الى شيء ما ، يقوى توحيدها الأول والأصلى مع الام ، ويحدث التناقض الوجدانى حالة قلق أنفعالى عند الفتاة . وقد اطلق فرويد على حالة القلق هذه اسم « حسد القضيب » . ولا تصل البنت بسهولة الى حل هذا التناقض الوجدانى مع وجود فروق سيكولوجية عديدة بين الذكر والانثى . ويستمر هذا الحسد لدى الفتاة فترة اطول ، كما تصبح أكثر تمردا على الام مع المراهقة ، وتعديل اتجاهها تدريجيا حتى توفق هى الأخرى فى الحصول على شريك حياتها بالزواج . ومرة أخرى تكشف - كأم - عن تناقضها الوجدانى نحو الجنس وذلك فى دورها كأم لاولاد وبنيات ودورها كزوجة لرجل .

#### **( د ) فترة الكمون :**

ويدخل الطفل فى مرحلة كمون جنسي تبدأ فى حوالى سن السادسة أو السابعة أو الثامنة . وفى هذا الوقت يصبح الطفل أكثر اهتماما بالعديد من الأمور الأخرى غير الجنس ، اذ يخصص لمثل هذه الأمور وقتا أطول مما كان يخصصه لها من قبل . ولكن لا يحتمل ان تفوته فرصة استطلاع أمور الجنس فى أى مجال من المجالات التى تتاح له فيها فرصة القيام بذلك . وغالبا ما يحصل الطفل فى هذه المرحلة على المتعة من اللعب

والعمل المدرسي ويمكن القول بوجه عام أن الكثير من صراعات الطفل القديمة عن الجنس تكون قد تقدمت قليلا في ناحية الاتضاح ، وأن الموضوع كله قد أصبح مفهوما بصورة افضل .

وبالإضافة الى ذلك ، فإن الاطفال في هذه المرحلة يبدأون في استغلال بعض اهتمامهم وميولهم في غيرهم من الناس كأصدقائهم وزملائهم في المدرسة ، بدلا من أن يكونوا منطوين على أنفسهم . وفي هذا الوقت تتاح لهم أول فرصة لتنمية مشاعر الحب والمتعة والتعلق بالرفقاء في عالمهم الذي بدأ يتسع بعض الشيء ، ولو أنه لا زال صغيرا ومعروفا - عالم زملاء اللعب والعلمين والإبطال والنجوم من الذكور والاناث .

( هـ ) **المرحلة التناسلية :** والمراحل الثلاث السابقة على مرحلة الكمون - وهى الفمية والشرجية والقضيبية - تعرف باسم **المراحل قبل التناسلية** . وتتميز شحناتها بأنها ذات طابع نرجسي حيث يحصل الفرد على اللذة من تنبيه مناطق معينة من جسمه ، وأن شحناته تستهدف الآخرين لأنهم يتيحون له أشكالا إضافية من اللذة الجسمية فحسب . ومع المراهقة يبدأ بعض هذا الحب يتلمس طرقا تقوده الى اختيارات موضوع حقيقي ، ويشرع المراهق في حب الآخرين ، تحذوه دوافع الايثار وليس مجرد أسباب نرجسية . فالجاذبية الجنسية والتنشئة الاجتماعية والنشاط الجماعى والتخطيط المهنى والاستعداد للزواج وتكوين الاسرة تبدأ جميعها في التعبير عن نفسها بصورة واضحة . وفي نهاية المراهقة تصبح الشحنات الانفعالية الاجتماعية الفرية أكثر ثباتا ، ويتحول الفرد من النرجسية او البحث عن اللذة الذاتية الى راشد تسيره الحقيقة الواقعية والمجتمع ( هول ولندزى ص ٨٠ ) .

وأخيرا ، يحسن ان نشير الى أنه على الرغم من أن فرويد قد ميز بين مراحل أربع من النمو النفسي الجنسي ، إلا أن هذه المراحل ليست منفصلة بعضها عن بعض ، أو أن الانتقال يكون فجائيا من مرحلة الى أخرى . وبذلك يكون التنظيم النهائي للشخصية هو نتيجة اسهامات هذه المراحل الأربع .



### ثانيا : نظرية أريكسون :

لقد ادخل أريك أريكسون تعديلات على نظرية فرويد في **النمو النفسي الجنسي** في ناحيتين أساسيتين : **الأولى :** التوكيد على التفاعل المتبادل - وربما بصورة أكثر مما عند فرويد - بين المحتوى الاجتماعى والمراحل البيولوجية المعينة التي يمر بها الكائن الحى . **والثانية :** التوسع في المراحل . فبعد أن كانت هذه المراحل أربع عند فرويد ( الفمية - الشرجية - القضيبية - التناسلية ) ، أصبحت ثمانية عند أريكسون .

وسوف نعرض نظرية أريكسون بشيء من الاختصار مستعينين في ذلك بما قدمه في كتابه « **الطفولة والمجتمع** » طبعة ١٩٧٠ ( ١٧ ) ، « **والهوية : الشباب والازمات** » طبعة ١٩٦٨ ( ١٨ ) .



وقد أشار أريكسون في بداية حديثه عن نمو الشخصية الى أن هناك صوراً كثيرة لخصائص الشخصية السوية واخذ بتعريف ماري جاهدودا Marie Jahooda التى تذهب الى أن الشخصية السوية هى « تلك التى تسيطر على البيئة بنشاط ، وتكشف عن وحدة معينة ، ولديها القدرة على ادراك العالم وادراك نفسها على نحو سليم » . ومن الواضح ان هذه المعايير تعد نسبية اذا نظرنا اليها من ناحية النمو المعرفى والاجتماعى للطفل . فالطفولة تتميز في الحقيقة بالغياب المبدئي لهذه المعايير ، وينموها التدريجي بعد ذلك في خطوات معقدة من التمايز المطرد . ومن هنا ، يرى أريكسون أن المفيد أن نبين الطريق الاساسى لنمو الشخصية وخصائصها السوية .

ويذهب أريكسون الى أنه عند محاولة فهم عملية النمو ، يحسن ان نتذكر جيداً مبدأ « ( التخلق المتعاقب ) » ( \* ) Epigenetic Principle والذي نستمد من نمو الكائن الحى العضوى داخل الرحم . وبتعميم هذا المبدأ نوعاً ما ، يمكن القول بأن أى شيء ينمو ، انما يكون له منذ البداية ، خطة أساسية ينمو وفقاً لها . ومن هذه الخطة الاساسية تقوم الاجزاء ، ويكون لكل جزء وقت محدد لظهوره ، حتى يكتمل ظهور الاجزاء جميعاً ، فتكون كلا وظيفياً . هذا ما يصدق بشكل واضح على نمو الجنين ، حيث يكون لكل جزء من أجزائه وقت محدد لظهوره ، والا تعرض للتلف أو نقص التكوين . وعند الولادة يتخلى الطفل عن التبادل الكيميائى الذى كان يتم داخل الرحم ، كى يفسح المجال امام نظام جديد من التبادل الاجتماعى مع مجتمعه الذى سيحيا فيه ، وحيث تتعرض قدراته وامكانياته المتزايدة بالتدريج لكثير من فرص النمو ، ومن الاحباطات التى تظهر داخل الاطار الثقافى الذى يعيش فيه . أما كيف يستمر الكائن الحى النامى في نموه ، لا عن طريق نمو أعضاء جديدة ، ولكن عن طريق التتابع المحدد لظهور القدرات الحسية والحركية والاجتماعية ، فهذا ما تمتلئ به كتب النمو . لقد امدنا التحليل النفسى بالكثير من المعلومات التى تتصل بالخبرات المزاجية ، وعلى وجه الخصوص بالصراعات الداخلية التى تكشف عن الطريقة التى بها يصبح الفرد شخصية متميزة ، ولكن من المهم ايضاً ان نتحقق من أن الطفل السوى في تتابع خبراته الشخصية يمكنه ، اذا منح قدراً معقولاً من التوجيه السليم ، أن يخضع لقوانين النمو الداخلية ، تلك القوانين التى تسمح بتتابع ظهور الامكانيات في تفاعلها الهام مع الشخصيات والمؤسسات الاجتماعية التى يتفاعل معها . واذا كان هذا التفاعل يختلف من ثقافة لأخرى ، الا انه يجب ان يظل داخل اطار « المعدل الطبيعى للسرعة والتتابع السرى » الذى يحكم كل تخلق متعاقب . وعلى ذلك ، يمكن القول بان الشخصية تنمو وفقاً لخطوات محددة سلفاً في استعداد الكائن الحى العضوى ، من أجل ان يعرف ويتفاعل ويتجه نحو مجال أوسع من الاشخاص والمؤسسات ذات الاهمية بالنسبة له . . ولذا يستخدم أريكسون عند عرضه لمراحل نمو الشخصية تصوراً لهذا التخلق المتعاقب في النمو النفسى ابتداء من الطفولة الاولى حتى الرشد .

\* Epigenesis : التخلق المتعاقب : نظرية تقول بان الجنين يتكون بسلسلة من التشكلات المتعاقبة ( وهي تناقض التخلق السبقى القائلة بان جميع امضاء الجنين موجودة وجوداً سبقياً في الجرثومة ) .

ومن الطبيعي ان يواجه الطفل في كل مرحلة من مراحل نموه مشكلة أساسية عليه ان يحلها بصورة مؤقتة على الأقل ، اذا اراد ان يتقدم في حيوية وثقة الى المرحلة التالية . وهذه المشكلات او هذه الصراعات بين المشاعر وبين الرغبات لاتحل باكملها على الإطلاق ، فكل تغير في الخبرة والبيئة من شأنه ان يظهر هذه الصراعات في صورة واوضحها في مرحلة معينة من مراحل نمو الطفل ، ومتى حل هذا الصراع او هذه المشكلة حلا طيبا في ذلك الوقت ، تم وضع أساس التقدم الى المرحلة التالية .

### ونقدم فيما يلي وصفا للمراحل النمائية الثمان عند أريكسون .

١ - **الاحساس بالثقة الأساسية في مقابل عدم الثقة الأساسية :** وعند وصف مجموعة الاتجاهات الأساسية المتعاقبة للنمو ، استخدم أريكسون مصطلح « الاحساس بـ » sense of ومع ذلك ، يجب ان يكون من الواضح بشكل مباشر ان مثل هذه الاحساسات ، كالاحساس بالصحة او الحيوية او الاحساس بالافتقار الي كليهما ، تنطبق على جميع الاشياء التي تنتشر ظاهرة على السطح او توجد في الاعماق . فهي تنطبق على الحالات الشعورية وما قبل الشعورية واللاشعورية . فالثقة ، كخبرة شعورية يمكن ان تخضع للاستيطان ، ولكنها هي ايضا وسيلة للسلوك تقبل الملاحظة من الآخرين ، ثم بانها اخيرا حالة داخلية يمكن ان تتحقق فقط عن طريق الفحص والتفسير بالتحليل النفسي . وكل هذه الأبعاد الثلاثة يمكن الاستدلال عليها حين نتحدث عن « الاحساس بـ » .

**وأول مكون للشخصية السليمة هو « الاحساس بالثقة » .** وهذا الاحساس يظهر عادة خلال السنة الاولى من حياة الطفل ، وهو كغيره من مكونات الشخصية لا ينمو مستقلا عن غيره من مظاهر النمو الاخرى . والشعور بالثقة لايعنى ان الطفل قد أصبح قادرا على استخدام جسمه في حركة هادفة ، وانه قادر على التعرف على من حوله من الناس والاشياء فحسب ، بل وايضا يستعمل كتعبير موجز عن خاصية مميزة لكل خبرات الطفل المشبعة في هذا السن المبكر .

وأول مظهر من مظاهر الثقة الاجتماعية لدى الطفل في هذه المرحلة هو ما يتجلى في سهولة الحصول على الفداء ، وعمق النوم ، والشعور بالارتياح عقب القيام بعملية الاخراج . وتساعد خبرة التنظيم المتبادل بين قدراته المستقبلية . واساليب الام التي تزوده تدريجيا باحتياجاته المختلفة ، على احداث التوازن لمشاعر عدم الارتياح . ومع ازدياد ساعات اليقظة ، يجد الطفل ان الخبرات الحسية المتزايدة من شأنها ان تثير لديه الاحساس بالالفة والتوافق مع مشاعر الارتياح الداخلية ، وتصبح أشكال الارتياح ، وكذلك الناس والاشياء المحيطة به ، امورا مألوفة لديه .

**ويستمد الطفل من الثقافة التي يعيش فيها بعض الاساليب الأساسية .** ومن ابسطها واسرعها ظهورا ، اسلوب « الاخذ » ، لا بمعنى « ان يذهب ويأخذ » ، ولكن بمعنى ان « يستقبل ويتقبل ما يقدم له » وهذه العملية تبدو سهلة وبسيطة ، ومع ذلك فان اي اضطراب

فيها من شأنه أن يكشف عن مدى تعقد هذه العملية . فهذا الطفل الصغير يتعلم كيف ينظم استعداداته « للاخذ » مع اساليب الام التي تسمح بدورها للطفل أن ينسق وسائله ، عندما تنمى هي وسائلها في العطاء . ونتيجة لهذا كله ينمى الطفل أيضا التوحد مع الام ، ويصبح أخيرا معطيا على نحو ما كانت الام .

وقد يظهر لدى بعض الاطفال الحساسين على وجه الخصوص أو الذين لا تعوض احباطاتهم المبكرة ، قدر من الضعف في احداث مثل هذا التنظيم المتبادل المبكر ، الامر الذي يسبب اضطراب العلاقة مع العالم الخارجى بعامة ، ومع الاشخاص المهمين بخاصة . غير أن هناك بالطبع طرقا أخرى لتوكيد هذا التبادل من خلال مواقف أخرى غير المواقف الغمية المستقبلية . فهناك احساس الطفل بالسرون عندما تضمه الام الى صدرها أو عندما تبتسم له أو تتحدث اليه أو تدله . وإلى جانب مثل هذا التعويض « الافقى » ( الذى يحدث خلال نفس مرحلة النمو ) وهناك أيضا التعويضات « الطولية » في الحياة والتي تظهر خلال المراحل التالية من دورة حياة الفرد .

وخلال المرحلة الغمية الثانية ، تنمو لدى الطفل بعض القدرات للحصول على اللذة باتخاذ اساليب أكثر ايجابية وأكثر ادماجا ، وبشكل مباشر . ففي هذه المرحلة تبرز الاسنان ، ومع بزوغها يظهر السرون من القيام بالقضم على الاشياء أو عضها . ويتصف هذا الاسلوب الادماجي النشط بعدد من الانشطة الأخرى . فالعين التي كانت من قبل سلبية في استقبالها للانطباعات التي تحدث ، تتعلم الآن التركيز على الاشياء ، وفصلها وإدراكها على أرضيتها الغامضة وتبعتها . وبالمثل تتعلم أعضاء السمع أن تميز الاصوات الهامة والتركيز عليها وإدارة الرأس وراعها ، وتتعلم الأذرع الوصول إلى الاشياء والقبض عليها باليدين بشكل محدد .

**ومن الصعب تقدير أزمة هذه المرحلة الغمية نظرا لأنها تتألف من الاتفاقيات الزمنية لنماذج ثلاثة :** ( ١ ) حافز قوى الادماج وأفراد وملاحظة التوتر المصحوب بعدم الارتياح نتيجة بزوغ السن وغيرها من التغيرات في الجهاز الغمي (ب) المعرفة المتزايدة للطفل بنفسه كشخص متميز . (ج) التحول التدريجي للام بعيدا عن الطفل ، وتجاه أمور كانت قد تطلت عنها الى حد ما خلال فترات الحمل الأخيرة ، أو المدة الأولى للرعاية ، أو ربما لاستقبال طفل جديد .

وعندما تستمر الام في تقديم الثدي خلال مرحلة العض ، فإن من الضروري اذن أن يتعلم الطفل كيف يستمر في الرضاعة من غير عض ، وحتى لا يترتب على ذلك أن تسحب الام الثدي في غضب أو ألم . ويشير العمل الاكلينيكي الى أن هذه المرحلة المبكرة في تاريخ حياة الطفل تزوده وإلى الأبد . وهذا فقدان المفاجيء لحب الام الذي اعتاده الطفل - ودون أن يكون هناك بديل مناسب في هذا الوقت المبكر يعوضه هذا الحب من شأنه أن يحدث اكتئابا شديدا لدى الطفل ، أو على احسن الظروف احساسا بالانقسام الداخلى وحنينا غامضا للجنة المفقودة .

وإنه هذا التجمع القوي للاحاساس بالحرمان والشعور بالانقسام ، والفقدان يجب أن تؤكد الثقة الأساسية ذاتها خلال حياة الفرد .

ويتضح فقدان الثقة الاساسية في حالات المرض، النفسى ولدى حالات الفصام الطفلى ، كما تتضح مظاهر فقدان الكامن الطويل الامد لهذه الثقة في شخصيات الراشدين الذين يتسمون بالانسحاب الشديد والبعد عن الناس وبالاكتئاب . وقد وجد بالنسبة لمثل هذه الحالات ، أن اعادة بناء الثقة بالنفس هو المطلب الاساسى للعلاج ، لأنه أيا كانت الظروف التى أحدثت الاضطراب الذهاني ، فان الشدوذ أو الانسحاب الذى يظهر في سلوك الكثيرين من المرضى ، انما يخفى وراءه محاولة لاستعادة التبادل الاجتماعى وإعادة الثقة مرة أخرى .

وأول عمل للآنا هو اقامة انماط متينة ثابتة لحل الصراع الرئيسى للثقة مقابل فقدان الثقة ، وهذا بلا شك واجب من واجبات الرعاية التى تقوم بها الام . ويجب أن نوضح هنا ، أن مقدار الثقة المستمد من الخبرة الطفيلية المبكرة ، لا يتوقف على الكميات أو المقادير المطلقة للطعام أو على اظهار المحبة للطفل فحسب ، وانما يتوقف أيضا على نوع العلاقة بين الطفل والام . فالامهات يخلقن الاحساس بالثقة في ابنائهن عن طريق هذا النوع من المعالجة الذى يتضمن الرعاية الحساسة لحاجات الطفل ، وعن طريق هذا الاحساس العميق بأنه جدير بالثقة الشخصية داخل اطار الثقة في أسلوب حياة المجتمع والثقافة التى يحيا فيها . ومن شأن هذا أن يشكل لدى الطفل اساس الاحساس بالهوية ، والذى سوف ينضم فيما بعد الى الاحساس بأن الامور « تسير على ما يرام » ، وأنه « هو هو » ، وأنه « جدير بثقة الآخرين به » . حقيقة قد يواجه الطفل ، سواء في هذه المرحلة أو المراحل التالية عليها ، مجموعة من الاحباطات التى لا يمكن للطفل النامى تحملها أحيانا ، ولذا يجب الا يعتمد الآباء في أسلوب تربيته للطفل على وسائل معينة للتوجيه عن طريق المنع أو المنح فحسب ، بل يجب أن يكون لديهم أيضا القدرة على الاقتناع العميق للطفل بأن ثمة معان تكمن وراء ما يقدمونه له من أشياء ومن أوامر ونواه . ان الطفل لا يصبح في النهاية عصابيا نتيجة ما يتعرض له من احباطات ، وانما لفقدانه المعنى الاجتماعى لهذه الاحباطات .

٢ - الاحساس بالاستقلال مقابل الشعور بالخجل والشك وبعد ان توضع بنود الاحساس بالثقة على أساس متين ، يبدأ الانتقال الى المكون الثانى من مكونات الشخصية السليمة ، وذلك في الفترة ما بين سن الاثنى عشر والخمسة عشر شهرا . وتنصرف معظم طاقة الطفل في هذه المرحلة الى توكيد ذاته من خلال الافعال التى يقوم بها من حيث انه انسان له عقل وله ارادة خاصة .

وهناك أساس فسيولوجى للسلوك المتميز في هذه المرحلة . ذلك أن نضج الجهاز العضلى وما يترتب عليه من تأزر وتوافق بين عدد من الانماط المتصارعة للحركة والفعل ، يهيئ المسرح أمام تجربة مجموعتين من الاساليب الاجتماعية في وقت واحد : القبض والاسترخاء ، الامساك والاخراج . وكما هو الامر بالنسبة لكثير من الحالات ، يمكن أن تؤدي صراعاتها الاساسية في النهاية اما الى العدوان أو الى توقعات واتجاهات لطيفة معتدلة . فالقبض أو الامساك يمكن أن يصبح احتجازا قاسيا أو مدمرا ، كما يمكن أن يصبح نمطا من الرعاية ، بمعنى أنه يمتلك ويحتفظ بما يمتلك . وبالمثل قد يصبح الاخراج أو الاسترخاء وسيلة لاجراج عدوانى لقوى مدمرة ، كما يمكن أن يصبح استرخاء بمعنى « دع الامور تمر وتنتهى » .

وفي هذه المرحلة يجب أن يكون الضبط الخارجى من النوع الذى يعيد الطمأنينة مع قدر من الحزم . فالطفل يجب أن يشعر أن الثقة الأساسية في الوجود ، والتي استمر محتفظا بها رغم ثورات المرحلة السابقة وأزماتها سوف لا تتعرض للخطر نتيجة هذا التغير الكامل المفاجيء ، وهذه الرغبة العنيفة المفاجئة للقيام بالاختيار بين أن يحتفظ بعناية أو أن يخرج بعناد . فالحزم في هذه المرحلة أمر ضرورى لأنه يجب أن يحميه من الفوضى التى يمكن أن يتردى فيها نتيجة لاحتياسه غير المدرب على التمييز والتفضيل ، وعدم قدرته على القبض والإخراج دون تحفظ وحذر . فينبغى على الأم والبيئة المحيطة به اذن ، أن تعضد الطفل وتشجعه على « الوقوف على قدميه » والاستقلال بنفسه ، وأن تحميه ضد الخبرات القاسية والعديمة المعنى والتي يسيطر عليها الخجل والشك .

فالبينة اذن يجب أن توجهه التوجيه الحكيم ، وأن تجنبه مشاعر الخجل والشك في قيمته كشخص ، وأن تسلك ازاءه بحزم وتسامح ، بحيث يستطيع أن يتمتع بكونه شخصا مستقلا ، وأن يمنح الاستقلال للآخرين .

**ويذهب أريكسون الى أن الخجل انفعال لم يدرس بعد بما فيه الكفاية ، لانه في مجتمعاتنا الحديثة ، سرعان ما تمتصه الخطيئة بسهولة .** ويفترض الخجل أن الفرد قد تعرى تماما ، كما يفترض أيضا الشعور بأن الآخرين قد اطلعوا عليه ونظروا اليه . فهو واع بذاته أو خجل من نفسه . لقد رؤي وهو على غير استعداد لأن يراه احد . ولعل هذا هو السبب في أننا نحلم أحيانا بالخجل في موقف يشعر فيه الفردان الآخرين يتفرسون فيه . وهو في حالة من العرى الكامل أو وهو في ملابس الليل « وبدون سروال » . وكان يعبر عن الخجل كدافع يدفع الفرد « أن يدفن وجهه بين يديه » أو « أن يتمنى أن تبتلع الأرض هنا أو هناك » . ويعتبر أريكسون الخجل أساسا بمثابة ثورة موجهة ضد الذات . فهذا الذى يشعر بالخجل يود لو أجبر العالم ألا ينظر اليه ولا يلاحظ ثورته ، يود لو يحطم أمين العالم ، ثم هو بالإضافة الى ذلك يود أن يصبح هو ذاته غير مرئى .

**والشك قرين الخجل .** وإذا كان الخجل يتوقف على الشعور بالتعري والانكشاف أمام الناس ، فإن الشك - حسب ما أوصلته الملاحظة الكلينيكية الى الاعتقاد - يتصل بالشعور بأن للفرد « قبل ودبر » ( أى أمام وخلف ) وخاصة الدبر ، لان هذه المنطقة الخلفية من الجسم مع تركيزها العدوانى والليبيدى على العضلات العاصرة والإرداف ، لا يمكن أن يراها الطفل ، ومع ذلك يمكن أن تخضع لإرادة الغير . « فالدبر » هي تلك المنطقة من الجسم التى يمكن أن يسيطر عليها أو يكسحها - بالخيال أو بالفعل - هؤلاء الذين يمكنهم مهاجمة قدرة الفرد على الاستقلال ، أو الذين قد يصنفون ما تخرجه الأمعاء بأنه خطأ أو عيب في الوقت الذى يشعر فيه الطفل بالارتياح وقت إخراجها . وهذا الاحساس الرئيسى بالشك فيما يخلفه الفرد وراءه ، يشكل قوام الصور الأخيرة واللفظية للشك القهرى ، والذى يعبر عنه في الرشد في خوف المصاب بالهذاء من المضطهدين المختفين ، ومن الاضطهادات الخفية السرية التى تدبر من الخلف .

وتعتبر هذه المرحلة من مراحل النمو النفسي الحاسمة في تكوين الفرد نظرا لما يوجد فيها من صراع بين الحب والكراهية ، بين التعاون والعناد ، بين حرية التعبير عن الذات وقمع الذات . فمن الاحساس بضبط النفس دون فقدان التقدير للذات ، ينتج احساس مستمر ودائم بالارادة والاستقلال والزهو ، على حين ينتج عن الاحساس بعدم القدرة على ضبط النفس ، وان التحكم مصدره خارجي ، احساس مستمر ودائم بالشك والخجل .

ويجدد بنا أن نشير الى أن هذه النتائج المتصلة بالاحساس بالاستقلال والخجل والشك ليست أمورا مبالغ فيها نتيجة الاهتمام الزائد بالمشكلات الاكلينيكية ، وانما هي أمور نجدها متمثلة « حتى لدى الراشدين الناضجين وغير العصبيين . فهؤلاء غالبا ما يكشفون عن حساسية تتصل « بالفقدان المخجل لماء الوجه » . وعن « خوف من أن يهاجم من الخلف » ومعظم هذه الاحساسات هي بقايا لمراحل النمو المبكرة التي يمر بها الفرد من طفولته ، والتي يتغلب على معظمها وهو في طريقه الى الانتقال الى المراحل التالية .

٣ - الاحساس بالمبادأة مقابل الاحساس بالذنب وفي كل مرحلة جديدة تظهر معجزة أخرى تتكشف للعيان وتمثل أملا جديدا ومسئولية جديدة للجميع . ومعجزة هذه المرحلة هي الاحساس بالمبادأة . ونحن الآن نقرب من نهاية السنة الثالثة حيث تصبح عملية المشي سهلة وميسورة لدى الطفل . حقيقة أن كتب النمو تشير الى أن الطفل يمكنه أن يمشي قبل هذا السن بكثير ، ولكن المشي والجرى يصبحان جزءا هاما من اساليب سيطرة الطفل على البيئة المحيطة به . أنه يريد أن يكتشف المجال الحيوي الذي يعيش فيه . فالطفل في هذه المرحلة شغوف بعقد مقارنات بين الأشياء والأشخاص ، ولديه القدرة على الاستطلاع المستمر للفروق في الحجم والنوع بعامة ، والفروق في الجنس والسن بخاصة . أنه يحاول أن يفهم الأدوار المستقبلية والأدوار الجديرة بأن يتخيلها ، أنه يريد أن يكتشف أي نوع من الأشخاص يمكن أن يكونه . وهو يحس فجأة بأنه قد نما وكبر سواء في جسمه أو في نفسه ، وأنه قد أصبح أكثر نشاطا وحيوية وأكثر لمعانا وذكاء في أحكامه وأنه يمتلك مريدا من الطاقة والنشاط اللذين يسمحان له بأن ينسى الفشل بسرعة ، وان يقترب مما هو مرغوب ( حتى ولو بدا هذا المرغوب غير مؤكد أو خطرا ) فالمرحلة مرحلة تعلم نشط عنيف ، تعلم يقود الطفل من نواحي قصوره وضعفه الى امكانيات مستقبلية وجديدة ، مرحلة اندفاع في المكان عن طريق الحركة العنيفة النشطة ، مرحلة غزو للمجهول يدفعه اليه حب استطلاع شديد . ثم هو في هذه المرحلة يستطيع أن يرتبط وبشكل مباشر برفاقه من نفس سنه ، ويمكنه بتوجيه الأطفال الأكبر منه سنا ، أو بتوجيه الكبار من حوله ، أن يتعلم سياسة التعامل مع هؤلاء الرفاق ، سواء في المدرسة أو في الشارع أو المجتمع الخارجي .

وهكذا تضيف المبادأة الى الاستقلال صفة مباشرة العمل ومواجهته وتخطيطه من أجل أن يصبح نشطا ومتحركا . ويرى أريكسون أن مصطلح المبادأة - رغم ما يحمله من مدلول أمريكي ذي صبغة اقتصادية - يعد جزءا ضروريا بالنسبة لكل عمل . فالإنسان يحتاج الى

الاحساس بالمباداة بالنسبة لكل نشاط يقوم به ، وكل عمل يتعلمه أو يؤديه ابتداء من جمع المحصول في الحقل الى القيام بتنفيذ مشروع هندسى .

ويرى أريكسون أن تعلم الطفل في هذه المرحلة هو الى حد بعيد من النوع الاقحامى والعنيف . انه يبعد الطفل عن نواحي قصوره وضعفه ، ويقربه في ذات الوقت من امكاناته المستقبلية .

واسلوب الاقحام الذى يسيطر على كثير من مظاهر سلوك هذه المرحلة قد يتخذ العديد من الانشطة والتخيلات المتشابهة . وتتضمن هذه :

- (١) اقحام المكان بحركة نشطة وعنيفة .
- (٢) اقحام الطفل بنفسه فيما لا يعنيه من أمور عن طريق حب الاستطلاع .
- (٣) اقحام نفسه في آذان الآخرين وعقولهم عن طريق صراخه العدوانى .
- (٤) اقحام نفسه على اجسام الآخرين بالهجوم المادى عليهم .

(٥) واخيرا باقحام عضو التذكير - بالتفكير أو التخيل - في جسم انثى . وهذه المرحلة هى نفسها المرحلة القضيبية في نظرية الجنسية الطفيلية عند فرويد . انها مرحلة حب استطلاع طفلى واستثارة جنسية واهتمام زائد وانشغال بأمور الجنس كافتقار البنت الى عضو التذكير .

**ومرحلة التجول -** والتى هى مرحلة لعب وجنسية طفلية - تضيف الى الاساليب الاجتماعية الاساسية اسلوبا جديدا لدى الجنسين هو اسلوب « الاحداث أو الصنع making » وهو بالمعنى الطفلى اسلوب « الفوز بشيء » وهذه العبارة توحى بالاستمتاع بالمنافسة والاصرار على بلوغ الهدف واللذة فى الفوز والسيطرة ، وينصب التركيز عند الولد الذكر على الاساليب « القضيبية - الاقحامية » ، على حين تتحول عند الفتاة الى اساليب المسلك المفاجيء والاختطاف العدوانى أو - فى الحالات المعتدلة - اتخاذ اساليب تجعلها جميلة وجذابة . وبذلك ينمى الطفل متطلبات المباداة الذكرية والانثوية وبعض صور الذات الجنسية التى سوف تصبح مقوما اساسيا من مقومات المظاهر الموجبة والسالبة لهويته المستقبلية ، كما تزداد تخيلات الطفل . فالولد ينغمس فى تخيلات قوامها انه أصبح هائلا أو أسدا ، ولكن احلامه تدور حول مخاوف تتصل بالحياة وبالأطراف . فهى مرحلة « عقدة الخصاء » والخوف العميق من الفقد . اما البنت فلديها اقتناع بأنها قد فقدت العضو الذكرى عقابا لها عن تخيلات وافعال سرية خفية .

وفي هذه السن يكون الضمير قد نما وأصبح أعظم حاكم للمباداة . فالطفل لم يعد موجهها بأناس من الخارج فحسب ، بل أصبح أيضا يسمع « الصوت الداخلى » للملاحظة الذات وتوجيهها وعقابها ، هذا الصوت الذى يعلق على أفعاله ويحذره ويهدده ، وتلك هى بداية

النمو النفسي : من الطفل الى الراشد

نشوء الاخلاق عند الطفل . غير أن ترومت الكبار وتحميلهم للطفل أكثر مما يطيق ، سوف يجعل الامر صعبا وخطيرا بالنسبة للروح والاخلاق معا . ذلك أن ضمير الطفل يكون بدائيا وقاسيا وغير متسامح ، وقد ينتج عن ذلك نوع من الحصر الشديد . فإذا كان من المنوع أن يفعل كذا ، فمن الخطورة بمكان أن يفكر حتى مجرد التفكير فيه ، وقد يدفع الى هذا القرار غير وحسد ومراة واتجاه نفسى شرير تجاه العالم . ومثل هذه المشاعر تجبر الطفل على تقييد ذاته ، وقد يصبح هذا التقييد لا شعوريا ويكون جزءا من الشخصية يقوم بوظيفته ويؤثر في سلوكها . ولعل أحد الصراعات العميقة في الحياة هو ذلك الصراع الذى يتكون نتيجة كراهية الاب الذى يكون في بداية الامر نموذجا للضمير ، ولكنه في النهاية يرتكب الخطايا التى لا يتحمل ضمير الطفل اتيانها . وهنا يصل الطفل الى الشعور بأن المسألة ليست مسألة اخلاق عامة ، بل هى قوة قسرية وتعسفية تفرض عليه .

**وهذه المرحلة النمائية لها مزايا ومخاطر.** فالطفل في هذه المرحلة يكون أكثر استعدادا للتعلم بسرعة وقوة ومشاركة الالتزامات والاعمال التى يقوم بها الغير ، منه في أية مرحلة أخرى ، فهو شغوف لان يتعلم ، ومشوق وقادر في نفس الوقت على القيام بالاعمال التى يشارك ويتعاون فيها مع الاطفال الآخرين من أجل التصميم والبناء ، كما يرحب بالاستفادة من المدرسة ، وان يضاهي النماذج الاصلية التى يراها . انه يظل بالطبع متوحدا مع الاب من نفس الجنس ، ولكنه في الوقت نفسه يبحث عن فرص يتيح له فيها التوحد مع العمل ، مجالا للمبادأة دون حدوث صراع طفلى ، او شعور اوديبى بالذنب ، وكذلك البحث عن توحيد أكثر واقعية يقوم على روح المساواة التى خيراها من العمل مع الآخرين . واذا استطاع الطفل في هذه المرحلة ان يفهم جزئيا بعض الادوار والوظائف التى يستطيع القيام بها كشخص راشد ، فانه سوف يكون مستعدا للانتقال في نمو سليم الى المرحلة التالية .

٤ - **الاحساس بالعمل مقابل الشعور بالنقص :** واذا كان طفل المرحلة السابقة مستعدا لان يتعلم في شغف وسرعة وأن يصبح كبيرا ، وان يشارك في الالتزامات والنظام والعمل ، وأن يعمل ويشارك في البناء والتصميم فان اطفال هذه المرحلة يصبحون أكثر ارتباطا بالمدرسين وآباء الاطفال الآخرين ، وأكثر ميلا الى ملاحظة وتقليد أعمال بعض الناس الذين يمكنهم ادراكها كرجل الشرطة ورجل المظافى والبستاني . وهذه المرحلة تبدو كلها وكأنها تمهد السبيل للدخول في الحياة . واقصد بالحياة هنا حياة الدرس ، سواء تم ذلك في الحقل او المعسكر او الفصل ، والطفل في هذه المرحلة ينسى الكثير من الآمال والرفقات السابقة وينصرف الى الاعمال الحقيقية . ذلك ان الفرد قبل ان يصبح أبا من الناحية البيولوجية ، عليه ان يعمل أولا ليرعى أسرته ، ومع الدخول في مرحلة الكمون ينسى الطفل المتقدم بشكل طبيعى نحو النضج أو يعلى الرغبة في ان يوجد انسا او ان يصبح أبا او تصبح اما . انه يتعلم الآن ان يكتسب المعرفة عن طريق انتاج الاشياء .



وإذا كان جميع الاطفال محتاجين في بعض الأوقات الى ان يتركوا يلعبون وحدهم او ان يتركوا - فيما بعد - في صحبة الكتب او الراديو او السينما او التلفزيون ، وإذا كان جميع الاطفال يحتاجون في بعض الاوقات الى القيام ببعض الالعاب الاليهامية ، فانهم ، ان عاجلا أو آجلا . سوف يحسون بالاستياء والسخط اذا لم يوجد لديهم الاحساس بالقدرة على القيام بعمل شيء ما أو عمله جيدا واثقان . وهذا الاحساس بالقدرة على العمل هو ما اطلق عليه اريكسون اسم « الاحساس بالانجاز » أو « الاحساس بالصناعة » ، فبدونه يشعر الطفل بالضيق . فبالعمل يعرف الفرد ويعرف مجتمعه انه قد أصبح من الناحية النفسية مؤهلا لان يكون ابا ، حيث يلزمه العمل لرعاية الاسرة من الناحية الاجتماعية ، قبل ان يصبح ابا من الناحية البيولوجية .

وتقول « ايفي هنريك » ان مبدا العمل يعلم الفرد لذة اتمام العمل وانجازه ، وذلك نتيجة الانتباه المستمر والاجتهاد المتواصل . والاطفال في جميع الثقافات يتلقون خلال هذه المرحلة بعض نواحي التعليم المنظم والذي يأخذ عادة صورة تعليم مدرسي حيث يتجمع الاطفال حول مدرسين مؤهلين جيدا للقيام بعملية التعليم . وفي المجتمعات البدائية ، حيث لا تعلم منظم ، يقوم الكبار بدور تعليم الصغار الذين يلتقطون المهن من الكبار . ويغلب الميل لدى الطفل في مثل هذه الحالات حين يقبل على تعلم صنعة ما . وعلى ذلك ، فان أساسيات التكنولوجيا تنمو عندما يصبح الطفل قادرا على معالجة الادوات والعدد والسهام التي يستخدمها الكبار من حوله . وحيث يتطلب الامر ان يصبح المتعلم على قدر من التخصص المهني ، فان واجب المدرسة في هذه الحالة هو ان تزود الطفل بأكبر قدر من التعليم الاساسي لاثقان تخصصه . ومن الملاحظ انه كلما أصبح دور التعليم اكثر تخصصا ، وأصبحت المواد الدراسية اكثر عمقا ، قل دور الآباء في العملية التعليمية وأصبح اكثر تحديدا . ومن هنا ، تصبح المدرسة هي المصدر الاساسي للثقافة بما لها من قدرة وامكانات على تحقيق اهداف المجتمع التربوية .

**والخط الاساسي في هذه المرحلة يكمن في احساس الطفل بعدم الكفاية والنقص . وقد يرجع ذلك الى فشل الطفل في تنمية الشعور بالمبادأة في المرحلة السابقة ، او ان وضعه بين اقاربه الذين يشاركونه العمل أو الدراسة يشعره بالعجز في التوحد معهم ، او ان مكان التعليم والعمل لا يوفر له من الخبرات والمثيرات ما يتحدى قدراته الكامنة . ومن هنا يصبح النجاح في المدرسة أحد عوامل الصحة النفسية للطفل ، وكما يقولون النجاح يولد النجاح . ومن شأن ذلك ان يجعل النمو النفسي للطفل سويا وطبيعيا الى حد بعيد . والمدرس الناجح هو الذي يعرف كيف يساعد التلميذ على أن يشق طريقه في المدرسة ، ويعينه على التغلب على مشكلاته المدرسية وعلى العوائق التي تعترض سبيله . انه يعرف جيدا كيف يجعل الطفل يتناول اللعب والعمل . انه يعرف كيف يقدم الجهود الخاصة وكيف يشجع الاطفال على بلل المزيد من الجهد ، وكيف يعالج هؤلاء الذين لا ينظرون باهتمام الى المدرسة ويعتبرونها سجنًا . ولكن من واجب الآباء ايضا أن يجعلوا ابناءهم يحبون مدرسيهم**

ويحسون بالثقة فيهم ، لأن الطفل محتاج الى التوحد مع مدرسه مثلما هو محتاج الى التوحد مع أبيه .

**٥ - الاحساس بالهوية مقابل اضطراب الدور** وباقامة صلات مبدئية حسنة مع عالم المهارات والادوات ، ومع الدخول في مرحلة المراهقة ، تنتهي فترة الطفولة الحقة ، وتبدأ مرحلة الشباب . وتعود المشكلات مرة اخرى الى الظهور بسبب التغيرات الجسمية والفسيولوجية السريعة ، والتي تعادل في سرعتها سرعة النمو في مراحل الطفولة المبكرة ، وكذلك بسبب الاضافات الجديدة للنمو الجنسي . ويصبح الشاب النامي الذي يواجه بمثل هذه التغيرات اكثر انشغالا بمظهره امام الآخرين ، اكثر مما هو عليه في الحقيقة .

والمشكلة الرئيسية في هذه المرحلة بالنسبة للمراهق هي مشكلة تكوين الاحساس بالهوية ، أى معرفة من هو ، وما دوره في هذا المجتمع ، وهل هو طفل - على نحو ما كان ينظر اليه من قبل - أم راشد - على نحو ما هو صائر اليه الآن ، وهل لديه القدرة التى تجعل منه انسانا له كيانه وقيمه في هذا المجتمع . ومثل هذه المشكلات تحتل مكانا هاما من تفكير المراهق واهتماماته ، كما يصبح اكثر انشغالا واهتماما بالتوفيق بين ما تعلمه من مهارات وادوار في مراحل نموه السابقة ، وبين ما هو مقبول اجتماعيا الآن . وهو في بحثه عن احساس جديد بالهوية والاستمرار ، عليه ان يخوض الكثير من المعارك التي سبق ان خاضها من قبل .

وى اريكسون ان التكامل الذى يحدث الآن في صورة هوية الذات ، اكبر من مجموع توحيدات الطفولة . انه نتيجة الخبرة النامية لقدرة الانا على احداث تكامل بين كل التوحيدات السابقة وتقلبات الليبدو والقدرات المنبثقة من الواهب ، والفرص التي تقدمها له الادوار الاجتماعية . فكل هذه التغيرات هي التي تعمل على احداث التكامل الجديد في صورة هوية الذات لدى المراهق .

وتمثل خطر هذه المرحلة النمائية في اضطراب الدور role confusion وارتباك . ولتوضيح معنى هذا المفهوم اشار اريكسون الى عبارة وردت في رواية آرثر ميللر Death of a Salesman على لسان أحد المراهقين في سياق حديثه مع أمه « انى لا أستطيع ان امسك بشيء يا أمى ، انى لا أستطيع ان استحوذ على أى نوع من انواع الحياة » . فاذا التغيرات الجسمية السريعة التى تحدث للمراهق سواء من حيث الشكل أو الحجم ، وازاء نضجه الجنسي ، ونظرة المجتمع اليه ، والتغيرات المختلفة التي تطرأ على ادواره الاجتماعية ، لا يملك المراهق الا الاحساس بهذا الاضطراب في الهوية .

وسواء سيطر المراهق على اضطراب الهوية ، او اصبح نتيجة لذلك جانحا او عصابيا او ذهانيا ، فان هذا يتوقف على خبرات الماضي وعلى الشكوك القوية السابقة التي مرت به . فان تم تشخيص هذه الاحداث وعلاجها بشكل سليم ، فسوف يحدث تكامل جديد لدى الفرد ، ويرى طريقه في الحياة . وفي بعض حالات المراهقة ، يكون عدم القدرة

على الاستمرار أو الاستقرار في عمل ما أو في وظيفة واحدة أحد الأسباب التي تؤدي إلى اضطراب الهوية عند المراهق .

**ويجد المراهقون راحة نفسية في التواجد معاً ، فهم يميلون إلى تكوين الشلل . ومن أجل الإبقاء على وحدة الجماعة أو الشلة ، يتوحد المراهق ، ولو وقتياً وإلى الحد الذي يصل فيه أحياناً إلى فقد الظاهر لهويته ، مع أبطال الشلة . وهذه هي بداية « الوقوع في الحب » والذي ليس أساساً أو كلية ، حباً جنسياً . فحب المراهقة هو إلى حد بعيد محاولة للوصول إلى التعريف بهوية الفرد عن طريق إسقاط صورة الذات المختلطة على الغير ورؤيتها هكذا معكوسة وواضحة بالتدرج . ولعل هذا هو السبب في أن معظم حب صفار الشباب هو حب كلام وحديث .**

**وصغار الشباب يتعصبون أحياناً بشكل ملحوظ لبني جنسهم ويسلكون بقسوة وعدم تسامح تجاه من يختلف عنهم في اللون أو الأساس الثقافي أو حتى في بعض المظاهر البسيطة كاللزي والشارات وغيرها من الأمور التي ينظر إليها مؤقناً بأنها علامات تشير إلى من ينتمي إلى جماعته ومن هو خارج عنها . ومن المهم أن نعرف أن مثل هذا التصلب وعدم القدرة على التسامح يمكن أن يكون أسلوباً دفاعياً ضد الإحساس باضطراب الهوية وتشوشها . فهم يساعدون بعضهم البعض بقوة وحرارة عند الوقوع في مشكلات مع السلطة ويختبرون بصورة حمقاء أحياناً قدرة بعضهم البعض ، ومدى انتمائهم إلى هذه الجماعات من أجل ضمان الولاء لها . واستعداد الشباب للقيام بمثل هذه الاختبارات القاسية وتحملها أحياناً ، يفسر لنا مدى مالبعض المذاهب السياسية الدكتاتورية أو بعض الجماعات المتطرفة من أغراء على عقول أمثال هؤلاء الشباب . ففي مثل هذه الأحوال يفقد الفرد هويته نتيجة التشوش والاضطراب في التفكير ، حيث لا يفكر إلا بعقلية الجماعة التي تدفعه إلى تحقيق أهدافها . وأمثال هؤلاء الشباب يتعرضون للانفصال والانعزال عن حياة غالبية المجتمع الذي يعيشون فيه ، كما يفقدون الثقة بأنفسهم وبقدرتهم على توجيه دفعة حياتهم بسلام .**

ومع أن « الإحساس بالهوية صعب التحقق ، إلا أنه يحفظ الفرد ويقيه من فوضى الدوافع البيولوجية ، ويمكنه من المحافظة على المبادئ والقوانين ، والوقوف أمام ضمير مستبد قاس شكاك . أما فقدان الهوية أو فقدان الشعور بأن هناك قدراً من « التماثل » والاستمرار ، فإنه يعرض الفرد لصراعاته الطفلية ، ويؤدي إلى اضطرابات انفعالية » .

**٦ - الإحساس بالسود والتآلف مقابل العزلة والقوة المكتسبة في أية مرحلة يمكن اختبارها بقدرة الفرد على تجاوزها بطريقة تسمح له بالحصول على فرص أكبر في المرحلة التالية ، لم تكن متاحة له في المرحلة السابقة . فالراشد - الذي يخرج من البحث عن الهوية - يكون مشوقاً ومرحباً أن يدمج هويته بهوية الآخرين . فهو على استعداد للإحساس بالسود والتآلف مع أشخاص من نفس الجنس أو من الجنس الآخر أو مع نفسه . فتكون لديه القدرة على أن يسلم نفسه للانتماءات والمشاركات المحسوسة مع الغير ، وإن ينمى**

لديه القوة الاخلاقية التى تمكنه من ان يفى بتعهداته حتى لو اقتضى الامر القيام بتضحيات ووعود هامة .

وفى مقابل اللفة والود نجد الابتعاد ، اعنى الاستعداد للعزلة ، واذا لزم الأمر ، هدم القوى والاشخاص الذين يبدو فى وجودهم خطريهدد الذات وتهدد على العلاقات الوثيقة التى تربط الفرد بالآخرين .

واذا تحرينا الدقة ، فان هذه المرحلة هى مرحلة النمو الكامل للتناسلية الحقيقية True Genitality . ذلك ان غالبية حياة الجنس السابقة كانت من نوع البحث عن الهوية او خاضعة للشهوات القضيبيية أو الفرجية التى تجعل حياة الجنس نوعا من الصراع التناسلي . اما التناسلية الحقيقية ، فهي من الناحية الأخرى حالة دائمة من السعادة الجنسية المتبادلة . لقد سئل فرويد مرة عما يظن أن الشخص السوى قادر أكثر على فعله . فأجاب « أن يحب وان يعمل » to love and to work . وهذه العبارة البسيطة تدعو الى التأمل العميق ، لانه عندما قال فرويد « أن يحب » كان يعنى الحب التناسلي . وعندما قال « يحب ويعمل » فانه كان يعنى العمل المنتج عامة ، والذي لا يشغل الفرد الى الحد الذى يفقد الفرد او ينسى حقه أو قدرته على أن يصبح كائنا محبا ومتناسلا .

واذا كان التحليل النفسي قد قطع شوطا بعيدا فى التوكيد على التناسلية كعلاج عام للمجتمع ، وقدم بذلك بضاعة جديدة لكثير ممن يرغبون تفسير تعاليمه على هذا النمو ، الا انه لم يوضح دائما - فى نظر اريكسون - كل الاهداف التى يجب ان تتضمنها التناسلية بالفعل . فمن اجل ان يصبح لهذه التناسلية قيمة اجتماعية مستديمة ، فان الصورة المثلى للتناسلية يجب ان تتضمن : ١ - تبادلية الشبق الجنسي ٢ - ومع شريك يحبه ٣ - ومن الجنس الآخر ٤ - وان يكون مستعدا ومرحبا ان يشاركه الثقة المتبادلة ٥ - وان يكون مستعدا ومرحبا ان ينظم معه دورات ( ا ) العمل ( ب ) والانجاب ( ج ) والترويج ٦ - وبذلك يضمن للنتاج او الصغار جميع مراحل النمو السوى .

وخطر هذه المرحلة هو العزلة ، اعنى تجنب العلاقات التى تسلم الى الود والمحبة والتآلف ، وقد يؤدى هذا الاضطراب وهذه العزلة الى حدوث مشكلات خطيرة فى الشخصية .

(٧) الانتاجية مقابل الجمود . لقد كان التركيز فيما سبق منصبا على الطفولة والمراهقة . ولكن مع التقدم فى السن والوصول الى الرشد واكتمال النضج يبدأ الاحساس الابوى . والاحساس الابوى يتضمن النمو التطورى الذى جعل الانسان هو الكائن الحى المعلم والمتعلم على حد سواء . واصرارنا المستمر على تصوير الاطفال والنظر اليهم باعتبارهم معتمدين ومتكلين دائما على الكبار ، يجعلنا ننسى أيضا اعتماد الجيل الاكبر والمتقدم فى السن على الجيل الاصغر منه . أن الشخص الناضج يحتاج دائما الى الشعور بأن هناك من يحتاج اليه ، والنضج يحتاج الى توجيه مثلما يحتاج الى تشجيع ممن يقدم اليه ونرعاه .

والابوة ، اساسا ، هي الاهتمام بتربية الجيل الجديد الناجح وتوجيهه ، وان كان هناك آباء - اما بسبب سوء الخط أو عوامل نفسية خاصة ، لا يقومون بهذا العمل نحو اولادهم . وقد يتسع مفهوم الابوة أيضا فيشمل مترادفات أكثر ألفة كالانتاج والخلق .

اما الاخفاق في انماء هذا المكون من مكونات الشخصية السوية ، فكثيرا ما يؤدي الى نوع من الانغماس في الذات والاحساس العام بالجمود والفقر الشخصي . فيبدأ الفرد غالبا في امتناع ذاته واشباع رغباتها كما لو كان هو الشخص الوحيد أو الطفل الوحيد ، ويتساهل مع نفسه وينتظر من الآخرين التساهل معه ، أي يسلك بطريقة طفلية غير ناضجة » .

وثمة حقيقة هامة تتلخص في أن مجرد الطفل أو حتى الرغبة في انجابه ، لا ترتفع الى ضرورة الاحساس بالابوة . فبعض صفار الآباء يعانون فيما يبدو من تأخر في القدرة على تنمية الرعاية الحقة لابنائهم ، ويمكن أن ترجع أسباب هذا الاخفاق الى الانطباعات غير السارة في الطفولة المبكرة وفي التوحيات الخاطئة مع الآباء، وفي الحب الزائد عن الحد للذات ، وفي الافتقار الى الثقة في الاطفال أو الرغبة في الشعور بالاستقلال وعدم الارتباط بالغير ، والاحساس بالعزلة . وقد يحدث هذا عند بعض الاشخاص نقصا في الاحساس بتكامل الانا .

(٨) **تكامل الانا مقابل اليأس : Ego Integrity vs Despair** وتظهر ثمان المراحل السبع السابقة في هذا الشخص الذي نما على العناية بالاشياء والاشخاص ، وعلى ملاءمة نفسه مع النجاح والفشل في هذا العالم ، والذي أوجد الآخرين وولد الاشياء والافكار . ولم يجد اريكسون مصطلحا افضل من مصطلح «تكامل الانا» لوصف هذا الشخص . وهذا المصطلح يشير الى أن الفرد قد أصبح قادرا على توكيد نمو الانا في نزعتها نحو النظام والمعنى ، ونحو التكامل الانفعالي المخلص لحملة صور الماضي ، والاستعداد لتحمل الزعامة والقيادة في الحاضر والى تقبل دورة حياة الفرد ، وتقبل ما يتصل بها من اشخاص باعتبارهم ذوي أهمية ومغزى في هذه المرحلة من تاريخه ماداموا قد أدوارسالته في هذا السبيل .

كما يعنى « تكامل الانا » أيضا حبا جديدا ومختلفا للابوين، حبا خاليا من الرغبة في أن يكونوا غير ما هم عليه ، أو أن يتخلصوا من عيوبهم وأن يتقبل حقيقة أن حياة المرء هي مسؤوليته وحده . كما يعنى أيضا احساسا بزمالة الرجال والنساء الذين ساهموا في خلق أنظمة وأشياء وأقوال تكشف عن كرامة الانسانية . وعلى الرغم من معرفته بنسبية جميع الاساليب المختلفة للحياة والتي أعطت معنى للكفاح الانساني ، فإن الشخص الذي لديه تكامل الانا يكون على استعداد للدفاع عن كرامة أسلوبه في الحياة « أمام كل ما يتعرض له من تهديدات مادية كانت او اقتصادية . فهو يدرك أن حياة الفرد وكرامته تتوقف على تمسكه بأسلوبه الذي يقوم عليه شعوره بالتوحد .

والادلة الاكلينيكية والانثروبولوجية توحي أن نقص أو فقدان هذا النمو لتكامل الانا يتضح في ناحيتي الاشمئزاز واليأس . فالقدر أو المصير لا يتقبله الفرد كإطار للحياة ، كما أنه يخاف الموت . وهو يعبر عن اليأس في صورة الشعور بأن الزمن قصير ، وأنه أقصر من أن يسمح

للغرد ان يبدأ حياة اخرى من جديد ، او ان يحاول تجربة طرق اخرى بديلة للتكامل . ومثل هذا الياس غالبا ما يختفى وراء مظاهر الاشتمزاز وبفض الجنس البشرى والاستياء المزرى الزمن لمؤسسات معينة وأشخاص معينين ، وهذا الاشتمزاز وهذا الاستياء انما يعينان فقط احتقار الفرد لنفسه وازدراؤه لها .

وهكذا يربط اريكسون بين مراحل النمو والتكيف ، ويربط بين اتجاهه التحليلي واتجاهات اخرى انثروبولوجية واجتماعية .



### ثالثا - نظرية نمو الذات عند جوردون البورت

جوردون البورت من كبار المشتغلين بدراسة الشخصية ، وكتب في هذا المجال العديد من الكتب . وقد نظر الى الشخصية من حيث هي أسلوب متميز من اساليب التكيف التى يقوم بها الفرد ، لا توجد عند الولادة ، وان كان من الممكن القول بان بدورها توضع مع الولادة ، ان اساليب التكيف الميزة المبكرة والتى على اساسها يمكن أن نفرق بين طفل وآخر تتضح فى شدة نشاطهم التلقائي وتكراره ، وفى تعبيراتهم الانفعالية والمزاجية ، وانه ليس من المحتمل قبل بداية الشهر الرابع أن يكون الطفل قد نضج نضجا كافيا وتعلم تكوين عادات متميزة للتكيف .

ومع بداية النصف الثانى من السنة الاولى تبدأ استجابات الطفل التوافقية المتميزة مع العالم المادى والاجتماعى تظهر بوضوح ، وان الصفات المتميزة التى يمكن ملاحظتها فى وقت مبكر من حياة الطفل تميل الى الاستمرار وبشكل ملحوظ يسمح للملاحظ ان يتنبأ بما ستكون عليه شخصية الفرد فى المستقبل . فالشخصية اذن نامية متطورة تخضع لمظاهر النمو النفسى السوى وغير السوى ، وفقا للمحددات المختلفة التى تؤثر فيها ، ووفقا للظروف التى يمر بها الفرد .

والذات هى لب الشخصية ، بل هى لب كيان الفرد ووجوده . وفكرة الذات تنمو وتتطور وتمر بمراحل متعددة فى نموها وتطورها . واذا كنا عرضنا للنمو النفسى الجنسى عند فرويد ، والنمو النفسى الاجتماعى بصورته المتطورة عند اريكسون ، فجدير بنا أن نشير أيضا الى نظرية اخرى تتصل بصميم النمو النفسى للفرد ، وهى نمو ذاته ابتداء من الطفولة المبكرة حتى المراهقة ، وهذه النظرية هى نظرية البورت .

### \* مراحل نمو الذات عند البورت :

١ - الطفولة المبكرة : من المؤكد أن الطفل ليست لديه اية معرفة عن نفسه « كدات » وهذا ما تكشف عنه الملاحظات العديدة التى قام بها العديد من علماء نفس الطفل من أمثال جان بياجيه وغيره . فالطفل لا يمكنه أن يميز بين ذاته والعالم الخارجى . فهو ينظر الى جسمه كما لو

كان شيئاً غريباً عنه ويلعب بأصابع قدميه كما لو كانت دميته ، أى أنه ليست لديه أية معرفة عن وجود ذات جسمية أو ذات اجتماعية . فالحدود الفاصلة بين ما هو جزء منه ، وما ليس جزءاً منه لم تتضح بعد ، ويحسن أن نفرق بين الشعور ، والشعور بالذات ، فهما ليسا مترادفين لا عند الطفل ولا حتى عند الراشد . فالطفل على الرغم من أنه يحس ويشعر بما يجرى حوله من حالات وتغيرات نفسية ، إلا أنه يفتقر في هذه المرحلة الأولى من عمره إلى الشعور بالذات . أما البالغ فلديه الناحيتان معا ، وإن كانتا غير متماثلتين : فهو يشعر ، كما أنه يشعر بذاته .

والطفل يكتسب الشعور بالذات بشكل تدريجي خلال السنوات الأولى من حياته . وهذه المرحلة الأولى من حياة الطفل والتي تشتمل على السنتين الأولىين يسميهما بياجيه باسم « المرحلة الحسية الحركية » وفيهما يستقبل الطفل انطباعات من العالم الخارجى ، ويستجيب لهذه الانطباعات دون أن تكون هناك ذات وسيطة بين هذه الانطباعات وهذه الاستجابات . فهو يحس ويشعر ويستجيب للضغوط الواقعة على سطح الجلد ، ويستجيب للأصوات الهادئة الناعمة الصادرة عن الأم ، وردود الأفعال الحسية الحركية هذه تدخل في كلٍّ غير « متشكل » أو كلٍّ « غير متميز » من الذات والعالم الخارجى على حد تعبير بياجيه .

ومع استمرار النمو يبدأ الطفل يكتشف جسمه . ففي حوالى الشهر الخامس أو السادس يمسك بأصابع اليدين والقدمين ويمسك بالأشياء الصغيرة المحيطة به . ولكن الأشياء والأصابع التى تقبض عليها هى شئ واحد بالنسبة إليه ، شئ واحد لم يتميز بعد إلى مكوناته . وهو عندما يحمل في قدميه ، يحاول أن يمسك بها وأن يضع أصبع قدمه في فمه ، وهو أن أصاب قدمه فهو يتألم دون أن تكون لديه أية فكرة عن أنه هو سبب ألمه . وقد تستثيره رؤية صورته في المرآة وهو في شهره الثامن تقريباً ويحمل فيها ويحاول اللعب معها دون أن يدرك أن هذه الصورة التى يراها هى صورته هو . والجدير بالذكر أن الطفل في العادة يميز صورة والديه في المرآة ، قبل أن يستطيع أن يميز صورته هو بوقت طويل .

ثم هو حين يبدأ يتنقل في أرجاء البيت بالزحف من مكان لآخر ، قد يصطدم بأشياء كثيرة تسبب له ألماً فيبدأ يدرك بالتدريج أن هناك أشياء خارجية جامدة ، وأن الاصطدام بها يسبب له ألماً . أى يبدأ يدرك أن هناك أشياء خارجية عنه . وهو يصل إلى فكرة الشئ الخارجى الذى « ليس هو » قبل أن يتمكن من أن يدرك أن له ذاتاً متميزة عن هذا العالم الخارجى بوقت طويل . وكما يدرك وجود الأشياء الخارجية قبل إدراكه لذاته ، فكذلك يدرك وجود الآخرين قبل إدراكه لذاته . فهو يتعرف على الوجوه المألوفة في البيت من الأبوين والإخوة ، كما يتعرف على الغرباء عن البيت . وهذا التعرف على « الغير » يسبق أيضاً التعرف على الذات.

ويذهب البورت إلى أن أول مظهر لفكرة الذات في هذه المرحلة الأولى هو « الإحساس بأن له جسماً » ، وإن هذا الجسم ، جسمه هو . فالطفل يستقبل سيلاً من الإحساسات العضوية الداخلية ، كما أنه يتأثر أيضاً بالكثير من المثيرات العديدة الموجودة في العالم الخارجى .

وبالطبع لا يكون لهذه الاحساسات الجسمية أى اثر في تكوين الذات مالم تكن متكررة . ومعرفة هذا التكرار للاستجابات البسيطة المتلاحقة يتطلب نضجا مناسباً في اللحاء بشكل يسمح بالاحتفاظ بآثار الخبرات السابقة . وكما ينمو الاحساس بالذات الجسمية من الاحساسات العضوية المتكررة التي تترك آثارها في نفس الطفل فانه ينمو أيضاً من الاحباطات المتكررة التي تصدر عن العالم الخارجي . فالاحساس بالذات الجسمية هو في نظر البورت وثيقة وجودنا ، بمعنى أن احساساتنا وحركاتنا تمدنا بمعرفة ثابتة عن وجودنا .

ولكن رغم ما للذات الجسمية من أهمية، إلا أنها ليست كل شيء في تكوين فكرة الذات عند الطفل في هذه المرحلة الاولى من الحياة ، فهناك أفكار أخرى لها أهميتها .

**هناك ثانياً : هوية الذات واستمرارها :** فانت هو نفس الانسان الذى كنت عليه وانت في سن الثالثة أو الرابعة من عمرك ، رغم أن كل شيء يتصل بك ، حتى خلايا جسمك والبيئة المحيطة بك قد مرت بها تغيرات عديدة جداً . ثم أن كل فرد منا يتعرف على ذاته . فانا أتذكر بعض الافكار والاحداث التي مرت بذهنى بالأمس، وفي الغد سوف أتذكر بعض ما مر بى من افكار واحداث في يومى وامسى . وانا على ثقة أيضاً من أن هذه الافكار والاحداث تتصل بشخص واحد هو انا . ففكرة هوية الذات تعتبر بالغة الأهمية طالما أن التغير هو مع ذلك القاعدة الأساسية للنمو . فرغم ما يطرأ على أفعالنا وافكارنا من تغير ، إلا أن الذات تبقى هي هي مستمرة ومتصلة .

**وتلعب اللغة دوراً هاماً في هذا الصدد .** فعندما يبدأ الطفل التحدث والتعبير عن رغباته يستخدم من الالفاظ ما يشير الى حاجاته ورغباته ، وانه ، يعنى « هو » ، يريد أن يأكل أو أن يشرب أو أن يحصل على لعبة ما : فلفظ « انا » أو ما يشير اليه يعتبر عاملاً واضحاً في علاقته بالعالم الخارجى . ثم أن اسم الطفل الذى يتردد على سمعه في اليوم الواحد مرات عديدة ، قد يساعده أيضاً على أن يدرك ذاته كشيء متميز ومستقل . وهذا الاسم يكتسب معنى ودلالة بالنسبة للطفل في عامه الثانى . ومع الاسم تأتى المعرفة بالوضع المستقل ، وأن له وجوداً مستقلاً عن وجود الآخرين يتمثل في هذه الذات الجسمية التي بدأ يحس بوجودها . وإلى جانب الاسم هناك أشياء أخرى يمكن أن تعد بمثابة نقاط ارتكاز هامة للتعرف على الذات كالملابس والأشياء الخاصة . فبعض الاطفال في سن الثانية أو الثالثة ، قد يكشفون عن احساس بالهوية حين ينظرون الى بعض ممتلكاتهم الخاصة كالخذاء الجديد أو شريط الرأس أو الفستان الذى ترتديه .

والى جانب الذات الجسمية وهوية الذات واستمرارها ، هناك ناحية ثالثة تلعب دوراً هاماً في هذه المرحلة من تكوين فكرة الذات هى **رغبة الطفل في اثبات وجوده أو تقديره لذاته .** ففى سن الثانية أو الثالثة يحاول الطفل القيام ببعض الأشياء بنفسه ، كدفع المشاية بنفسه أو تناول بعض الأشياء واللعب بها بنفسه ، وينتقل في أرجاء البيت يستكشف ما فيه . ويجد لذة كبيرة في القيام بمثل هذه الالوان من السلوك والتي – أن أعيقت من جانب الكبار – يشعر الطفل كأنها ضربة موجبة لتقديره لذاته . بمعنى أن الذات قد أحبطت أو أعيقت ، ونتج عن ذلك



شعور بالضعف أو احساس بالفضب . ويحس الطفل بذاته ويكون واعيا بها لدرجة كبيرة . ويكون هذا السلوك واضحا لدى طفل هذه المرحلة حتى أن البعض يسميه الحاجة الى « الاستقلال الذاتي » . وهي سمة ملحوظة وبارزة في فكرة الذاتية عند طفل الثانية أو الثالثة . وهذا ما يتجلى في ثورة المعارضة التي تتميز بها طفل هذه الفترة بالنسبة للطعام والملبس واطاعة الاوامر وكل ما يريده الاباءعادة . فهو ينظر الى اوامر الكبار كما لو كانت تهديدا يهدد تكامله . ولذلك تتضح عنده ظاهرة الرفض ، كما لو كان الرفض بقوله « لا » وسيلة لحماية الذات من كل ما يؤدي الى تحقيرها . ولمثل هذه الفكرة ذهب اريكسون في دراسته للنمو النفسى عند الطفل في حديثه عن المرحلة الثانية من مراحل النمو النفسى للطفل والتي سماها باسم الاستقلال الذاتي ، كماسمى الخطر الذى تتعرض له هذه المرحلة باسم الخجل والشك . والفكرتان - تلكما اللتان أوردهماالبورت واريكسون - قريبتان الى حد بعيد .

وعلى ذلك ، فالمظاهر المميزة لنمو فكرة الذات في السنوات الاولى من حياة الطفل عند البورت هي :

١ - المظهر الاول : الاحساس بالذات الجسمية .

٢ - المظهر الثانى : هوية الذات واستمرارها .

٣ - المظهر الثالث : تقدير الذات .

ب - مرحلة ما قبل المدرسة :

لكن مرحلة ما قبل المدرسة - وهى الفترة ما بين الرابعة والسادسة - سرعان ما يفقد الطفل فيها هويته ويختلط عنده الوهم بالحقيقة ، ويسيطر على العابه النوع المعروف باسم « اللعب الابهامى » الذى يتوهم الطفل نفسه فيه فارسا او شرطيا مثلا ، ويخلق له من الوهم والخيال أصدقاء : اطفالا كانوا ام حيوانات . وفكرة الذات الجسمية تكون عنده اكثر وضوحا ، فجميع اعضاء جسمه هى ملك خاص به وحده .

كما أن طفل هذه المرحلة يكون « ذاتى المركز » الى حد بعيد . فالاطار الرجمى لتفكره هو ذاته . فالقمر يتبعه فى كل مكان وحيثما سارا ، والله موجود ليحفظه ويحميه ، كما ان وجهة نظره تعتبر مطلقة . فالآخرون يفكرون على نحو ما يفكر هو ، ولذا فهو ليس فى حاجة لان يعبر عن وجهة نظره أو يفسر أقواله وعباراته للآخرين . ولكن مركزية الذات هنا ليست قائمة على معرفة بالذات أو انها تدور حول الذات ، وانما هى تصدر عن الطبيعة الشخصية لتفكير الطفل فى هذه المرحلة فحسب .

ومن ثم فان هذه المرحلة تتميز فى نظرالبورت بمظهرين جديدين ، بالاضافة الى المظاهر الثلاثة السابقة التى تتميز بها السنوات الثلاث الاولى . وهذان المظهران هما :

٤ - المظهر الرابع : امتداد الذات واتساعها .

٥ - المظهر الخامس : صورة الذات .

فالذات تتسع لتشمل أشياء كثيرة ، كما يلعب الاحساس بالملكية في نفس الوقت دورا هاما . فهذه الكرة كرتى ، وهذه الدراجة دراجتى وهذه أمى وهذا أخى وهذا بيتى . الخ . وكلها تصبح امتدادا للذات وتشير أيضا الى اتساعها لتشمل العديد من الأشياء . وبطبيعة الحال لا تتسع ذات الصغير في هذه المرحلة لتشمل كل ما يحيط به في دائرة عالمه الكبير على نحو ما نجد مثلا بالنسبة للكبار ، وإنما أساس هذا الاتساع الكبير الذى سوف يحدث فيما بعد يتم وضع بدوره في هذه المرحلة حينما يحس الطفل بتملك أشياء كثيرة .

وبالإضافة الى امتداد الذات واتساعها ، تأخذ صورة الذات في الاتساع أكثر وأكثر . فمن طريق التفاعل المتبادل مع الكبار والوالدين يمكنه أن يقارن بين سلوكه الواقعى وما هو متوقع منه . فهو ولد مشاغب ، ووالداه يريدانه ولداه دائما مطيعا لطيفا . ولكن صورة الذات هنا ليست نامية على نحو ما هي في المراهقة . وعلى العموم فبدون فكرة الذات كما هي وكما يريد أن تكون عليه ، تكون موجودة في هذه المرحلة .

**ج - مرحلة الطفولة المتأخرة :** ومع دخول الطفل المدرسة الابتدائية أى في الفترة ما بين سن السادسة والثانية عشرة ، يزداد احساس الطفل بهويته وبصورة ذاته . وبقدرته على امتداد الذات . وسرعان ما يتعلم الطفل أن ما هو متوقع منه خارج المنزل يختلف الى حد كبير عما هو متوقع منه داخل المنزل . فمستويات الرفاق في اللعب والمشى والكلام والملبس شيء جديد عليه . ثم هو يحاول أن يدمج نفسه مع جماعات الرفاق وأن يندمج مع الشلة وفي عالم الواقع ، كما يقل لعبه الإيهامى ، ويزداد احساسه بذاته الواقعية . ولذلك نجده يرتبط بالمعايير الخلقية واحكام اللعب وقوامدها ويتبعها بكل دقة . ويكون راضيا عن نفسه اذا هو تكيف مع الواقع الخارجى والاحكام الخارجية وامتزج مع الشلة ونمت صورة ذاته .

وهذه الفترة هي أيضا فترة نمو عقلى . وهي فترة تتميز بالمزيد من الرغبة في المعرفة وحس الاستطلاع وكثرة الاسئلة والاستفسارات . وهذه هي بداية الاحساس بمظهر جديد من مظاهر نمو الذات ، وهو المظهر السادس عند البورت .

**٦ - المظهر السادس : الذات منطقية عاقلة** ووظيفة الذات هنا كوظيفة « الانا » عند فرويد التى تحاول أن تجد حلا ومخرجا للمشكلات التى تخلقها النزاعات الغريزية والنزعات المكبوتة « الهو » ثم الواقع أو البيئة الخارجية ، ثم الاوامر والنواهي التى تصدر عن الوالدين والمجتمع ( الانا الأعلى ) . فوظيفة الذات العاقلة هي محاولة تجنب المشكلات والصعوبات التى تثيرها هذه النواحي الثلاث ، ولكنها بالطبع ليست دائما عاقلة تماما ، بل تكون أحيانا مجرد ذات دفاعية تحاول خلق الماذير والتبريرات كى لا تجرح الذات . فهي تنكر العوائق الموجودة القائمة وتلمس وسائل الهروب ووضع الخطط التى هي مجرد حلول مريفة لمشكلات الحياة .

**د - مرحلة المراهقة :**

وأخيرا تأتي مرحلة المراهقة وفيها يبحث المراهق من جديد عن ذاته . فهو في طفولته المبكرة قد أحس بهويته ولكنه فقدتها ان شئنا القول في الأسرة وفي الشلة وفي الولاء لهما . والآن تصبح مشكلة المراهق هي البحث من جديد عن هويته .

وكثيرا ما تواجه المراهق في هذه الناحية صعوبات جمة تزيد من مشكلاته في هذه المرحلة . فأسلوب معاملة الوالدين له مرة كطفل ، ومرة كرجل ، من أسباب مشكلاته وعدم استقراره . فسلوكه وتصرفاته تكون أحيانا كسلوك الأطفال وتصرفاتهم ، ولكنه مع ذلك قد بلغ من الناحية الجنسية والجنسية مبلغ النضج الذي يكفي للنظر اليه كرجل .

وصورة المراهق عن ذاته تتوقف على الآخرين وتقبلهم أو نبذهم له . وثورة المراهق وتمرده على السلطة لهما علاقة هامة ببحثه عن هويته وذاته . أنها محاولته الأخيرة للاستقلال الذاتي . وقد يلجأ المراهق الى أساليب تكشف عن قلقه وعن بحثه عن شيء لم يصل اليه بعد . فالوان الزى التي يرتديها . وتصفيف شعره بالصورة التي يقوم بها ، وتقليده للابطال المختلفين ، كل ذلك تعبير عن القلق وعدم الاستقرار . وعادة ما ينظر الآباء الى مثل هذا السلوك وهذه الخبرات نظرة بعيدة عن الاحترام والتقدير للمراهق . ولذلك فهو يقوم به في الاغلب خارج البيت وفي صحة الزملاء .

ويكون الصراع حول الحاجات الجنسية واضحا ، وتتناقض وجداناته وعواطفه ويتذبذب أحيانا بين الإيمان والالحاد . وقد يجد كثير من المراهقين في الدين حلا لمشكلاتهم ، كما تظهر أهداف المستقبل واضحة جلية ، ويحتل التفكير في المهنة التي يعد نفسه لها في المستقبل جزءا كبيرا من تفكيره . كما أنه يرسم للمستقبل خطة موضوعة . وهو بهذا يدخل بعدا جديدا على ذاته لم يكن موجودا من قبل في الطفولة . وغالبا ما تكون آمال الشاب بعيدة ومستويات طموحه عالية جدا . ولكن مع تقدم السن سرعان ما يتكشف البعض أن مآلديهم من قدرات واستعدادات أقل مما لديهم من آمال وأحلام ، فيعدل من صورة ذاته ومن مستويات طموحه بما يتفق وقدراته واستعداداته . وهذا دليل على مستوى عال من النضج ، وعلى هذا النمو يضيف البورث البعد السابع في تكوين الذات ونموها وهو :

**٧ - المظهر السابع : الجوهر المميز .**

وهذا المظهر الأخير يتميز بالاتجاه والقصد المعرفي مما يساعد على تحديد أهداف الفرد . وليس من الضروري أن تكون الأهداف جامدة وثابتة ، ولكن يوجد هدف رئيسي يهدف الفرد الى تحقيقه فقط . وهذا المظهر الهام في نمو الذات لم يكن موجودا من قبل . فالطفل الصغير الذي يريد أن يكون طيارا أو طبيبا ليس لديه الاتجاه المتصل والجهد المتكامل لبلوغ ذلك وتحقيقه . أما الشاب فهو يرسم ويخطط ويحس بالهدف وينشط الى تحقيقه . وبالطبع يحتاج هذا كله الى قدر من النضج في الشخصية قد لا تجده عند جميع المراهقين . فالبعض قد

يصل الى مرحلة المراهقة دون أن يكون لديه احساس واضح بالهدف . وهؤلاء في الاغلب لا تكون شخصياتهم ناضجة ، ولذا ، فاحساسهم بالذات لا يزال فجاً اولياً .

ولكن هذه المظاهر المختلفة للذات ليست متباعدة . فهي جميعاً حالات تكشف عن الذات على نحو ما نحسها ونشعر بها . وكل واحدة منها مرحلة من مراحل نمو الذات ويمكن أن نربطها بعضها ببعض تحت اسم واحد . وقد اختار البورت لها اسم الذات الممتدة المميزة *Proprium* . وقد أشار البورت الى أنه لم يسمها الذات وكفى ، لان معظم الكتاب يطلقون اسم الذات أو الانا على مظهر واحد أو مظهرين من المظاهر السابقة . ولهذا فهو يفضل أن يضع لها تسمية جديدة تضم هذه المظاهر المتعددة للذات .

#### ٨ - المظهر الثامن : الذات العارفة

وبعد أن حدد البورت الوظائف الموحدة المميزة المتنوعة ، والتي تعتبر موجودة لدينا كلها يتساءل عما اذا كانت لدينا ، بالإضافة الى ما سبق ، ذات عارفة يمكن أن تضاف وظيفتها الى كل الوظائف الاخرى للذات الممتدة وتتعدها وتدرجها ؟ لقد ذهب وليم جيمس الى أنه لا توجد لدينا مثل هذه الذات العارفة . فهي لا توجد كشيء له كيان يمكن تمييزه عن المجموع الكلي للخبرات ، أو يمكن انتزاعه من مجرى هذه الخبرات . فكل لحظة شعورية ترتبط باللحظة السابقة ، وعلى هذا فالذات العارفة توجد مضمحلة على نحو ما ، في قوله : « الافكار نفسها هي الذات المفكرة » .

أما معارضو جيمس فيقولون أن مجرد سلسلة من الخبرات لا يمكن أن تتحول هي ذاتها الى شعور أو وعي بهذه السلسلة كوحدة ، كما أن الافكار الماضية لا يمكن أن تؤخذ بذاتها على أنها هامة أو مثيرة للاهتمام ، ما لم تكن هناك ذات تثير اهتمامها أو تكون هامة بالنسبة اليها . فالذات العارفة هي المحك النهائي ، وهي التي تنبثق كمستلزم نهائي لا مفر منه .

وسواء أخذنا برأى جيمس أو برأى معارضيه ، فمن الملاحظ أن هناك اتفاقاً بينهم في ناحية أن الوظيفة المعرفية ضرورية وحيوية بالنسبة لنمو الذات . فنحن لا نعرف أشياء فحسب ، بل أننا نعرف ونتعرف على الملامح التجريبية لذاتنا الموحدة المميزة ، اننى أنا الذى لدى احساسات جسمية ، وأنا الذى الاحظهويتى من يوم الى آخر ، وأنا الذى الاحظ وافكر في توكيد ذاتى وامتدادها ، وفيما أبدية من تبريرات ، كما أراقب اهتماماتى وكفاحى وهكذا . افكر في وظائفى الخاصة الموحدة المميزة ، واكاد أدرك وحدتها الاساسية ، وأشعر بارتباطها الوثيق على نحو ما بالوظيفة العارفة ذاتها » .

ومع ذلك يتدارك البورت الامر ويرى خطورة هذا القول اذا التزمنا بوجهة النظر العلمية ، فاذا صرحنا بأن الذات «عامل مستقل» داخل الشخصية هي التي تعرف وتريد وتهدف الخ ، السننا في خطر اذن من خلق شخصية داخل الشخصية ؟ فاذا تساءلنا مثلاً لماذا يعمل هذا الشخص بجد ، فاننا لا نفر شيئاً اذا قلنا لأن ذاته تريد بذلك . فقولنا أن الذات

تفعل هذا أو اذك ، وتريد هذا أو ذاك ، وترغب في هذا أو ذاك ، انما يثير مجموعة من المشكلات الصعبة التي هي اقرب الى الفلسفة منها الى العلم . ولذا يذهب البورت الى انه في بناء الشخصية - اذا فهم فهمها صحيحا بما في ذلك البناء الموحد المميز - سوف نجد التفسيرات التي تبحث عنها . فليس من الحكمة ان يتخلى عالم النفس عن مسؤولياته في تفسير مظاهر السلوك المختلفة ويعزو مشكلاتنا الى وسائط داخلية أو الى عامل خفي يحرك الخيوط على حد تعبيره . واذا كان من الممكن - لاغراض فلسفية معينة - أن ننظر الى الذات كوحدة متصلة ثابتة أو ان نهيا الخلود مثلا ، فاننا في علم النفس يجب ان نتجنب الفصل القاطع بين الذات « كعامل » ووظائف الانظمة الموحدة المميزة داخل الشخصية .

تلك هي المراحل الثمان التي يمر بها « نمو الذات » منذ الطفولة المبكرة حتى المراهقة عند البورت ، وليس من العسير علينا أن نجد الكثير من أوجه التشابه بينها وبين مراحل النمو النفسى عند اريكسون ، وان كانت الاسس النظرية التي يستند اليها كل منهما مختلفة الى حد ما .



#### رابعاً - نظرية النمو عند جان بياجيه :

وكما هو الحال بالنسبة لفرويد ، فان جان بياجيه اهتم ايضا بدراسة المراحل العامة التي يمر خلالها الفرد في نموه النفسى العقلى . فنظريته نظرية شكلية تهدف الى وصف المراحل المختلفة للنمو . ولكنه - على عكس فرويد الذى اكد نمو العمليات الدافعية والانفعالية كالدوافع الجنسية والشاعر المتصلة بها ، فان بياجيه ركز اهتمامه كله على النمو المعرفى ، اعنى العمليات الفعلية المميزة للنمو من الطفولة حتى المراهقة والرشد . وبالإضافة الى ذلك ، فان اسلوب الدراسة والملاحظة الذى استخدمه كل من فرويد وبياجيه كان مختلفا ، مثلما اختلفت مفاهيمهما في البحث . لقد درس فرويد النمو النفسى في الطفولة اساسا من خلال وصف الراشدين لحياتهم الوجدانية اثناء فترة الطفولة، وذلك خلال جلسة العلاج النفسى ، اما بياجيه فقد قام بالملاحظة الدقيقة لما يقوم به الطفل من سلوك ودون تدخل مباشر من جانبه . كان يعطى الاطفال مشكلات لحلها ويفحص الطرق التي يتبعونها في حل هذه المشكلات في اعمار زمنية مختلفة . وجزء كبير من اعمال بياجيه الاولى ، والتي نشرت سنة ١٩٢٦ في كتابه الاول « اللغة والفكر عند الطفل » كانت بمثابة تقرير للملاحظات الدقيقة التي قام بها على السلوك اللغوى التلقائى للطفل . كما ان كثيرا من مظاهر السلوك التي اوردها في دراساته الاولى والتي امتلأت بها ملاحظاته العديدة التي وردت في كتابه « ميلاد الذكاء عند الطفل » لم تكن نتيجة تدخل مباشر من جاتبه كجرب وباحت . ومع ذلك فقد تضمنت معظم دراساته واحدة أو اكثر من صور التدخل التجريبى البسيطة ، والتي تتلخص في ادخال نوع من المثيرات في وقت معين خلال النشاط التلقائى للطفل . ومن هنا كانت معظم دراساته تحمل الطابع الشكلى للتجارب الدقيقة ، بمعنى

أن السلوك موضوع الدراسة منذ البداية بمثيرات معينة يدخلها المجرّب . ومن الممكن أن نميز أنواعا مختلفة من الأساليب التي اتبعتها على ضوء أهمية المثيرات والاستجابات اللفظية في الموقف الاختباري .

ولقد كانت وجهة نظر بياجيه - كما هو الحال بالنسبة لفرويد - متسقة مع اتجاه داروين في التكيف . فهو ينظر الى السلوك كعملية تكيف مع الحياة ، عن طريقها يؤكد الفرد حالة التوازن بين نفسه والبيئة . فالتغيرات التي تحدث في البيئة تؤدي باستمرار الى اضطراب هذا التوازن، ومن الممكن أن يعود الفرد الى حالة التكيف فقط من خلال تغيير الفرد لنفسه ( أى الملاءمة مع البيئة ) أو معالجة البيئة ( التمثيل ) وينمو التفكير العقلي من خلال عملية التغير التكيفي المستمر بين الفرد والبيئة .

### دراسة تطور النمو المعرفي عند بياجيه :

الهدف من هذه الدراسة هو وصف النمو العقلي عند الطفل من الميلاد حتى النضج . لقد قسم بياجيه النمو العقلي عند الطفل الى أربع مراحل أساسية periods ، مشيراً بذلك الى الحقب النمائية الكبرى ، ثم قسم كل مرحلة منها الى مراحل فرعية stages ، مشيراً بذلك الى التقسيمات الفرعية الصغرى لكل مرحلة من المراحل الكبرى . فالمرحلة الحسية مثلاً تنقسم الى ست مراحل فرعية لكل منها مميزات الخاصة . وسوف نقدم في دراستنا لهذا الموضوع تلخيصاً موجزاً للمراحل الأربع . ولأن يريد التوسع في هذا المجال ، عليه الاطلاع على الكتب العديدة التي كتبها بياجيه وتلاميذه في هذا الصدد .

### المرحلة الاولى : المرحلة الحسية الحركية - من الميلاد حتى الثانية Sensorimotor Period

والمرحلة الحسية الحركية للنمو تقابل من حيث الزمن الفترة المحددة للطفولة المبكرة التي تشمل السنتين الاوليين من حياة الطفل . والسمة البارزة لهذه الفترة ، كما يراها بياجيه ، هي أن الطفل فيها يكتسب المهارات والتوافقات البسيطة التي من النوع السلوكي . والصور الاجمالية العامة في هذه المرحلة المبكرة صور حسية حركية . فهي تنظم المعرفة الحسية وتؤدي الى السلوك التكيفي ، ولكنها لا تكون مصحوبة بأى نوع من التصورات المعرفية أو الذهنية للسلوك أو البيئة الخارجية . والطفل في خلال هذه المرحلة ينتقل من مجرد وليد يعمل على مستوى الفعل المنعكس والمستوى المركز حول الذات الى مستوى متسق نسبياً من الأفعال الحسية الحركية ازاء بيئته المباشرة التي يحيا فيها . ولكن التنظيم في هذه المرحلة تنظيم « عملي » بمعنى أنه يتضمن القيام بالتوافقات الإدراكية والحركية مع الأشياء ، أكثر مما يتضمن المعالجات الرمزية لهذه الأشياء .

وفي أثناء هذه المرحلة يكتسب الطفل القدرة على أحداث التناسق بين المعلومات الصادرة عن الأجهزة الحسية العديدة ، وكأنها مصادر مختلفة للمعلومات عن الشيء الواحد أكثر مما هي مصادر غير مترابطة . فالطفل يصبح قادراً على النظر الى الشيء الذي يستمع اليه ، كما أن قبضه على الأشياء وسيره توجهه الأدلة السمعية والبصرية واللمسية .

وثمة مظهر آخر لاكتساب الطفل في هذه المرحلة الحسية الحركية يتضح في قدرته على العمل كما لو كان العالم الخارجى مكانا ثابتا ، وليس شيئا يتوقف وجوده على ادراكه له . فالطفل يصبح قادرا على البحث عن الاشياء التى اختفت من امامه ، ويبحث عنها على اساس معرفته بالمكان الذى ذهبت اليه او اختفت فيه . كما أن من الممكن أن يتخذ طريقا - فى بحثه عن الشيء - غير الذى اخذه الشيء وكان لديه معرفة بالمجال المحيط تسمح له باتخاذ طرق عدة توصله لنفس المكان . كما أن فى استطاعته أيضا أن يعود الى النقطة التى بدأ منها ، وربما أخذ طريقا يختلف عن الطريق الذى اتخذه أول الامر .

ثم انه يقدر على القيام بسلوك موجه نحو هدف ومحكوم منذ البداية بشيء من القصد . فمن الممكن أن ينظم معا عمليتين أو ثلاثة بقصد الوصول الى نقطة النهاية فى سلسلة ما . كما يمكنه - قرب نهاية المرحلة - أن يقوم بأعمال جديدة لم يحاول القيام بها من قبل للوصول الى أهداف لم يكن فى استطاعته الوصول اليها . وبعبارة أبسط يكون فى مقدوره أن يجرب أشياء جديدة ويختبر صوره الاجمالية العامة الواحدة تلو الأخرى ، كما لو كان يبحث عن الامكانيات السلوكية للشيء ففى امكانه أن يغير افعاله تلقائيا ومختارا .

#### وتعد كتبه الثلاثة الآتية المصادر الرئيسية لهذه المرحلة . الكتاب الاول « ميلاد الذكاء عند

الطفل » حيث قدم فيه ملاحظاته عن نمو السلوك التكيفى عند الطفل ، كما اشار الى النمو التدريجى للصور الاجمالية الحسية الحركية خلال فترة الطفولة المبكرة . وقد تركزت أبحاثه فى هذا الكتاب على الملاحظات الدقيقة والمتعمقة التى استخدم فيها أساليب التجريب البسيط على اطفاله الثلاثة « جاكين ولوسين ولوران » خلال فترة طفولتهم المبكرة منذ أكثر من اربعين عاما . أما الكتاب الثانى فهو « تركيب الواقع عند الطفل » الذى قام فيه بتحليل معرفة الطفل وكيف يعكس سلوكه الافتراضات العديدة عن طبيعة الاشياء والزمان والمكان والسببية . وفى الكتاب الثالث « اللعب والاحلام والتقليد » ففيه يصف نمو اللعب والتقليد خلال فترة النمو الحسى الحركى . وفى صورة موجزة للغاية يمكن ان نقدم الملامح الرئيسية للمراحل الستة الفرعية التى تشتمل عليها المرحلة الحسية الحركية :

**المرحلة الفرعية الاولى (من صفر الى شهر) :** لا يظهر فيها شيء كثير الى جانب الافعال المنعكسة التى يولد الطفل مزودا بها .

**المرحلة الفرعية الثانية (من شهر الى ٤ شهور) :** وفيها تبدأ الانشطة المنعكسة العديدة تخضع لتعديلات مستقلة نتيجة التجربة والخبرة وتناسق بعضها مع بعض بطرق متعددة .

**المرحلة الفرعية الثالثة : (من ٤ - ٨ شهور) :** وفيها يبدأ الطفل القيام بأعمال موجهة نحو الاشياء والاحداث خارج حدود جسمه بصورة أكثر تحديدا . فهو فى محاولاته اعادة ظهور الآثار البيئية التى حققها عفوا وعن غير قصد من قبل ، يكشف عن نوع من التبشير بالقصد أو الاتجاه نحو هدف .

**المرحلة الفرعية الرابعة :** (من ٨ - ١٢ شهرا) : وفيها يتضح القصد بشكل ملحوظ محدد على نحو ما يتجلى في الوسائل والغايات الاولى .

**المرحلة الفرعية الخامسة :** ( من ١٢ - ١٨ شهرا ) : واذا كان الطفل في المرحلة الرابعة يقنع بأنماط السلوك العادى والمألوف ويستخدمها كوسائل في المواقف الجديدة ، فانه في هذه المرحلة يجرب ليكتشف وسائل جديدة .

**المرحلة الفرعية السادسة :** ( من ١٨ شهرا الى سنتين ) : وفيها يبدأ الطفل القيام بتصورات داخلية رمزية للمشكلات الحسية الحركية ، مخترعا الحلول عن طريق سلوك المحاولة والخطأ الضمنى ، أكثر منه عن طريق السلوك الصريح . وبحدوث هذه التصورات الاولى المبدئية يكون الطفل قد تجاوز اساسا مرحلة النمو الحسى الحركى ليدخل في مرحلة ما قبل العمليات .

ويكشف الطفل قرب نهاية هذه المرحلة الاولى من المراحل الكبرى ، عن استبصار وفهم ملحوظ بالبيئة التى يعيش فيها . ففي امكانه استخدام الاداة للوصول الى الاشياء . كما يمكنه التنبؤ بالنتائج المباشرة نسبيا لما يحدث من افعال ، وان يدرك اسباب الاحداث التى تحدث . ويمكنه ايضا ان يستخدم الآخرين كموامل مساعدة لتحقيق النتائج التى يريد بها . وهذه القدرات كلها قدرات محدودة . ولكن مجرد كونها موجودة يعتبر في حد ذاته انجازا في هذه المرحلة . ولتحقيق هذه الانجازات يجب مواجهة بعض المتطلبات الهامة التى منها :

**١ - اكتساب صور اجمالية عامة (سكيمات) تكون مضبوطة داخليا وقابلة للانتقال .** فالطفل يجب ان يكتسب ذخيرة من الصور الاجمالية العامة التى تعمل بهدوء خلال قدر من الضبط الداخلى ، كما يجب ان تكون قادرة على الانتقال ايضا . فكل صورة اجمالية يجب ان تكون مترابطة داخليا باتساق وانتظام . فالسلوك هو تتابع افعال حركية يؤدى كل فعل منها وبهدوء الى الفعل الذى يليه . وهذه السهولة في اداء الوظيفة تتضمن ما أسميناه بجودة الضبط الداخلى . اما قابلية الصور الاجمالية للانتقال والحركة فتتضمن قابليتها للتكيف بالنسبة لمجموعة من المواقف والاشياء . فطفل الثانية يمكنه ان يلتقط الاشياء بشئ من الدقة ، ويمسك كل شئ بدقة وسهولة وبلا تردد ، وان كان القبض على الاشياء يتغير ويتكيف تبعا للظروف المختلفة .

**ب - مفهوم الواقع :** وبلاضافة الى ما يجب ان يكون لدى الطفل من ذخيرة الصور الاجمالية العامة ، فمن الضرورى ان يميز الخصائص الرئيسية لبيئته . ففي طفولته الاولى يفترض ان الاشياء الخارجية لها صفة الدوام والاستمرار والنسبى ، وانها تستمر في الوجود حتى ولو لم تصبح موضوعا لادراك مباشر . فالمعرفة الحسية تتغير تغيرا جوهريا حين يفلق الطفل عينيه او يدير رأسه او عندما تتحرك الاشياء ذاتها في البيئة او تغير شكلها . ويسمى بياجيه هذا الافتراض بهوية الاشياء الدائمة باسم « مفهوم الشئ » . فعندما ينظر الطفل بعيدا عن الشئ ، او عندما يختفى الشئ عن نظره ، يجب ان يكون الطفل قادرا على الرجوع اليه والبحث عنه وتوقع ظهوره ثانية . والمادة الاولى لهذه السمة من سمات النمو هى استجابة الطفل لاختفاء الاشياء من مجال



ادراكه . ومع ذلك ، فليس يكفي مجرد أن يعرف الطفل أن الشيء المختفى لا يزال موجودا ، بل يجب أن يكون قادرا على تنظيم معرفته عنه حتى يكون بحثه وتنقيبه مناسباً . ومعنى ذلك ، أنه يجب أن يفهم أو يدرك أن الأشياء والأفعال مستقرة في مكان وزمان متصلين ، وأن هذا المكان الذي يوجد فيه يحوى الأشياء كما يحوى جسمه أيضاً . والحقيقة أنه يعمل كما لو كان جسمه شيئاً في المكان شبيهاً ببقية الأشياء الأخرى .

**ج - التعرف على السبب والنتيجة :** وبالإضافة الى مالمديه من ذخيرة الصور الاجمالية وفكرته عن المكان الخارجى ، فمن الضروري أن يكون قادرا على معالجة مشكلات تتضمن السبب والنتيجة . ومرة أخرى ، قد يبدو الامر بالغ الصعوبة عندما نحاول تحديده . ذلك ان العلاقة العليّة بين حادثتين يتم ادراكها فقط خلال أدلة معينة مثل التجاور والتقارب المكاني في تتابع الاحداث الوسيطة . ولكن واحدة من هذه ليست مؤكدة تماما . فالطفل قد يرفس قدمه في الهواء ، وقد ينجم عن ذلك حركة كرة موجودة الى جوار قدمه . ومع ذلك فليس من الضروري أن يؤدي نفس الفعل الى نفس النتيجة . الا أنه اذا امكن للطفل أن يحدث مرات عديدة نفس النتيجة ، فقد يسلك على نحو كما لو كان يعتقد ان رفس القدم يحدث بطريقة آلية حركة الكرة . ومن الملاحظ أنه قرب نهاية هذه المرحلة يصبح الطفل أكثر وعياً ومعرفة بالاحداث الوسيطة ، كما يحدث تقدم ملحوظ في التعرف على العوامل الخارجية المتضمنة في تتابع العليّ .

**المرحلة الثانية :** مرحلة التفكير التصورى - من الثانية حتى السابعة Preoperational Period  
ويلى المرحلة الحسية الحركية مرحلة أخرى تستغرق عدة سنوات تنمو خلالها بالتدريج الصورة المعرفية الداخلية للطفل عن العالم الخارجى وقوانينه وعلاقاته الكثيرة . وتسير هذه المرحلة بطريقة تدريجية : فالصورة الاجمالية التصورية الاولى هي مجرد نسخة داخلية للصور الاجمالية الحسية الحركية . ومع ذلك وبالتدريج ، تنتظم الصور الاجمالية التصورية في أنظمة مترابطة يسميها بياجيه ادائية أو اجرائية operational . وهذا معناه ان الافعال الداخلية التى هي عناصر النظام تخضع لقوانين عقلية معينة كالمجموعات والتجميعات . وحين يحدث ذلك فان الطفل يكون قد وصل الى مرحلة العمليات العيانية Concrete operations .

**ومرحلة ما قبل العنفيّات** هي أساسا مرحلة انتقالية لا تتميز بحدوث أى توازن أو اثبات .  
فنهاية المرحلة الحسية الحركية تمثل نوعا من التوازن على المستوى السلوكى ، كما ان مرحلة العمليات المحسوسة أو العيانية (المرحلة الثالثة) تمثل توازنا جديدا على مستوى اعلى ، بينما هذه المرحلة الثانية هي انتقال بين المرحلتين الاولى والثالثة . واذا توخينا الدقة ، يمكن القول بان بياجيه قد قصر نفسه على مراحل ثلاث فقط من مراحل النمو الفكرى . وهو بالفعل فعل ذلك في بعض كتبه ، وهي : المرحلة الحسية الحركية التي تنتهي بالسنة الثانية ، ومرحلة العمليات

المحسوسة أو العيانية والتي تنتهى عادة باكتساب قوانين التجميع والمجموعات المختلفة ، ثم مرحلة العمليات الشكلية والتي تبدأ عادة من الحادية عشرة أو الثانية عشرة . وكل مرحلة من هذه المراحل الثلاث السابق الإشارة إليها تتميز ببلوغ حالة من التوازن والثبات . يميزها عن غيرها من المراحل .

وان كنا من أجل التوضيح سنأخذ بفكرة جعل « مرحلة ما قبل العمليات » مرحلة قائمة بذاتها رغم كونها انتقالية .

وفي هذه المرحلة نلاحظ وقوع الطفل في أخطاء ظاهرة واضحة في مجال تفكيره التصورى أو العقلى . فهو يقع في تناقضات ظاهرة أحيانا . فقد يذكر في لحظة ما أن الشيء (أ) أكبر من الشيء (ب) ، ثم يعود بعد ذلك ، فيقول أن الشيء (ب) أكبر من الشيء (أ) دون أن يدرك التناقض الظاهر بين هذين القولين .

وفي هذه المرحلة أيضا يقوم الطفل بمحاولاته الأولى غير المنظمة نسبيا في الاتصال بعالم الرموز ، هذا العالم الجديد الغريب بالنسبة إليه . ويميز بياجيه أحيانا مراحل فرعية ثلاثا داخل هذه المرحلة الثانية الكبرى وهى :

١ - بدايات التفكير التصورى ( من ٢ - ٤ سنوات ) .

ب - التصورات أو الحدوس البسيطة ( من ٤ - ٧ سنوات ) .

ج - التصورات أو الحدوس المفصلة ( من ٧ - ١١ سنوات ) .

واذا نظرنا بدقة الى طبيعة التصورات ، نجد أن أساس عملية التصور هى القدرة على التمييز بين الدال Signifiant و « المدلول عليه » Signifie .

ومن ثم القدرة على استدعاء أحدهما والاستدلال عليه بمجرد ظهور الآخر أو آثاره . وقد أطلق بياجيه على هذه العملية اسم « الوظيفة الرمزية » La fonction symbolique . وعلى الرغم من إدراكه أن الطفل فى المرحلة الحسية الحركية يكشف عن نوع من الاستدلال البسيط ، كاتخاذ الدليل الإدراكى علامة على أن شيئا ما على وشك الظهور - إلا أنه لا يمكنه القيام بالتمييز بين الدال والمدلول عليه ، هذا التمييز الذى يحدد لنا امتلاك الطفل للوظيفة الرمزية والتي تسمح له بالانتقال بين الدكاء الحسى الحركى والدكاء التصورى . فطفل المرحلة الحسية الحركية لا يمكنه أن يستدعى ذهنيا الدال (سواء كان كلمة أو صورة) . وابتداء من سن السنة والنصف وظهور اللغة عند الطفل ، نلاحظ تمايزا تدريجيا بين الدال والمدلول عليه . فالطفل يمكنه أن يستدعى صورة الشيء الغائب بواسطة شيء آخر ( أى بالتصور ) . وهذا التمايز بين الدال والمدلول عليه هو أساس ظهور الرمز . والرمز هو الذى يسمح لنا بالقيام بعملية التصور . فمن طريق قطعة الخشب يتصور الطفل وجود سيارة يتجمل فيها لعبته .

وليس ثمة شك أن الذكاء التصوري بامتلاكه الوظيفة التصورية يختلف اختلافا واضحا عن الذكاء الحسى الحركى الذى يفتقر إليها . ويمكن أن نوجز هذه الفروق فى النقاط التالية :

**أولا :** أن الذكاء الحسى الحركى يصدر عن الأفعال أو الإدراكات المتتابعة التى يدركها الطفل الواحدة تلو الأخرى. أما التفكير التصورى فلديه القدرة من خلال وظيفته الرمزية هذه على ادراك مجموعة من الأحداث المنفصلة فى صورة واحدة . فهو وسيلة أسرع وأكثر مرونة ، يمكنه استدعاء الماضى وتمثل الحاضر والتنبؤ بالمستقبل فى فعل واحد منظم ومختصر زمنيا .

**ثانيا :** أن الذكاء الحسى الحركى يستند أساسا الى المكان القريب ، أى المكان الذى يمكن للطفل ادراكه فى المحيط الذى يوجد فيه . فهو لا يستجيب اذن للمكان البعيد ( كالجبال والنجوم باستثناء القمر ) وبالمثل يستند الذكاء الحسى الحركى الى الزمان الحاضر . فليس هناك توقع سوى لمستقبل مباشر قريب ، كما أن ليس هناك استجابة ، سوى لماض قريب حيث يواصل القيام بعمل ما تركه منذ لحظة وجيزة . أما التفكير التصورى ففيه يمد الطفل مجال المعرفة الى مكان بعيد ، وإلى زمان يتجاوز الماضى والمستقبل القريبين ، أى أنه يتميز بالامتداد فى الزمان والمكان .

**ثالثا :** لما كان الذكاء الحسى الحركى ذكاء فعليا أو ذكاء عمليا ، فإنه يقتصر على تتبع الأهداف المحسوسة للفعل أكثر من طلب المعرفة والبحث من حيث هما كذلك . أما التفكير التصورى فهو بطبيعته يهتم بتنظيم أفعاله من حيث هى قائمة على أشياء ، أكثر من اهتمامه بتسجيل « النجاح أو الفشل التجريبيين » . فالتفكير التصورى يهتم اذن بتأمل الفعل أكثر من اهتمامه بالفعل نفسه .

**رابعا :** وبواسطة قدرته على الخروج من نطاق الحاضر المباشر ، فإن التفكير التصورى يمكنه أن يمد مجاله الى خارج نطاق الأفعال المحسوسة الواقعية للذات ، وخارج مجال الموضوعات الواقعية المحسوسة فى البيئة . وهدف هذا التحرر من الواقع المحسوس هو المعالجة الرمزية لأحداث غير محسوسة ( على نحو ما يحدث فيما بعد فى التفكير العلمى والرياضى عند الكبار ) .

**خامسا :** لما كان الذكاء الحسى الحركى قاصرا على الأفعال الحسية الحركية أكثر من تصور الواقع ، فهو بالضرورة حادث خاص أو مسألة فردية . أما الذكاء التصورى فهو من ناحية أخرى يمكنه أن يصبح - بل هو يصبح بالفعل - اجتماعيا عن طريق مجموعة الرموز المتعارف عليها والتى يشارك فيها أفراد الجماعة كلها .

وعلى ذلك ، فظهور الوظيفة الرمزية - أى القدرة على التمييز بين الدال والمدلول عليه - والقيام بعملية الاستدلال بينهما ، يؤدى الى صورة عقلية ذات امكانيات أبعد مدى بكثير من أية صورة من صور الذكاء الحسى الحركى .

### وفي ضوء ما تقدم يمكن أن نقدم باختصاراهم الخصائص المميزة لمرحلة التفكير التصوري:

١ - **مركزية الذات** : فطفل مرحلة التفكير التصوري او مرحلة ما قبل العمليات ، يكون - بالنسبة للتصورات - مركزي الذات ، تماماً مثلما كان طفل المرحلة السابقة بالنسبة للافعال الحسية الحركية . ولصفة التمرکز الذاتي في مرحلة ما قبل العمليات ، نتائج كثيرة أهمها : أن الطفل يكشف باستمرار عن عجز نسبي في الاخذ بعين الاعتبار بوجهة نظر الغير كأحد الاحتمالات الممكنة ، وان يحاول ان ينسق وجهة نظره مع وجهات نظر الغير .

ويمكن ان نوضح ذلك بمثال بسيط من الخبرات التي تمر بنا في طفولتنا وتتصل مع **تقديم السن بالفرد** . ان من يركب منا سيارة مثلاً في ليلة مقمرة ، يبدو له القمر كما لو كان يسير معه ويتبعه . ونحن جميعاً نعلم بطريقة أو بأخرى أن هذا مجرد خداع ، وأن من بين المبررات التي تدفعنا الى عدم الاخذ بمثل هذا الاعتقاد الذي يلزمنا في طفولتنا المبكرة ، ان نفترض مثلاً أن هناك شخصين يركبان سيارتين تسيران في اتجاهين متضادين . فإذا أصر كل منهما على أن القمر يتبعه ويسير في اتجاهه هو ، كان معنى ذلك أن القمر يسير في نفس الوقت في اتجاهين متضادين . وفي هذا بالطبع تناقض واضح . ومثل هذه النظرة تتطلب من الفرد فصل المظهر عن الحقيقة . فالقمر ثابت ونحن الذين نسير ونتحرك . ومثل هذا الفصل بين المظهر والحقيقة يتطلب من الفرد الاخذ بعين الاعتبار لوجهات نظر الغير ، الامر الذي لم يصل اليه الطفل في تصوراتهِ بعد ، وشبيه بهذا ايضاً ما نجده لدى الطفل في مجال اللغة والاتصال حيث يبدو انه يقوم بجهد قليل حقاً لتكييف لفتته وحديثه لحاجات المستمع .

ونتيجة لافتقار الطفل الى الاخذ بوجهة نظر الغير ، نجده لا يحس بالحاجة الى تبرير افكاره للآخرين أو البحث عن التناقضات الممكنة التي تكمن في افكاره ومنطقه . فهو حين ينقل فكرة أو افكاراً الى أطفال آخرين ينقلها كما لو كان الآخرون يفهمون افكاره ووجهة نظره . ويعتقد بياحيه اعتقاداً جازماً أن الطفل يصبح على معرفة بنفسه ويصبح قادراً على تبرير افكاره والارتباط بالمعايير المنطقية والاجتماعية من خلال التفاعلات المتكررة مع الآخرين ، وبخاصة تلك التي يجد فيها الطفل نفسه مضطراً المرة تلو المرة أن يعرف دور الآخرين ، وان يستمع لوجهة نظرهم وان يدخلها في اعتباره . ومن هنا ، فإن التفاعل الاجتماعي هو الذي يحطم مركزية الذات عند الطفل . ومع ذلك ، فهذا التمرکز حول الذات طور من اطوار النمو لابد ان يمر به طفل هذه المرحلة .

٢ - **فكرة الثبات** ومن الفروق الهامة بين الإدراك الحسي والتفكير التصوري ان التفكير يربط الماضي بالحاضر مما يساعد تفسير المشكلة التي تواجه الفرد ، بينما الإدراك يتحدد بالمادة التي تقع تحت حواس الفرد بشكل مباشر . وهذه السمة للتفكير تعتبر ذات أهمية

في نظر بياجيه ، وتكوين المفهوم يعتبر امراً هاماً بالنسبة لتفكير الطفل في هذه المرحلة . واحدى المشكلات الكبرى بالنسبة لطفل هذه المرحلة قد تكون عدم قدرته على ادماج المادة التي يستمدّها من خبراته الماضية من أجل الوصول الى احكام صحيحة يستحيل الوصول اليها بدونها . ولقد عالّج بياجيه موضوع الثبات في مجالات متعددة فدرس فكرة الثبات المكاني وثبات الكم المتصل وثبات الكم المنفصل، ويكفى أن نشير الى مثال واحد وليكن ثبات الكم المتصل من أجل أن نعرف الى أي حد يجد الطفل صعوبة في الوصول الى هذه الفكرة .

« اعطيت قطعتان من الصلصال من نفس الشكل وبنفس الحجم ونفس الكم . شكلت احدهما على هيئة قرص مستدير والاخرى على هيئة اسطوانة مستطيلة . ثم وجه السؤال الى الطفل : هل نفس كمية الصلصال واحدة في الاثنتين ( ثبات المادّة ) ؟ وهل لدينا نفس الوزن ؟ هل لدينا نفس الحجم ؟ ... وقد وجد أن الطفل في بعض الاحيان لا يقول بالثبات . فيقول مثلاً : ان هذه اكبر لانها طويلة ورفيعة ، وفي مرحلة ما قبل العمليات ، لا نجد ثباتاً . اما في سن السابعة فان الطفل يصل الى فكرة ثبات الكم . وفي سن ٩ - ١١ سنة ، نجده يصل الى فكرة ثبات الوزن . اما فكرة ثبات الحجم فانه يصل اليها في حوالي سن ١١ - ١٢ سنة .

**المرحلة الثالثة : مرحلة العمليات المحسوسة او العيانية :** من السابعة حتى الجادية عشرة  
Concrete Operations

وفي حوالي سن السابعة يكتسب التنظيم الفكري للطفل عن البيئة المحيطة به ، صفة الثبات والتعاسك بفضل تكوين مجموعة من التراكيب العرفية . وفي هذه المرحلة يبدأ الطفل في أن يبدو معقولا ومنظما في توافقاته مع البيئة ، بمعنى أنه يبدو أن لديه اطارا فكريا ثابتا ومنظما يستخدمه في تعامله مع عالم الاشياء المحيطة به . ففي استطاعته ان يربط مجموعة من الاشياء حسب حجمها ويدخل اشياء جديدة داخل المجموعة . وفي امكانه أن يفهم أن عدد الاشياء في مجموعة ما ، لا يتغير بمجرد اعادة الترتيب المكاني لهذه الاشياء . ومن الممكن أيضا ان يفهم الكثير من العلاقات البسيطة بين اصناف او انواع الاشياء . فمثلا يمكنه أن يدرك أن صنفا ما لا يمكن ان يحتوي على اعداد أقل مما يحتوي عليه أي من الاصناف الفرعية الداخلة تحته . وباختصار يكتسب الطفل في هذه المرحلة مفهوما بدائيا عن الزمان والمكان والعدد والمنطق . وهذه المفاهيم التي في ضوئها تنتظم فكرتنا عن الاحداث والاشياء.

واذا كنا قد اوضحنا ان طفل مرحلة ما قبل العمليات العقلية ( المرحلة الثانية ) يختلف تفكيره عن طفل « المرحلة الحسية الحركية » من حيث انه يعمل على مستوى التصور الذهني في مقابل مستوى الفعل المباشر فان طفل مرحلة العمليات المحسوسة او العيانية والتي نحن بصددّها يختلف في تفكيره عن طفل المرحلتين الاولى والثانية . فهو يختلف

عن طفل المرحلة الحسية الحركية من حيث انه يعمل على مستوى العمليات ، أى الاداء العقلى غير المحدد ، وليس على مستوى الفعل المباشر، كما انه يختلف عن طفل المرحلة التصورية من حيث انه يعمل وفق نظام او نسق معرفى متكامل ، به ينظم العالم من حوله . فاذا كان تفكير طفل المرحلة التصورية يفتقر الى الثبات والتنظيم الذى يجعله يسلك احيانا بطريقة منطقية و احيانا يفشل فى مواصلة القيام بنسق منطقي بسيط فى الظاهر ، فان طفل مرحلة العمليات المحسوسة او العيانية - والمرحلة الشكلية التى تليها - يكون تفكيره ثابتا ومستقرا ، ينتج عن تنظيم « الافكار الادائية او الاجرائية فى انظمة مترابطة تمكن الطفل ان يسلك بثبات وبصورة منطقية ، وان يستخرج من افكاره ما تتضمنه من نتائج . ولذا يقول بياجيه « ان طفل مرحلة العمليات المحسوسة او العيانية يسلك فى مجموعة متنوعة من الافعال ، كما لو كان لديه تنظم تمثيلي غنى متكامل يعمل فى حالة توازن مع عمليات الملاءمة . وهذا هو جوهر الخلاف بين هذه المرحلة والمرحلة السابقة عليها . والحقيقة أن معظم ما يتجلى فى المرحلة التصورية يمكن ان يفيد فى مرحلة العمليات المحسوسة .

وحين تبلغ الاعمال المعرفية العقلية هذا المستوى الخاص من الثبات والتنظيم ، أى حين تنتظم فى وحدات تامة متماسكة وتركيب محدد قوى ، هنا يطلق عليها بياجيه اسم « العمليات العقلية » . ومن هنا جاءت التسميات العديدة للمرحلة الثانية وهذه المرحلة الثالثة ثم المرحلة الرابعة ، فقد سميت هذه المراحل على التوالى باسم « مرحلة ما قبل العمليات العقلية » ومرحلة « العمليات المحسوسة او العيانية » ومرحلة « عمليات التفكير الشكلى او المنطقى » . ان طفل مرحلة ما قبل العمليات العقلية لديه بالطبع افعال تصورية . ولكن هذه الافعال التصورية التى تسمى احيانا باسم « الحدس » انما هى تعبيرات معرفية منفصلة ومتفرقة ولا تتجمع فى كليات متماسكة . ومن هنا يمكن القول بأن « العمليات على نحو ما حددها بياجيه هى الملكة الخاصة بمرحلة الطفولة والمتاخرة ومرحلة المراهقة .

اما ما نوع الاداء الذى يسميه بياجيه باسم العمليات operations ، فان أى عمل تصورى ذهنى يكون جزءا متكاملا من شبكة اعمال مترابطة ، يعتبر أساسا « عملية » . ولقد أشار بياجيه الى العديد من هذه العمليات . فهناك عمليات الاضافة المنطقية ( الجمع ) ، وعمليات الطرح والضرب والقسمة ، سواء فيما يتصل بالانواع او العلاقات . وهناك العمليات العقلية العديدة المختلفة الانواع ، والتى اطلق عليها اسم العمليات المنطقية الاخص *Infralogical Operations* وتتضمن الكم والزمان والمكان وغيرها . وهناك ايضا العمليات التى تتصل بنظام القيم والتفاعل المتبادل بين الافراد . ولعل الإشارة الى العديد من هذه العمليات ، ما يجعل القارئ على الفقه بها . من ذلك مثلا : عملية الاستجابة لمجموعة من الاشياء المتشابهة فى ناحية معينة وتكوين نوع من الانواع ، وعملية ضم الانواع معا (الجمع

المنطقى (لأنواع) وتكوين فرع اشمل واعم يضم هذه الانواع جميعا كضم نوع النباتات ونوع الحيوانات لتكوين نوع الكائنات الحية، ثم هناك عملية العود ثانية الى الانواع الاصلية عن طريق الطرح المنطقى، أى فصلها واستخراجها ثانية من النوع الذى يضم الانواع الى آخر هذه العمليات المتعددة التى أشار إليها بياجيه فى هذه المرحلة والتى ليس هنا مجال التوسع فى شرحها .

ومن الممكن أن نلخص أهم منجزات مرحلة العمليات المحسوسة أو العيانية بقولنا أن تفكير طفل مرحلة العمليات المحسوسة يكشف عن تقدم ملحوظ إذا قورن بتفكير طفل مرحلة ما قبل العمليات المنطقية أى المرحلة التصورية . ولعل أهم منجزات هذه المرحلة هى أن تراكيبها المعرفية تتألف من أنظمة تكون فى حالة توازن، أعنى تتألف من كليات متماسكة من العمليات القابلة للانعكاس ، والتى تمكنه من ايجاد التنظيم والثبات بين الأشياء والاحداث فى العالم المحيط به ، بشكل كان يستحيل على طفل مرحلة ما قبل العمليات أن يقوم به . فإذا كان طفل مرحلة « ما قبل العمليات » يميل الى العمل فقط فى ضوء الواقع الظاهرى الذى يقع أمام ناظرية ، فان طفل مرحلة العمليات المحسوسة يبدأ بمد تفكيره من الواقع الى الممكن . وهذا النمو هو نتيجة طبيعية لتكوين التراكيب المحسوسة . فلو اخذنا متسلسلة مكونة من عناصر ثلاثة محسوسة ولتكن ١ ، ب ، ج ( الواقع ) فان طفل مرحلة العمليات المحسوسة يكون أكثر استعدادا من طفل مرحلة ما قبل العمليات للتنبؤ بإمكان تطبيق هذه العلاقة على عناصر جديدة مثل د ، هـ ( أى الممكن ) . وهذه الخطوة تعتبر من أهم الخطوات تمهيدا للانتقال الى المرحلة الرابعة والاخيرة .

#### المرحلة الرابعة : مرحلة العمليات الشكلية - ابتداء من سن الحادية عشرة Formal operations

وتبدأ هذه المرحلة من حوالى سن ١١ - ١٢ سنة وتصل الى حالة توازن فى حوالى سن ١٤ - ١٥ سنة . وهى مرحلة بداية التفكير المنطقى عند الكبار . فالمرافق فى هذه المرحلة يمكنه أن يتعامل بنجاح ليس فقط مع عالم الواقع المحسوس ( على نحو ما كان فى المرحلة السابقة ) ، بل وأيضا مع عالم المجردات والقضايا المنطقية . فهو يفهم المبادئ الاساسية للتفكير العلى والتجيب العلى ، ويستطيع القيام بتجارب ، واستخلاص التضمنات الصحيحة على الاقل فى بعض الحالات .

وتعتبر مرحلة العمليات المنطقية أو الشكلية تنويعا للنمو العقلى . فهى بمثابة حالة التوازن النهائى التى يسير نحوها التطور العقلى المعرفى منذ بدايته الاولى . لقد عالج بياجيه هذا الموضوع فى مؤلفات عديدة أهمها كتابه الذى ألفه مع أنهلدير عام ١٩٥٥ ، والذى ترجم الى اللغة الانجليزية عام ١٩٥٨ تحت عنوان « نمو التفكير المنطقى من الطفل حتى الرشد » والخاصية

المميزة للتفكير الشكلي ترجع بلا شك للدور الذي يقوم به « الممكن Possible » في علاقته بالواقع « Réal » فالتفكير الشكلي - اذا قورن بالتفكير في مرحلة العمليات المحسوسة - يكون بذلك صورة جديدة من صور التوازن التي يسير نحوها هذا التطور العقلي . ولعل مما يلقي الضوء على هذه العمليات الشكلية أن نربط بينها وبين العمليات المحسوسة السابقة عليها والتي صدرت عنها . فطفل المرحلة المحسوسة او العيانية تواجهه صعوبات منها :

١ - أن العمليات المحسوسة عيانية ، أى محسوسة وغير مجردة ، بمعنى أن تركيبها ونشاطها التنظيمي يتجه نحو الاشياء والاحداث المحسوسة الموجودة في الواقع المباشر . حقيقة أن تكوين الانظمة المحسوسة يسمح ببعض الانتقال والسير نحو الممكن أو غير الموجود ، الا أن هذا السير أو هذه الحركة يكون نطاقها محدودا ويتألف غالبا من تعميمات بسيطة التراكيب موجودة على محتوى جديد ( على نحو ما سبق ان اشرنا في معرفة الطفل امكان نقل العلاقة ١ ، ب ، ج ، وتطبيقها على د ، هـ ) ، كما أن نقطة البدء بالنسبة للعمليات المحسوسة - كما هو الحال أيضا بالنسبة لما قبل العمليات - هي دائما - « الواقع اكثر منه الممكن » . فطفل المرحلة من ٧ - ١١ يعمل كما لو كان واجبه الاساسي هو تنظيم وترتيب ما هو موجود أمامه مباشرة . أما الانتقال البسيط المحدود للتنظيم والترتيب على اشياء ممكنة ، فهو أمر يقوم به عند الضرورة . ولذا فهو ينظر اليه كحالة خاصة من النشاط . اما مالا يستطيع طفل مرحلة العمليات المحسوسة أن يفعله ، ويستطيع الراشد القيام به ، فهو يمثل جميع الاحتمالات الممكنة منذ البداية ومحاولة الكشف عن أي هذه الاحتمالات يوجد فعلا في المادة الراهنة . وبهذا الاسلوب الاخير يصبح الواقع حالة خاصة من الممكن وهذه هي إحدى خصائص العمليات الشكلية المنطقية .

٢ - وكون طفل مرحلة العمليات المحسوسة لا يزال مقيدا - نسبيا - بالظواهر الخارجية ، فهذا من شأنه أن يخلق صعوبة أخرى . أن عليه أن يتغلب على الخصائص المتعددة للاشياء والاحداث (كالكتلة، والوزن والطول والزمن... الخ) واحدة واحدة، لأن وسائله المعرفية ليست « شكلية » بدرجة كافية ، ولا منفصلة او مستقلة بدرجة كافية عن الموضوع الذي تحمل عليه من أجل أن تسمح بتمايز الشكل عن المحتوى . فالطفل بعد أن يصل الى فكرة ثبات الكم ، يظل لفترة غير قصيرة ، عاجزا عن بلوغ فكرة الثبات بالنسبة للوزن والحجم .

٣ - أما الصعوبة الثالثة فهي أن أنظمة العمليات المحسوسة المتعددة ، تعتبر بمثابة نقط تنظيم أكثر وقل انفصالا من ٧ - ١١ سنة، فهي لا تترابط فيما بينها لتكوين نظام متكامل بسيط ، نظام يمكن للطفل أن ينتقل من تركيب فرعى الى تركيب فرعى آخر بالنسبة لمشكلة واحدة . فبينما يوجد لدى طفل مرحلة من ٧ - ١١ سنة نوعا عمليات القابلية للانعكاس (وهما



النفي والتبادل ) ، فانه لا يوجد لديه مع ذلك نظام كلى شامل يسمح له بتنسيق الاثنين معا ، وحل المشكلات ذات المتغيرات المتعددة والتي تتطلب هذا التنسيق . فالتراكيب المعرفية تعجز اذن عن الترابط فيما بينها في نظام كلى موحد لازم للقيام ببعض العمليات المعقدة .

وفي ضوء هذه الصعوبات التي نجدها في مرحلة العمليات المحسوسة ، يمكن ان ننقل الى دراسة اهم خصائص التفكير الشكلي الذي يتميز به تفكير الراشد . وكثير من خصائص تفكير هذه المرحلة ليست مترابطة بسهولة احداها بالآخرى بطريقة ذهنية واضحة ، ولكنها تعتبر مهمة في نمو قدرة الفرد على حل المشكلة .

### خصائص التفكير الشكلي :

**الخاصية الاولى :** تتصل بالتطور او بالنمو لقدرة الطفل على فهم العلاقات المنطقية بين الانواع . فاذا كان طفل مرحلة العمليات المحسوسة يمكنه فهم العلاقات المنطقية بين الانواع التي تعرض او تقدم اليه ، فان الراشد في مرحلة العمليات الشكلية عليه ان يدرك بوضوح او ان يتحقق من العلاقات الممكنة ، بحيث يمكنه تصميم مواقف تزوده بالمعلومات او المعرفة التي يحتاج اليها .

**الخاصية الثانية :** هي ان جزءا من قدرة الطفل على ادراك جميع الامكانيات يتمثل في سهولة بوقدره الطفل على التفكير التوافقي او الترابطي . وبعبارة اخرى يتمثل في قدرته على مراجعة كل الاختيارات بطريقة منتظمة تسمح بالانتقال خلالها تتابعا اذا لزم الامر ، ويعرف انه استنفدها جميعا . وقد وصفت العلاقات الممكنة المختلفة بين الانواع في نظرية المنطق الشكلي . ويكون طفل مرحلة العمليات الشكلية قادرا - بطريقة حدسية - على استعمال النسق الكامل للمنطق الشكلي من اجل الحصول على المعرفة التي يريد .

**الخاصة الثالثة :** هي التفير الذي طرا على العلاقة بين الواقع والممكن . وهي اهم الخصائص جميعا ومنها استمد يياجيه بقية الخصائص الاخرى . فبدلا من ظهور « الممكن » في صورة امتداد محدود وبسيط للواقع او للافعال التي تجرى في هذا الواقع ، فان العكس هو الذي يحدث اذ يصبح الواقع تابعا للممكن . فالراشد على عكس طفل مرحلة من ٧ - ١١ سنة - يبدأ نظريته الى المشكلة موضوع البحث بمحاولة النظر في جميع الاحتمالات والعلاقات الممكنة التي تصدق على المادة . ومن ثم يحاول خلال الجمع بين التجريب والتحليل المنطقي ان يصل الى معرفة اى هذه العلاقات الممكنة تصدق في الحقيقة على هذه المادة . فالواقع أصبح ينظر اليه كمجموعة فرعية داخل وحدة تامة من الاشياء التي تسمح المدة بظهورها كفروض . فهو ينظر الى « الواقع » كجزء موجود داخل وحدة « ممكنة » .

فنحن اذن بازاء خطوة في غاية الاهمية من خطوات النمو الفكرى ونعنى بها التحرر من عبودية الملازمة للواقع المباشر على نحو ما وجدنا في المرحلتين السابقتين . وهذا التحرر يأخذ شكلا جديدا في المراهقة والرشد يتمثل في قلب دور الواقع الى ممكن . وليس هذا بالامر اليسر ، اذ هو بمثابة اعادة توجيه اساسى نحو المشكلات المعرفية . فالراشد لم يعد يشغل نفسه بثبات وتنظيم الاشياء المحسوسة وهى التى تتصل اتصالا مباشرا بالحواس ، وانما تظهر لديه خلال الاعادة الجديدة للتوجيه ، القدرة على تصور كل ما يمكن وجوده .

**أن التفكير الشكلى هو في أساسه تفكير «افتراضى - قياسى** *Hypothetico déductive* والقياس لا يقوم هنا مباشرة على حقائق مدركة في العالم الخارجى ، وانما على منطوقات افتراضية ، أى على قضايا تقوم على فروض ، أن يضع المعطيات من حيث هى معطيات بسيطة مستقلة عن حقائقها الواقعية الخارجية . فالقياس يتألف اذن من ربط هذه المعطيات او الفروض فيما بينها واستخلاص النتائج الضرورية المترتبة على ذلك ، حتى ولو لم تتجاوز حقيقتها التجريبية حدود الممكن . فهذا القلب لدور كل من الممكن والواقع - اكثر من اية خاصية اخرى - هو الذى يحدد التفكير الشكلى . وقد أوضح بالارد Ballard هذه الحقيقة في قوله : ان الاستدلال لا يقوم على الاعتقادات وانما على فروض . فاذا سلمنا بالافتراضات: كذا ، وكذا ، فانه يتبع اذن ان نصل الى كذا وكذا من النتائج. وطفل المرحلة من ٧ - ١١ سنة يقيم استدلالات لا على اساس معطيات المشكلة وفروضها ، بل على اساس الواقع والحقيقة . أما الراشد ، فانه يستدل على اساس التسليم بصدق او كذب الافتراضات التى يبدأ منها استدلاله .

تلك هى المراحل الاربع للنمو المعرفى ابتداء من الطفولة المبكرة حتى الرشد ، أى ابتداء من **النمو الحسى الحركى حتى التفكير المنطقى** . وليس ثمة شك ان وراء هذا النمو هدف . لقد كشف لنا هذا النمو عن تقدم مستمر ومتصل نحو حالة من التوازن *Equilibre* يسير نحوها الذكاء . لقد كان هذا الذكاء في بداية الامر امتدادا للمجال الادراكى الذى يفتقر الى وجود القابلية للانعكاس ، ثم مع بداية ظهور العمليات اصبح المجال اكثر اتساعا واكثر قدرة على القيام بالعمليات العقلية المختلفة ، واكثر تحررا من الاشياء الواقعية والمحسوسات ، كما اصبح ايضا اكثر ثباتا وانتظاما على نحو ما يتضح لنا بشكل ظاهر في المرحلة الرابعة والاخيرة من مراحل النمو العقلى وهى مرحلة التفكير الشكلى . فنمو الذكاء يتحدد اساسا في نظرية بياجيه باعتباره تقدما نحو التوازن .

وليس من شك ان ثمة عوامل اساسية هى التى تفسر لنا هذا السير نحو التوازن . والنضج هو أحد هذه العوامل ، وهو التفتح الطبيعى الذى يطرا على الكائن الحى ، ثم الخبرة وهى العامل الثانى . فالتعلم عملية هامة تفسر اكساب الانسان لكثير من الخبرات التى تمر به

في الحياة . ولا يمكننا بحال من الاحوال ان ننكر اثر التعليم أو اثر تراكم الخبرات المكتسبة من البيئة التي نعيش فيها . ثم هناك ثالثا الوسط الاجتماعي . فقد لا يكتسب الطفل مثلا فكرة الشيء ( كفكرة الثبات ) من البيئة المادية وتفاعله معها ، وانما قد يلقي هذه المفاهيم والافكار عن طريق الوالدين والمدرسين أو المحيطين به . غير ان كل واحد من هذه العوامل لا يكفي لتفسير التنظيمات المعرفية ، ولذا ينتهي بياجيه الى تقديم نظريته التي تقوم اساسا على فكرة التوازن . فبسبب احتواء الانظمة العقلية المنسقة على تناقضات ذاتية ، وبسبب ما تحدثه لدى الطفل من صراعات ، فان الطفل يجد نفسه مدفوعا بقوة لاحداث التناسق بين افكاره واعادة تنظيمها في كل منسق متوازن . وهذه هي عملية احداث التوازن عند بياجيه .



وبعد ، فقد استعرضنا أربع نظريات من نظريات النمو النفسي ، يمثل كل منها اتجاها من الاتجاهات الهامة في نظريات النمو النفسي . فهناك نظرية النمو النفسي الجنسي عند فرويد ، ونظرية النمو النفسي الاجتماعي عند اريكسون والتي ادخلت بعض التعديلات والاضافات على النظرية الاولى ، ثم هناك نظرية نمو الذات عند البورت ، واخيرا نظرية النمو العقلي المعرفي عند بياجيه . واذا امعنا النظر في هذه النظريات النمائية الاربع ، نجد تقاربا واضحا بينها حاول الباحث بيانه في التخطيط التالي :



النمو النفسي : من الطفل الى الراشد

تخطيط للعلاقة بين النظريات النمائية لكل من  
فرويد - اريكسون - البورت - بياجيه

المرحلة العمرية	المراحل النفسية الجنسية عند فرويد	المراحل النفسية / الاجتماعية عند اريكسون	مراحل نمو الذات عند البورت	مراحل النمو العقلي عند بياجيه
من صفر الى ٢	الفمية	الاحساس بالثقة مقابل عدم الثقة	الاحساس بالذات الجسمية	المرحلة الحسية الحركية
من ٢ الى ٣	الشرجية	الاحساس بالاستقلال مقابل الشك والخجل	هوية الذات تقدير الذات	المرحلة التصورية او مرحلة ما قبل العمليات العقلية
من ٣ الى ٦ (ما قبل المدرسة)	القضيبية (الاوديبية)	الاحساس بالمباداة مقابل الشعور بالذنب	امتداد الذات صورة الذات	
من ٦ - ١١ (المدرسة الابتدائية)	الكمون	الاحساس بالانجاز والاتمام (الصناعة والعمل مقابل النقص)	الذات منطقية عاقلة	مرحلة العمليات المحسوسة او العيانية
من ١٢ - ١٧ (المدرسة الثانوية) ثم الرشد واكتمال النضج	التناسلية	الاحساس بالهوية مقابل اضطراب الهوية . والاحساس بالود والتآلف مقابل العزلة . الانتاجية مقابل الجمود . تكامل الانا مقابل اليأس	الجوهرة المميز الذات العارفة	مرحلة التفكير الشكلي او المنطقي

## المراجع

### أولا : المراجع العربية :

- ١ - جابر عبد الحميد جابر ومحمد مصطفى الشعيبي : النمو النفسى والتكيف الاجتماعى - القاهرة - دار النهضة العربية - ١٩٦٢ .
- ٢ - جون كونجر وبول موسن وجيروم كيجان سيكولوجية الطفولة والشخصية .  
ترجمة أحمد عبد العزيز سلامة وجابر عبد الحميد جابر . القاهرة - دار النهضة العربية - ١٩٧٠ .
- ٣ - سيد محمد غنيم : اللغة والفكر عند الطفل . الكويت . عالم الفكر . المجلد الثانى - العدد الاول -  
ابريل / يونيو ١٩٧١ .
- ٤ - سيد محمد غنيم : النمو العقلى عند الطفل فى نظرية جان بياجيه ( الجزء الاول ) القاهرة - حليات  
كلية الآداب بجامعة عين شمس - ١٩٧٢ - العدد ١٢ .
- ٥ - سيد محمد غنيم : النمو العقلى عند الطفل فى نظرية جان بياجيه ( الجزء الثانى ) القاهرة - المطبعة  
المالية - ١٩٧٣ .
- ٦ - سيد محمد غنيم : سيكولوجية الشخصية : محدداتها ، قياسها ، نظرياتها - القاهرة - دار النهضة  
العربية - ١٩٧٥ .
- ٧ - هول . ل . لنديج : نظريات الشخصية ، ترجمة فرج أحمد فرج وآخرين - الهيئة المصرية للتأليف والنشر  
القاهرة - ١٩٧١ .

### ثانيا : المراجع الاجنبية :

7. Allport G. : *Personality. A Psychological Interpretation.* New York, Holt Rinehart and Winston, 1937.
8. Allport G. : *Becoming : Basic considerations for a Psychology of Personality.* New Haven, Conn. Yale Univer. Press 1955.
9. Allport G. : *Personality and Social Encounter.* Boston. Beacon Press 1960.
10. Allport G. : *Pattern and Growth in Personality.* New York, Holt, Rinehart and Winston 1961.
11. Aries E. : *Centuries of Childhood.* New York, Knopf. 1962.
12. Bandura A. & Walter R. H. : *Social Learning and Personality development.* New York, Holt Rinehart & Winston 1963.
13. Barker R., Kounin J. & Wright H. : *Child Behavior and Development.* New York, McGraw Hill Book Company, 1943.
14. Bishchof L. J. : *Interpreting Personality Theories.* New York. Harper and Row, 1964.
15. Carmichael L. (ed.): *Manual of Child Psychology*, 2nd ed. New York, Wiley, 1954.
16. Cashdan A. & Whitehead J. (eds). *Personality Growth and Learning.* London, Longman Group Ltd. 1971.
17. Erikson E. H. : *Childhood and Society.* Penguin Books 1970.

18. Erickson E. H. Identity : Youth and Crisis. New York. W. W. Norton & Comp. 1968.
19. Flavell J. H. : The Developmental Psychology of Jean Piaget. Princeton Von Nostrand 1963.
20. Freud S. : New Introductory Lectures on Psychoanalysis. New York, Norton 1935.
21. Freud S. : The Ego and the Id (1923). Hogarth, 1947.
22. Freud S. : Beyond the Pleasure Principle, New York, Liveright 1950.
23. Gesell A. & Ilg. F. L. : Child Development, 2nd ed., New York Harper 1949.
24. Hurlock E. B. : Developmental Psychology. New York. McGraw-Hill Book Comp., 1953.
25. Hurlock E. B.: Adolescent Development, (2nd ed.) New York, McGraw Hill Book Comp., 1955.
26. Hurlock E. B. : Child Development, (5th ed.) New York, McGraw Hill Book Company 1972.
27. Inhelder B. et Piaget J.: De la logique de l'Enfant a la logique de l'Adolescent. Paris. Presses. Univer. France, 1955.
28. Jersild A. T., Tefford C. W. & Sawrey J. M. Child Psychology (7th ed.) New Jersey, Prentice Hall Inc. 1975.
29. Kegan J. & Moss H. A. : Birth to Maturity: A Study in Psychological Development. New York. Wiley 1962.
30. Medinnus, G. R. & Johnson R. : Child & Adolescent Psychology. New York. John Wiley & Sons Inc. 1969.
31. Mussen P. H., Conger J. J. & Kegan J. Child Development and Personality. New York, Harper and Row 1963.
32. Piaget, J. : La g n se du nombre chez l'Enfant. Delachaux et Niestle Neuch tel, 1941.
33. Piaget J. : La Naissance de l'Intelligence chez l'Enfant. Delachaux et Niestle Nechatel, 1948.
34. Piaget, J. : Play, Dreams and Imitation in Childhood, New York, Norton, 1951.
35. Piaget, J. : Essai sur les Trnasformations des op rations logiques, Paris, Presses Univer. France, 1952.
36. Piaget J. : "La formation des connaissances." Bull. Psychol. Paris 1955—1956, pp: 148-156, 268-495, 701-727.
37. Piaget J. : "Les relations entre la perception et l'intelligence dans les development de l'enfant." Bull. Psychol. Paris, 1956-1957. 10, 376-381, 751-760.

38. Pichon E. : **Le Development Psychique de l'Enfant et de l'Adolescent.** 2 ieme ed. Paris Masson & Cie (Ed). 1947.
39. Rayner E. : **Human Development; an Introduction to the Psychodynamics of growth, maturity and ageing.** London. George Allen & Unwin Ltd. 1971.
40. Reese H. W. & Lipsitt L.P.: **Experimental Child Psychology.** New York Academic Press 1970.
41. Riegel, K. F. : „History as a Nomothetic Science. Some Generalizations from Theories and Research in Developmental Psychology,” **J. of social issues** 1969 Vol. XXV No. 4.
42. Riegel K. F. **The Changing Individual in the changing society.** New York, Academic Press 1972.
43. Riegel K. F.: “Influence of Economic and Political Ideologies on the development of Developmental Psychology,” **Psychol. Bulletin**, 1972, Vol. 7 No. 2 129-141.
44. Ruch F. & Zimbardo P. **Psychology of Life** 8th ed. London Scott, Foresman and Company 1971.
45. Stone F. & Church J. **Childhood and Adolescence. A pscychology of growing Person.** 7th ed. New York. Random house 1957.
46. Watson R. I. & Lindgren H. C. **Psychology of the Child**, New York, John Wiley & Sons Inc. 1973.

★ ★ ★

محمّد جواد رضا \*

## الانفصال عن العالم والرحيل إلى الأعماق

الواح ملونة من أزمات الطفولة والشباب في المجتمع المعاصر

### الواح الأول

#### العالم الكئيب

« يتهامسون معا ...  
هادثون بلا معنى ...  
كالريح في الأعشاب ...  
أو أقدام الفئران على الحصاد الهشيم ...  
في مخزننا الجاف ...  
صور بلا هوى ... ظلال بلا ألوان ...  
قوى مشلولة ... إيماءات بلا حراك ...

( \* ) عميد كلية الآداب والتربية في جامعة الكويت وأستاذ التربية المقارنة فيها . له العديد من الكتب والبحوث المنشورة منها ( فلسفة التربية والرها في تفكير معلم المستقبل ) ، ( التربية والتبعل الاجتماعي في الكويت والخليج العربي ) ، ( التربية والصراع الاجتماعي ) ، ( التعليم الثانوى ) و ( ظاهرة العنف في المجتمعات المعاصرة - تفسير سايكوسوسيولوجى ) .



الرجال الجوف ...  
سقط القناع ...  
يتساندون ...  
خوذا مملوءة قشا ...

تى . اس . ايليوت  
« الرجال الجوف »  
مجموعة قصائد  
١٩٠٩ - ١٩٣٥



« أرى أفقا بنجيع الدماء  
تنوّر واختفت الأنجم  
وجبلا من الارض يرمى به  
كما قذف الصاعد السلم  
إذا مدّ كفّاه ناكث  
تصلّى ليقطعها مبرم  
تكوّر من جثث حوله  
ضخام وامجادها اضخم  
وكفّاء تمّد وراء الحجاب  
فترسيم في الأفق ما ترسيم  
وجيلا يروح وجيلا يجيء  
ونارا ازاءهما تضرم  
ويا ويح خانقة من غد  
إذا نفّس الغد ما يكتظّم »

محمد مهدي الجواهري  
١٩٤٩



« سمعت صوت بندق . شعرت بالذعر . كانوا يطلقون نيران بنادقهم ومسدساتهم في الليل  
ولم استطع النوم . كنت مَرَوِّعة وفزعة من أنهم قد يشرعون بنادقهم على نوافذ غرفتي ويطلقون  
النار علي . نمت ليلتئذ مع أمي في فراش واحد . كان هناك مخزن قريب من بيتنا تلتهمه النيران .  
كانوا يوقدون النار في كل شيء . خيل لي يومئذ ان العالم كله يحترق ... »

من اعترافات طفلة بنت اربع سنوات  
أيام العنف الأسود في واتس - لوس انجلوس  
١٩٦٥

« ... لقد استمرت الحرب الفيتنامية طويلا حتى لم يعد يوجد الآن فرد واحد في فيتنام يملك أية فكرة عن كيف كانت الاحوال قبل الحرب . ان اطفالنا يجهلون معنى السلام ، واذا تخيلوه فانهم يتصورونه مكانا جميلا وأوقاتا مريحة خلوا من المشاكل والازمات والمسؤولية ، نوعا من أنواع الجنة على الارض ... »

« من رسالة لعالم نفسي فيتنامي موجهة  
الى الاستاذ موريس فريزر وقد نشرها في صدر  
كتابه :

Children in Conflict, Penguin Books, 1974.

• • •

### الوح الثاني

#### السقوط النفسي

منذ أربعين عاما تقريبا كتب رئيس جامعة ييل Yale الدكتور آنجل J. R. Angell يقول : ان ما بين ١٠٪ - ١٥٪ من طلبتنا الجامعيين يعانون من امراض نفسية معاناة حقيقية تهدد بتدمير فاعليتهم وسعادتهم . وفي الاجتماع السنوي للجمعية الطبية الملكية البريطانية عام ١٩٦٠ اشارت التقارير الى أن ١٤٪ من طلبة الجامعات البريطانية يعانون من امراض نفسية على درجة غير يسيرة من الشدة . وفي المؤتمر العالمي الاول حول الصحة العقلية لطلبة الجامعات المنعقد في جامعة برنستون في نفس الوقت تقريبا أكدت البحوث المقدمة في المؤتمر مذهب اليه الرئيس آنجل عام ١٩٣٦ مع التنبيه الى زيادة النسبة وبروز ظاهرة الانتحار بين الطلبة (١) . في سنة ١٩٦٦ كتب نيكولاس مولييسون Nicholas Malleson يقول ان ما يقارب ٢٠٪ من طلبة الجامعات البريطانية يعانون من اضطرابات نفسية معوقة لتقدمهم العلمي على درجات متباينة من القوة . (٢) وفي سنة ١٩٧٠ نشر انتوني راييل Anthony Ryle الأمور الطبى في جامعة سسكس Sussex في كتابه « الضحايا الطلابية » ان حوالى الثلث من طلبة الجامعات البريطانية معرضون للاصابة باضطرابات نفسية على درجات متباينة من الشدة . (٣) وفي سنة ١٩٧٦ نشر كل من ميلر وميلر ان في جامعة صغيرة مثل جامعة سوانسي هناك ما بين ٣٠٠ - ٤٥٠ طالبا وطالبة يعانون من امراض نفسية جدية، وان مستشفيات الجامعة وعياداتها النفسية تواجه وضعاً صعباً للغاية في تلبية الحاجات العلاجية لهؤلاء الطلبة . ومن الدراسات التحليلية التي قام بها هذان

(١) Davy, B. W. ; The Source and Prevention of mental ill health in University Students, proceedings of the Royal Society of Medicine, England, April 22, 1960.

(٢) Malleson, N.B. ; A Handbook of British Student Health Services, London, Pitman, 1966.

(٣) Ryle, A. ; Student Casualties, Pelican Books, 1970,

الباحثان تبين أن ١٤ ٪ من الطلبة الجامعيين يشكون من التعاسة في علاقاتهم الشخصية ، ١٠ ٪ يقاسون من أحاسيس الكآبة و ٧ ٪ كانت مشاكلهم تنجم عن مصاعب دراسية . (٤)

في المؤتمر الدولي السابع للمائدة المستديرة لتقدم الارشاد النفسي المنعقد بين الحادى عشر والخامس عشر من شهر ابريل ١٩٧٦ فى جامعة فيرزبورج فى المانيا الاتحادية وجه الاستاذ آرنولد W. Arnold رئيس جامعة فيرزبورج السابق ورئيس قسم علم النفس فيها ، وجه الانتباه الى ما أسماه « الاخلاقيات النفسية الجديدة » New Psychological Ethics فى معرض التحذير منها . قال الاستاذ آرنولد :

« يجب التذكير بحالات مأسوية ومرضية فى المجتمع الحديث . فى جلسات الارشاد النفسي غالبا ما يسمع الواحد منا عبارات تصدر عن الاطفال الصغار . . ان أمى لم تكن ترغب فى مجيئى الى هذا العالم وهى حتى الآن تعبر عن ضيقها بوجودى معها . . »

ثم يعقب الاستاذ آرنولد على هذا بقوله :

« . . ان هذه الصرخة الانسانية تعلن عن قلق وجودى ، وهى دعوة للبحث عمن يمكن الوثوق به ، انها التماس للشفقة والحب ولا مكانية الاعتماد على شخص ما . ان كل الاخلاقيات النفسية القديمة قد تلاشت من الوجود الاجتماعى تقريبا . كثيرون يشعرون بأنهم وحيدون ومهجورون . واذا كان الاطفال والشباب يحسون انهم مرفوضون وغير مرغوب فيهم من قبل اولياء أمورهم ومن أمهاتهم على وجه التخصيص فانهم يقفون على أرض بوار ، فى حالة من القنوط الكامل من أى رجاء . . . » (٥) .

• • •

### اللوح الثالث

#### الضحايا

بتاريخ ٧ سبتمبر ١٩٧١ كتب أحد اطباء العموميين فى مدينة « لندن برى » يقول معقبا على ضحايا الحرب الاهلية فى ايرلندا : -

« انى احب أن أناشد أولئك المشتغلين فى الاقناع السياسى والعاملين فى منطقتى كريكمان وبوك سايد شيئا من الحلم والتبصر فى عواقب ما يفعلون . خلال الاربع والعشرين ساعة الماضية

(٤) Miller, P. — Miller, T. ; Student Problems, Remedies and Satisfactions, British Psychiatry, Sep. 1973.

من المهم ان نلاحظ هنا ان الجامعات العربية لاتنشر ولا تملك معلومات معادلة عن الاوضاع النفسية والعقلية لطلابها ، ولذا تبقى مشاكلهم النفسية ومعاناتهم مقصورة عليهم وغير محسوس بها فى العالم الخارجى .

(٥) Arnold, W. ; Counselling Activities in Modern Society, Proceedings of Seventh International Conference for the advancement of counselling, 11-15, April, 1976, Würzburg.

دعيت لمعالجة بعض ضحاياهم . أحد هؤلاء الضحايا حاول الانتحار منذ ذلك الحين أكثر من مرة . واحدهم الآخر تطلب علاجاً عاجلاً في حالة القلق العنيف الذي سيطر عليه . ان عدداً كبيراً من الناس الطيبين يسقطون يومياً فريسة الخوف مما يحمله الاقتتال اليهم وهم لهذا يعتمدون اعتماداً متmadياً على المهدئات الطبية كي يستطيعوا مواصلة حياتهم اليومية . ان عواقب هذا الاتكال المكثف على هذه المهدئات الطبية هي أoxم من أن يستطيع أحد التنبؤ بها « (٦) .

في وقت قريب من هذا الوقت كتب باحث آخر في آثار الحرب الأهلية في أيرلندا على الأوضاع النفسية والعقلية للأطفال والشباب يقول ان التعرض لتجربة تفجير القنابل والاثارات النفسية والاستفزازات يوماً بعد يوم صارت تضاعف حالات الكآبة والمعاناة العصبية ، حتى صار يمر على كل يوم موكب طويل من المراجعين في العيادة يروون قصصاً مخيفة عن معاناتهم من الخوف والمعاناة المزقة لشخصياتهم ولهذا أجدنى ملزمان أصف لهم كميات كبيرة من المهدئات الطبية والمسكنات . ولأول مرة في حياتي المهنية أجدنى مضطراً لاعطاء الحبوب المنومة بمقادير كبيرة نسبياً للأطفال لأساعدهم على النوم ، ولتمكينهم من مواصلة أدائهم لواجباتهم المدرسية . ولأول مرة في حياتي المهنية أيضاً بدأت أخاف على سكان مدينتي - ديري - من أنهم لن يستطيعوا اجتياز مرحلة الاضطرابات العنيفة هذه من دون تعرض نظام حياتهم الاجتماعية للانهييار التام . (٧)

**لقد ترتب على حياة العنف والقتل والدمار التي عاشتها بلغاست والمدن الأيرلندية الأخرى منذ اندلاع الحرب الأهلية في سنة ١٩٦٩ ظهور نوعين من الأمراض النفسية بين سكان هذه المدن وخاصة الصغار منهم .**

**أولاً :** كانت هناك الهزات النفسية الشديدة التي كان يتلى بها الافراد الذين كانوا يتعرضون بصورة مباشرة الى المظاهرات والاشتباكات الدموية في الشوارع . وغالباً ما كان يمكن معالجة الآثار المترتبة على هذه التجارب ، وذلك بالمهدئات الطبية أو دخول المريض الى مراكز العلاج النفسي والعصبي لفترات قصيرة .

**ثانياً :** زادت نسبة الابتلاء بالأمراض النفسية ذات الطبيعة التعجزرية للمصابين بها ، والتي تتطلب علاجاً أكثر تعقيداً ، كحالة المرضى الى المعالجين النفسيين ، أو الزامهم بدخول مستشفيات الأمراض العقلية لفترات طويلة . ومن الملفت للنظر ان هذا النوع الثاني من الأمراض النفسية ظهر على نطاق أوسع في المناطق المجاورة لمناطق الصراع الدموي الفعلي . ان هذه الظاهرة تتفق مع الاستنتاجات العامة المستخلصة من أيام الحرب العالمية الثانية ، والتي أثبتت انه في زمن الاضطرابات والحروب تزداد ظواهر الانهييار العصبي والأمراض العقلية في المناطق التي « يتوقع » فيها الناس اشتعال الاضطرابات أكثر من تلك الأماكن التي تصبح مسرحاً فعلياً للصراع ، وهذا ما صار الأطباء النفسيون يطلقون عليه اسم « عقدة الغزو » The Invasion Complex (٨)

Belfast Telegraph, Sept. 7, 1971.

(٦)

Sinclair, F., Belfast Telegraph, Sept. 16, 1971.

(٧)

Fraser, M., Children in Conflict, pp. 81-82, Penguin Books, 1974.

(٨)

لقد خرج الاستاذ فريزر من دراساته التي أجراها على آثار النزاع الدموي الايرلندي على الاوضاع النفسية للاطفال ، خرج بنتيجة كبيرة وهي انه ليس هناك اى طفل ممن يعيشون في ظروف الاضطرابات وقد نجا من الوقوع في نوع من انواع القلق المبهض واضطراب النوم ، والخوف من الاضرار للانفصال عن أبويه وعائلته ، او من رفض المدرسة لقبوله فيها ، او من فقدان الشهية والاضطرابات المعوية والتفوطية والبولية ومن انواع الصداع .

لقد تجمعت لدى الدكتور فريزر اعداد كبيرة من عينات ضحايا الامراض النفسية الناجمة عن أهوال القتال اليومي في شوارع بلفاست وغيرها من مسارح القتال في المدن الايرلندية ، وكلها حالات مأسوية بالقياس الى صفر اعمار الضحايا وما سببته عليها بالنسبة لقابل حياتهم . **والحالتان التاليتان يمكن ان تكونا مثلين منبئين عن آثار هذا الخراب النفسي المبكر .**

● **مارجريت ، طفلة في الثالثة عشرة** راجعت الاطباء بسبب نوبات اغماء متكررة واعراض قلق شديد جراء ما شهدته من مناظر الاقتتال الدموي في شوارع بلفاست . اضطرت عائلتها الى تغيير سكنها بعد اندلاع الاضطرابات عام ١٩٦٩ وعندما احترقت جميع المنازل حول بيتها . وعلى الرغم من أن منزل العائلة لم يدمر تدميرا كاملا الا ان العائلة تعرضت للاستفزاز والابتزاز وتعرضت ممتلكاتها للنهب . وبعد فترة من الاستقرار في سكن مؤقت اشترت العائلة منزلا جديدا في مكان آمن سرعان ما أصبح هو الآخر واحدا من أسوأ نقاط الاضطرابات . انفجرت المظاهرات والاشتباكات بعد خمسة أسابيع من نزول العائلة في منزلها الجديد . ولعدة ليال أصبحت شوارع الحي الجديد ميدان معركة حربية حقيقية بين الفرقاء المتقاتلين من جهة ، وبينهم وبين رجال الجيش والامن من جهة أخرى ، وكثيرا ما وقع الصدام في حديقة المنزل الجديد الذي نزلته عائلة مارجريت .

عندما وقع هذا للمرة الأولى ، راحت مارجريت تصرخ وتزعق وخرت مغشيا عليها وكان لابد من نقلها الى المستشفى حيث جاءت نتائج كل الفحوص البدنية سلبية . أخرجت مارجريت من المستشفى ولكنها - وعلى الرغم من تمتع منطققتها السكنية ، بعد ذلك بهدوء نسبي - ظلت تتعرض لنوبات الاغماء سواء في المدرسة أم في البيت ، واضطرب أكلها وبدأ وزنها في الهبوط .

كانت مارجريت ثانی طفل في عائلة مكونة من سبعة اطفال . كان أبوها عاطلا مزمنا ، وكان هو وأمها يعانيان من توتر عصبي مزمن وسرعة انفجار عاطفي منذ أن بدأت الاضطرابات في بلفاست . لم يكن في تاريخ طفولة مارجريت ما يثير الانتباه . كانت دائما خجولة مترددة ولكن مشاكلها مع أترابها بدأت بالازدياد منذ انفجار الاضطرابات السياسية في أغسطس ١٩٦٩ . منذ ذلك الوقت بدأت مارجريت تعاني من فقدان القدرة على النوم توهما ان دارها ستحرق وانها ستحترق معها . كذلك صار الخوف الشديد يعترها من ظواهر أخرى ، مثل الضوضاء والفجيج والصراخ الجماهيري في الشوارع ، الامر الذي تحول الى خوف من الذهاب الى المدرسة ، فاخذت تقصر في أداء واجباتها المدرسية ، وهذا أدى بدوره الى انحطاط مستواها المدرسي .

ظلت ظاهرة الاغماء تتكرر عند مارجريت لأشهر عدة وبخاصة كلما شاهدت تجمعات من الناس حتى حين لم يكونوا في حالة تظاهر ، وكذلك عند سماع الاشارات العابرة الى حوادث الاشتباكات الدموية أو اخبار الصراع السياسي من أبيها أو من جيرانها . ولقد حاول اطباء الذين تولوا علاجها في مستشفى الامراض العقلية ان يوضحوا لها العلاقة بين ظاهرة الاغماء المتكررة عندها وبين التجارب القاسية التي مرت بها ، وأن الثانية هي سبب الاولى وان ليس هناك أى سبب تشريحي أو عضوي أو فسيولوجي للاغماء. وقد احرزت بعض التحسن بعد لاي ، الا ان مستواها العلمي استمر في الهبوط ، الامر الذي اوجب نقلها الى صفوف ضعاف المتعلمين .

●● ماري ، كانت في العاشرة من عمرها حين جيء بها الى العيادة لأول مرة بسبب تعرضها لنوبة صرع ناجمة عن حالة من القلق الشديد . وكانت ماري أصغر أربعة اطفال في عائلتها ، وكانت العائلة تعيش في واحدة من أسوأ مناطق بلفاست اضطرابا وأكثرها اقتتالا .

اختفى أبو ماري دون أن يعثر له على اثر لمدة ثمانية اشهر قبل جلبها الى المستشفى ، والمعتقد انه كانت هناك اسباب سياسية وراء رحيله . وقد تعرضت والدتها لحالات من الكآبة الشديدة بسبب الحوادث الدموية الاخيرة في بلفاست . كانت ماري قد تعرضت لحالات صرع ثانوية قبل ١٩٦٩ ، غير انها كانت نوبات عابرة وقليلة صارت تتكرر بعدد اكبر وبدرجات اعلى من الحدة بعد انفجار الصراع السياسي . وقد قصّت ماري بدايات انهيارها النفسي على طبيبها على الوجه التالي :

« في أحد أيام اغسطس ١٩٦٩ جاءت مجموعة من رجال الشرطة الخاصة الى الشارع الذي نقطن فيه وبدأوا يطلقون الرصاص على المتظاهرين اثر احراق معمل صغير يقع في الشارع الذي كنا نقيم فيه . وطلبت مني امي الصعود الى الطابق الاعلى من الدار ووضعتني في احدى حجر النوم وتركنتني وحدي ولكنها نسيت ان تسحب ستائر الحجرة التي وضعتني فيها . وجلست عند حافة الشباك انظر الى مايجرى في الشارع كما لو كنت في حالة شلل كلي . لم اكن خائفة في تلك اللحظات وانما المنظر كان يبدو كما لو كان فيلما سينمائيا . بعد يومين من ذلك الحادث كنت ورفيقتي في طريقنا الى المدرسة ، وكنا نركض لاننا كنا متأخرات وفجأة عاودتني صورة الناس يتراكمون في الشارع ومن ورائهم رجال الشرطة الخاصة ببنادقهم ورشاشاتهم . بغتة أحسست ان ساقى يعتريها ضعف شديد ثم سقطت الى الارض ولم افق الا في المستشفى حيث اخبرني الشرطي اني تعرضت لحالة اغماء .

ذات مرة قالت لي امي أوقدى طباخ الغاز . وفجأة تذكرت قنابل الغاز التي كان رجال الشرطة يطلقونها على المتظاهرين فبدأت أشهق شهيقا سريعا ، وأخذت يداي ترتعشان ثم تهاويت الى الارض ولم افق الا في المستشفى . في اليوم التالي . . في المدرسة . . كنا في درس اللغة وكان الموضوع الاصوات التي تخرجها الاشياء المختلفة . سالتنا المعلمة ماهي الآلة التي تخرج الصوت . . تنكاليك . . تنكاليك . . فتذكرت من دون أى شيء آخر صوت سيارة الاطفاء وأحسست يدي ترتجفان ، ولم افق الا وأنا ساقطة على الارض في حالة اغماء أخرى . . . »

استمرت ماري معوقة بهذه النوبات التي كان يسبقها ارتفاع مفاجيء في حدة التنفس . وكانت أشياء كثيرة تسبب تعرضها للأغماء ، مثل أنين جرس المدرسة أو رؤية الشرارات الكهربائية حتى رؤية الاطفال يركضون وهم يخرجون من المدارس .

اعيد ادخالها الى مستشفى الامراض النفسية ثم أحيلت الى عيادة نفسية للاطفال وهناك وجد من الضروري حجب الاخبار التلفزيونية عنها ، وحيل بينها وبين سماع الاحاديث من القتال او المظاهرات نظرا لاتضاح العلاقة بين القلق وسرعة التنفس الذي اصبح النمط الذي يقود الى ظاهرة الأغماء لديها . لقد أوشكت ذات مرة أن تتعرض للأغماء بسبب رؤيتها لعبة عند أحد أصدقائها على شكل دبابة نفائسة للهب فما كان من المسؤولين عن علاجها الا ان يبعدوا اللعبة عنها لانقاذها . (٩)



على أن ضحايا الطفولة والشباب لا يقتنصهم رصاص الحروب العقائدية المشتجرة وحدها . فقد يكون في الحرب الصامتة الملعنة عليهم من الآباء والامهات أحيانا ما هو أشد تكالا بهم وأكثر تخريبا لأوضاعهم النفسية والعقلية ، وذلك بسبب ما يسقطه هؤلاء الآباء والامهات أحيانا من آثامهم الماضية على أولادهم وبناتهم ، وبما يقتضونه من أولادهم وبناتهم من تعويضات نفسية عن فشل قديم عانوه ، أو مرارة نفسية قاسوها في طفولتهم وظل جرحها يكبر معهم حتى اذا كبر أولادهم وبناتهم ورشدوا ظنهم المثابة التي توفى لهم فيها ديونهم القديمة على آبائهم وامهاتهم . ولنجتزئ هنا بمثلين اثنين .

● المستر ميلر مواطن من مدينة نيويورك وهو يعيل من الاطفال سبعة يضاف اليهم زوجه وامه وهكذا يستوى عدد افراد الاسرة عشرة . والمستر ميلر ليس من ذوى الدخول الواسعة ، وكبرى بناته هي دوروثي في المرحلة النهائية من الدراسة الثانوية . ودوروثي ترغب ان تظهر من المظاهر باجملها ، وهي كاية شابة في عمرها تستهويها مفاتن الشباب من عطر وحلي وملابس وحفلات وغير ذلك . وهي تدرك ان موارد العائلة المالية لا تكفي لنوالها ما تريد . وهي في ذات الوقت حريصة على كرامتها واسم عائلتها . والمدارس في الولايات المتحدة تدرك حاجات الشباب ، وتعني ان كثيرا من الاسر قد تعجز عن الوفاء لابنائها وبناتها بما يريدون . ولذلك فهي - اى المدارس - تضم الى أجهزتها الادارية أجهزة متخصصة بتشغيل الطلاب في العطل الصيفية الطويلة في المصانع او منتجات الاصطياف والاستجمام وتضرب بذلك عصافيرين بحجر واحد ، فهي اذ تريح الاسرة المعسرة او المضيق عليها في الرزق من قدر من تكاليف المدرسة فانها في الوقت ذاته تنيل الاولاد والبنات فرصة الخبرة العملية ، وتعلم الاعتماد على النفس واحترام الكد من أجل العيش بكرامة ، ثم تعيد الاولاد والبنات في آخر الصيف الى منازلهم بجيوب مملوءة بمقادير محترمة

من المال تضمن لهم ما يشتهون من متع الشباب . وكانت . مدرسة دوروثي تقدم هذه الخدمات لطلابها شأنها شأن المدارس الأخرى . وتقدمت دوروثي الى مكتب تشغيل الطلاب تلتمس عملا خلال الصيف ، ووفرت لها المدرسة عملا مربحافي احد المصايف الجميلة . فلما أشعرت دوروثي اهلها بالترتيب الصيفي انفجر الاب مغضبا من اقدام ابنته على ذلك ثم راجع المدرسة ناقما ومعترضا ومحتجا . ويعجب اولو الامر في المدرسة من نقمة الرجل واعتراضة على حين كانوا يظنون انهم قد احسنوا اليه والى ابنته ، فيناقشونه في الامر ، ويتذرع الرجل في البداية بأن الامر يتنافى وحبه لابنته ، فهو لا يريد لها أن تتحمل متاعب العمل في هذه السن المبكرة . فاذا نوقش في ان البنت هي الراغبة في العمل وهي الساعية اليه قال ان كرامته تأبى عليه ان يرسل ابنته للعمل في الفنادق . فاذا انبىء بان اسرا اكبر من اسرته دخلا وأنبه في المجتمع ذكرا ترسل بناتها للعمل دون أن تجد في الامر حرجا قال انه يخشى على ابنته من ذئاب الرجال في تلك الاماكن ، الامر الذي يثير دهشة المسؤولين لان ايا من البنات اللواتي سبق لهن العمل في الماضي لم تتعرض لمكروه فما الذي خوف المستر ميلر من مثل هذه المحاذير ؟ هنا جاب ميلر انه متأكد من ذلك .

— وكيف تأكدت من ذلك ؟

— ان هذا شأني الخاص ...

— ولكنه شأن المدرسة ايضا ؟ فالمدرسة ليست اقل حرصا على شرف بناتها من اولياء امورهن ؟

— اني اعلم مالا تعلمون .

— واني لك هذا العلم الذي لانعلم يا مستر ميلر ؟

— ان القضية بسيطة ... يأتي الرجل المصطاف الموسر الى هذه الاماكن هربا من زوجته او من عمله . . فتتصل به الفتاة عن طريق خدمته على المائدة ، فتستهويه فيشتهيها فيترك لها في اليوم نصف دولار على المائدة ، ثم يصير نصف الدولار دولارا في اليوم الثاني . . ثم يتجاوز الامر الدولار الى دعوة لرقصة على ساحل البحيرة تحت ضوء القمر . . ثم الى هدية صغيرة ثم هدية اكبر . . وهكذا تبدأ الفتاة تنجر الى الشرك المنسوب لها حتى تكتشف في نهاية الطريق انها دفعت الكثير لقاء ثمن بخس .

كان المستر ميلر يقول هذا بكل اخلاص للمسؤول عن تشغيل الطلبة ، ويتذرع به للحيلولة دون ارسال ابنته للعمل والمسؤول فاغر فاه عجاوب ودهشة مما يقول هذا الاب الغيور . فلما اتم المستر ميلر حديثه قال له المسؤول : —

— انك ياسيدي تثير عجبنا الى حد الخوف . . فهل لك ان تعطينا واقعة واحدة مصداقا لما تقول وعلى ما تلقيه من التهم ؟

فما كان من المستر الا ان يبلغ به الغضب مداه فينفجر صارخا في وجه المسؤول ...



- آية بينة تريد ... ؟ كل الرجال يفعلون هذا ... لقد كنت أنا نفسي أفعله ردحا طويلا من الزمن .

بعد ذلك تهاوى ميلر على مقعده كمن القى من كاهله ثقلا كبيرا واستراح . ورفع الحجاب امام مسؤولى المدرسة . اذن كان المستر ميلر يصارع آثامه هو وأخطائه هو وضحاياه هو من خلال اعتراض على عمل ابنته . كانت الآثام والأخطاء والضحايا تثر في صدره أن الرجال كلهم على شاكلته ، وأن ابنته لن تكون شيئا مختلفا عن اللواتي سقطن في شباك ابوها . واذن لم يكن هناك حب أبوى ولا كرامة شخصية يأتين على الرجل ارسال ابنته للعمل وإنما كان هناك الخوف ... الخوف من أن تدفع ابنته ثمن حرمان بنات الآخرين التي استباحها في شبابه ... لأن الآباء الذين يأكلون أعنابا لم تنضج تضرس أسنان أبنائهم ، كما يقول الانجيل .

●● الان تيودور شاب في التاسعة عشرة من عمره ، وهو مخفق في عمله الجامعي نتيجة احساس عميق بالعجز في المساهمة في رسم مستقبله وتخطيط حياته القابلة وهو يعاني من القلق وضالة الشعور بالرضا عن نفسه وعن الحياة . لقد كان طفلا وحيدا لأبويه اللذين كانا يتمتعان بمركز اجتماعي محترم وقد حرصا منذ البداية على حمايته من حقائق الحياة المؤذية . وكان كلما سأل أبويه بعض الأسئلة أجيب من قبلهما « أنتظر حتى تكبر » . وكلما حاول أن يقوم ببعض الاعمال على مسؤوليته الخاصة سألوه أبواه « أو تظنك قادرا على القيام بذلك ؟ » . وكلما حاول أن يناقش مستقبله المهني معهما قالوا له « ان أمامك الكثير من الوقت لتفكر في ذلك ، اما في الوقت الحاضر فان واجبك الوحيد هو الالتحاق بالجامعة » . وكانت الهواية الوحيدة التي سمح له بممارستها هي لعبة « الجولف » وكانت تلك هي الهواية الوحيدة لأبيه أيضا . وعندما الحق بالجامعة سأل أبويه « ما الغرض من ذهابي الى الجامعة ؟ » وكان الجواب « اننا سنقرر ذلك فيما بعد بطبيعة الحال » . كان الأبوان يفكران في مستقبله المهني الا انهما جعلتا ذلك سرا مكتوما ليتأكدا من طاعته المطلقة لتوجيهاتهما . اخيرا بدأ الشاب يحس بالرهق من هذه الحياة التائهة التي كان يحياها . ثم جاء اليوم الذي كان لا بد أن يجيء في هذه الحالة وكل حالة أخرى مشابهة لها عند الاطفال المبكوتين وصرح الشاب قائلا « اننى أشعر بأننى مثبط . اننى لا أدري الى أين أسير ولا الى أين اذهب . اننى لا أحس بأننى أساهم في تقرير مصيرى . عندما اسأل سؤالا فانى لا أحصل على جواب . حتى حينما ادخل على أبوى وهما منشغلان بحديث من الاحاديث فانهما يسكتان فجأة . اننى لم أشعر بأية لذة من حياتى في السنتين أو السنوات الثلاث الاخيرة . انى شديد القلق . انى أعتقد أن الأمور تعاكسنى بشكل سيء تماما (١٠) » .



### اللوحي الرابع

#### الرفض

**الاستاذ -** اريد أن أعرف الفلسفة وراء اطالة الشعر وارساله بهذه الصورة المبعثرة .

**الطالب -** هل يزعجك ذلك ؟

**الاستاذ -** كلا . . . ولكنى من جيل متقدم على جيلك ولم يكن من الذوق العام في زماننا ارسال شعور الرجال بالشكل الذى تفعلون انتم الآن .

**الطالب -** اعتقد انها قضية ذوق شخصي .

**الاستاذ -** ولكنها ظاهرة عامة والظواهر العامة لا يمكن أن تترجم عن اذواق شخصية . ولو كانت قضية ذوق شخصي لاختلف الشباب فيها . وإذا كانت ظاهرة اجتماعية عامة ثابتة - وهى كذلك فعلا - فلا بد لها من فلسفة . ان الظواهر الجماعية فى السلوك الانسانى هى قوانين غير مدونة ولكنها فاعلة فى السلوك .

**الطالب -** لم أخبرك الحقيقة . . . ولكن ماهو غرضك على وجه التحقيق ؟

**الاستاذ -** حب الاستطلاع ومحاولة فهم الدوافع الانسانية . . انا معنى بمشاكل الانسان . . . وانا ادرك ان الظواهر السلوكية لا بد أن تكون رموزا لأشياء أعمق جذورا فى النفس البشرية . . .

**الطالب -** صدقت . . . ان الشعر الطويل المرسل المشوش والقدر أحيانا هو رمز لشيء أعمق منه بكثير .

**الاستاذ -** هو رمز على ماذا ؟

**الطالب -** الرفض .

**الاستاذ -** ولكن رفض ماذا ؟

**الطالب -** قيم المجتمع ؟

**الاستاذ -** أى من قيم المجتمع ؟

**الطالب -** قيمه الاستهلاكية . قيمه الاستحواذية . ان روح الاقتناء والاستزادة والانفراد بالأشياء والتكثرت منها والتنافس عليها بدأت تدمر الأسس الانسانية للمجتمع . الناس يتنافسون على اقتناء البيوت الفخمة والاثاث الفخم وامتلاك أكثر من سيارة واحدة وأكثر من جهاز تلفزيون . حتى الكلاب والقطط أصبحت مما يتنافس فيها الناس . بهذا صرف النظر عن الانسان نفسه الذى يفترض ان يكون الفأية العليا من الحياة كلها ، من الوجود . لقد وضع الانسان فى خدمة الأشياء بدلا من أن تكون الأشياء فى خدمته . اليس ذلك شيئا مأسويا ؟ .

**الاستاذ -** نعم .. هو مأسوى بالفعل .. ولكن ما علاقة ذلك كله بالشعر الطويل المنشور .  
الانسان صاحب العقيدة يكافح من أجل افكاره بشعر ومن دون شعر . . وهل يعنى كون  
بعض الرؤوس صلعاء ان أصحابها ليسوا من أصحاب الافكار الانسانية العالية ؟

**الطالب -** انت الآن تمزح ...

**الاستاذ -** بل انا جاد .

**الطالب -** حسنا اذن . لنبدأ من هذه النقطة . لوعدنا الى الورا قرنين أو ثلاثة قرون  
سنجد ان الشعر الطويل للرجال كان ظاهرة عامة . حتى الانبياء .. عيسى وموسى عليهما  
السلام مثلا ... تجدهما مصورين أو منحوتين بجذائل طويلة مرسلة على اكتافهما وذوائب اطول  
مدلاة على جباههما . طف كنائس الدنيا كلها فلن تجد المسيح مصورا في تمثال واحد من دون  
جذائله وذوائبه . هذا هو الاصل الثقافي للشعر الطويل المرسل عند الرجل . رجال الصحراء  
العرب الى اليوم يتزينون بشعور طويلة تحت كوفياتهم المهفهفة في الهواء . ان لهذا التعلق  
بالشعر الطويل سببا بطبيعة الحال . ان الشعر اكثر من أى شيء آخر يعطى الرجل شخصيته  
المتفردة المتميزة وعندما تجزئ فروة رأسه يتغير شكله كليا وربما اضطربت أوضاعه النفسية .

**الاستاذ -** ولكن هل تحتل هذه القضية كل هذه المضامين ؟ الا ترى انك تحمل الاشياء  
فوق طاقتها ؟

**الطالب -** عموما ... ليست هذه « هي » القضية ...

**الاستاذ -** ما « هي » القضية اذن ؟

**الطالب -** الانسان « هو » القضية .. ان حضارتكم الراهنة تمجد الابداع الانساني ولكنها  
تدمر الكائن المبدع نفسه . هذا من صنع البورجوازيين .

• • •

### اللوحة الخامسة

#### القنوط

**الاستاذ -** ولكن من أين جئت بفكرة تدمير « المبدع » ؟

**الطالب -** ان الاعتداء على الانسان يبدأ مبكرا . منذ الطفولة المبكرة . انهم يحاولون صبك  
في قوالبهم الموروثة ، يجب ان تكون صورة أخرى مكررة عن ملايين صور الرجال الجوف . الم  
تسمع بكتاب « اندريه جيد » ، أيتها العائلات .. انى اكرهك ؟

**الاستاذ -** بلى سمعت به .

الانفصال من العالم والرجل الى الاعماق

**الطالب -** لقد كان جئرا ضد معاملة الاطفال على أنهم راشدون صغار . لقد كرر سارتر الشكوى ذاتها والاحتجاج ذاته في كتابه « الكلمات » (١٩٦٣) وقد حاول سارتر في هذا الكتاب التنبيه الى ان خير طريقة لتفادي جعل الناس نوريين هي توفير تربية ديموقراطية اصيلة لهم .

**الاستاذ -** ولكن البورجوازيين الذين هاجمتهم قبل قليل لم يبنوا مجدهم ونفوذهم على هذه التربية الديموقراطية الاصلية ؟

**الطالب -** ان البورجوازي يفسر وجوده على هذه الارض بانه نوع من انواع الحق الالهي . اما البروليتاري فلا يملك مثل هذا اليقين ، لانه لا يتمتع بنفس الضمانات التي يتمتع بها الطرف الآخر .

**الاستاذ -** ما الذي يمنعه من ذلك ؟

**الطالب -** لان الصناعة كما يقول « اندريه مالرو » دمرت صورة الله في الضمير الانساني وبهذا محت من امام الانسان كل ما يعترض طريقه، وعندما وصل نهاية افعابه لم يجد الا الموت كما وجده رانسى امام جسد حبيبته . (١١)

**الاستاذ -** ولكن الا ترى أنك تتخذ موقفا مفرقا في التشاؤم من العالم ؟

**الطالب -** أبدا . . انه عالم عبثى قائم على الخديعة .

**الاستاذ -** الخديعة ؟

**الطالب -** نعم الخديعة . . انها في المركز من المأساة الانسانية المعاصرة . . او لم تسمع بمحنة « هنرى مارتان » التي هي رمز لازمات كل الشباب المخدوع في هذا العالم ؟

**الاستاذ -** بلى سمعت به اليس هو صاحب « سارتر » الذي . . .

**الطالب -** بلى انه هو . لقد انضم مارتان الى المقاومة الشعبية الفرنسية سنة ١٩٤٥ وهو في السابعة عشرة من عمره ، وأبلى بلاءا حسنا ، ثم نقل الى البحرية الفرنسية بعد الحرب ، وارسل الى الهند الصينية حيث اوحى اليه انه ارسل للمشاركة في تحرير شعوب المنطقة من الاحتلال الياباني . غير انه سرعان ما اكتشف انه كان متوقعا منه ان يسهم في ابقاء تلك الشعوب تحت السيطرة الفرنسية الاستعمارية ، فأحس بالخيانة وحاول ثلاث مرات شراء حريته من الجندية وأخفق فيها كلها فما كان منه عام ١٩٤٩ الا أن قام بتوزيع منشورات مناهضة للحرب في قاعدة طولون العسكرية انتهت به الى السجن خمس سنوات .

**الاستاذ -** هل كان في مقدوره ان يغير العالم وحده ؟

**الطالب -** كلا . . وتلك كانت خطيئته المهلكة . . انه أراد ان يعلن حربا على النظام العالمي الفاسد ، وان يقودها ويخوضها وحده ، على حين ان المخدوعين في العالم كثير كثير ، افرادا كانوا أم جماعات .

( ١١ ) رانسى مصلح ديني فرنسي عاش بين ١٦٢٦ - ١٧٠٠ - وانتهى عاشقا مات بين يدي عشيقته . لقد طرح مالرو افكاره هذه في رواية « الفاتحون ١٩٢٨ » و « الامل ١٩٣٧ » .

**الاستاذ - وكيف تخدع الجماعات ؟**

**الطالب -** ان خديعة الجماعات لا تختلف من خديعة الافراد الا بالدرجة فقط . الم تقرا ما كتبه « توينبي » عن خديعة الرجل الاسود في الولايات المتحدة .

**الاستاذ - وماذا قال توينبي ؟**

**الطالب -** قال توينبي ان «الزنبي الامريكي» وعد أولا بأن تحريره من الرق ، ومن ثم توحده مع الرجل الابيض سيضعان حدا لضعه مركزه الاجتماعي ومستواه المعاشي . ولكن في كل مرة كانت آمال الزنوج تخيب . وكان من نتيجة ذلك وتبعها له ان اصبح الزنبي حائرا ضائعا شاكا تأكل المرارة قلبه ، وقد دفع ذلك فيما دفعه اليه الى ان تتجه قطاعات من المجتمع الزنبي الامريكي الى الايمان بحياة جديدة قائمة على الانفصال الكلي عن الرجل الابيض ، انفصال قائم هذه المرة على اختيار السود ومن صنعهم يجري تحقيقه بوسائل العنف (١٢) .

**الاستاذ -** اذا كان العالم يبدو لكم مزاجا عجيبا من العبيثية والخديعة والاغترارات ، فانتم لا تبقون على باب من ابواب الرجاء مفتوحا امام مسؤوليات المستقبل .

**الطالب -** نعم هو ذلك . القنوط من الامل هو العقلانية الوحيدة التي تجعل العالم محتملا ، وهى التي تحيل هذه التجربة المبهضة - الحياة - الى حالة من حالات الوعي . لقد تنبأ صاموئيل بيكيت Samuel Beckett (١٢) لذلك منذ ١٩٣٨ في شخصية مورفي .

**الاستاذ - وما هى رؤيا بيكيت عن العالم من خلال مورفي ؟**

**الطالب -** محض عبث لا مبرر له ولا طائل تحته . فانت تعرف ان مورفي مواطن من مواطني دبلن يعيش في لندن على الصدقات ، وهو وحداني ذاتي سيء العشرة يؤمن بأن عقله عبارة عن « مجال ضحل كبير مغلق انغلاقا تاما بالنسبة للعالم الخارجي . وهو يريد ان يوصد بوابات عقله من دون العالم الذى تبهضه عبيثته وبطلانه وفوضاه ، وهى امور لا تترك له فرصة للتوافق مع هذا العالم ، ولذا فهو يرى ان المعتكف الوحيد فى العالم هو « عقله » الذى هو المكان الاوحد حيث يستطيع ان يجد السلام الداخلى فيه ، وحيث لا يكون الا « هبوة » فى ظلام الحرية المطلقة . الطريق التي يسلكها مورفي الى الرحيل الى اعماقه الداخلية هي ان يربط نفسه عاريا الى كرسي هزاز ثم يهتز ويهتز حتى « يحيا عقله » .

ان رحيله بعيدا عن زعزعات العالم الخارجي « عالم الامتداد » وتقدمه الى « كهف النفس » ذلك الكهف الباطنى المظلم يتعقد بحبه لعاهرة اسمها سبيليا وهي « مخلوق شهواني » تبحث

( ١٢ ) Toynbee, A., *Experiences*, p. 248, Oxford University Press, 1969, London.

( ١٣ ) صاموئيل بيكيت كاتب مسرحي ايرلندي ولد عام ١٩٠٦م واختار باريس منذ صغر شبابه مستقرا له حيث نشر اكثر مسرحياته باللغة الفرنسية وبنى مجده الادبي هناك وهو يعد الآن بالاضافة الى برخت ويونسكو الطاب الحركة المسرحية العالمية في الاربعين سنة الاخيرة . ومن اهم اعماله « مورفي ١٩٣٨ » و « في انتظار جودو ١٩٥٢ » و « نهاية اللعبة ١٩٥٧ » و « كيف الحال ١٩٦١ » .

عن مركز اجتماعي محترم بافترائها بمورفي وحملها اياه على البحث عن عمل . غير ان العمل الذي يحصل عليه مورفي يكون في مصحة للأمراض العقلية . في هذا المكان يجد مورفي « ملاذه من الدنيا » ويحس بنوع قريب من السعادة بين المتأئين عقليا ، لانهم ولجوا المنطقة التي يحاول هو الوصول اليها عن طريق كرسيه الهزاز . على أن سعادة مورفي لا تدوم طويلا لانه يحترق ذات يوم هو وكرسيه الهزاز .

يترك مورفي وراءه وصيته يوحي فيها ان تحرق رفاتة وان توضع بقاياها في كيس من الورق وان تحمل الى مسرح « آبي » السدي « انقضت فيه أسعد ساعات هذه البقايا ، وان تنثر في مجارى مياه ذلك المسرح دون احتفال او اظهار للحزن . ولكن حتى هذه الأمنية الأخيرة كانت غير ممكنة التحقيق ، ذلك ان الصديق الذي حمل رفات مورفي - وقبل ان ينفذ الوصية - يدخل في شجار مع عامل البار في المسرح فيقذفه بكيس الرمد في لحظة غضب ويتناثر الرمد على الجدران وارضية البار ويصبح في التو موضع الدهس والنخس بنعال السكاري ، وهكذا يغدو جسم مورفي وعقله ونفسه مبعثرة على ارض البار . وقبل ان يبرغ فجر اليوم التالي تكون الارض قد كنست من « الرمل والبيرة واعقاب السكاير والزجاج والكبريت والبصاق والقيء » المختلطة ببقايا رفات مورفي .

الاستاذ - لا امل اذن امام الانسان في شيء من الخير او الرجاء فيه ؟

الطالب - لا بل هنالك امل .. هو اقرب الى البطلان منه الى الحقيقة .. هو الامل في الامل ..

الاستاذ - لا افهم ؟

الطالب - انه وجود المرتقب الذي يرينا ببيكيت كيف ان كل الناس تتوقعه ، ولكنه لا يجيء .. ومع هذا فهم يحلمون بمجيئه وهم لا يريدون ان يخسروا هذا الحلم لانه هو الشيء الوحيد المتبقى لهم . (١٤)



( ١٤ ) في مفتتح مسرحية « في انتظار جودو » نسمع هذا الحوار بين صطوكين ينتظران جودو على قارعة طريق وقد عفيهما الجوع :

استراجون - هل أنت متأكد ان هذا هو المكان الذي علينا ان ننتظره فيه ؟  
 فيلاديمير - لقد قال بجوار الشجرة . ماذا تريد ان تقول ؟ اننا في المكان الخطأ ؟

استراجون - كان يجب ان يكون هنا .

فيلاديمير - انه لم يؤكد انه سيأتي

استراجون - واذا لم يات ؟

فيلاديمير - سوف تأتي غدا

استراجون - ثم بعد غد

فيلاديمير - يحتمل

استراجون - المسألة هي ....

فيلاديمير - الى ان يأتي .....

### اللوحي السادس

#### الضياح

**الاستاذ -** الا ترى ان بيكيت وامثاله ليسوا ممثلين للعالم ، وان الوضع الانساني ليس بالسوء الذي يصورونه به ؟

**الطالب -** ولكن الكتاب من طبقتهم هم ضمير العالم .

**الاستاذ -** ليست هناك معايير هادية في هذه الدنيا غير رؤى هؤلاء الكتاب ، وغير الصراع السياسي والكفاح الدموي ؟

**الطالب -** مثل ماذا ؟

**الاستاذ -** خذ القيم مثلا . . ألم تكن حتى الآن دليلا هاديا للبشرية ؟ ألم تكن مصدرا من مصادر الاستقرار النفسي للانسان العادي ؟

**الطالب -** الانسان العادي الذي لا يفكر بطبيعة الحال . . . ذلك هو الذي تريد . . أليس كذلك ؟

**الاستاذ -** ابدا . . الانسان المفكر هو الذي يعرف القيم ويميزها ويسترشدها بها .

**الطالب -** قد يكون الامر كذلك ولكن المشكلة هي انه ليست هناك قيم متفق عليها أصلا ، ولذا فاننا لسنا في وضع أفضل من وضع مورفي في انفصاله عن العالم .

**الاستاذ -** وكيف ذاك ؟

**الطالب -** القيمة شيء نسبي ، والنسبي قابل للتعليل والتأويل . . وما كان كذلك لا يمكن الاعتماد به .

**الاستاذ -** ومن أين جاءت نسبية القيم ؟

**الطالب -** جاءت من غياب الإجماع عليها . فهناك من يرى ان القيمة شيء ذاتي ، وانها لا توجد الا كمواظف أو احساسيس بالرغبة أو النفور ، بالحب أو الكره ، بالاحترام أو الإزدراء نحو شيء معين أو نحو شخص معين . فالأكل والشرب والاستمتاع بالموسيقى أو تأمل غروب الشمس كلها قيم لانها تثير فينا احساسا للذبا ، وتقديرا ، وتوهجا في المشاعر . انها تعطينا تجارب شخصية في طبيعة الاحساسات التي نلدها . وهذا لا تكون القيمة الا اهتماما أو متعة يعطي الاشياء معنى في نظرنا عندما نرغب فيها أو نحس بالحاجة اليها . حتى عندما تكون القيمة في الشيء فعلا فان الشيء نفسه لا يكتسب من الأهمية الا بمقدار رغبة الانسان فيه أو حاجته اليه ، وكما يقول پيرى R. B. Perry فان « أى شيء - مهما كان - يكتسب قيمة » عندما يحظى

باهتمام الانسان به ايا كانت درجة الاهتمام ، بالضبط كهدف الرامى الذى لا يصبح هدفا الا عندما يقع التصويب عليه من قبل رام معين » . (١٥)

ويوضح باركر هذه الحقيقة بشكل ادق في قوله « ان القيم تنتسب الى العالم الداخلي ، عالم العقل . ان اشباع الرغبة هو القيمة الحقيقية ، اما ما يساعد على تحقيق الرغبة او اشباعها فهو مجرد أداة . القيمة هي دائما خبرة ، وليست شيئا . الأشياء يمكن ان تكون قيمة ولكنها لا يمكن ان تكون قيما على الاطلاق . اننا نعكس القيمة الداخلية على العالم الخارجي ونسبغها على الأشياء التي تحقق الرغبة أو تساعد على تحقيقها . » (١٦)

**الاستاذ -** اراك تغلوا غلوا شديدا في نفي واقعية القيم الانسانية ، وتنفي عنها صفة الموضوعية والحقيقة ، على حين اني أعلم ان قيم الأشياء فيها وليست في الانسان . وفي تخميني انه لو لم تكن الأشياء قيمة بذاتها لما قيمها الانسان . الانسان يكتشف قيمة الأشياء فقط . ولا ريب ان هناك ميزة او خاصية او نظاما للخصائص والمزايا في « الشيء » تجعل الحكم عليه ضروريا ومعقولا في وقت معا لانها تثير فينا استجابة تقييمية Appreciative Response . بعبارة أخرى . . ان فيها شيئا مستقلا يلد العين أو الاذن أو الحاسة الخلقية أو الملكة الجمالية في الانسان . وعلى هذا فان الانسان لا يهتم الا بتلك الأشياء التي تبدو له ذات قيمة أصلا .

**الطالب -** قد يكون هذا حقا . . . ولكن اكتشاف قيمة الشيء لا يتحقق الا من خلال التجربة الفردية ، اى الانفعال بالأشياء ، وهذه قضية ذاتية صرف .

**الاستاذ -** هذا حق ولذا فاننا يجب ان نميز بين امرين مهمين ، بين التجربة النفسية المصاحبة للحكم على الشيء من جهة ، وبين « الشيء Object » أو « الوضع Situation » الذى نحكم عليه .

**الطالب -** كيف تفصل الانفعال عن موضوعه ؟ ألا يبدو ذلك صعبا ان لم يكن مستحيلا ؟

**الاستاذ -** لاستحالة في الامر . خذ مثلا احكام الناس على الجو من حيث هو حار أو بارد . اننا هنا لا نقول ان احكامهم نفسها حارة او باردة لانها احكام موضوعية من جهة ، ولان ما هو حار او بارد انما هو موجود خارج الانسان . وفي هذه الحالة نستطيع ان نختبر دقة احكامهم بمقاييس الحرارة وسيكون صوابها او خطأها - اى الاحكام - مرهونا بمدى توافقها مع ما يشير اليه ميزان الحرارة حتى في الحديث عن الجمال . . . اننا لا نقول عن شيء انه جميل ما لم يكن فيه ما يبرر هذا الحكم كالوانه مثلا او تناسق ابعاده او هيئته . قيم الأشياء هي في الأشياء ذاتها غير ان

Perry, R. B. ; General Theory of Value, pp. 115-116, Longman's Green ( ١٥ ) and Company, New York, 1926.

Parker, D.H., Human Values, pp. 20-21, Harper & Brothers, New York, ( ١٦ ) 1931.



اكتشافها ليس ميسرا للجميع لأنه رهين بالخبرة والمملكة ، فالانسان الدواقة هو الذى يميز الطيب من الخبيث وعندما يعجز الناس عن اكتشاف قيم الاشياء فانهم يبرهنون على عجزهم ليس غير .

**الطالب -** انك لم تزد الامر وضوحا .. كل ما فعلت انك خلطت « الشيء » ب « التجربة » أو « الموضوع » ب « الانفعال » وجعلتهما شيئا واحدا .

**الاستاذ -** تلك هي بالضبط طبيعة الاشياء . لأن القيمة - في التحليل الاخير للاشياء - هي ذات طبيعة علائقية ، بمعنى أن كلا من العوامل الدائية والموضوعية ضرورية لخلق القيمة ، ذلك ان عملية خلق القيمة أو ايجادها أو احداثها هي علاقة خاصة او معرفة بعلاقة خاصة تتكشف لاشخاص حساسين أو قادرين على التفهم . ان القيمة هي حصيلة تفاعل متغيرين أو اكثر في حالة معينة . وهناك خصائص أو حالات بيئية تثير في الاجهزة الحسية تلك الاستجابات الفريدة التى نسميها أحكاما اخلاقية . فى مثل هذه الحالات لا يمكن الجواب على السؤال .. « هل الجمال موضوعي أم ذاتي بكلمة نعم أولا . الجواب الصحيح هو ان الجمال صفة او خاصية فى شيء معين تتكون من قدرة ذلك الشيء على احداث اللذة فى ذات متألمة . ان السؤال .. هل الجمال موضوعي أم ذاتي ؟ مشابه منطقا للسؤال .. هل حالة التسمم موضوعية أم ذاتية ؟ ان تجربة اللذة مثل الموت .. انها ليست طاقة ولا قدرة ... انما هي حدث بعض الاشياء قادر على التسبب به فى بعض الناس على حين ان الجمال - من الناحية الاخرى - هو مثل التسمم ليس حدثا ولا خاصية وانما هو طاقة او قدرة تملكها بعض الاشياء ... لاحداث اللذة فى بعض متألميها ... » (١٧)

**الطالب -** لقد اعطيت للقضية عمقا عقلانيا جدليا وعزلتها عن ملاساتها الحياتية . ان جيلنا ينظر الى القضايا الاخلاقية على انها مشاكل عملية محمولة فى الرحم الاجتماعى ولا يمكن التماسها فى الجدليات الميتافيزيقية . الفقر والعوز والبطالة واستغلال الانسان للانسان والعبودية الفكرية .. هذه كلها ليست امورا جدلية محضة .. انها من افرازات التركيبة الاجتماعية التى تحتوى الانسان ولا سبيل الى تبديلها الا بتبديل التركيبة الاجتماعية ذاتها . عندما طرحنا قضية القيمة طرحناها على انها أداة استهداء فى الحياة العملية ، أداة للبحث عن الخلاص الانسانى .

**الاستاذ -** ومن قال ان مسألة القيمة معزولة او قابلة للعزل عن مشاكل الحياة الانسانية وعن معاناة الانسان ؟ الاخلاق عموما ليست نظاما فى بناء القيم الضابطة للسلوك الانسانى فرديا كان أم جماعيا . وهكذا فان الحديث فى القيم أن هو الا المدخل الطبيعى الى مناقشة النظام الاخلاقى الموجه للفعاليات الانسانية والجماعية منها على وجه التخصيص .

**الطالب -** هذا حق .. لولا انك اضعيت على المعالجة درجة عالية من الضبابية اللغوية التى اضعأت المعالم الاساسية للمعضلة الانسانية .. معضلة الاهداف وعبثية الوجود وسقوط

الانفصال عن العالم والرحيل الى الاعماق

الانسان في محاولة ابتداء النظم الاجتماعية التي تعطي الوجود الانساني على الارض معنى ، وتعينه على ملء فراغ الزمن الضائع في انتظار جود والذي يعرف الجميع انه لن يجيء .

**الاستاذ -** القضية هنا تصبح قضية اختيار ، اختيار التفسير الاتي بالنبوءة والمالء لفراغ الزمن ، وهذه مسألة اخلاقية صرف .

**الطالب -** ولكن المسألة الاخلاقية ليست اقل ضبابية ولا غشبية من مسألة القيمة ، والسقوط في غياهب الاختيار الاخلاقي ليس اصعب من ضياع الطريق امام الباحثين في معنى القيمة .

**الاستاذ -** ومع هذا فلا بد من الاختيار . تريد الحق . . ان المسلكية الاخلاقية للانسان تبدأ بالاختيار أصلا . لقد كان المتدينون الأوائل والميتافيزيقيون اخلاقيين من الطبقة الاولى رغم ان اخلاقياتهم قد لا تقدم حلا لمعضلات عصرنا .

**الطالب -** هل كان في غيبياتهم حل حتى لازمت عصرهم وعبودياتهم هم انفسهم ؟

**الاستاذ -** ربما لم يكن . . ولكن الرؤية كانت واضحة عندهم . وهذا ما منحهم السلام العقلي على الاقل .

**الطالب -** ولكنه كان سلاما مكذوبا . . كان تسليما ولم يكن سلاما .

**الاستاذ -** كانت الطريق امامهم منورة . كانت عقيدتهم هي مجموعة الحدود التي قضت بها القوة العليا ، ارادة الله . ومع تطور المفهوم الديني اصبح وجود الانسان كله رهينا بطاعة هذه التعاليم ، كما صارت هذه الطاعة المبرر الوحيد لوجود الانسان على الارض والسبيل الى مثوبته في الحياة الاخرى ، وقد اكسبه ذلك درجة عالية من النبل .

**الطالب -** الطريقة هذه لم تكن عقلانية ، ولهذا حاول الانسان عقلنتها .

**الاستاذ -** قاده هذا الى المثالية الاخلاقية . ابتدأت هذه المثالية بأفلاطون وانتهت بـ « كانط Kant » الذي كان واحدا من أبرع الفلاسفة الميتافيزيقيين ومبلور الاخلاقية الميتافيزيقية في كتابيه (ميتافيزيقية الاخلاق Metaphysics of Morals ) ونقد العقل العملي Critique of Practical Reason . لقد اطلق كانط على فلسفته الاخلاقية اسم « الاخلاقية الصورية Ethical Formalism » هل قرأت كانط ؟

**الطالب -** أجل قرأته واعرف قوانينه الاخلاقية العامة ، واعرف شروطه لاخلاقية الفعل الانساني وهي ثلاثة ( اولها ) مبدا الكونية بمعنى ان الفعل الاخلاقي ينبغي أن ينبثق ليس من الرغبة او الميل ولكن من مبادئ يمكن تعميمها على كل الظروف والاحوال وأن تصدق في كل تلك الظروف والاحوال ايضا . و ( ثانيها ) مبدا الانسانية كفاية في ذاتها ، بمعنى ان الانسان هو غاية الحياة العليا على هذه الارض ، ولا يجوز استعماله اداة لاية غاية اخرى كما في الرق او البغاء او الاستغلال الاقتصادي . والمبدأ الثالث هو مبدا الاستقلال ، بمعنى ان المبادئ الاخلاقية

التي يطيعها الإنسان لا ينبغي أن تفرض عليه من الخارج ، بل ينبغي أن يفرضها هو على نفسه ، أي أن يختارها بإرادته الحرة ، وهو يملك الوسيلة لذلك متمثلة في العقل والاحساس الفطري بالواجب المنبعثين من الداخل ، داخل الإنسان ، واللذين هما برهان ذاته العليا .

**الاستاذ -** الست ترى في هذه المجموعة من القوانين نظاما متكاملا للسلوك السوى وطريقا الى الرقعة الانسانية ؟

**الطالب -** بلى ، لولا أن مثالية كانط اغفلت حرب المصالح الاقتصادية بين الطبقات ورمت نفسها بالعدم . حتى قبل ظهور ماركس والماركسية ظهر الأخلاقيون النفعيون مثل جيرمي بنتام J. Bentham ( ١٧٤٨ - ١٨٣٢ ) وجون ستوروات ميل J. S. Mill اللذين بنيا نظريتهما في الاخلاق على القول بأن اخلاقية الفعل الانساني مرهونة بنتيجته ، فان كانت النتيجة جيدة او ممتعة كان الفعل اخلاقيا ، والا فانه غير اخلاقي ، وان يكن ميل قد حاول التقليل من خطر هذه النزعة الفردية بربطه مبدأ « النفع » لا بالفرد وانما بالجماعة او « بمدى صلاحيته في تحقيق السعادة العظمى » ، أي سعادة المجتمع . لقد قال ميل في هذا الصدد « ... ان سعادة الغالبية من الناس هي المعيار الاخلاقي الوحيد لالتماس الخطا والصواب في السلوك الانساني ، وما دما نعيش في مجتمع غير عادل فان البعض منا يجب ان يضحي بنفسه او مصالحه في سبيل الآخرين ، وهذا هو جوهر الاخلاق ... » .

**الاستاذ -** هل لك من مأخذ على التفسير النفسي للاخلاق ؟

**الطالب -** اكثر من مأخذ واحد . **اولا** ان ميل اعترف اننا نعيش في مجتمع غير عادل ولكنه ربط صلاح هذا المجتمع او اصلاحه بالنزعة الغيرية ، التضحية بالذات في سبيل سعادة الآخرين ، وهو يعلم جيدا ان هذه دعوة غير مستجابة في المجتمع التجارى الذى كان يعيش فيه والذي كان يقوم على الربح وعلى الازدياد منه . **ثانيا** ان المجتمعات لا تصلح بالصدقات . لا بد لك من نظام ثابت في تقرير الحقوق والضمانات للإنسان ، ولا بد من وضوح العلاقة وثباتها بين الجهد والمكافأة . ان شر ما يهدد المجتمعات ان تظهر فيها طبقات طفيلية غير منتجة تعيش على جهود الناس المنتجين .

**الاستاذ -** لقد حاول ديوى وغيره من « الاخلاقيين التحليليين » ان يطرحوا بديلا عقلانيا عن كل المذاهب المتقدمة . وكان ديوى John Dewey ( ١٨٥٩ - ١٩٥٢ ) في كل حياته مثالا للمفكر العلمي الذى يسترشد بالتجربة ويعتمد نتائجها معيارا لتحليل الاوضاع الانسانية والنظم الاخلاقية . وقد ربط في كتابه « الطبيعة الانسانية والسلوك الانساني » Human Nature and Conduct ( ١٩٢١ ) ، ربط الاخلاق الى علم النفس الاجتماعى رافضا بذلك التسليم القديم بوجود « قيم خالدة » تقرر مسبقا ما هو خطأ وما هو صواب ، ومؤمنا بان القيم الاخلاقية الحقيقية يجب ان تمر باستمرار بعمليات تحويل واعادة بناء من خلال التفكير الناقد وعلى ضوء التبدلات في الوضع الاجتماعى الانساني وتعاطم المعرفة الانسانية . لقد رفض ديوى التسليم بصواب تلك

الاشياء التي يمكن البرهنة نظريا على انها نافعة ومرضية في جميع الاحتمالات المتوقعة ولجميع الاطراف المعنية . ورغم تقدير ديوى للتأكيد الذي وضعه النفعيون على نتائج الفعل كمعيار لاخلاقيته الا انه لم يوافقهم على ربط المعايير الاخلاقية باللذة المستخلصة من فعل من الافعال وذلك لانه اعتبر الدوافع والشخصية والذات جزءا لا يتجزأ من السلوك ولا يمكن اهماله . وعلى هذا الاساس رفض التسليم بوجود فضائل محددة ومتفق عليها لان هذه الفضائل غالبا ما ترتبط بالعادة والعرف السائدين في وضع اجتماعي معين ، وهما عرضة للتبدل بتبدل ذلك الوضع . ( ١٨ )

**الطالب -** لقد كان ديوى محلا مختبريا للمشاكل الاجتماعية فاضطر الى اغفال دور نظام توزيع القوة الاقتصادية في صياغة الاهداف الاخلاقية للمجتمع ، وكان عليه ان يولى قوانين الحركة الاجتماعية الواقعية مكانا اكبر من اطاره النظري للاخلاق .



### اللوحة السابع

#### التعليق

خارج اطار العيشية الوجودية وسقوط النظم الاجتماعية في بلوغ الوضع الانساني الامثل .. كيف نفسر ازيمات الشباب في المجتمع المعاصر ؟ لا انتمائته العقلانية او الدينية ؟

حاول هيربرت ماركوزه في كتابه « الانسان ذو البعد الواحد » ( ١٩٦٤ ) تفسير ذلك بخواء الحياة الانسانية الداخلية الحديثة من تلك التجارب المنورة باطنيا للوجود الانساني ، تلك التجارب التي كانت تعطي انسان ما قبل الثورة الصناعية ازدهارا باطنيا من خلال الاتحاد مع الله ، او التوحد مع النظام الطبيعي للكون . فرضية ماركوزه ( ١٩ ) الاساسية في هذا الكتاب هي « ان التقدم التكني حين ينسحب على نظام كامل للسيطرة والتنسيق يخلق انماتا من الحياة

( ١٨ ) للتوسع في هذا التجدل الاخلاقي ، راجع كتاب

A History of Modern Philosophy by: Wm. K. Wright, pp. 546-549, Macmillan Book Company, N.Y., 1965..

كذلك راجع كتاب « فلسفة التربية والرها في تفكير معلم المستقبل » للدكتور محمد جواد رضا ص ١٢٢ - ص ١٢٢ ، نشر جامعة الكويت ١٩٧٢ .

( ١٩ ) ولد هيربرت ماركوزه في برلين سنة ١٨٩٨ وتلقى دراسته الجامعية في جامعتي برلين وفرايبورغ حيث نال في الاخرة دكتوراه الفلسفة وكان موضوع رسالته « نظرية هيغل Hegel في طبيعة الوجود وعلاقتها بفلسفة التاريخ » . عندما استولى النازيون على السلطة هرب الى سويسرا ، ومنها الى الولايات المتحدة وابستقر في جامعة كولومبيا حيث نقل اليها بالاشتراك مع ماكس هورخايمر « معهد الابحاث الاجتماعية » من مدينة فرانكفورت . بين ١٩٥٤ - ١٩٦٧ عمل في التدريس في جامعة برانديس ، ومنذ ١٩٦٧ وهو يدرس في جامعة كاليفورنيا من اهم كتبه « ابروس والحضارة » « الانسان ذو البعد الواحد » « العقل والثورة » ( الماركسية السوفييتية ) .

والسلطة التي تمتص قوى المعارضة للنظام القائم ، أو تفند أى احتجاج ضده باسم التطلعات التاريخية للتحرر من الكدح والسيطرة . حتى الفكر يتم اخضاعه بحيث لا يعود مصدرا لنقد الحياة الاجتماعية » .

**ان ظروف العمل في المجتمع الصناعي الرعوى تميل الى جعل العامل سلبيا .** ذلك ان انسياب الانتاج في مصنع شبه أوتوماتيكي ودرجة المهارة العالية لدى العامل وزيادة نسبة المستخدمين كل ذلك من شأنه ان يقضى على أى شعور بمعارضة نظام العمل ، وهكذا تهيمن مؤسسات دولة الخدمات Welfare State على حياة الذين ينعمون بنعمها ومزاياها وذلك من خلال سيطرتها على مستوى معيشتهم ، لان زيادة الاستهلاك كفيلا كما يقول ماركوزه باضعاف حوافز تقرير المصير حرصا على التمسك بما هو متوفر لها من نعم الحياة الباطلة ولكن الخلابة .

الى تفسير قريب من هذا التفسير ذهب **أرنولد توينبي** في تفسير ثورة الشباب وازماته بأن التقدم الصناعي تسبب في « انعدام الذاتية الفردية وانسحاق الفرد في آلية الحياة الميكانيكية من جهة ، وفي آلية الحياة الاجتماعية من جهة أخرى . ذلك ان الفردية التنافسية المميزة للمجتمع الرأسمالي .. وتعاونية النمل أو النحل الشيوعية والقومية ذات الطبقة القبلية ... كل واحدة منها تمثل الاخرى وكلها تمثل التكنولوجيا في .. لا شخصيتها impersonality وان تنظيمها اجتماعيا ذا طبيعة لا شخصية يناقض جوهر الطبيعة الانسانية ، ولهذا فهو تنظيم مقدر على الطبيعة الانسانية ان تثور ضده . وعندما يستجاب احتجاج الطبيعة الانسانية المبرر تماما سواء بشكل صوري موروث أو بالصمت الخالص فان الكائن البشرى سيجد نفسه مسوقا الى استنتاج انه لا يحمل غير العنف المادى سيكون قادرا على جلب الانتباه له كإنسان وسط العلاقات اللاشخصية التي يجد نفسه فيها » . (٢٠)

على أن ماركوزه H. Marcuse يضع تأكيداً خاصاً على اثر النزعة الاستهلاكية الجديدة في مطامنة السلوك العقلاني للإنسان الحديث . والفرضية الاساسية هنا هي ان تكنولوجيا المجتمعات الصناعية الراقية قد جعلت في استطاع هذه المجتمعات ازالة التناقضات الخارجية وذلك من خلال امتصاص جميع أولئك الذين كانوا في ظل النظم الاجتماعية السابقة يشكلون اصواتا أو قوى رافضة ومنشقة . والتكنولوجيا تفعل ذلك جزئياً من خلال خلق الكفاية والوفرة المادية وهكذا يتحول التحرر من الحاجة المادية التي اعتبرها ماركس شرطاً مسبقاً للحريات الاخرى مدخلاً لتوليد عبوديات جديدة ، فمن خلال تلبية احتياجات الافراد المادية تزول أسباب الانشقاق والاحتجاج وينقلبون الى أدوات سلبية بيد النظام الاقتصادي القائم .

ولكن الا يبدو هذا تناقضاً ؟ ينفي ماركوزه التناقض بإشاراته الى انه عندما يتم اشباع حاجات الفرد الى السلع المادية على حساب احتياجه واحتياج الآخرين الى الحرية وغيرها

من القيم يفقد الانسان حرية اختيار مصيره . ويطلق ماركوزه على النوع الاول اسم الاحتياجات الباطلة ، وهو يضمن حكمه هذا ان الناس العاديين ليسوا هم الذين يقررون - في المدى البعيد - حاجاتهم الحقيقية . بمعنى ان الانماط الحياتية ترسم لهم من قبل الآخرين لانهم ليسوا احرارا في التفريق بين الباطل والحقيقي من الحاجات . وهكذا يكون للانماط الاستهلاكية في مجتمع الوفرة تأثير مزودج طبقا لتفسير ماركوزه . فهي اذ تلبى احتياجات الانسان المادية التي قد يقوده الحرمان منها الى الاحتجاج والثورة فانها تحمله من الناحية الاخرى على التكيف لفرائض الوضع القائم والتسليم بها . ذلك انه « اذا كان العامل ورئيسه يتمتعان بنفس البرامج التلفزيونية ويزوران نفس دور اللهو . واذا كانت الموظفة الضاربة على الآلة الطابعة تستطيع ان تتزين بنفس المستوى الذي تتزين به ابنة صاحب العمل الذي تعمل عنده . واذا كان الزنجي يستطيع امتلاك سيارة كاديلاك ، واذا كان هؤلاء جميعا يقرأون نفس الصحف ، اذا كان ذلك كله كذلك فانه لا يعنى بالضرورة زوال الطبقات ، بل هو يدل على بعد المدى الذي يذهب اليه المجردون من اسباب الهيمنة الاجتماعية جراء ركضهم وراء الحاجات الباطلة التي تخدم هدفا واحدا هو الحفاظ على الوضع الاجتماعي والاقتصادي القائم . ان تكيف المجردين من اسباب القوة الاجتماعية لقوالب الاستهلاك هذه يعزز وسائل الانتاج واسع النطاق mass production ولكنه لا يخلقه » .

لقد بنى ماركوزه نظريته في عبودية الانسان الجديد للحاجة المادية على فرضية أبعد عمقا في الحضارة المعاصرة ، اذ هو يرى ان هذه الحضارة قد فصلت فصلا يكاد يكون مأسويا بين العالمين الداخلي والخارجي للانسان . في هذه الحضارة ظاهرتان مركزيتان ، الاولى هي انتقالها من فترة اليقين والتوثق بصواب اخلاقياتها ابان ازدهار العهد البورجوازي الى فترة لاحقة اساسها الارتياب والرفض . ففي فترة اليقين نشأ تمييز جلي بين العالم العقلي والروحي من جهة ، والعالم المادي من جهة اخرى . العالم العقلي والروحي يفرض على الفرد متطلبات تتجاوز تلك التي يفرضها العالم المادي . ويفترض في الفرد في الاطار الاول ان يطور نفسه داخليا وفق تلك المتطلبات، ومثل هذا التطوير ممكن من دون حاجة الى اجراء تغيير في العالم المادي المحيط بالفرد .

هذا التصدع المتعالي يعتبر جزءا من طابع الثقافة البورجوازية . وكلما ازداد التصدع تعاظمت الحاجة للتعبير عن الذات بمفاهيم العالم الداخلي . وهنا يصبح مفهوم السعادة في صورتها الرومانتيكية مفهوم ذلك الجزء من الشخصية الذي يكافح لتحقيق رغباته التي خلقتها الضرورة من دون تعبير ولا انجاز . اما القطاعات غير الروحية فهي قطاعات الحياة المادية . ان الروح تنشأ جمالا مثاليا وسعادة مثالية غير ممكنة التحقيق . وعندما لا يتمكن البورجوازي من شيء غير الحفاظ على نظامه الاجتماعي والاقتصادي من خلال « تسييس » هذا النظام شيئا فشيئا واخضاع الفرد لمطالب هذا النظام ، عندئذ يكون حتما مهاجمة « العالم الداخلي » للفرد ؛ ذلك العالم الذي يستطيع فيه الفرد ان يحتفظ بقدر ضئيل من الحرية الخاصة المتحررة من المطالب

الخارجية للعالم البورجوازي . ولكن اذا كانت متطلبات العالم المادى الخارجى تقود بالضرورة الى الاعتداء على العالم الداخلى ، فان القيدالموضوع على الحرية يعنى نقضا للسعادة ، وهذه هى الظاهرة الثانية التى يفترضها ماركوزه سببافى ازمت الانسان المعاصر . **ان الحرية والسعادة - عند ماركوزه - ترتبطان ببعضهما ارتباطا شديدا ، والسعادة بوصفها « تحقيقا لجميع الطاقات الكامنة فى الفرد تفترض الحرية فى وجودها ، بل انها هى الحرية ذاتها »** . ولما كان الفلاسفة الاخلاقيون سواء منهم من عاش فى العالم القديم او فى العصر البورجوازي قد وعوا عجز الانسان امام محيطه الخارجى ، فقد رفضوا اى احتمال لقبول اية سعادة معتمدة على ظروف المحيط الخارجى ان تكون هدف الانسان . (٢١)

لقد قادت فكرة الحرية المحدودة فى العصرالبورجوازي وفى الأطر الثقافية البورجوازية الى فكرة أشد تزمنا ومحدودية عن السعادة ، ومن ههنا غدت فكرة المتعة فى المجتمع البورجوازي مرتبطة بحرية الفرد المقيدة بضرورات العمل ومقتضيات السوق الاستهلاكية . المتعة هنا تتقيد بفكرة الفراغ وهذا سبب تدنى قيمتهانسيبا ، وهذا التدنى يصدق على حرية الجنس بصورة خاصة . فقد كتب « سبينوزا » يقول عن المتع الحسية « اننا نستطيع ان نغمس فى الملذات على ان يكون ذلك الى الحد الضرورى للحفاظعلى صحتنا » . وكتب « فيشته » فى اتجاه مماثل يقول « انه لأمر مغاير للترف والانسانية الاصيلة ان تتحول طاقة الانسان عن انجاب النسل الى وسيلة للمتعة الحسية » (٢٢) . لقد كان الجنس من جهة نظر سبينوزا وفيشته موضوعا فى خدمة حاجات المجتمع البورجوازي النامى يومئذ . وعلى الرغم من ان الفصل بين المتعة وانجاب الاطفال امر واضح فان الانجاب المتزايد يقدم للدولة البورجوازية ماتحتاج اليه من العمال والجنود فى وقت معا . او على الاقل هذا ما يذهب اليه علماء الاجتماع الاشتراكيون مثل الاستاذ الكساندر سينالاي الذى ينظر الى هذه الازدواجية او الانشطارية على انها نتيجة طبيعية للازدواج فى الاسس الاقتصادية للمجتمع البورجوازي ، اى فى ملكية وسائل الانتاج بين اولئك الذين يعملون ولا يملكون . . . وأولئك الذين يملكون ولا يعملون . يقول سينالاي مدلا على رايه « . . . خذ مثلا على ذلك الازدواج الخلقى للمجتمع البورجوازي الذى يسهم كثيرا فى زيادة التوترات الخطيرة ذات الثمن الباهظ وفى زيادة الحساسية الفردية والخوف وحالات المرض العقلى . فمن السهل جدا تحت هذه الظروف ان يكون الشخص رب عائلة طيبا ، او ان يكون عدوا من أعداء تعذيب الحيوان ، ولكنه فى الوقت نفسه يستسيغ استغلال عماله بلا خجل او ان يهدم

( ٢١ ) للتوسع فى نظرية ماركوزه عن انماط السيطرة الجديدة راجع كتابه

One dimensional Man, Sphere Books, London, 1972.

خصوصا ص ١٦ - ص ٢٨ .

Russell, B., History of Western Philosophy, p. 557, Unwin University Book 1969.

( ٢٢ )

حياة عوائل الآخرين من منافسيه او ان يقوم بترويج الدعاية للحرب . ازدواج الخلقى هو التفسير . ان عبارات مثل .. « التجارة تجارة » .. او .. « حسنا تلك قضية سياسية » .. هذه العبارات وأمثالها تكشف عن وجهة نظر مخيبة وداعية للقنوط . ان التهديم القاسي لحياة الناس ، السلوك الذى لا يرتضيه الانسان الشهم ممكن الوقوع جدا فى الدوائر التجارية وفى الحياة السياسية . ازدواج الخلقى مرة أخرى . هل هذه حقا قضية اخلاقية محض ؟ على العكس تماما ففى المجتمع الذى تنقسم فيه العملية الانتاجية بين العاملين والمالكين ، ويميز فيه بين العمل والعامل لا يستغرب ابدا ان يكون الازدواج الخلقى انعكاسا للازدواج فى الاوضاع المادية » (٢٢)

• • •

### اللوحة الثامن

#### المخرج

القول بانفصال الشباب عن العالم لا ينبغي ان يؤخذ على إطلاقه . لأن العالم الذى انفصل عنه الشباب ليس عالم الانسان نفسه وانما هو عالم القيم الباطلة التى تحدت الى هذا الجيل تركه « ثقيلة » وميراثا قبيحا من رواسب الماضى البشرى الثقيل بالظلم والاستغلال والازدواجيات الاخلاقية التى افرزتها عصور التخلف والاعتبارات الطبقيّة الاستغلالية التى زينها فى عيون التقدمين على هذا الجيل الجهل والحرمان والاسر الاجتماعى . فهو اذن لم يكن انفصالا بقدر ما كان رفضا . وقد وعى هذه الحقيقة اكثر الباحثين فى ازمت هذه الاجيال الرافضة واعتبروا مسؤوليتهم الاخلاقية نحوها هى فى التعمق فى تحليل هذه الازمت وتشخيص مسببات الرفض ، وعدوا ذلك وفاء منهم ببعض ما لهذه الاجيال عليهم .. ، هذه الاجيال التى استطاعت لأول مرة - ربما - فى تاريخ الانسان ان تمتلك الوعى والدكاء والشجاعة لكى تختار حياتها الخاصة وقد كان جين بول سارتر اول من حاول تنبيه المجتمع الانسانى المعاصر الى ما فى حركة الرفض الشاب من اخلاقيات صميمية تستحق لا الدراسة والفهم وحسب وانما هى تستحق الاحترام كذلك . ففى مقابلة صحفية أجرتها معه مجلة الـ « نوفيل او بزورفاتور » فى ١١/٤/١٩٦٨ واذاعتها اذاعة اللوكسمبورج قال سارتر معقبا على ثورة الطلبة الفرنسيين : -

« .. ان العنف هو الوسيلة الوحيدة الباقية امام الطلاب الذين لم يتحولوا بعد الى شريحة من النظام الاجتماعى الذى اقامه آباؤهم للاحتجاج على هذا النظام . ففى مجتمعاتنا الغربية المترهلة صار الطلاب قوة النضال اليسارية الوحيدة . وما العنف اليسارى نفسه الا ردا على العنف الدائم الذى يمارسه المجتمع الرأسمالى ضد كل افراده . واذا ما حكمنا - بناء على اكثر التقارير الصحفية حيادا - نجد ان شرطة القمع الفرنسية تصرفت بشكل غريب من الوحشية عند محاولة احتواء ثورة الطلبة فى مايو ١٩٦٨ . ولم يكن ذلك العنف الا نموذجا لما يمكن ان تكون عليه الحرب الطبقيّة فى فرنسا من عنف وفظاعة ... » .



وفي نفس الوقت تقريباً نشر ماركوزه دراسته عما أسماه بـ « التسامح القمعي » في المجتمعات الغربية ، وفي تلك الدراسة كشف عن إعجابه بالطابع الجمالي للحركات الطلابية التي أسماها « لغة الروح » ووجد فيها « موقفاً جديداً معقولاً مفترقاً عن مفهوم وثقافة السوق » .

والى نتيجة مشابهة توصل الاستاذ لويس فيور Lewis Feuer في كتابه الموسوم « صراع الأجيال Conflict of Generations » عام ١٩٦٩ . فقد تبين للاستاذ فيور من خلال سلسلة الدراسات التي نظمها حول تمرد الطلبة « أن هناك ميلاً ثابتاً في سلوك الشباب الى الرغبة في تحطيم هيمنة الآباء على الأبناء والتحرر منها ، وذلك من خلال الثورة على القيم الثقافية القائمة على التسليم بهذه الهيمنة اخلاقياً وفعلياً . وهم حينما يقومون بالثورة على الوضع الاجتماعي القائم ، وعندما يحاولون تحطيم قيمه ومؤسساته فكأنهم يقولون لأنفسهم ... حسناً . هذه كلها من صنع آبائنا واجدادنا وهى قيودهم التي يسكوننا بها ويفرضون ارادتهم من خلالها علينا . . ونحن لا نستطيع ان نتحداهم أو نثور عليهم مباشرة ، ولا ان نفلت من قبضتهم عنوة فلا أقل من أن نحطم ما بنوه من قيم ومؤسسات ، ونسفه ما التزموا به من مثل وانماط في العيش وبهذا لن نبقى لهم شيئاً يسيطرون به علينا . » (٢٤)

حتى الجامعات العريقة في تقاليد التحرر العقلي لم تجد في حركات الرفض الطلابية « نذيراً » بمرحلة انهيار جامعي في العالم . وانما وجدت فيها شيئاً يستحق الدرس والفهم . بمعنى آخر هى وجدت في هذه الحركات باباً من أبواب الحقيقة . الجامعة التي لا تبخل بالاموال وطاقت العلماء توفرها للدراسة الاميبا . او الدودة الصغيرة ليست اكثر مسؤولية نحو دراسة الانسان وفهم مشاكله . لقد جاءت ثورة الطلاب مقترفة بفراغ الجامعة من الظفر بالاعتراف لها بحقها المطلق في طلب الحقيقة المادية مع بقاء الحقيقة الاجتماعية معلقة غير محسوسة . واذا كان للبشرية اجوبة حاسمة حول اسباب مرض السل وعلاجه مثلاً فهى لا تملك مثل هذا الجواب عن قضايا الظلم والعدل ، والحرب والسلام والفقر والغنى ، الانتاج والتوزيع ، التمييز والمساواة . ان هذا كله جزء من الحقيقة التي التزمت الجامعة بالبحث عنها وفيها ، ولن يقلل من قيمته ان الطلاب هم الذين يشرونه . ولن يقلل من قيمته ان الطلاب قد يخطئون الوسيلة الى انارته . ان اخطاءهم لا تهون ولا تستطيع ان تهون من حقيقة ان الحرب على الحرب في فيتنام بدأت في حرم الجامعات الامريكية ، وان الزكاة لها كان الدم المطلوب في كلية ولاية كنت Kent State College . لقد كان اول من اخترق الجدار المضروب بين الشعبين الصيني والامريكي فرق من طلبة الجامعات الامريكية من لاعبي كرة المنضدة . كما أن اقوى الاصوات المرتفعة ضد التمييز العنصرى في الغرب هو صوت الطلاب سودا كانوا ام بيضا . وعلى الرغم مما اتهمت به الحركة الطلابية العالمية من طغيان النزعة اللاعقلية Anti Intellectualism عليها فان سلوك الطلاب عموماً يتميز باهتمامات اخلاقية من نوع معين ، اهتمامات اخلاقية تقوم على رفض التاريخ الذى لم تجد فيه دليلاً أميناً

الى حل المشاكل التي ترتطم بها ، بل ولعلها تعتبره مسؤولا عنها . ان الاهتمامات الاخلاقية عند الشباب الجامعي المعاصر هي من دون أدنى ريب خير مطلق . وعلى الرغم مما يراه منتقسو هذه الحركات الطلابية فان هذا الانشغال الاخلاقي بقضايا الحرب والسلام ، التمييز والمساواة ، الفقر والفنى ، الحرمان والبلدخ ، الجهل والتعليم هو خير من اللامبالاة بها التي ربما كانت البديل المحتمل لهذا الانشغال الاخلاقي . كما ان انشغال الشباب الجامعيين بخفايا الاوضاع السياسية يفضل - يقينا - استغراقهم بالازياء والالعاب الرياضية واللذائذ الاخرى . وعلى الرغم مما تنهم به الحركة الطلابية المعاصرة من تميز بشعور عظيم بالمباشر immediacy ، المباشرة الزمانية على وجه التحديد وأن اهتمامهم لا يتجاوز الحاضر المباشر ، ولذا فان التاريخ لا يحمل لهم حكمة معينة تمكنهم من رؤية الحاضر في اطار واسع من العلاقات ذات المعنى بالنسبة لهذا الحاضر ، على الرغم من هذا فان الحركة الطلابية لم تغفل العوامل التاريخية التي قادت الى قيام الحاضر المرفوض . حتى لو كانت هذه التهمة صحيحة - وهي قد تصح - فان المؤسسات التعليمية التي تولت تربية هؤلاء تحمل مسؤولية هذا التقصير ، فلو كانت قد عمقت من رؤيتهم في حركة التاريخ لما ابتلوا بهذه المباشرة في الرؤية الاجتماعية (٢٥) .

ان الاشارة الى تقصير المؤسسات التربوية في تعميق الرؤية الاجتماعية عند الشباب تقود بالضرورة الى الدور السلبي الذي لعبته هذه المؤسسات في تربية الناشئة اجتماعيا . ذلك ان المدرسة كانت في الغالب اداة بيد المهيمنين اجتماعيا يستعملونها لتثبيت الاوضاع التي تعوز مصالحهم وامتيازاتهم ، ولذا فان ثورة الطلبة تعني في بعض مآثرها الثورة على المؤسسة التربوية نفسها التي أحسوا - حين صدمهم الواقع - وكأنها قد خدعتهم عن انفسهم وعن هذا الواقع في وقت معا . لقد اكتشف الفرنسيون مثلا ان سبباً رئيسياً من أسباب هزيمتهم في الحرب العالمية كان وضع التربية الفرنسية في أهداف الطبقة الاجتماعية الفرنسية ، « ان الهزيمة والظلم ما كانا ليحلا بالامة الفرنسية لولا ضعف الايمان واخطاء وخيانة الفئات المسيطرة في البحر والجيش .. في السياسة والاقتصاد .. وفي الصناعة والتجارة .. اولئك الذين كانت دعواهم انهم خريجو أحسن معاهدنا العلمية وقمة نظامنا التربوي .. اولئك الذين كان جنبهم فاضحا جدا .. » (٢٦)

واذا كان « تقرير الجزائر » اشارة عابرة « الى دور التربية الفرنسية في الهزيمة القومية فان « تقرير لجنة لانجفان Langevin » ( ١٩٤٧ ) كان أكثر صراحة في تحميل التربية الفرنسية كفلا كبيرا من مسؤولية الهزيمة القومية لأنها وضعت نفسها في خدمات الاحتياجات الثقافية للطبقة البورجوازية واهدافها وقيمها الفكرية على حساب احتياجات الاكثرية المطلقة من الشعب الفرنسي ، فانطبعت بالاحتكارية من جهة ، وبالتخلف الفكري والتقني من جهة أخرى ، حتى اذا جاءت الحرب لم تكن جماهير الشعب معبأة تعبئة كافية لمواجهة الغزو النازي . وليست التربية الفرنسية في ظروف ما قبل الحرب الكونية الثانية وما اخفاها الا مثلاً نموذجاً للتربية

( ٢٥ ) من محاضرة الدكتور محمد جواد رضا بعنوان « الجامعة في مركز العصر » القيت في جامعة الكويت مساء ١٩٧١/١٢/٥ .

( ٢٦ ) تقرير الجزائر ، الصادر عن « اللجنة التربوية لاصلاح التعليم » ١٩٤٤ .

عندما لا تكون في خدمة الاكثريّة الصامتة من إبناء الشعوب ، من هنا جاء انفصال الشباب عن العالم ، الذي صنّعه لهم وفرضه عليهم النظم الاجتماعيّة المحتضرة وأدواتها التربويّة . ومن هنا أيضا جاء رحيلهم الى الأعماق .. أعماقهم هم .. ضمائرهم وعوالمهم الداخليّة التي تنبّهوا الى وجوب حمايتها من العدوان الخارجى عليها كما صورّه ماركوزه . وإذا كان الانفصال عن العالم يعنى رفض نظام قيمى عقيم ، فإن الرحيل الى الأعماق لم يكن هو الآخر محض هرب من قيم مرفوضة وحسب ، وإنما كان جهدا إيجابيا موظفا في البحث عن نظام قيمى بديل ملائم لومى الانسان الجديد ، لنفسه وقيّمته المكتشفة ، على انه رأس المال الحقيقي في هذا الكون ، أو انه هو القيمة الواقعيّة العليا على هذه الأرض .



### اللوّح التاسع

#### التربية العربيّة المعاصرة وتطلّعات الشباب العربيّ

لا تختلف تطلّعات الشباب العربيّ في هذه المرحلة من تاريخ الامة العربيّة عن تطلّعات اترابهم وازماتهم في أنحاء العالم الأخرى ، اللهم الا في اهمال ابلاء هذه التطلّعات والازمات ما هي اهل له من عناية السلوكيين العرب ، وهم - أى الشباب - ما يزالون قارة عذراء لم ينزل على شواطئها مستكشف حتى الآن ، واقيانوس لم يحاول أحد سبر اغواره ولا دراسة عواصفه واعاصيره الا نادرا ، (٢٧) ولذا فان احتمالات اتهامه بالمرور من العرف أو الدين أو التقاليد هي اسهل ما تجابه تطلّعاته به وهى أغلب ما تقابل معاناته به أيضا . من يدري ؟ فربما كان الاحساس الطبقي لدى بعض الاكاديميين العرب ازاء الشبيبة العربيّة مسؤولا عن هذه الغربة الضاربة بينهم وبين من يفترض أنهم يتحملون مسؤوليّة تربيتهم وقيادتهم الروحيّة والاخلاقيّة .

يضاف من تعقيد هذا الموقف المعقد ان المؤسسات التربويّة العربيّة - مدرسة كانت أم جامعة - ما تزال أداة مطوّعا في يد القوى المهيمنة في المجتمعات العربيّة ، وهي في الغالب قوى محافظة على قدر ما تكون المحافظة درعا ودريئة لامتيازاتها الاجتماعيّة ، وهى مهياة لقبول التّقدم والتطور اذا ما اطمأنت الى أن التّقدم والتطور لن يضرّا تلك الامتيازات بشيء ، وهى تستعمل المؤسسة التربويّة لخدمة هذا الوضع استعمالا واقعيّا وذكيا ولكن من دون أن تحسب حسابا لافرازاته المستقبليّة غير القابلة للتنبؤ .

لقد فرض هذا الوضع على المؤسسة التربويّة العربيّة المعاصرة واجبا ازدواجيا على درجة عالية من التناقض والتعقيد . ففي الوقت الذي يطالب فيه المجتمع مؤسساته التربويّة ان تحفظ له موارثه الثقافيّة وقيمه المنحدرة اليه من ماضيه والتي يعتبرها هويته الخاصّة ، والاجوبة الجيدة والصحيحة على كل المشاكل التي تواجهه ، في هذا الوقت بالذات هو يطالب

( ٢٧ ) راجع كتاب ( فلسفة التربية وأثرها في تفكير معلّم المستقبل - دراسة تجريبية ) جامعة الكويت ، ١٩٧٢ .

هذه المؤسسات التربوية أن تيسر له سبل التقدم من مواقعه التاريخية الموروثة ، وان تعينه على قبول العصر الذى يعيش فيه ومن تقبل روحه العلمانية على وجه التخصيص . بعبارة أخرى انه يريد من مؤسساته التربوية ان تكون ادوات محافظة وتبديل في وقت واحد ، وهذا مالا تستطيع مؤسسة اجتماعية الوفاء به ما لم تكن مؤسسة منافقة استرضائية .

لقد كتب هذا الدور الازدواجي على التربية العربية المعاصرة ان تسقط في حلقة مفرغة ينظر فيها الى الطلاب على أنهم - مادة - تربوية من حق النظم التعليمية أن تصوغهم على هواها وحسب اجتهادها ، ومن واجبهم ان يتكيفوا - للقوالب المعدة لصيغهم فيها . فيما وراء المنهج والكتاب كان الطلاب كما مهملا . لقد ضرب هذا الموقف العقلي بين الطلاب وبين نظمهم التعليمية اكثر من سد ، ودفعهم الى التماس التعبير عن أنفسهم في الحركات الاجتماعية خارج معاهد العلم ، ولم تعد المدارس ولا الجامعات عندهم الا اماكن تلتبس فيها الشهادة . ولقد كان لهذا معنى واحد هو ان مؤسساتنا التربوية فقدت القدرة على القيادة الاخلاقية لروادها ... (٢٨) .

لقد حمل هذا التنازل معه المبرر الاخلاقي للشباب العربي لأخذ مهمة صناعة مستقبلية في يديه ، والبحث عن أو الكفاح من أجل دور متميزه في هذه المرحلة الحرجة من تاريخ امته مع كل ما يصاحب ذلك أو يستتبعه من تهم المروق او الزندقة الاجتماعية .

لقد كان من واجب الاكاديميين العرب ، والسلوكيين منهم بوجه خاص ، ان يوجهوا فكرهم وبحثهم العلمى الى دراسة هذا القدر الجديد الذى كتب على الشباب العربي ، غير ان شيئاً جوهرياً لم يحدث في هذا الصدد ، وظلت ادبيات الحركة الطلابية العربية مهمة اهمالاً تاماً رغم ما فيها من صدق العفوية و سطوع البراءة ووضوح الالتزام الوطني والقومي . اننا نشك كثيراً ان تكون هذه الادبيات قد حظيت بشيء من القراءة الناقدة أصلاً .

احب ان أقف هنا عند نماذج مختارة من ادبيات الحركة الطلابية العربية ، وان احاول النفاذ من خلالها الى بعض تطلعات شبابنا ، وان اوجه عناية السلوكيين والاجتماعيين وعلماء السياسة والاقتصاد العرب الى ما فيها من محتوى انساني وقومي غني من جهة ، والى ضرورة تكريس اهتمام حقيقي بهذه الظاهرة الاجتماعية العربية الجديدة التى لن ينفعنا في شيء ان ندير لها ظهورنا ونكتفي بالنظر اليها من عل على أنها لون من المحاولات الطلابية القاصرة ، فقد نكتشف في وقت متأخر جدا ان القصود كان حيث كنا نظن الكمال ونفترضه .

١ - جاء في نشرة معنونة « دراسات » صادرة عن المكتب الطلابي القومي في بغداد ما يلي :

« ان الفكر البورجوازي الذى تسيره الدوائر الامبريالية لتحقيق مصالحها يؤكد على مفهوم العلم للعلم ويدفع بالكثير من العلماء لان يعتبروا الوصول الى انجاز اختراعاتهم هدفاً بحد ذاته . ان مهمة الانجاز العلمي هي هدف العالم ، اما استعمال هذا الانجاز في أى مجال فهو من

اختصاصات السلطة البوجوازية وحدها . وهكذا تصبح غاية الفني والمهندس والعالم وسيلة للنظام، وبالطريقة نفسها يخدر الفكر البورجوازي ضمير العالم بالتفسيرات الذاتية والشروح الفردية . فعندما تصبح الحرية الفردية لا حدود لها على شرط ان لا تصطدم بالمصالح البورجوازية ، وعندما يسمح المجتمع البورجوازي للأفراد أن يتحركوا ضمن اختصاصاتهم الفردية على شرط أن يتركوا أمر استعمال انجازاتهم في يد السلطة يحدث دائما ان يستعمل العلم وانجازاته في كثير من الاحيان كسلاح لتهديد الانسانية ... » .

٢ - جاء في كلمة « الاتحاد الوطني العام لطلبة اليمن » التي القيت في « الندوة الطلابية العالمية المنعقدة في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية من ٢٣ - ٢٧ مارس ١٩٧٤ ما يلي :

اننا كاتحاد وطني عام لطلبة اليمن ، كحركة طلابية يمنية ديمقراطية وتقدمية نؤمن بان نضالات الطلبة من أجل ديمقراطية التعليم يجب ان ترتبط بنضالات اوسع الجماهير الشعبية والكادحة في بلادهم من اجل التحولات الاجتماعية والاقتصادية التقدمية ، من اجل التحرر الوطني والتقدم الاجتماعي لتحقيق غد الاشتراكية الخالي من استغلال الانسان لاخته الانسان . وما لم ترتبط نضالات الطلاب من أجل تعليم ديمقراطي بنضالات اوسع الجماهير الشعبية الكادحة من أجل صنع غدها الانساني المتطور والمزدهر فان الفشل الدريع سيكون حليفها دوماً وابداً ، وستصطدم في النهاية بصخرة الواقع التي لا ترحم .. ولن تستطيع الاحلام والاماني ان تتجاوز تعقيدات الواقع وتكيفها ... » .

٣ - جاء في التقرير العام الذي قدمه « الاتحاد الوطني العام لطلبة اليمن » عن الاوضاع التربوية في اليمن في الندوة المذكورة ما يلي :

« تحتل المناهج أهمية خاصة فائقة في العملية التعليمية . فمن خلالها يتحدد محتوى التعليم العام . ان التطور التعليمي في أي بلد كان لا يقاس بتوسعة الكمي فحسب ، ذلك ان الهدف ليس عدد من يتخرجون من مؤسسات التعليم وانما المسألة المركزية هي نوعية هؤلاء . لقد عانت بلادنا من المناهج الدراسية الاستعمارية التي كانت تهدف الى خلق جيل يمني مغترب عن وطنه . لذا فقد احتلت مسألة تغيير المناهج الدراسية اهتمام الثورة في بلادنا منذ الايام الاولى لاستلام السلطة . وكانت أولى المحاولات لتغييرها هي استبدال المناهج القديمة الاستعمارية بالمناهج المصرية والعراقية وبعض مناهج الدول العربية الوطنية الاخرى . كما بدلت محاولات في ١٩٦٩ من وزارة التربية والتعليم لايجاد منهج وطني . الا ان تلك المحاولة لم تكن لتخرج عن اطار الباس انواب يمنية على مناهج الدول العربية الشقيقة » .

بعد ذلك يحاول الاتحاد ان يطرح تصور من المساق الذي يجب ان تسير فيه التربية اليمنية الديمقراطية الشعبية في رسم لها الاهداف التالية :

١ - ان تحقق المناهج ربطا بين العلوم الانسانية والطبيعية وافكار الطبقة العاملة ، اي استخدام المنهج الجدلي في تفسير الظواهر الطبيعية والاجتماعية .

٢٠ - ان تحقق المناهج بناء جيل يبنى متزود بمعارف عن تطور وطنه وشمولية تاريخه ، فعلى المناهج الجديدة ان تركز على ما يتعلق بالوطن اليمني سواء في تاريخه أو جغرافيته أو ثرواته الطبيعية ، وكذا علاقة تلك بالدول المختلفة في العالم .

٣ - على ان يركز محتوى المناهج عند معالجتها للدراسات اليمنية على الجوانب التقدمية . ففي التاريخ مثلاً ينبغي التأكيد على دور الشعب في صنع التاريخ مفايرة لمناهجنا القديمة المرتكزة على اساس دور الافراد في صنع التاريخ . وفي دراسة الجغرافيا ينبغي التركيز على قدرة الشعب بفضل نظامه التقدمي على استغلال الثروات الوطنية . وفي جانب الادب اليمني ينبغي التركيز على الجانب التقدمي في تطور الادب اليمني .

٤ - تحقيقاً لمبدأ ربط المدرسة بالمجتمع والنظرية بالتطبيق فان المناهج الجديدة ستحتوي منهاجاً للبوليتيكنيك .. » .

هذه نماذج قليلة من ادبيات الحركة الطلابية العربية الشابة . وهى ولا ريب تنضج بالثألية والقطعية والنهائية في الاحكام مما قد لا يتفق حتى مع المنطق الجدلى في تفسير حركة التاريخ . وهى قد تكون بصورة من الصور ممثلة لمجمل هذه الحركة . وليس هناك من يدعو الى تقبل مقولاتها تقبلاً عفويًا ولا الى شرائها من باعها المتحمسين . في تقديرنا ان هذا ربما أضر بالحركة أصلاً . ولكن الشيء الخطير هو ان تترك هذه الحركة من دون حفول بها ، ومن دون دراستها دراسة منهجية ، ومن دون تحليل متواصل لتطلعاتها ومقولاتها . وهناك خطر أكبر في اشعارها بانها لا تعنى شيئاً للحلقات الاكاديمية العربية ، وأيسر ما سينجم عن هذا الاغفال أو التغافل هو جهل الحركة والاعترا ب من مفاهيمها الاساسية . ومن هنا تأتي القيمة التي لا تحتل المبالغة لتكريس اهتمام فعلى بافرا زات هذه الحركة فكرياً وسلوكياً وجرها الى دائرة الجذب الاكاديمية المتزمنة بمنطق البحث العلمى وتقويمها تقويماً موضوعياً . فلقد يتاح لنا أن نذكر ان ندعى اننا قد وفينا لورثتنا في الغد القريب أو البعيد بعض ما كان لهم في ذمنا من دين ، واننا استطعنا ان نزيد من وضوح الرؤية امامهم ، وان نقلل من احتمالات سقوطهم في الاجتهادات البتراء .

### مراجع البحث

#### أولا - في اللغة العربية

- ١ - محمد جواد رضا - فلسفة التربية وأثرها في تفكير معلمي المستقبل ، جامعة الكويت ، ١٩٧٢ .
- ٢ - محمد جواد رضا - الجامعة في مركز الانعصار ، محاضرة أقيمت في جامعة الكويت بتاريخ ١٩٧١/١٢/٥ .
- ٣ - اللجنة التربوية الفرنسية لاصلاح التعليم - تقرير الجزائر - ١٩٤٤ .

#### ثانيا - في اللغة الإنجليزية

1. Arnold, W., *Counselling Activities in Modern Society*, Proceedings, IRT Conferenec, Würzburg, 1976.
2. Beckett, S., Murphy, 1938.
3. Cantril, H., *Tensions that Cause Wars*, University of Illinois Press, Chicago, 1950.
4. Davy, B. W., *The Source and Prevention of Mental Ill Health in University Students*. Proceedings of the Royal Society of Medicine, England, April 22, 1960.
5. Ducasse, C. J., *Art, The Critics and you*, Oscar Priest, New York, 1944.
6. English Pearson, *Emotional Problems of Living*, Norton Company, 1960.
7. Feuer, L., *Conflict of Generations*, Basic Books, New York, 1971.
8. Fraser, M., *Children in Conflict*, Penguin Books, London, 1974.
9. Malleson, N. B., *A Handbook of British Student Health Services*, London, Pitman, 1966.
10. Marcuse, H., *One Dimensional Man*, Sphere Books, London, 1972.
11. Miller & Miller, *Student Problems, Remedies and Satisfactions*, British Psychiatry, September 1973.
12. Parker, D. H., *Human Values*, Harper & Brothers, New York, 1944.
13. Perry, R. B., *General Theory of Value*, Longman's Green and Company, New York, 1926.
14. Ryle, A., *Student Casualties*, Pelican Books, 1970, London.
15. Rusell, B., *History of Western Philosophy*, Unwin University Press, 1969.
16. Sinclair, F., *Belfast Telegraph*. Sept. 16, 1971.
17. Toynbee A., *Experiences*, Oxford University Press, 1969.
18. Wright, Wm. K., *History of Modern Philosophy*, Macmillan Book Company, New York, 1965.

عبد الرحمن عيسوي \*

## النمو الروحي والخلقي والتنشئة الاجتماعية في مرحلتى الطفولة والمراهقة

في بحثنا في النمو الروحي وعملية التنشئة الاجتماعية في مرحلة الطفولة ينبغي ان نؤكد ان الدين لا تقتصر آثاره ووظائفه على مرحلة واحدة من مراحل العمر ، وانما يشمل اثره كافة مراحل النمو الانساني ، وان كان هذا التأثير يختلف من مرحلة الى اخرى .

وعلى الرغم من ان القيم الدينية والسلوك الدينى يؤثران بصورة او بأخرى في كل جوانب حياة الفرد الا ان تأثيرهما اكبر في حياة الفرد الانفعالية The Individual's Emotional Life وللدین أهمية كبرى في مرحلتى الطفولة والمراهقة حيث يمر الطفل بمرحلة تكوين الشخصية وصلها وحيث تلعب العوامل الانفعالية دورا هاما في حياته .

---

(\*) استاذ علم النفس المساعد بجامعة الاسكندرية وجامعة بيروت العربية .



والمعروف ان مرحلة المراهقة ، كما يزعم بعض علماء النفس ، مرحلة شك ونسب rejection للقيم والمعايير الدينية التي سبق ان تلقاها الطفل عن الكبار ، وقبلها عن طيب خاطر .

وعندما يصل الطفل الى درجة من النضج العقلي تسمح له باعادة النظر في هذه القيم والمعايير فانه يتناولها بالنقد والفحص والتحصيل ، وتنتهي عملية النقد هذه اما بقبول هذه القيم او رفضها او تعديلها .

ومن الاهمية بمكان ان تجرى الدراسات والبحوث التي تكشف عن الآثار التي يتركها قبول الدين او نبذه على صحة الطفل النفسية وثباته الانفعالي ، بعبارة اخرى هل يضيف الدين الى التكيف او الى سوء التكيف النفسي ، هل يسهم الدين في تحقيق الصحة النفسية والثبات الانفعالي ام يؤدي الى مزيد من الشعور بالذنب والى تنمية ضمير حاد وخاز يؤنب صاحبه ويلومه على كل كبيرة وصغيرة ؟

#### تفسير ظاهرة التدين في الطفولة والمراهقة

وفي تفسيرنا لظاهرة التدين نستعرض آراء كل من ف . مري و ر . مري F. Merry and R. Merry حيث يفترضان ان ظاهرة التدين ظاهرة غريزية بمعنى وجود غريزة دينية لدى الفرد (\*) a religious instinct . فتبعا لهذه النظرية يعتبر الطفل طبيعيا متدينا ، واذا اعطى الفرص المناسبة فانه يكون المفاهيم الدينية اللائمة ذات المعنى والدلالة . ويعتقدان ان الطفل منذ سن مبكرة يعي بطريقة غريزية وجود قوة عليا يلجأ اليها للحماية ، ولديه تجاهها اتجاه غريزي فطري نحو الاحترام والعبادة (١) .

ويتعارض هذا الرأي مع رأي آخر يزعم ان الطفل شرير بطبعه او بالفطرة ، لانه ورث الخطيئة الاصلية التي ارتكبها آدم في جنة عدن . ولذا كان لابد من ان نستخدم أكثر الاساليب صرامة في تاديب الطفل وقمع هذه الطبيعة الشريرة وجذبه الى حظيرة الدين والصواب . ولكن كثيرا من علماء الدين المحدثين يرفضون الزعم بأن طبيعة الطفل طبيعة شريرة بالوراثة ويعتقدون ان الاطفال يولدون وهم لا طيبون ولا شرار ، ولكن يولدون باستعدادات او امكانيات عامة هي التي يوجهها المجتمع فيما بعد اما الى القنوات الصالحة او الشريرة .

ويؤيد سكنر C. Skinner هذا الرأي بالقول بأن الكائن البشري يولد بحالة حيادية حيال الدين . فالرضيع مثلا ليس متدينا ولا هو ضد الدين بل انه يمتلك الاستعدادات Potentialities للتكيف ، والتي تجعل النمو ممكنا نحو التدين او نحو معارضة الدين .

(\*) لم يعد يستخدم اصطلاح الغريزة في علم النفس واصبحت هناك اصطلاحات اخرى كالدافع والباطن والحافز وكلها تعبرينات لغوية عقلية للدلالة على بعض انماط السلوك علما بان السلوك وحده هو الذي تلاحظه .

(١) Merry, F. and Merry, R., The First two decades of life, Harpers and Brothers, N.Y. 1950. P. 482.

متى يبدأ الشعور الديني لدى الطفل ؟

وإذا ما تساءلنا عن السن التي يبدأ فيها الطفل في الشعور بالخبرة الدينية فإننا لا نجد (٢) اتفاقاً كاملاً بين الباحثين حول هذه السن، فمنهم من يرى بعض المظاهر الدينية في سلوك الأطفال الصغار ، ومنهم من يرى أن الطفل لا يقوى على إدراك المفاهيم الدينية إلا بعد الوصول إلى مرحلة متقدمة من النضج العقلي .

فطبقاً لرأى **الـج F. Ilg** يستطيع الطفل التمييز بين الصواب والخطأ ، وبين الردىء والحسن في سن السابعة ، أما فيما قبل سن الرابعة فهو غير قادر على فهم الآراء الدينية ، وعندما يبلغ الطفل سن الأربع سنوات يبدأ في توجيه مثل هذه الاسئلة ذات الطابع الديني والفلسفي :

- ١ - من الذى صنعك ؟
- ٢ - من الذى صنع هذه الاشجار ؟
- ٣ - من هو الله ؟
- ٤ - ما الذى يشبهه ؟
- ٥ - هل الله رجل طيب ظريف ؟
- ٦ - هل هو يحب الحلوى ؟
- ٧ - هل يشبه الله ابي ؟
- ٨ - اين يقيم الله ؟
- ٩ - وهل يرانا الآن ؟
- ١٠ - هل يرتدى جلباباً فضفاضاً ؟

ولذلك فلا عجب أن نجد طفلة صغيرة (سن أربع سنوات ) كانت تسير في يوم مطير وكانت تمشي مع أمها فنظرت الى أعلى السماء وقالت : ( شكراً لك يا الهى لجعل الطريق جافاً في بعض الأماكن أنك ترى اننى ارتدى حذاءي الجديد) (٣)

وخلافاً لهذا الرأي يذهب **فالتين Valentine** الى القول أن الطفل لا يستطيع أن يدرك معانى المصطلحات **The abstract terms** كمعنى الشفقة والله والعدالة والاحسان ... الخ ، قبل سن الثالثة أو الرابعة عشرة . (٤)

(٢) Skinner, C., Child Psychology, the Macmillan Co. N.Y. 1949, P. 276.

(٣) Ilg, F., Child Behaviour, Hamish Hamilton, London, 1955, P. 292-303.

(٤) Valentine, C., The Normal child and some of his abnormalities, A Pelican Book, 1962 P. 271—275.

ومهما يكن فإن الاطفال ولاشك لديهم بعض الافكار الدينية التى توصف بأنها افكار مشخصة ومجسدة وشخصية وحسية .

ومنذ وقت مبكر ( ١٨٨٠ ) طلب ستانلى هول G. Stanely Hall من مجموعة من الاطفال الصغار أن يصفوا تصوراتهم عن الله ، وفيما يلى بعضا من استجاباتهم ؟

( الله رجل كبير ربما لونه أزرق يرى غالباجدا فى السماء أو فى السحب أو فى الكنيسة بل حتى فى الشارع . انه يصبع اللبسات والاطفال والكلاب والاشجار والنقود .. الخ ، ويعمل الملائكة لحسابه ... الخ .

وعندما يموت الناس انهم فقط يذهبون أو يوضعون فى حجر أو فى صندوق أو فى عربة نقل سوداء ، ويذهبون الى الجنة أو يصعدون الى السماء أو يفرقون أو يعلقون فى السماء حيث يمسك الله بهم ... وعندما يذهب الاطفال الى الجنة تقدم لهم الحلوى والبنادق واللعب وكل ما يوجد فى محلات لعب الاطفال ، والكتب المصورة وأوراق اللعب ، وتقدم لهم الملابس الانيقة والساعات الذهبية والمثلجات ، ولا توجد هناك مدارس ويلعبون البلى والورق ) .

وفى دراسة اخرى على مجموعة من اطفال المدرسة الابتدائية اظهروا خلطا بين مفهوم الله ومفهوم « السيد المسيح » وعبروا عن مفاهيم وصفات مشخصة عن الذات الالهية ، وغيرها من المفاهيم الدينية ، فهم يصفون الجنة بأنها تشبه الدخان أو الماء أو الهواء ، ويعتبرون السيد المسيح كحامى حمى الناس ، فهو يأخذك الى الجنة اذا كنت طيبا ، ويشفيك اذا كنت مريضا . ويدرك طفل فى سن ٦ سنوات وظيفة الله بالقول بأن « الله شخص ما فى السماء أو فى الجنة يعتنى بكل شئ ويرعاه ويعالج كل شئ حتى لا يعترى الناس أى مشاعر رديئة أو تسود بينهم » ، ولكن اطفال هذا السن يعانون من خلط ازاء فكرة ( ان الله خلق كل شئ من لا شئ ) ويرجع سوء الفهم هذا الى نزعة الاطفال لارجاع كل الافكار المعنوية الى معان مشخصة مجسمة تقع فى اطار خبراتهم .

ولقد عبر عدد كبير من الاطفال الصغار ( ٦٤٠ طفلا ) من اطفال الصف الرابع الابتدائى فى المجتمع الأمريكى عن فكرة يوم الحساب The Judgment Day حيث وافقت نسبة ٣١٪ من مجموعهم على القضية الآتية :

يحتفظ الله بسجل كبير يسجل فيه أفعالنا السيئة .

بينما أقر ٤٣٪ منهم أنه تعالى لا يفعل ذلك و ٢١٪ كانوا فى حالة شك وتردد ، بينما وافق نحو ٥٠٪ منهم « بأننا اذا صلينا بجدية كافية من أجل سطوع الشمس أو هطول الامطار فإن الله سوف يغير الطقس من أجلنا » (٥)

• • •

### خصائص الفكر والشعور الدينى فى الطفولة والمراهقة

يعبر الاطفال فى الغالب عن خيال حر وغير تقليدى فى افكارهم عن الدين . ولقد حلل هارمس Harms سنة ١٩٤٤ بضعة الاف من رسوم الاطفال الصغار من ( ٣ - ٦ سنوات ) التى تمثل افكارهم عن الله ، ووجد أن معظم الصور المرسومة تعبر عن الله كنوع من شخصية الاساطير ، يرتدى الملابس الفضفاضة (٦) ولقد افترض هارمس ثلاثة مراحل للنمو الدينى فى الطفولة هى :

١ - مرحلة الصورة الاسطورية The Fairy Tail tage حيث تسود الافكار والمعتقدات الخيالية او الوهمية .

٢ - المرحلة الواقعية realistic stage وفيها يرفض الاطفال خيالاتهم السابقة ، ويعتقدون التأويلات القائمة على اساس الظواهر الطبيعية .

٣ - المرحلة الفردية The individualistic stage وفيها يبدأ الطفل فى اختيار العناصر التى ترضى حاجاته وبواعثه من الدين ، أى ينتقى العناصر الدينية التى تشبع حاجاته الفردية . ( ٧ )

وعلى الرغم من اختلاف تصورات أو مفاهيم الاطفال عن الله وعن النار وعن الجنة ، وما اشبه ذلك عن المفاهيم الثيولوجية التقليدية ، الا أن ذلك لا يعنى أن الاطفال لا يشعرون بالرهبة والتقديس والاحترام نحو الذات الالهية ، وأن كان كثير من هذه الآثار يتوقف على الطريقة التى يتعلم بها الاطفال المبادئ الدينية .

يقول مرى ومرى « وهناك أدلة كثيرة على أن التعاليم الدينية المبكرة من قبل المنزل والكنيسة هي العامل الاساسى فى تحديد الاتجاهات الدينية اللاحقة . أن المنهج المستخدم فى تقديم المفاهيم الدينية للاطفال له أهمية عظيمة » . (٨)

ولا شك أن مفاهيم الطفل عن الدين تختلف اختلافا كبيرا عن افكار الكبار وعن خبراتهم ومشاعرهم ، ولذلك فالجوانب الدينية فى حياة الطفل أقل خضوعا لفهمنا عن جوانب شخصيته الاخرى ، فالنضج العقلى Mental maturity يساعد الطفل على أن يستبدل مفاهيم الطفولة الساذجة والشخصية بمفاهيم أكثر عمومية وأكثر تجريدا ، فكلما تقدم الطفل فى السن أصبحت علاقته بالله أكثر شمولاً وأقل تشخيصاً ، وتصبح اتجاهات الطفل الدينية أقل تركزاً حول ذاته self-centered وأقل أنانية ، ويصبح أقل اهتماماً بالحياة الاخرى . ومعنى هذا أن الدين لا يصبح له دور فعال فى حياة الطفل الا اذا تناول تصورات ومفاهيم تدور حول حياة الطفل الدنيوية

( ٦ ) Argyle, N., (cited in) the religious behaviour, Routledge and Kegan Paul, London, 1958.

( ٧ ) Cole, L. and Hall, I., Psychology of Adolescence, Holt, Rinehart and Winston, N.Y. 1960

( ٨ ) Merry F. and Merry, R., op. cit. P. 490.

المباشرة ولم يقتصر على الحياة الأخرى ، وإذا ما نساء لنا عما يحدث في فكر الطفل الديني عندما يصل الى مرحلة المراهقة لوجدنا أن هناك عملية انتقال أو تحول من تلك الاستجابات التي تثيرها الضرورة الخارجية الى تلك الاستجابات التي تثيرها الضرورة الداخلية، أى من الدوافع الانانية الى الدوافع غير الانانية ، ولكن هذا لا يعنى ان نستنتج ان الشعور الشخصى بالواجب والمسئولية والاحساس بالمثل العليا والسلوك الفيرى ليست معروفة قبل هذه السن ، وانها تظهر فجأة عند البلوغ Puberty ، وهناك كثير من الأدلة التجريبية التي تؤكد حدوث النمو التدريجى وليس النمو أو الانتقال الفجائى من مرحلة الى أخرى .

وتبدو القدرة على التجريد بتقدم الطفل في السن ، ولقد وجدت نسبة مئوية كبيرة من الاطفال الصغار الذين وافقوا على القضية الآتية « ان الله عبارة عن شخص ما يراقبك ليرى أنك تتصرف تصرفا حسنا وهو الذى يعاقبك اذا لم تكن طيبا » . بينما كانت هناك نسبة اكبر من الاطفال المتقدمين في السن ( ١٨ سنة ) الذين ابدوا موافقاتهم للقضية الآتية : « ان الله قوة غريبة تعمل من أجل الخير اكثر من كونه شخصا » .

وبالتقدم في السن تبدو نزعة التسامح نحو ارباب الديانات الاخرى لدى المراهقين . (٩)

ولقد وجد أن الاطفال الكبار في السن اكثر استعدادا للموافقة على القضايا مثل : « ان الكاثوليك واليهود والبروتستانت متساوون في الطيبة » ، او ليس من الضروري أن تذهب الى الكنيسة لتكون مسيحيا ، والمراهقون المتقدمون في السن ( ١٨ سنة ) كانوا اقل اصرارا على أن « الناس الطيبون يؤدون الصلاة بانتظام » .

وفي احدى الدراسات التي تناولت عينة من الشباب من ( ١٦ الى ٢٤ سنة ) تبين أن ارتياد الكنيسة تنخفض بالتقدم في السن .

**اما فكرة الطفل عن الدين** فانها فكرة محسوسة ملموسة وينطبق هذا على صورة الملائكة والشياطين ، اما العبادات كالصلاة فانها وسيلة الطفل الصغير في الحصول على مطالبه . ولكن يتقدم الطفل في العمر يدرك أن دعوته لا تجاب كلها ، فلا بد أن يؤمن بقيمة العمل حتى تجاب مطالبه .

اما المفاهيم الدينية فان الطفل الصغير لا يفهم معناها لأن قدرته العقلية لا تقوى على ادراك المعنويات المجردة كالخير والشر والصلاح والتقوى ، ولكنه يدرك فقط الأمور الحسية الملموسة التي يستطيع أن يشاهدها ، وأن يحس بوجودها . وعندما يصل الطفل الى مرحلة الطفولة المتأخرة يستطيع أن يناقش الأمور الدينية . ويأخذ الطفل في الاتيان ببعض الأسئلة التي تدور حول الخلق والموت والحياة والبعث وأصل العالم .. وهكذا . وفي أول الأمر يقبل ما يلقي عليه من اجابات ثم يتقدمه في العمر يعيد النظر فيه .

( ٩ ) Kahlen, R., The Psychology of Adolescence, Harpers and Brothers, N.T. 1952, P. 439

**وفي بداية مرحلة المراهقة ميل المراهق الى الشك في القيم الدينية التي تعلمها في مرحلة الطفولة، ويعجز عن فهم المعاني الدينية والفلسفية العميقة ، ويظل يشك في هذه القيم حتى اواخر مرحلة المراهقة . وعندما يبلغ المراهق حوالى سن السادسة عشرة فانه يتحول نحو الدين مرة أخرى ، ولذلك تُعرّف هذه الفترة بفترة اليقظة الدينية .**

تدل مناقشات المراهق وجدله العنيف على وجود اليقظة الدينية ، حيث يميل الى مناقشة امور مثل الثواب والعقاب ، أو الجنة والنار والبعث والخلود والقضاء والقدر والجبر والاختيار . وقد تزداد وطأة الشك الديني عندما يموت أحد آباء أو أصدقاء المراهق المقربين . وعندما يقترب الفرد من مرحلة الرشد يتحول من الشك الى اليقين ، فيفكر تفكيراً هادئاً في الأمور الدينية ، ويظهر عندئذ الشعور بالتسامح نحو أصحاب الديانات الأخرى (١٠)

وبالرغم من أن كثيراً من علماء النفس يزعمون أن فترة المراهقة تمر بحالة ارتباك خلقي وتطرف سياسى ، وتغير في القيم ، وقبول القيم الدينية أو رفضها ، ولكن هذا لا يحدث الا بالنسبة لقلّة بسيطة من المراهقين ، أما الأغلبية الساحقة فانها تظل محتفظة بالاتجاهات الدينية التي يعتنقها الوالدان ، ويعتقدون مبادئ تشبه مبادئ الوالدين في الفلسفات السياسية والأخلاق والجنس وما أشبه ذلك .

ففى إحدى الدراسات وجد أن : ٨٤ ٪ من المراهقين أعضاء فى الكنيسة ، وأن ٥٠ ٪ يرتادون الكنيسة بانتظام . وأن ١٠ ٪ لم يذهبوا للكنيسة . وأن ٧٥ ٪ يعتقدون اعتقاداً راسخاً فى وجود الله . (١١)

وبتقدم الطفل فى العمر ينمو عنده الشعور بالتسامح الدينى ، وبالحرية الدينية religious liberalization ويحدث التحرر الدينى فيما بين سن ١٢ و ١٥ سنة وعلى ذلك تزداد نسبة عدد المراهقين فى هذه السن الذين يوافقون على عبارات مثل :

( ١ ) ليس من الضروري أن تذهب للكنيسة لكي تبقى مسيحياً .

( ٢ ) الكاثوليك والبروتستانت واليهود كلهم متساوون فى الطيبة . بينما تقل نسبة الموافقة على عبارات مثل :

١ - كل لفظة فى الانجيل صادقة .

٢ - الله يراقبنا ويعاقب فاعل الشر .

• • •

(١٠) د. فؤاد البهي السيد ، الاسس النفسية للنمو من الطفولة الى الشيخوخة، دار الفكر العربى سنة ١٩٦٨ .

( ١١ ) Mussen, P.H., The psychological development of the child, Prentice-Hall, U.S.A. 1963.

### أثر الخبرة الدينية في عملية التطبع الاجتماعي أو التنشئة الاجتماعية :

هناك عوامل متعددة تلعب دورا هاما في عملية التطبع الاجتماعي أو التنشئة الاجتماعية Socialization \* من ذلك جماعة الانداد أو الزملاء والأسرة والمدرسة والراديو والتلفزيون والصحف والمجلات والاندية والمعسكرات والمؤسسات الدينية وثقافة المجتمع ككل .

منذ اهتمام استنالي هول وتلميذه دانييلز Daniels ( ١٨٩٣ ) واستاربوك Starbuck ( ١٨٩٩ ) الذين كانوا يعتقدون أن التحول الديني جزء هام من خبرة المراهق منذ ذلك التاريخ ، اهتم علماء النفس بأثر الدين على النمو . حقيقة لا نعرف الا القليل عن التأثير المباشر للدين على السلوك لأن وضع محكات تعتبر مسألة صعبة . فكيف يمكن فصل الشخص المتدين عن غير المتدين لتحديد أنهما يختلفان في السلوك والقيم ؟

من بين المعايير المستخدمة عبارات الفرد نفسه ، هل يزعم هو انتمائه الديني أو عدم انتمائه ؟

ولقد أسفرت الدراسات التي تناولت مئات الجانحين انهم يقررون في المقابلات وعلى الاختبارات النفسية أن لديهم بعض الارتباطات الدينية ، ولكن استخدام مزيد من الأسئلة يوضح أن معظم هؤلاء الجانحين لا يدخلون الكنيسة ولو مرة واحدة في السنة . وهكذا فإن انتمائهم الديني Their religious affiliation هو « انتماء لفظي وليس سلوكيا ، وعلى ذلك فيلزم محك آخر غير محك الانتماء . بل أن ارتياد الكنيسة Church attendance كما استعمل في كثير من الدراسات لا يصلح كمؤشر حقيقي لتدين الفرد الاصيل ، فهناك بعض الأشخاص الذين يرتادون الكنيسة لأسباب غير دينية كالذهاب نتيجة لضغوط الآباء أو لمجرد العادة ، أو حبا في الظهور أو الطموح الاجتماعي ، أو للشعور بالسمو أو للتمتع بالصحة الاجتماعية ، أو لمجرد قضاء وقت الفراغ أو التخلص من الشعور بالوحدة والعزلة . وهناك دراسات استخدمت اختبارات لقياس المعرفة الدينية كما فعل هالديول ، ولكن حتى هذا المنهج لا يكشف عن الاعتقاد الديني الحقيقي ، وعلى ذلك فإن النتائج التي نحصل عليها من هذه الأبحاث يجب أن تؤخذ بكثير من التحفظ ، فمعظم المعطيات تعطى معلومات عن بعض الجوانب « الصورية » من الدين أو الرسمية ومن السلوك كالعلاقة بين ارتياد الكنيسة والسلوك ، ولا تعطى صورة عن الرابطة بين الانغماس العميق في الدين وفي السلوك . اننا نتوقع أن الخبرة الدينية تؤدي إلى تغيير كل الاتجاهات الاجتماعية العريضة كالاعتقاد في الإخاء بين بني الإنسان ، وتغير السلوك النوعي المحدد كما يقاس على الاختبار للغش مثلا . ( ١٢ )

(\*) تشير هذه العملية إلى امتصاص الطفل لقيم المجتمع ومعاييره واكتساب أنماط السلوك المقبولة .

Ibid, P. 488.

### اليقظة الدينية في مرحلة المراهقة :

ومن الظواهر الدينية البارزة في مرحلة المراهقة ظاهرة التحول الديني The religious conversion ولقد افترض استاربوك Starbuck منذ وقت مبكر ( ١٨٩٩ ) أن هناك علاقة وثيقة بين بداية المراهقة وبين التحول الديني. (١٣) ولكن الدراسات الحديثة لا تؤيد وجود يقظة دينية فجائية في المراهقة، وتؤكد مثل هذه الدراسات أن نمو الافكار الدينية عملية تدريجية مستمرة تحدث بدون طفرة تصاحب سن البلوغ ، أو تدفق أو انفجار فجائي يصاحب مرحلة البلوغ . ويتأثر الاتجاه الديني في المراهقة بما تلقاه الطفل في المراحل السابقة من تعاليم دينية ، فكلما كانت هذه التعاليم أكثر ضيقاً أو أكثر رسمية أو صورية كان المراهق أكثر ميلاً للابتعاد عن حظيرة الدين .

وليس هناك أدلة لتأييد الفرض القائل بأن التغيرات البيولوجية في البلوغ تؤدي الى حدوث أزمة انفعالية تؤدي بدورها الى اليقظة الدينية religious awakening .

وتكشف الدراسات المبكرة التي أجريت في حوالى سنة ١٩٠٠م كدراسة استاربوك أن التحول الديني يحدث في السن ما بين خمسة وعشرين عاماً ، إلا أن الدراسات المتأخرة نسبياً (١٤) كدراسة كلارك E.T. Clark سنة ١٩٢٨م حول سيكولوجية اليقظة الدينية أوضحت أن متوسط سن حدوث هذه اليقظة هو ١٢ سنة، وهي سن مبكرة قليلاً عن بداية البلوغ ، والأكثر احتمالاً أن حدوث أى تكثيف intensification في الميول الدينية أو الخبرة الدينية يرجع الى النضج العقلي intellectual maturation أكثر من البلوغ في حد ذاته . فلقد وجد هولنجورث L.S. Hollingworth سنة ١٩٣٣ أن تكثيف الميول الدينية يحدث في الاطفال الموهوبين عقلياً في سن الثمانى سنوات لأولئك الذين يصل عمرهم العقلي الى اثنى عشر عاماً .

ان استعراض التراث السيكلوجى يعكس وجهات نظر متباينة حيال مسألة زيادة أو نقص الشعور الديني في مرحلة المراهقة ، فتبعاً لوجهة نظر جارسون K. Garrison يؤدي نمو دائرة معرفة المراهق ، ونمو عادات أفضل في التفكير الى تساؤل المراهق وتشككه في كثير من الاشياء أو الافكار التي قبلها سابقاً دون نقد أو تمحيص .

ان شك المراهق يثار عن طريق بعض المبادئ والمعلومات العلمية ، وعن طريق رغبته (١٥) في اكتشاف نفسه بنفسه ومحاولته ربط العالم مع خطة الحياة العامة وذلك بتفكيره الخاص . ويؤيد جيرسييلد هذه الفكرة بالقول بأن الاطفال يصبحون قادرين على التفكير في الافكار المجردة عندما يصلون الى المراهقة . انهم يكتسبون فهماً أكثر عمقا عن معنى دينهم ، وسوف تزداد قدرة المراهق

( ١٣ ) Carmichael, L., Manual of child psychology, J. Wiley, N.Y. 1954, P. 699.

( ١٤ ) Ausubel, D. Theory and Problems of adolescent development Grune and Stratton, N.Y., 1954, P. 270.

( ١٥ ) Garrison, K., Psychology of adolescence, Prentice-Hall, 1955 P. 162.



على اختيار وفحص معاني الافكار والعقائد والمبادئ والقيم التي سبق له ان قبلها عن طيب خاطر بلا نقد او تمحيص ، قبلها من الآباء أو الكبار أو المعلمين .

وخلافا لهذا الرأي يقول كول Cole (سنة ١٩٦٤) ان الطفل يبدأ في التشكك في كل مظاهر السلطة ورموزها authority figures عند بلوغه مرحلة المراهقة وربما يبتعد عن دور العبادة ، ويثور على سلطات الاسرة والمدرسة ، وان كان هناك عدد كبير من المراهقين ما يزال يعتبر الدين مصدرا ممكنا للرضا والاثارة النفسية والانفعالية والعقلية \* ، ففي نظره يأخذ كثير من الاطفال بعد سن الخامسة عشرة في التفكير النقدي في المسائل الدينية ، وعند وصول مرحلة الرشد يستقر بهم الحال الى وضع غير مبال نسبيا ، وان كان اتجاههم (١٦) هو اتجاه تسامح نحو الديانات الأخرى وأربابها (١٧) . أما أوزابل B. Ausubel فيرى أن التناقض الديني ثثيره الاكتشافات العلمية في ذهن المراهق ، وهو تناقض سطحي ، ولا يؤثر في جوهر الإيمان الديني religious faith ولقد درس فورستر J. F. Forrester الاتجاهات الدينية لدى مجموعة من المراهقين تتراوح أعمارهم من ١٣ الى ١٧ سنة . ووجد أنهم يرغبون في أن يصبح الدين عمليا ، وأنه من الأفضل أن نسلك سلوكا صحيحا عن امتلاك العقائد الدينية الصحيحة ، وان الخدمات الاجتماعية أكثر أهمية من العبادة ، ووجد أن العناصر الصوفية في الدين mystical elements ليس لها الا جاذبية قليلة بالنسبة للمراهقين .

ويمر النمو الديني في الفرد بمراحل مختلفة تختلف باختلاف عمر الفرد ، لان فكرة الطفل عن الدين تختلف عن فكرة الراشد الكبير . ففكرة الطفل الصغير عن الله فكرة مادية مجسمة مشخصة . وعندما سئل عدد من الاطفال الصغار عن فكرتهم عن الله قالوا : « انه رجل عجوز له لحية بيضاء ، ويلبس ملابس بيضاء فضفاضة » . أما التفكير الديني في مرحلة المراهقة فيمتاز بأنه تفكير نقدي ، حيث يلجأ المراهق الى نقد الافكار التي تلقاها من الآباء والمدرسين والكبار في مرحلة الطفولة ، وكان قد قبلها عن طيب خاطر . وللدين أهمية خاصة في مرحلة المراهقة ، حيث يلجأ المراهق للدين لكي يجد فيه مخرجا من مشكلاته ، ولكي يجد فيه السند الذي يحقق له الشعور بالأمن الذي فقده بسبب الصراعات التي تدور في نفسه .

ويفترض بعض علماء النفس أن مرحلة المراهقة مرحلة كفر والحاد ، ولكن يبدو أن التفكير النقدي هو الذي يدفع المراهق لاعادة النظر في العقائد التي سبق له أن تلقاها ، ويساعده على ذلك زيادة نضجه العقلي وتحرره الفكري . ولقد أجرى جليلاند Gilliland بحثا على الشباب في سن المراهقة ، وتناول بالأسئلة موضوعات مثل وجود الله والخلود والمعجزات التي قام بها الانبياء والحياة الأخرى ، والاعتقاد في وجود الجنة والنار وفي وجود الشياطين ، وتبين له أن غالبية الشباب

Cole, L. and Holl, IK, Op. Cit. P. 477.

( ١٦ )

Ausubel D., OP. Cit. P. 270.

( ١٧ )

(\*) يعتبر الدين بالنسبة لكثير من الكتاب والعلماء والفنانين مثيرا عظيما لمبقرياتهم وابداعهم ونبوغهم الفني .

يعتقدون (١٨) في صحة هذه المبادئ الدينية ، ولكن هناك نسبة قليلة لا تعتقد ، ونسبة أكثر منها في حالة تردد وعدم يقين .

وهناك من المفكرين من يعتقد أن فترة المراهقة ليست فترة اضطراب خلقى أو دينى . « وعلى النقيض من الفكرة التى كانت تشيع سابقا نجد المراهقين لا يمرون بفترة من ثورة الاضطراب الاخلاقى والدينى ، ولكن المراهقين بالطبع على درجة كافية من الفهم والحكمة بحيث انهم يرون ذلك التناقض الذى يقوم بين المعتقدات المتزمتة من ناحية ، والجانب العقلى من ناحية أخرى ، وهم يتلمسون للحياة معنى وقيمة . وقد تمتلئ نفوسهم في بعض الاحيان تحمسا وشوقا زائدين الى اعادة تنظيم الكون . ولكن هذه المثل العليا تتعارض أو تتصارع مع الواقع تصارعا يؤدي الى الارتداد عن الدين أو الاضطراب الخلقى . ان النزعات الخلقية والدينية اذا ارسيت قواعدها في الطفولة تستمر الى المراهقة ثم في مرحلة الرشد عند غالبية الشبان (١٩)



### النمو الخلقى في مرحلتى الطفولة والمراهقة

#### مفهوم الاخلاق :

ينبغى تحديد المقصود باصطلاح «الاخلاق» Morality فهل الاخلاق هي ما يقرره المجتمع حتى ولو كان خطأ ؟ ام ان الاخلاق هي ما يعتبره الفرد عدلا Justice وشفقة Kindness وايثارا Altruism وما الى ذلك من القيم الخلقية المطلقة ؟

لا شك ان مفهوم الاخلاق كمفهوم نابع عن المجتمع هو مفهوم دينامى في طبيعته ، بمعنى انه يتغير من جيل الى جيل ، ومن مجتمع الى آخر ، وينمو ويتطور او يتعدل .

ويعرف هادفيلد J. Hadfield الاخلاق بالقول :

« هناك معنيان عريضان لمصطلح «الاخلاق» أحدهما بمعنى الامتثال Conformity لمعايير المجتمع norms or mores وعاداته ، والمعنى الآخر هو اتباع الغايات والأهداف الصحيحة » (٢٠) النوع الاول : يجعلنا آليا نتبع العادات ونمثل السلوك الجماعى ، ونرعى التقاليد

( ١٨ ) Gilliland, A.R., „ Changes in religious beliefs of college students ” in J. Soci. psychi, P. 37.

(١٩) جلن مايرزبلير ، ستيوارت جونز ترجمة د. احمد عبد العزيز سلامة ، د. ضياء الدين ابو الحب ، سيكلوجية المراهقة للمربين ، دار النهضة العربية - القاهرة .

Hadfield, J., Child hood and adolescence, Penguin Books, 1964 P. 141. ( ٢٠ )

الاجتماعية . وطبقا للمعنى الثانى فان الفياض الصحيحة كالكرم والولاء والامانة تعدخيرة في ذاتها وينبغى اتباعها بصرف النظر عن عادات المجتمع ومعايره . (٢١)

والاخلاق بمعنى الامتثال لقيم المجتمع وانماط سلوكه تختلف من مجتمع الى آخر .

ويستخدم احيانا اصطلاح الخلق character ليعنى السلوك الخلقى moral behaviour ولكن اصطلاح الخلق يشير الى درجة التنظيم الخلقى الفعال لكل قوى الفرد . ويشير الى الاستعداد « النفسيفيزيقى » الدائم الذى يجمع البواض تبعا لمبدأ تنظيمى معين . ومعنى هذا الاشارة الى الاخلاق morality كخلق داخلى يكمن فى داخل الفرد نفسه . وهكذا نرى أن اصطلاح الخلق يشير الى سمات الشخصية أكثر من اشارته الى الاخلاق التى تتضمن قوة ارادية كافية لتوجيه السلوك نحو نوع ما من القيم . وتهتم الاخلاق بنوع خاص بقوى الفرد الارادية وأهداف كفاحه واتجاهاته . (٢٢)

ويقصد بكلمة الاخلاق Morality من الناحية السلوكية العادات والتقاليد والآداب والمثل المرعية فى مجتمع ما ، وعلى ذلك فالقيم الخلقية تختلف من مجتمع الى آخر ، كما تختلف فى نفس المجتمع من عصر الى آخر ، وتختلف فى نفس المجتمع وفى نفس العصر باختلاف الطبقات الاجتماعية . فالمبادئ التى تصلح للمجتمع الاشتراكى لا تصلح للمجتمع الراسمالى ، كذلك اخلاقيات المجتمع الديموقراطى تختلف عن اخلاقيات المجتمع الديكتاتورى ، والفرد الذى يعيش متكيفا فى مجتمع راسمالى يصبح غير متكيف اذا ما نقل الى مجتمع شيوعى مثلا . وطبقا لوجهة النظر « الامتثالية » ما على الفرد الا أن يقبل قيم الجماعة التى ينتمى اليها حتى يعيش فى سلام ووثام معها ، ولكن رغم وجود هذه الفروق الثقافية فى مفهوم الاخلاق الا أن هناك بعض المبادئ الخلقية « المطلقة » العامة التى تصدق فى كل مكان وزمان ، ومنها الصدق والامانة والولاء . . . الخ .

ويعرف الخلق بأنه تكامل العادات والاتجاهات والعواطف والمثل العليا بصورة تميل الى الاستقرار والثبات ، وتصلح للتنبؤ بالسلوك المقبل . (٢٣) فالنمو الخلقى لدى الطفل يسير من مجرد الرغبة فى تحقيق اللذة والسعادة الى التقيد بالمبادئ الخلقية والاجتماعية السائدة فى المجتمع الذى يعيش فيه الطفل .

ويتقدم الطفل فى العمر تتحول القوى الرادعة من كونها قوى خارجية اى صادرة من الخارج ، من الآباء والأمهات والمدرسين ، الى أن تصبح قوى ذاتية داخلية هي ضمير الطفل ، ويتكون هذا الضمير عن طريق امتصاص قيم الآباء واكتسابها ، وبذلك تصبح معايير الطفل نفسه .

(٢١) داجع كتاب « علم النفس ومشكلات الفرد » للكاتب ، منشأة المعارف بالاسكندرية ، لمعرفة الاتجاهات المختلفة فى تعديد السواء والانحراف .

(٢٢) يختلف معنى الاخلاق بالمعنى السلوكى كمعادات فردية وجماعية عن الاخلاق بالمعنى الفلسفى ethics او كعلم الاخلاق .

(٢٣) دكتور فؤاد البهي السيد ، الاسس النفسية للنمو من الطفولة الى الشيخوخة ، دار الفكر العربى بالقاهرة / ١٩٦٨ .

### ويقودنا هذا الموضوع الى التساؤل ايهما تصبح له القيمة العليا والمطلقة : الفرد ام المجتمع؟

في ضوء الخبرات المستمدة من المجتمعات الديمقراطية والدكتاتورية يتضح ان الامل الوحيد في الاصلاح والتقدم يكمن في النشاط الحر لأعضاء المجتمع . وليس هناك ضرورة لاتخاذ موقف دون آخر في ايهما تكون له السيادة : الفرد ام المجتمع، اذ الواقع انهما يعتمدان على بعضهما البعض ، وهناك علاقة تفاعل قوية بين الفرد والمجتمع . فصالح المجتمع من صلاح افراده وصالح الافراد يؤدي الى صلاح المجتمع برمته .

ومن الناحية السيكولوجية فان مفتاح الاخلاق هو شعور الفرد بالواجبات والالزام في كل من الفكر والعمل .

وعلى ذلك فان السلوك الذى يقوم به الفرد خوفا من عقاب المجتمع ليس خلقيا بالمعنى السيكولوجى ، ويصبح خلقيا عندما يصدر عن شعور الفرد بالواجب أو بالولاء أو العطف أو الشفقة أو الرحمة أو الحب أو الشرف وغيرها من الانفعالات المشابهة . ولكن هذه الانفعالات ليس من الضروري أن تكون صحيحة اجتماعيا ، ذلك لأنها قد تنشأ أصلا من الاخطاء التى يرتكبها المجتمع ضد افراده .

ولا يمكن قبول الافتراض ان الانسان خير محض أو شر محض ، انما تسود آراء الكثيرة من العلماء بأن في الانسان الشر والخير معا ، وتفتح هذه الفكرة الافاق واسعة امام المجتمع ومنظماته التربوية لتنمية الجوانب الخيرية في الانسان وسيطرتها على جوانب الشر فيه . وتلعب الاساليب التربوية دورا هاما في توضيح مفاهيم الخطأ والصواب ، وخاصة لدى أولئك الذين يعتبرهم الخلط وعدم القدرة على التمييز بينهما . فكثير من الناس ، وخاصة الشباب ، يقفون موقف الحيرة ازاء الوعظ والارشاد من قبل الكبار من ناحية وسلوكهم الفعلى العملى من ناحية اخرى . على أن مجرد المعرفة النظرية بالخير أو الشرلا تتضمن بالضرورة عمل الخير . المهم هو الارادة التى تفعل الخير وتتجنب الشر الى جانب ضرورة توافر الامكانيات البيئية والانفعالية والجسمية لممارسة الخير . فلقد وجد أن قوة الارادة تتأثر بتعطى الفرد بعض العقاقير . (٢٤)

### الانماط الخلقية :

يصنف الناس احيانا الى انماط خلقية مختلفة تبعا لنوع الاخلاق الذى يتبعونه :

١ - النمط النفعى The expedient type وفيه يسلك الفرد فقط سلوكا خلقيا للحصول على أغراضه الداتية .

٢ - النمط الامتثالى conforming type وهو النمط الذى يفعل صاحبه مايفعله الآخرون، وما يقولون أنه ينبغى عليه أن يعمل .

( ٢٤ ) Johnes, V., Character development in children : an objective approach, in Manual of child psychology, ed. by, Carmichael, L., P. 821.

٣ - النمط العقلى أو النمط ذو الضمير الحى The rational or conscientious type  
وله معايير الخاصة الداخلية فى الصواب والخطأ

وتبعاً لهذه المعايير يحكم على تصرفاته . وهونمط إيثارى altruistic ويمثل على مستويات الأخلاق . وله مجموعة من المبادئ الخلقية الثابتة المستقرة والتي توجهه . أنه عقلانى وواقعى Realistic فى تقويمه لما هو خير له ولغيره من الناس (٢٥) . وهو غير مضطر لعمل كثير من التفسيرات أو التأويلات الخلقية لأنه يتبع «حرفية» القانون الخلقى ، أما الشخص النسبى فى مذهبه الخلقى relativist فإنه يأخذ فى الحسبان النوايا والدوافع والإصرار أو التعمد والنتائج العملية لعمله ، وكما يقول فروم E. Fromm فى ضوء الأخلاق السلطوية تضع السلطة \* ما هو خير للإنسان ، وتضع القوانين والمعايير للسلوك ، أما فى الأخلاق الإنسانية فالإنسان نفسه هو موضوع المعايير وهو الذى يضع هذه المعايير ، أنه مصدر المعايير والمسئول والمنظم ، وهو أيضاً الموضوع الذى تنطبق عليه هذه المعايير . (٢٦)

#### خصائص الفكر والسلوك الخلقى فى الطفولة والمراهقة :

يضاف الى المشاكل السابقة مشكلة عمومية المبادئ الخلقية أو خصوصيتها ، بمعنى هل يكون الطفل الأمين فى البيت آميناً فى المدرسة وفى النادي وفى العمل وفى الامتحان وفى اللعب وفى جميع المواقف والأماكن أم أن الامانة تتوقف على الموقف الذى يوجد فيه الفرد ومقدار حاجاته الى «الفش» مثلاً ؟ وعلى دوافع الفرد وحاجاته ؟ لقد دلت دراسة هارتشون وماى (١٩٢٨) Hartshorne and May على عدم وجود ارتباط دى دلالة بين الفش فى المدرسة والفش فى المنزل Cheating at home and at school ، ولكننا اذا اخذنا الأخلاق بمعنى الشعور بالذنب لتجنبنا الصعاب الناتجة من الاتجاه الامتالى السلوكى ، اذ من الممكن أن يخضع الفرد للاغراء Temptation ومع ذلك يشعر بالذنب نتيجة لامتلاكه معياراً داخلياً .

يسير الطفل فى بدء حياته بمنطق «اللذة» أى أنه يميل الى تكرار السلوك الذى يجلب له اللذة المباشرة ويجنبه الألم . ويتكون ضمير الطفل عن طريق مجموعة الأوامر والنواهي التى يتلقاها من الوالدين اللذين يقومان بوظيفة الضمير فى بدء حياة الطفل . فالطفل الصغير لا يسرق لأن «ماما» تقول لا تسرق ، ولأن السرقة تفضب «ماما» .

Jersild, A., The Psychology of adolescence, P. 368.

( ٢٥ )

Fromm, E., Man for himself : an inquiry for the psychology of ethries,  
Rinehart, N.Y 1947.

( ٢٦ )

(\*) داجع أنواع القيادة وائر كل منها على السلوك والشخصية فى كتاب المؤلف « علم النفس الاجتماعى » دار النهضة العربية - بيروت .

### وهنا ينبغي أن نتساءل عن العوامل التي تؤثر في مجرى النمو الخلقي في حياة الطفل ؟

#### العوامل المؤثرة في النمو الخلقي :

لقد تساءل كثير من الكتاب : هل يرجع السلوك الخلقي الى الوراثة ام الى البيئة والاكتساب ؟ يحتوي التراث السيكولوجي على كلا الاتجاهين أي الاتجاه الوراثي والاتجاه الاكتسابي . ومن بين الدراسات العديدة التي تؤيد العوامل الفطرية في الأخلاق The innate factors دراسة الأسر التي انتشر الجنوح والاجرام بين أعضائها بكثرة كبيرة عبر الأجيال المتعاقبة (٢٧) . ولقد افترض قديما بعض العلماء وجود حس خلقي داخل الانسان ، ولكن اذا كان للأخلاق حس مستقل فأين يقع هذا الحس من الجسم ؟ وفي غضون القرن الثامن عشر سادت حركة طبية تفترض انه نتيجة لاصابة الفرد بمرض ما فانه يفقد حسه الخلقي ، بينما تبقى قواه العقلية سليمة ، واطلق على هذه الحالة المرضية اصطلاح الجنون الخلقي moral insanity (٢٨) ويفترض هنسرى مودسلاي Henry Maydsley أن معظم المجرمين الصغار ضعاف أخلاقيا في القوة الخاصة بتكوين الحدس الخلقي ، وكان يعتقد أن الطفل قد يكون ماهرا عقليا ولكنه أعمى خلقيا ، وأن هذا الضعف الخلقي الموروث يبدو انه ينتشر في أسر معينة عبر الأجيال المتعاقبة . ومن ناحية بناء الشخصية وجد أن كثيرا من الاعراض السيكوباتية والعصابية ترتبط بالجنوح (٢٩) وكان لمبوروزو Cesare Lombroso يعتقد بوراثية الاجرام . ويعتقد بعض الناس بأن الطفل يولد مزودا بضمير معين يساعده على التمييز بين الصواب والخطأ ، بل يزعم البعض أن الطفل يرث بعض السمات الخلقية المحددة كالامانة والصدق ، ولكن هذه الفكرة تخلص الآباء والعلمين من مسؤولياتهم ازاء تربية الطفل تربية خلقية سليمة حيث لا يعززون السلوك غير المرغوب الى فشلهم وانما الى نقض وراثي أو فطري لا يمكنهم التغلب عليه .

ولكن الضمير في واقع الامر يتكون خلال الشعور بالالتزام أو بالواجبات الاجتماعية ، تلك العمليات التي تحول الضبط الخارجى الى ضبط داخلى (٣٠) . يقول وليم مكدوجل McDongall مؤيدا الاتجاه الوراثي للعقل البشرى : ان هناك نزعات فطرية أو مورثة هي المنابع الاساسية أو القوى الدافعة لكل من الفكر والسلوك ، وهي الاساس الذى تنمو عليه خلق و ارادة الافراد والأمم بالتدريج تحت توجيه الملكات العقلية (٣١) .

( ٢٧ ) Kanner, L., Child Psychology, Charles C., Thoms, U.S.A. 1957, P. 679.

( ٢٨ ) Burt, C., The Young delinquent, univ. of London, Press, 1957 P. 34—40.

( ٢٩ ) Ibid.

( ٣٠ ) Hawkes, G.R., Behaviour and development from 5-12 Harpers and Brothers, N.Y. 1962, PP. 122.

( ٣١ ) لم تعد فكرة الملكات مقبولة في الفكر السيكولوجي الحديث واصبح ينظر للعقل البشرى على انه وحدة .

أما فرويد Freud فيرى أن غريزتي الجنس والمحافظة على الذات هما العنصران الأساسيان في الدافعية الانسانية human motivation وتتضمن غريزة المحافظة على الذات ، من بين ما تتضمن حماية معايير الفرد الخلقية والاجتماعية ويفترض أدلر Adler وجود نزعتين مسئولتين عن ارتباط الإنسان بأخيه الإنسان ، وهما :

١ - الرغبة في القوة الشخصية والسمو .

٢ - الشعور الاجتماعي .

ولكن مثل هذه الاتجاهات التي تختزل الدافعية الانسانية في شكل عامل أو عاملين تبالغ في تبسيط التنظيم الدافعي في الإنسان .

وتدلنا الدراسات الانثروبولوجية التي تناولت بعض المجتمعات البدائية على أن القيم الخلقية ليست عالمية ، ومن ثم ليست موروثية ، وعلى سبيل المثال فإن مجتمع الأرابيش Arapash ليس في حاجة الى كثير من الوسائل التربوية التي تروضه على ممارسة السلوك الخلقى ، وانما يظهر هذا المجتمع كثيرا من مظاهر الايثار والتضحية (٣٢) تلقائيا .

وفي مجال تأييد وجهة النظر الوراثية في نمو القيم الخلقية ربما نشير الى الفروق الملاحظة بين الذكور والاناث في الاخلاق . فلقد وجد أن الاناث أكثر تأثرا بالنداء الانفعالي في الحياة الدينية ، بينما الذكور أكثر جذبا بالشرف والعقاب الخلقى والنشاط الاجتماعى . وبالنسبة للعدوان فلقد أعطى باين وماريكارد Bize and Maricard ( ١٩٣٧ ) حقنا من الهرمون المنشط للذكور لعدد من الصبيان الصغار ووجد زيادة واضحة في العدوانية في كل العلاقات الاجتماعية . كذلك أعطى كلارك وبرش Clark & Birch هرمونات ذكورة وأنوثة لقرود ذكر ، ووجد أن الهرمون الذكري يؤدي الى زيادة السيطرة الاجتماعية عند الحيوان ، وأن الهرمون الانثوى يؤدي الى خضوع الحيوان ، ويؤكد هذا فكرة زيادة النزعات العدوانية في الذكور عنها في الاناث . وفي مجال الفروق الجنسية في الاخلاق أيضا هناك ما كشفت عنه دراسة تيودور - هات Tudor-Hart حيث وجد أن الاناث يلقين أكثر من الذكور كثيرا من الأكاذيب التقليدية مثل : أمى ليست في المنزل (٣٣)

أنا سعيدة لرؤيتك .

لقد قضيت وقتا ممتعا في حفلتكم ؟

مثل هذه الأكاذيب اعتبرتها نسبة أكبر من البنات عن البنين « ضرورية » كذلك اعتبرت نسبة أكبر من البنات الأكاذيب الاجتماعية « ضرورية » ( نسبة ٣٢ ٪ في مقابل ١٨ ٪ من الذكور ) ومن

(٣٢) Mead, M., Sex and temperament in three primitive societies, Routledge and Kegan Paul, 1948, P. 137.

(٣٣) Jones, V., OP. cit.

أمثلة الأكاذيب الاجتماعية « الكذب للاحتفاظ بالأسرار » و « الكذب حماية من الفرامة » وما إلى ذلك . وفي دراسة شيلي Sheelly ( ١٩٣٨ ) التي تناولت ٨٠٠ طفل تتراوح أعمارهم من ٩ إلى ١٦ سنة وجد الذكور أكثر عدوانا وسيطرة وأقل خوفا وأكثر تفاخرا عن الإناث اللاتي كن أكثر شكا وخيالا ، وأكثر خضوعا وطاعة للضوابط الاجتماعية ، ولقد وجدت نسبة الذكور إلى الإناث في الأحداث الجانحين الأمريكيين تساوى ٦ - ١ .

ولكننا يجب أن نلاحظ أن هناك فروقا كبيرة في نوع الجرائم التي يرتكبها أفراد كل جنس ، كذلك هناك فرق في المستويات الخلقية التي يضعها المجتمع على أفراد كل جنس . فالمعروف أن الأسرة أكثر تسامحا في قبول المخالفات التي يرتكبها الولد الذكر . كذلك فإنه يفترض أن الأب - أكثر من الأم - هو الذي يمثل السلطة الخلقية الرئيسية في الأسرة ، وأنه أيضا الموضوع الخلقى الذي يتقمصه الولد والبنت على حد سواء . أن الأب أكثر تمثيلا للمعايير الاجتماعية ، وهو أكثر قدرة على القيام بعملية الضبط والربط في الأسرة .

وفي هذا الصدد افترض فرويد أن الذات العليا أو الضمير في النساء أضعف منها في الرجال . ويرجع السبب في ذلك إلى بقاء البنات مدة أطول من البنين في مرحلة جمود عقدة الكترا Electra\* .

وخلافا لوجهة نظر فرويد هذه يعتبر تيرمان وتيلور أن البنات يمثلن أكثر من البنين لقواعد الآباء والسلطة . كذلك تعاني البنات من مشاكل مدرسية ومنزلية أقل من البنين ، وأن نسبة جنوح الأحداث بينهن أقل من مثيلتها عند البنين . وفي دراسة ثرستون وكيف Thurstone and Chave عن الاتجاه نحو الكنيسة وجد أن النساء أكثر استعدادا للذهاب للكنيسة عن الرجال . (٣٤)

ويرى فرويد Freud أن الإحساس بالعدل وغيره من القيم الخلقية أقل في النساء منه في الرجال ، ويرجع ذلك في نظره إلى طرق تكوين الذات العليا عندهن ويقول فرويد : « أن السمات الخلقية التي أثارها النقاد في كل الأزمنة ضد النساء - أي أن إحساسهن بالعدل أقل من إحساس الرجال ، وأنهن أقل استعدادا للخضوع لضرورات الحياة الهامة ، وأنهن أكثر تأثرا في أحكامهن بمشاعر الحب والعداوة - كل هذا يفسر بالرجوع إلى التعديلات التي تحدث في تكوين ذواتهن العليا » .

ويبدو أن تعاطف الإناث ينتج من جوانب شخصية أكثر من المبادئ والقيم المجردة . وفي هذا الصدد يقال أن النساء يتأثرن في الأحكام الخلقية والجمالية بالأسلوب وبالشعور أكثر من التأثر بالعقل .

(٣٤) Thrustone, L. and Chave. E., The measurement of attitudes. The University of Chicago Press, 1951.

(\*) تشير هذه الحالة إلى ارتباط الفتاة بآبيها مع كراهية الأم والشعور بالفرة نحوها ، وتقابل عقدة أوديب في الطفل الذكر التي تشير إلى ارتباط الطفل جنسيا بأمه والفرة من الأب وما يصحب ذلك من شعور بالذنب والصراع الانفعالي لدى الطفل .



ولقد وجهت انتقادات عديدة لفكرة وراثية الأخلاق ، فعلى سبيل المثال ، وجد هارتشون وماي أن الامانة تختلف باختلاف المواقف . فالطفل قد يكون أميناً في المدرسة خائناً في المنزل . ويؤكد الاتجاه البيئي في نمو الاخلاق دور الاسرة والمدرسة والمسجد والكنيسة أو الجماعات البشرية ، كجماعة الاصدقاء والزلاء والحركة الاجتماعية ووسائل الاعلام والاتصال الجماهيري كالراديو والتلفزيون والسينما والمسرح والصحف والمجلات مما يؤكد اثر المنزل على الاخلاق ، ما وجد في احدى الدراسات من أن ٨٧٪ من الأناث الجانحات اتين من بيوت محطمة ، حيث يقل تأثير المنزل ، وتقل فرص تدريب الطفل على السلوك الخلقى .

وفي دراسة أخرى وجد أن ضعف التدريب والتأديب كان سبباً في ٩٠٪ من الانحرافات السلوكية . ولا شك أن الطفل يبني مفهومه عن الصواب والخطأ من الأمثلة التي يتلقاها من الكبار الراشدين . ولقد وجدت معاملات ارتباط كبيرة نسبياً بين فكرة الأطفال عن الصواب والخطأ وبين أفكار الكبار المحيطين بهم . وكانت معاملات الارتباط كما يلي :

#### معامل الارتباط

الأطفال والآباء	٠.٥٥
الأطفال والاصدقاء	٠.٣٥
الأطفال ومعلمو الأندية	٠.١٤
الأطفال والمدرسون	٠.٠٦
الأطفال ومعلمو مدارس الاحاد	٠.٠٢

ويبدو أن الآباء لهم أكبر قدر من التأثير في تكوين مفهوم الطفل عن الخطأ والصواب . ولقد تبين انه كلما زاد اتصال الطفل بالتصاقاً بالكبار زاد تأثيرهم عليه وعلى سلوكه ، وتلعب علاقات الحب والعطف والحنان والدفع دوراً هاماً في تنمية الضمير القوي في الأطفال .

فأسلوب التربية القائم على أساس الحب هو الذي يؤدي الى تنمية الضمير . اما الحماية الزائدة أو الخضوع لرغبات الطفل المبالغ فيها فانهما يؤديان الى زيادة نزعات الطفل نحو العصيان والطفيان والمبالغة في المطالب . اما الأطفال الذين خضعوا لسيطرة الأمهات والتحكم الزائد والتأنيب المبالغ فيه والذين كانوا يمنحون المكافأة لخضوعهم التام ، أصبحوا منسحبين وخجولين . (٣٥)

ويعتبر المنزل من أقوى المؤسسات الاجتماعية في نقل ثقافة المجتمع للطفل ، انه يكمل وظائف المؤسسات الاجتماعية الأخرى كالحكومة والمدرسة والمسجد . بل انه يبدأ في « عمله هذا » قبل أن يبدأ الطفل في الاحساس بدور هذه المؤسسات . كذلك تلعب المدرسة دوراً هاماً في

Mussen, P.H., Op. Cit ; P. 356.

(٣٥)

(\*) يعرف معامل الارتباط بأنه تحديد احصائي لكم وكيف العلاقة بين متغيرين أو أكثر .

نمو السلوك والقيم الخلقية في الطفل ، فلقد لوحظ أن السلوك الخلقى للأطفال يتدهور عندما تضعف الإدارة المدرسية .

ولكي يمارس الطفل السلوك الصواب لابد من معرفة الصواب والخطأ والتمييز بينهما ، وليس هذا التمييز أمرا سهلا، إذ يختلف الأفراد في تقدير الصواب والخطأ. ففي إحدى الدراسات قررت ٩٠ ٪ من مجموعة من الأطفال الصفار أن ٩ مواقف من مجموع ٦٤ موقفا مدرسيا هي مواقف صحيحة أو صواب ، وعندما حكم المدرسون على هذه المواقف قرروا أن ١٢ موقفا صحيحة فقط ، وقرر هذه النتيجة ٩٠ ٪ من المدرسين ، وعلى الرغم من أن المعرفة النظرية بالصواب والخطأ لا تضمن بحد ذاتها ممارسة الصواب وتجنب الخطأ إلا أن المعرفة مهمة ، لأن الفرد لا يختار الصواب في موقف لا يعرفه ، اللهم بمحض الصدفة البحتة . (٣٦)

ومن العوامل المؤثرة في السلوك الخلقى ارتياد أماكن العبادة ، فلقد وجد أن للخبرة الدينية أثرا كبيرا على النمط القيمي للأطفال وللشباب . ولقد وجد « هارتشون وماي » أن مقدار الغش يقل بارتياح الكنيسة . كذلك وجد أن الأطفال الذين يرتادون الكنيسة يحصلون على درجات أعلى في اختيار « مساعدة الغير » أو النزعة نحو مساعدة الآخرين .

وبالنسبة لأثر المجتمع أو الحياة الاجتماعية ككل يقول عالم الاجتماع الفرنسي دوركايم Durkheim « أن الحركة الاجتماعية العظيمة هي التي تخلق الجريمة . ففي الماضي كان الناس يرتبطون بروابط وثيقة بأسرهم التي كانت توحد وتضبط سلوكهم . » (٣٧)

ولقد أدى النمو الاجتماعي إلى النزوح للمدن الكبرى وتحطيم الروابط الأسرية القديمة ، وأصبحت الوظيفة أو المهنة تمارس بعيدا عن دائرة الأسرة ، ولقد تحلت القيم القديمة دون أن يبتكر غيرها ، فأصبح هناك فراغ قيمي يحتوى الفرد المعاصر . لقد أصبح أبناء المجتمع الحديث أكثر عزلة وانسحابا ومن ثم ضعف التأثير الاجتماعي عليهم .

كذلك تؤثر الطبقة الاجتماعية على نوعية الأخلاق التي تنمو في الطفل ، فلقد وجد أن أطفال الطبقات الاجتماعية والاقتصادية الدنيا أكثر تسلطا في اتجاهاتهم ، فقد طالبوا بانزال العقاب ، كعلاج لعمل الخطأ أكثر من أطفال الطبقات العليا . ولقد وجد أن أطفال الطبقات الدنيا ينظرون للسلوك في ضوء الصح والخطأ ، بينما يحكم أطفال الطبقات العليا على السلوك طبقا لنتائج العملية . كذلك وجد أن أطفال الطبقات الاجتماعية الدنيا كانوا أكثر قبولا وتسامحا أزاء الأفعال الخاطئة ، وذلك بالمقارنة بأطفال الطبقات العليا ، وعلى سبيل المثال عندما سئلوا عما إذا كان « السكر » خطأ ، كانت هناك النسب المثوية الآتية التي أقرت أن السكر خطأ :

٥ ٪

أطفال الأحياء الشعبية القدرة

Ibid

(٢٦)

Ibid

(٣٧)

أطفال مناطق نصف قدرة	١١٪
أطفال الطبقة الاجتماعية المتوسطة	٢٠٪
أطفال الطبقة الاجتماعية العليا	٣٤٪

ولقد فسر هذا بأن أبناء المناطق الشعبية المتدنية المستوى أكثر الفة مع السكر عن زملائهم من أبناء الطبقات العليا .

ويقترح بريكنريدج Breckenridge العوامل الآتية كأساس للنمو الأخلاقي الجيد :

١ - صحة جسمية جيدة لمقاومة الاغراء ، وللتحرر من الشعور بالمرارة أو النقص ، ومن وجود دوافع الانتقام .

٢ - الأمان الانفعالي لتمكن الشعور بالحب تجاه الآخرين .

٣ - توفر وظيفة مناسبة ومنافذ للتعبير أو التصريف .

٤ - تدريب مستمر في التحكم والضبط الذاتي للمساعدة في التخلص من البواعث الطفلية .

٥ - وجود أفق اجتماعي مستمر الاتساع لتنمية القدرة على اكتساب المعارف ، وعلى التسامح وعلى التعاطف ، وعلى الفهم وتنمية الرغبة الاصيلية لتقدير حقوق وواجبات الناس الآخرين .

٦ - الطموح نحو الرغبة القوية في عمل الصواب ، بحيث يجد الفرد الشعور بالرضا والسعادة نتيجة لعمل الصواب . وفي الغالب ما ينمو هذا الطموح نتيجة للتعاليم الدينية . (٣٨)

**ولا يمكن تخيل حدوث النمو الخلقى بمحض الصدفة ، بل انه يحتاج الى جهود واساليب مدروسة ، ويتطلب تخطيطا دقيقا للمواقف التى تضمن التعاون والضبط الذاتى ، ونمو روح الجماعة .** كذلك ينبغى تشجيع الطفل على تعميم المبادئ الخلقية ، وممكن اشراك التلاميذ في مشروعات خدمة البيئة لتنمية الشعور بتحمل المسؤولية وتقدير الصالح العام وحمانيته . وإلى جانب المؤثرات الخارجية ففى مرحلة المراهقة توجد دوافع داخلية نحو التعاون ونحو تقدير العدالة ونمو الشعور بالولاء للجماعة ولقواعدهم وغير ذلك من المبادئ السلوكية المثالية . ففى المراهقة تنمو النزعات المثالية والنزعة نحو اصلاح العالم ونحو البذل والتضحية الذاتية ، وينبغى توجيه هذه المثالية نحو السلوك الخارجى الحقيقى كما ينبغى اشعار المراهقين بانهم مرغوبون ومطلوبون كما ينبغى أن يجدوا المنافذ الايجابية البناءة لتصريف طاقاتهم الزائدة . وأخيرا فاننا فى معرض الجدل بين تأثير البيئة والوراثة ، ينبغى ان نؤكد بأن الانسان يتأثر بكل من البيئة والوراثة معا ،

وان العلاقة بين البيئة والوراثة هي علاقة تفاعل، أى تأثير متبادل قوى ، ولكننا ينبغي أن نضع مزيداً من الأهمية للعوامل البيئية، لأن ذلك سوف يوسع من مقدرتنا على مساعدة الأطفال نحو النمو الجيد ، والإيمان بإمكان اصلاح الاعوجاج . ان ارجاع السلوك الانساني الى العوامل الوراثية وحدها يضيق من امكانية تعديل السلوك المنحرف وتوجيهه نحو الصواب . ولاشك أن ما يولد به الطفل من استعدادات وامكانيات يمكن صقلها وتشكيلها وتوجيهها وحسن استقلالها عن طريق الخبرات التى يمر بها الطفل ، والفرص التى تتاح له ، والاشراف الذى يلقاه .

### المثال والقذوة :

#### كيف يختار الطفل الصغير مثاله الأعلى الذى يقتدى به ؟

نتيجة لالتصاق الأطفال الصغار بأبائهم فانهم يختارون منهم مثالهم الأعلى . وفى احدى الدراسات وجهت للأطفال الاسئلة الآتية :

١ - من هو الشخص الذى تعجب به أشد الإعجاب ؟

٢ - من هو الشخص الذى ترغب أن تشبهه من هؤلاء الناس الذين تعرفهم أو سمعت أو قرأت عنهم ؟

ولقد اختار الأطفال الصغار ( سن ٦ - ٧ سنوات ) مثالهم الأعلى من بين أفراد الدائرة الضيقة لمعارفهم كالآباء والأمهات . وعلى حد قول فالتين : « بازدياد السن تتسع خبرات الطفل، وبذلك يصبح الأشخاص الذين يختارهم الطفل مثالا أعلى من بين الأشخاص الذين قرأ عنهم فى التاريخ أو فى الأدب أو فى الإنجيل ، أو من بين الشخصيات العامة الشهيرة . (٣٩)

على كل حال وجد أنه بعد سن الثالثة عشرة يعود الطفل للاختيار من دائرة المعارف المقربين . ومن المعروف أنه بالتقدم فى السن ينمو اتجاه التسامح نحو المذاهب الدينية المختلفة وأربابها ، كما تنمو نزعات الشك والنقد تجاه العقائد الدينية التى تعلمها الطفل من قبل .

ولقد وجد معامل ارتباط سالب بين عامل العمر الزمنى وبين قبول المعتقدات الدينية .

كذلك كلما تقدم المراهق فى السن زاد قدرة على التفكير فى الأمور المجردة ، وكلما قلت نزعته نحو « الأخلاق الموضوعية » أو الواقعية أو المطلقة حلت محلها الأخلاق النسبية ونمت نزعات التحرر والمرونة فى وجهات النظر .



### مراحل النمو الخلقى :

على الرغم من أننا نستطيع أن نحدد مراحل معينة للنمو الخلقى ، إلا أن النمو الخلقى ، كغيره من مظاهر النمو الأخرى ، يحدث تدريجياً فجائياً ، وليس هناك انتقال فجائى أو طفرى من مرحلة إلى أخرى ، فالطفل لا يتحول من الطفولة إلى المراهقة بين عشية وضحاها ، بل إنه من الممكن أن يحدث نوع من النكوص regression أو الارتداد من مراحل متقدمة إلى مراحل سابقة عندما يتعرض الفرد لصعوبات نفسية حادة ، فالنمو لا يسير باستمرار في خطوط مضطردة . كذلك هناك فروق فردية واسعة individual differences في الوصول إلى أى من هذه المراحل ، ولا توجد فواصل حاسمة فاصلة وقاطعة بين هذه المراحل ، ولكنها تتداخل فيما بينهما (٤٠) ففى المراهقة تظل هناك رواسب من الماضى الطفولى وفى الشباب تبقى بعض سمات المراهقة . ويصف جيرسيلد Jersild حركة الانتقال من مراحل أقل نضوجاً إلى المراحل الأكثر نضوجاً فى النمو الخلقى بما يلى :

- ١ - المفهوم العام لما هو صواب ولما هو خطأ يحل محل القواعد النوعية المحددة .
- ٢ - المعايير الداخلية تحل تدريجياً محل الطاعة للأوامر والنواهي الخارجية .
- ٣ - زيادة فهم ( قواعد المباراة ) نتيجة الاحترام المتبادل والموافقة أكثر من كونه نتيجة لطاعة الأوامر التعسفية .
- ٤ - نمو قدرة متزايدة واستعداد أكبر لأخذ الظروف المحيطة بالسلوك الخاطئ فى الاعتبار بدلاً من الحكم الآلى على العمل الخلقى .
- وبالنسبة للسلوك الإنسانى ككل يمكن النظر إليه على أنه يسير تبعاً لمستويات أربع يمكن أن تتخذ دليلاً على النمو الخلقى للطفل ، هذه المستويات هي :
- ١ - السلوك غير المتعلم أو السلوك الغريزى يتعدل بالنتائج الطبيعية للسلوك ، ومن أمثلة ذلك تعلم الطفل لتقائماً إلا يصدم رأسه ضد الأشياء الحادة أو الساخنة .
- ٢ - الثواب والعقاب كما يمارسهما الآباء والمعلمون وغيرهم من الكبار ، أى الضوابط الخارجية .
- ٣ - القبول وعدم القبول الاجتماعى وخاصة من قبل الجماعة التى ينتمى إليها الطفل .
- ٤ - الإيثار حيث تحرك الفرد وتسيره الرغبة فى عمل الخير العام ، ويمثل هذا أعلى المستويات الخلقية .

وفي الطفولة المبكرة يكون سلوك الطفل ليس خلقيا أو لا أخلاقيا . ان حاجات الطفل الرضيع تشبه حاجات الحيوان ، بمعنى انها فيزيقية حسية ومباشرة، فيحاول ان يحصل على الاشباع المباشر لحاجاته وان يتجنب الألم . وفي محاولاته لاشباع حاجاته يكون الطفل الصغير انانيا متسلطا ومن خلال شعوره بالدفع والبرد والامتلاء والفراغ يحصل الطفل الصغير على الشعور بالخبرات الجيدة والخبرات (٤١) الرديئة .

ولقد ميز **بياجية** Piaget بين نوعين من الأخلاق :

١ - النوع الاول الذى يظهر مبكرا ، او هو ما أطلق عليه اصطلاح ( الأخلاق الموضوعية ) objective morality وهنا تكمن الصحة والخطأ في بعض مظاهر السلوك ، ويمكن ادراكهما موضوعيا ، وهما بينان أو واضحان بذاتهما ، فالطفل الصغير يعتقد ان أى شخص يستطيع ان يدرك خطأ أخذ أى شىء يخص الغير أو يخص شخصا آخر ، وتبعاً لراى **بياجية** فان الاطفال في سن الثمانى سنوات يحكمون على أى سلوك تبعاً لنتائجه بصرف النظر عن الدوافع أو النوايا . التى تكمن وراء السلوك . وعلى ذلك فالطفل الذى كسر ، عرضاً أو مصادفة أو قضاء وقدر ، عشرة أطباق هو أكثر « شقاوة » أو خطأ أو مشاغبة من ذلك الطفل الذى كسر عامداً متعمداً كوباً واحداً . وبمرور الزمن يصبح الطفل قادراً على استيعاب الافكار المجردة حول الخير والشر بوجه عام .

ويعتقد **بياجية** ان هناك انتقالاً من الضبط الخارجى ومن الواقعية الخلقية الى النسبية الخلقية .

حيث يصبح حكم الطفل الخلقى نسبياً وليس حرفياً . يبدأ الطفل في تكوين فكرته عن الصواب والخطأ عن طريق اكتشافه ان اشباع حاجته في الحب والدفع لا يتأتى الا عن طريق ارضاء أمه ، وعن طريق الحصول على موافقتها ، وهذا يضع الأسس الاولى نحو التعامل مع الناس ، فموافقة أو رفض الآباء تمثل الجذور الاولى للمعايير الخلقية . وفي دراسة هارتشون وماى وجد ان الاطفال من سن تسع سنوات يعملون طبقاً للخير العام ويتعاونون فيما بينهم وتثيرهم دوافع الاحسان .

ويقرر **الج** Ilg ان الطفل عند سن ثمانى سنوات يستطيع ان يميز بين الخطأ والصواب والخير والشر ، وفي الفترة ما بين ٥ ، ٧ سنوات تحدث زيادة في السلوك التعاونى وفي ادراك حقوق الآخرين .

وعلى الرغم من ان الجنوح يزداد انتشاره في مرحلة المراهقة ، الا ان جلدوره الاولى ترجع الى الطفولة المبكرة ، ولاشك ان النمو الداخلى الخلقى عامل اساسى محدد في ازالة السلوك

الجانب . في الطفولة المبكرة لا يدرك الطفل الصراع بين الامانة والولاء للاصدقاء . وكلما تقدم الطفل في السن كان اكثر وعيا وادراكا لهذا الصراع ، وكلما تقدم الطفل في السن ايضا كان اكثر قدرة على ادراك المطالب الثقافيه والتوقعات الاجتماعية .

اما عن تطور الحكم الخلقى عند الطفل ، ففي مرحلة الطفولة المبكرة يسير الطفل حسب ما اسماء بياجيه « الخلقية الموضوعية » ومعنى ذلك ان العالم عبارة عما نشاهده فقط ، وليس هناك وجهات نظر متعددة ، وليس هناك نسبية ، فالاشياء اما بيضاء او سوداء ، صواب او خطأ ، فعلى قدر فهم الطفل فان الآباء في نظره يعرفون كل شيء ، فاذا قالوا ان هذا خطأ فانه خطأ ، فكل ما يقوله الآباء او يفكرون فيه فهو صواب .

فالاطفال يحكمون على الاشياء حكما موضوعيا ، اى دون اخذ الدوافع في الاعتبار ، تلك الدوافع التى دفعت الطفل نحو هذا السلوك ودون اعتبار للظروف المحيطة والملابسات ، بل يتبعون « حرفية النص الخلقى » او حرفية القاعدة في العابهم . فالعقاب يتناسب مع حجم الخسارة المادية التى أحدثها الطفل ، وليس وفقا لدوافع الطفل أو نواياه أو « سبق الاصرار والترصد » .

وعلى كل حال طبقا لمنطق بياجيه فان الطفل بالتدريج يتعلم ان القواعد الاخلاقية التى يضعها الكبار ليست مطلقة ، وبذلك يمكن تعديلها لكى تناسب الظروف المحيطة بموقف معين .

في المراحل المتقدمة تظهر المرونة في الاحكام الخلقية ، وعندئذ يدرك الطفل ان القاعدة الخلقية يجب ان تتعدل طبقا للظروف ، بحيث تحقق الصالح العام والخير الاكثر ، فالطفل الذى تأمره الاسرة بالعودة فورا بعد الخروج من المدرسة والذي ينفذ ذلك في حالة تعطل المواصلات العامة « بالشعبطة » في احدى سيارات النقل ، وبذلك يعرض حياته لخطر الموت في سبيل تنفيذ تعليمات الاسرة يلتقى عقابا غير مفهوم بالنسبة له ، ففي هذه المراحل المتأخرة يدرك الطفل ان الحكمة في طاعة القوانين والقواعد الخلقية تكمن في تنفيذ روح القانون اكثر من حرفية القانون . (٤٢)

#### علاقة الذكاء بالأخلاق :

في بعض الدراسات وجد ان نسبة ذكاء مجموعة من الاطفال الاحداث الجانبين هي ٩٢٥ بينما كانت نسبة ذكاء مجموعة مماثلة من غير الاحداث الجانبين ١٠١٨ ، الا ان انخفاض الذكاء ليس عاملا اساسيا في حدوث معظم حالات الاحداث (٤٣) الجانبين .

(\*) يشير الصراع لحالة نفسية فيها تجاذب الفرد بين هدفين أو مشيرين قد يكون احدهما مشراجيدا والاخر ضارا ، أو كلاهما ضارا أو كلاهما خير كصراع الفرد بين الرغبة في الثراء والخوف من العقاب أو تائب الضمير . وهناك صراع الاقبال - الاحجام ، وصراع الاقبال - الاقبال ، وصراع الاحجام - الاحجام .

(٤٢) Breckenridge, M.E. and Vincent, E.E. Child development physical and Psychological growth through the school years, W.B. Saunders Co., London, 1949.

(٤٣) Brooks, A., Child psychology, Methuen and Co., London, 1951, P. 409.

لقد أجرى عدد كبير من الدراسات لتحديد كم وكيف العلاقة بين الذكاء والاخلاق . وفي مثل هذه الدراسات يقارن الاطفال أصحاب الذكاء المرتفع بالاطفال متوسطى او ضعيفى الذكاء ، يقارنون فى مستوياتهم الخلقية . ففى احدى الدراسات التى أجراها تيرمان Terman على ٥٣٢ طفلا ذكيا تزيد نسبة ذكائهم عن ١٣٠ وجد أنهم يتفوقون فى السلوك الخلقى على المجموعة الضابطة من الاطفال من ارباب الذكاء المتوسط . ولقد استنتج تيرمان ان الاطفال المتفوقين عقليا يتفوقون من الاطفال متوسطى الذكاء على اختبارات الامانة والصدق والسمات الخلقية المشابهة . وهنا يجب أن نتحفظ فى تفسير هذه الفروق وارجاعها الى الذكاء وحده ، ذلك لأن أحدا لا يستطيع أن ينكر تأثير البيئة المنزلية وغيرها من العوامل الاجتماعية على الانحراف وعلى النمو الخلقى . لقد درس تأثير الذكاء على المستوى الخلقى عن طريق مقارنة نسبة الاطفال ضعاف العقول بين جماعات الاحداث الجانحين . وعلى سبيل المثال وجد بيرت Burt ٨ ٪ فقط من الاطفال ضعاف العقول بين الاحداث الجانحين ( نسبة ذكاء أقل من ٧٠ \* ) ولقد وجد كل من هيلى وبرونر فى دراستهما عن الاحداث فى شيكاغو وبستون ١٣ ٪ من ضعاف العقول ، اما هذه النسبة فى المجتمع العام فلا تتجاوز ١١/٢ ٪ . (٤٤)

وفى نفس الوقت وجدت نسبة الجنوح الى الصحبة السيئة عند ٦٢ ٪ من الحالات . كذلك وجد هارتشون وماى معامل ارتباط قدره ( ٥٠٠ ر . ) بين الذكاء والغش ، بمعنى انه كلما زاد الذكاء قل الغش ، وكلما قل الذكاء زاد الغش . ويبدو أن تأثير الذكاء على الاخلاق نوعيا أكثر من كونه تأثيرا عاما ، فالاطفال الأكثر ذكاء كانوا أكثر تعاوناً من الاطفال الاغبياء والمتوسطين ، ولكن العلاقة بين الكرم والذكاء كانت ضعيفة ، اما العلاقة بين الامانة والذكاء فكانت عالية (٤٥) .

وفى احدى الدراسات وجد أن طفل التسع سنوات الموهوب عقليا يصل الى مستوى نمو خلقى يعادل طفل الرابعة عشرة من الاطفال غير المنتقين . ولكن الذكاء يساعد فى سرعة حدوث النمو مهما كان الاتجاه الذى يتخذه هذا النمو ، فاما : اخلاق حسنة او « جرائم خطيرة » . كذلك فلقد وجد أن الاطفال الأكثر ذكاء أقل غشاً فى امتحاناتهم ، ولكن ليس ذلك بالضرورة لانهم أكثر خلقاً ؛ بل ربما لانهم أكثر قدرة على حل أسئلة الامتحان بدون اللجوء الى الغش . ويبدو منطقياً ان نقول أن الطفل الذكى والطفل الغبى يختلفان فى قدراتهما على التنبؤ بنتائج أعمالهما ، كما يختلفان فى قدراتهما على الرؤية البعيدة للمزايا البعيدة فى الاهداف المرتقبة ، وتفضيل ذلك على الاشباع المباشر لحاجاتهم الراهنة .

---

\* من المعروف ان نسب الذكاء ١٠٠ تشير الى الطفل متوسط الذكاء وهو الطفل الذى يساوى عمره العقلي عمره الزمني .

Jones, V., Op. Cit. P. 793.

( ٤٤ )

( ٥ ) راجع كتاب المؤلف « القياس والتجريب فى علم النفس والتربية » دار النهضة العربية - بيروت لتحديد معنى الارتباط والعلية والفرق بينهما .



وكلما زاد ذكاء الفرد كان أقدر على اختيار العناصر الصالحة من بيئته وعلى تشكيلها وتسخيرها بما يخدم أغراضه . كذلك لا يتعلم الذكي والفبي بالتساوى حتى من نفس الموقف، أو من نفس البيئة ، والمفروض أن يساعد الذكاء الفرد على الاستفادة من بيئته الى أقصى حد ، وعلى تعديلها اذا كانت غير مواتية ، وعلى تكييف نفسه للمواقف الجديدة . ولقد دلت دراسة تيرمان أن الاطفال الموهوبين يتفوقون على الاطفال المتوسطين في السمات والقيم الموجهة نحو النجاح الدائى أكثر من السمات والقيم الموجهة نحو المسؤوليات والخدمات الاجتماعية، فلاحظ أيضا أن الاذكياء يرتفع عندهم مستوى الطموح، وتفوقت المجموعة الموهوبة على المجموعة المتوسطة تفوقا أكثر دلالة في الإرادة والمثابرة ، وتفوقت أقل في المشاركة الوجدانية والرقه ، كذلك وجد هارتشون وماى معامل ارتباط قدره ١٦.٠ بين الذكاء ومساعدة الآخرين ، ومعامل ارتباط قدره ٩.٠ بين الذكاء وروح التعاون .

ولكن لا ينبغي الاعتقاد بأن الضعف العقلى أو البغاء يؤديان بحد ذاتهما الى الجنوح ، هناك دائما عوامل متوسطة كثيرة ، فانخفاض الذكاء مثلا قد يقود الى الفشل والاحباط ، كما يقود الى كثير من الصعوبات في التحصيل المدرسي . كذلك فان مستوى طموح الفرد ينخفض في حالة الضعف العقلى .

#### كيف ينمو ضمير الطفل :

يظهر الضمير أو الذات العليا في اصطلاحات التحليل النفسى ، في سلوك الطفل تدريجيا . ففي بداية حياة الطفل يرغب في الاشباع المباشر للدوافع أو لحاجاته بصرف النظر عن الاعتبارات الخلقية أو العملية ، فهو يطلب الطعام ويطلبه الآن وفي هذا المكان .

وبالتقدم في العمر يتعدى السلوك الاندفاعى خلال الخبرة ، فيتعلم الطفل أن بعض استجاباته سوف يثاب عليها ، وأن بعضها الآخر سوف يجلب له العقاب ، وأن بعض مطالبه لا يمكن تلبيتها في الحال ، وأن بعضها الآخر لا يمكن تحقيقه مطلقا . وبمرور الوقت يصبح تجنب بعض مظاهر السلوك الذى كان يحدث نتيجة لقوة خارجية يحدث الآن نتيجة « للسلطة الداخلية » فيكف الطفل عن الاتيان بالسلوك الخاطيء حتى في غياب الكبار ممثلى السلطة الخارجية في الطفل . وهنا يشعر الفرد بالذنب عندما يفشل في مقاومة الاغراء .

وتبعاً لنظرية فرويد هناك في كل شخص منطقة من الدوافع غير المستانسة تشبه الحيوان في طبيعتها ، وعند الميلاد تحتوى هذه المنطقة على مجموعة من البواعث العامة « الغريزية » ، وهى ما أطلق عليه اسم **الذات الدنيا** Id في هذا الدافع توجد قوتان مختلفتان هما :

١ - الدافع نحو الحياة ونحو الخلق والحب ، وهو الذى يسميه فرويد رغبة الحياة أو غريزة الحياة .

٢ - والدافع العدوانى الهدام وهو ما اطلق عليه رغبة الموت أو غريزة الموت . وتبعاً لوجهة نظر فرويد فان الطفل تحكم « الانا الدنيا » حياته . فهو بلا قيود او شعور بالاسف يسعى لتحقيق لذاته ، ويعبر عن دوافعه « الهدامة » نحو موضوعات العالم الخارجى .

وتشير الانا الدنيا في اصطلاحات فرويد الى الطبيعة البدائية وغير المفكرة واللامعقولة ، والتي تستهدف اشباع الفرائز مباشرة اشباعاً كلياً وعلنياً . ولكن بمرور الوقت ينمو تحكم الطفل ، ففي البداية يكون الطفل غير خلقى وغير اجتماعى ولا يتوقف عن السلوك غير المقبول الا في حضور الكبار اصحاب السلطة في العقاب .

**اما العنصر الثانى في الشخصية الانسانية في الفكر الفرويدى فهي الذات الوسطى Ego** وهى عبارة عن القدرة على التعامل عقلياً بمعقولة مع الواقع ، وتنمو الذات الوسطى من الذات الدنيا ، وتتمشى مع مبدأ الواقع ، وتمثل العالم الخارجى وقيوده وتكاليفه وفروضه ومستلزماته . وهى القوة التى تدرك الحدود او الفواصل الواقعية التى تمنع من حدوث الاشباع المباشر لدوافع « الذات الدنيا » فتبعاً لمنطق الذات الوسطى هذه فان تأجيل الاشباع يضمن لنا اشباعاً اكثر كمالاً في المستقبل . وتحتوى الذات الوسطى على اجزاء شعورية واخرى لا شعورية . وهى التى تتصل دائماً بالعالم الخارجى ، وتهتم بما يجرى في بيئة الفرد ، وعليها ان تفى بمطالب الواقع ، ومن ثم فانها تنادى الطفل الصغير قائلة : انك ينبغي ان تطيع امك ، لانها سوف تصفحك ان لم تفعل ذلك .

وعليها ان تشبع المطالب الداخلية للذات العليا وتقاوم ضغوط الذات الدنيا التى تدعو للانطلاق . وعلى ذلك فللذات الوسطى ثلاثة اسياد هى :-

١ - البيئة او الحياة الخارجية او المجتمع .

٢ - الضمير

٣ - الذات الدنيا

وعلى ذلك فكلما نجحت الذات الوسطى في التعامل مع هذا المثلث تعاملت حسناً وتحسن توازن الشخصية او اتزانها النفسى .

**اما العنصر الثالث في تكوين الشخصية فهو تبعاً لنظرية فرويد الضمير او الذات العليا ، وهنا نتساءل كيف يتكون او ينمو ضمير الطفل الصغير ؟**

كلما نما الطفل نمت المعايير الداخلية ، تلك المعايير التى نسميها صوت الضمير الذى يرشد الفرد في سلوكه وفي احكامه الخلقية .

ويمثل الضمير معايير الفرد وقيمه ومبادئه ومثله العليا . انه السلطة الضابطة العليا في الانسان ، فاذا لم يستجب الفرد لندائه فانه سوف يعاقب عن طريق قوة داخلية من خلال الشعور بالذنب وكراهية الذات ونبذها . ويعطى فرويد اهمية كبرى لنمو الضمير في نضج الفرد ،

فالفرد يظل غير ناضج حتى يعطى الاحترام الملزم لقوانين المجتمع الذى يعيش فيه ، وحتى يصبح لديه ذوق جيد ، ويطيع القانون ، يحترم حقوق الآخرين ، ويشعر بالواجب .

ويلعب الضمير دور الاب ، او الامر او المراقب او الملاحظ او الشرطي على كل حال من الذات الدنيا والذات الوسطى . انه يعمل كقاضى للاخلاق يحكم تبعا للمبادئ « المثالية » اكثر من المبادئ الواقعية ، انه يعمل من اجل الوصول بتصرفاتنا نحو الكمال المثالى . ويقال انه يحدد السلوك ، يقمعه او يمنعه ، ويتحكم فى ضبطه ، وعلى الرغم من طبيعة الضمير الخلقية الا انه اذا اصبح حادا او قاسيا اكثر من اللازم فانه يظل يخز ويؤنب صاحبه على كل كبيرة وصغيرة ، بل حتى على مجرد الافكار السيئة ، حتى تلك الافكار التى ينجح الفرد فى اخفائها عن الناس لا تنجو من عقاب الضمير عليها . وتؤدي حدة الضمير الى تكوين شخصية هيابة مترددة . فاذا زادت سيطرة الضمير فى الشخصية يصبح الفرد عبدا لمجموعة من العادات والتقاليد ، وعبدا لمشاعر الذنب والتأنيب القاسية . يقول فرويد ان الحياة الشخصية تشبه جبل الثلج العائم iceberg يفوص معظمه تحت سطح الماء . وعلى ذلك فالصراعات التى تحدث بين الذات الوسطى والذات العليا هى على المستوى اللاشعورى غير المرئى . وللمحافظة على توازن الفرد ينبغى ان تكون العلاقة بين الذات الدنيا والوسطى والعليا علاقة وئام وانسجام وتوازن . ولا ينبغى أن يكون الضمير قاسيا او حادا جدا ، لان ضعفه اكثر من اللازم يؤدي الى نشأة الانحراف السيكوباتي .

واخيرا فاننا ينبغى ان نشير الى انه رغم تقسيم فرويد العقل الانسانى الى هذه العناصر الثلاثة الا ان العقل الانسانى فى الواقع وحدة دينامية متكاملة متفاعلة ، بل ان الانسان نفسه وحدة جسمية نفسية واجتماعية متكاملة متفاعلة ، وان هذه العناصر ليست الا تجريدات عقلية لوصف انماط معينة من السلوك ، وليس العقل البشرى مقسما الى موجودات مستقل بعضها عن البعض ( ٤٦ ) فلا ينبغى ان نتصور ان الذات الدنيا والوسطى والعليا كائنات صغيرة تكمن داخل الانسان ، وانما هى مجرد تجريدات يضعها الباحث الملاحظ لوصف انماط معينة من السلوك .

ولا شك ان فهم الضمير عملية اساسية في فهم سلوك الانسان كله ، وهنا نتساءل عن العوامل المؤثرة فى نمو الضمير ، وعلى الفور تبرز امانا ثلاثة عناصر اساسية هى :

١ - قيم الثقافة او معاييرها التى تكون جزءا اساسيا من الشرعية التى تنتقل للطفل عبر الآباء والامهات ، وتختلف تلك القيم من ثقافة الى اخرى ، فعلى حين نجد ان العدوان سلوك غير مرغوب فيه فى اطار بعض الثقافات نجد ان توكيد الذات تؤكده وتشجعه ثقافة اخرى ، بينما تشجع ثقافة ثالثة الاعتراف بالشخصى .

٢ - نمو الطفل العقلي ، فالطفل الأكبر سنا والاكثر نضوجا من الناحية العقلية اكثر قدرة على ادراك وفهم ما نتوقعه منه ، انه يستطيع ان يفهم اسباب بعض القيود والمعايير ، كما انه يستطيع ان يعمم بعض المبادئ ، وان يطبقها على العديد من المواقف . كذلك فانه يستطيع اكثر من زميله الصغير ، ان يدرك المفاهيم المجردة التي تكمن وراء المسائل الاجتماعية مثل الايثار او المساواة او العدل او الحق او الخير او الصدق او الشفقة .

٣ - علاقة الطفل بابويه . هنالك بحوث كثيرة استهدفت معرفة التأثير الوالدى على نمو ضمير الطفل . فى دراسات « التنميط » التى اجراها كل من سيرز وماكوبى وليفين Sears, Maccoby and Livin, 1957. طلب من امهات الاطفال ان يحددن علامات نمو الضمير فى سلوك اطفالهن . واتخذ لذلك معيارين هما :

١ - نزعة الطفل لى يمثل الدور الابوى ، اى بمحاولاته تعليم اخواته واخوته واصدقائه معايير الآباء .

ب - سلوك الطفل الذى يعقب عمل الخطأ ، اى محاولاته الاعتراف بهذا الخطأ او الاعتذار عنه او باصلاح ما افسده . وحدد مقدار نمو ضمير الطفل على هذا المقياس المكون من خمس نقاط هى :

١ - لا دليل على النمو اطلاقا : حيث ينكر الطفل ، ولا يبدو عليه عدم السعادة عندما يكون « شقيا » .

٢ - ادلة بسيطة على وجود الضمير .

٣ - نمو متوسط للضمير : بما لا يعترف بالخطأ مباشرة ، ولكنه يبدو خجولا او جبانا ونادرا ما ينكر اخطائه .

٤ - ضمير لا يستهان به ونام بدرجة كبيرة .

٥ - ضمير قوى : حيث يشعر الطفل بالتعاسة عندما يكون « شقيا » ودائما يعترف ولا ينكر أبدا ، ولديه حاجة قوية للعفو والحصول على تسامح الآخرين .

وتتم عملية امتصاص الطفل لمعايير الكبار عن طريق عملية التقمص او التوحد . فالتقمص القوى لشخصية الآباء يساعد على نمو ضمير الطفل . فلقد وجد ( تبعا لدراسات ميسون ودستلر ١٩٦٠ ) Mussen and Distler أن صبيان سن الحضانة الذين كانوا اكثر ذكورة ، وبما يسبب تقمصهم لشخصية آبائهم كانوا ايضا متقدمين فى نمو الضمير . كذلك وجد ( فى دراسة ستين ) بعض الادلة التجريبية ان الاطفال فى مواقف الاغراء يقلدون النموذج الذى يخضع للاغراء ، ويوحى هذا ان الآباء يعملون كنموذج لابنائهم فيما يختص بالسلوك الخلقى ، فقد اهتم البحث العلمى بعاملين اساسيين فيما يتعلق بنمو الضمير .

## أ - نوع التأديب الأبوي .

ب - دفع علاقة الاب - الطفل ، فيما يتعلق بالنشاط التأديبي في المنزل . كشفت دراسة التنميط ان الاسلوب السيكولوجي اى الاتجاه الموجه بالحب ، ذلك الذى يتمثل بالمدح والفزل ، وسحب الحب ، ساعد في نمو الضمير اكثر من الاسلوب المادى الفيزيقي المتمثل في المكافأة المحسوسة والحرمان والعقاب الفيزيقي.

وفي دراسة **مالك كونون Mackinonon** على طلاب الجامعة وجد ان الذين تجاوزوا المنوعات كانوا اولئك الاطفال الذين كان آباؤهم يتبعون نظاما فيزيقيا في التأديب اكثر منه نظاما سيكولوجيا .

ولكن هناك دراسة حديثة نسبيا ( ١٩٦١ ) اجراها كل من **بارتون وماكوبى والينسميث Burton, Maccoby and Alinsmith** على اطفال سن الاربع سنوات عن مقاومة الاغراء في الغش لم تؤيده هذه النتائج ، ففى هذه الدراسة الاخيرة كان العقاب البدنى مرتبطا بمقاومة الاغراء اكثر من العقاب السيكولوجي او استخدام العقل . ويدوان الاسلوب الفيزيقي والمباشر يؤثر في الطفل الصغير ، ولكن تحل محله الاساليب السيكولوجية التى تشجع التقمص مع الآباء يتقدم الطفل في السن وبحصول مزيد من النمو المعرفى **cognitive development** ويشبه التميز بين مناهج التأديب الفيزيقيّة والنفسية التميز بين أسلوب الاستقراء وأسلوب الاحساس **induction and sensitizaion**

وقد قام بهذه المحاولة **ارنو فريد سنة ١٩٦١ Arnofreed** . من بين الاساليب الاستقرائية استخدام الاستدلال مع الطفل او اعماله او نبذه او استخدام الشرح والتفسير ، وتثير مثل هذه الاساليب في الطفل ردود فعله لتجاوزاته ، وربما تصبح ردود الفعل هذه مستقلة عن المصادر الاصلية للعقاب . وعلى سبيل المثال فان الاستدلال مع الطفل الصغير يشرح النتائج والمرتبات لفعل ما ، سوف تشجعه على فحص واختيار تصرفات ، وعلى قبول المسؤولية عن هذه الافعال .

وعلاوة على ذلك فان هذا المنهج يسمى قدرة الطفل على التعاطف او وضع نفسه في مكان الغير والاندماج ذهنيا في موقف الشخص الاخر عن طريق تحديد الآثار الضارة لسلوكه بالنسبة لوالديه وللآخرين .

اما أسلوب الاحساس او الحساسية فيتقصد العقاب البدنى والزجر والتعنيف والتوبيخ . هذا الأسلوب يجعل الطفل شديد التأثير للخوف من العقاب الخارجى الذى يعقب تجاوزاته او أخطائه ، كما يعطى أهمية كبرى لمطالب الآخرين وتوقعاتهم . وعن طريق استخدام منهج « استكمال القصص » مع اطفال الصف السادس في احدى المدارس الامريكية وجدت علاقة بين نوع الاستجابة الخلقية للطفل واسلوب أمه في التأديب ، فالاطفال الذين استخدمت اماتهم الاساليب الاستقرائية كانوا اكثر ميلا لاستخدام افكار عن الاصلاح والترضية

وفكرة القبول في قصصهم ، بينما الاطفال الذين استخدمت امهاتهم الاسلوب الحسى عبروا عن نتائج خارجية لتجاوزاتهم في قصصهم .

وبصدد أسلوب الآباء التأديبي أيضا ميز « هوفمان » Hoffman ( ١٩٦٣ ) بين التأديب التوكيدي القوى والتأديب غير التوكيدي وغير القوى ، النوع التوكيدي ، يتضمن العقاب البدني والحرمان المادي ويؤدي هذا الاسلوب الى توجيه خلقى خارجى قائم على اساس الخوف من العقاب من الاكتشاف .

اما النوع الثانى فيتضمن سحب الحب ، وانماطا من التأديب الاستقرائى ، ويؤدي الى تكوين اتجاه خلقى داخلى يتميز بشعور قوى بالذنب . ولقد وجد « هوفمان » تأييدا لفكرته بان المنهج الاستقرائى يؤدي الى ضمير اكثر قوة من منهج سحب الحب نظرا لفشل هذا الاسلوب الاخير في توجيه تفكير الطفل الى الامام التى يشعر بها الآخرون نتيجة لخطائه . ان الادراك او الوعى بمشاعر الآخرين والتحقق من ان الطفل هو المتسبب في عدم راحة الآخرين ينبغى ان يعمل على تنمية ضوابط واخلية قوية (٤٧) .

ولقد وجد ان الاساليب الموجهة بالحب تنتشر بين امهات الطبقة الاجتماعية الوسطى ، اما الانماط الفيزيائية من التأديب فمنتشرة بين امهات الطبقات الاجتماعية الدنيا . وفي دراسة « آرنو فريد » اختارت امهات الطبقة الوسطى « الاستقراء » ، بينما اختارت « الاحساس » امهات الطبقة الدنيا . ان الاسلوب الفيزيائى المنتشر في بيوت الطبقة الدنيا لا يشجع التقنص ولا يؤدي الى تقوية الضوابط الداخلية The inner controls ولم تسفر الجهود التى بذلت لربط الضمير بممارسات محددة نوعية لتربية الطفل عن نتائج واضحة ، ربما لان الجو السيكلوجى العام فى المنزل هو الاكثر اهمية عن اى اسلوب نوعى محدد فى تربية الطفل .

فلقد وجد ان التهديد بانسحاب الحب ، وهو منهج سيكلوجى ، ليس له تأثير كبير اذا كانت الام « باردة نفسيا » او كانت نابذة لطفلها اصلا .

وعلى العكس من ذلك فان هذا المنهج اثبت فاعلية كبيرة عندما كانت علاقة الطفل بامه علاقة قبول ودفاء . ان الطفل غير المقبول ليس لديه ما يخسره بممارسة العمل غير المقبول .

لقد وجد ١٨٪ فقط من الاطفال المنبوذين هم الذين حكم عليهم بأن لديهم ضمير قوى بالمقارنة مع ٣١٪ من المجموعة المقبولة .

كذلك وجد ان الاطفال الذين يقبلهم آباؤهم كان لديهم ضمير اقوى عن الاطفال الذين ينبتهم الآباء .

ولقد وجد أن هناك سمتين في الأسرة ترتبطان بنمو الضمير أو الذات العليا في الاطفال، أى بوجود ضمير فعال يوجه السلوك ويرشده، وهاتان الصفتان هما :

١ - الثبات أو الديمومة consistency

٢ - اتحاد بين الثقة المتبادلة والقبول .

فالنمط الثابت للضبط الأبوى وللتوقعات يعطى مواقف واضحة جلية لنمو السلوك الايجابى ، وعلاوة على ذلك فإن جو الثقة المتبادلة يساعد الطفل لامتناس قيم الآباء ومعاييرهم فيقبلها الطفل على أنها معاييرها هو .

أن نمو الضمير ينبغى أن يفهم لكى يفهم نمو الشخصية برمتها ، ذلك لان الطريقة التى يحل بها الفرد صراعاته الخلقية هى جانب ثابت من جوانب شخصيته .

وليس هناك أقوى من توفير جو من الحب والدفع والحنان فى العلاقة بين الآباء والاطفال في نمو الضمير وامتلاك الضوابط الداخلية وتبنى قيم الآباء ومبادئهم ، تلك التى تعكس بدورها قيم المجتمع ومعاييرها .

وفى بداية المراهقة تلعب الثقة المتبادلة والقبول والثبات المتحد مع الدفع ، تلعب دورا هاما في نمو الضمير القوي (٤٨) .

والآن لنتناول عملية التنشئة الاجتماعية بالعرض والتحليل لبيان الصلة الوثيقة بين النمو الخلقى والروحى فى هذه العملية .

• • •

### تعريف عملية التطبع الاجتماعى وأهميتها :

أن تحديد النمو الاجتماعى مسألة صعبة ، وذلك نظرا لتمدد الدراسات التى تناولت موضوعات يمكن أن تندرج تحت هذا العنوان ، فدراسة الانفعالات والطموح والقيم والعادات السلوكية والعلاقات الاجتماعية واللغة ، ودراسة موضوعات مثل الغضب والعدوان والفيرة والامان والسعادة والضحك والتعاطف والسلوك الجنسى كلها تتصل بالنمو الاجتماعى ، كذلك هناك دراسات متعددة تتناول موضوعات النمو الاجتماعى دون أن تحمل هذا العنوان ، ومن أمثلة ذلك دراسة جنوح الاحداث ونمو الاخلاق .

اما السلوك الاجتماعى فيقصد به السلوك الذى يتأثر بوجود الآخرين وبسلوكهم ، أو ذلك السلوك الذى ينظمه المجتمع ، أو السلوك الذى يقصد به التأثير فى الآخرين كالقيادة \* مثلا فهو

سلوك يقصد به التأثير في اتجاهات الآخرين وفي سلوكهم . أما النمو الاجتماعي Social growth  
فيقصد به نمو الفرد في السمات التي تسهل التفاعل الاجتماعي Social interaction  
أي الأخذ والعطاء والتأثير والتأثر بالجماعة .

أما التطبع الاجتماعي والتنشئة الاجتماعية socialization فيقصد بها العملية التي  
يكتسب الطفل بموجبها الحساسية للمثيرات الاجتماعية ، كالضغوط الناتجة من حياة الجماعة  
والتزاماتها، وتعلم الطفل كيفية التعامل والتفاهم مع الآخرين ، وأن يسلك مثلهم ، فهي العملية  
التي يصبح الطفل بموجبها كائنا اجتماعيا ، وتتضمن هذه العملية تعليم العادات الاجتماعية  
والاستجابة للمثيرات الرمزية ، كما تعرف بأنها العملية التي تساعد الفرد على التكيف والتلاؤم  
مع بيئته الاجتماعية ، ويتم اعتراف الجماعة به ويصبح متعاوناً معها وعضواً كفواً فيها .

أما التوافق الاجتماعي فيقصد به تلاؤم الفرد وسلوكه لظروف المجتمع ومتطلباته ،  
وبذلك يصبح التكيف الاجتماعي social adjustment حالة تلاؤم للمجتمع الذي يعيش فيه  
أو البيئة الاجتماعية والوفاء بظروفه وشروطه ومتطلباته .

التأثير الاجتماعي social influence ويتضمن نوعية الأشخاص الذين يعرفهم آباء  
الطفل والذين يتبادلون وإياهم الزيارة - ويقدر الطفل آباءه ، وخاصة طفل الطبقة الاجتماعية  
الوسطى ، لمن يعرفونهم من أشخاص ، ولما يبدونه من حكمة ومعرفة . يقول الطفل : بابا ليس ضخماً  
أو قوى الجسم ، ولكنه يعرف الكثير والناس المهتمون يدعونه لبيوتهم ، ويحضر أسبوعياً مبلغاً  
ضخماً من المال ( ٤٩ ) .

وربما يرجع لهذا السبب خضوع أطفال الطبقات الوسطى للضبط الأبوي ، ويبدو أن  
التعليم الاجتماعي عموماً يتقدم أسرع عندما تفوق نسبة التعزيزات الإيجابية ، أي المكافآت ، نسبة  
العقاب .

كذلك وجد أن الثبات والديمومة في المعاملة تساعد في تعلم الطفل ، حيث يتعرف على تعديل  
سلوكه بحيث يحصل على ما يريد ويتحاشى ما يرغب في تحاشيه .

#### أهمية عملية التطبع الاجتماعي :

لأنك إن عملية التطبع الاجتماعي هي أكبر إنجازات الفرد ، حيث يؤدي الفشل فيها إلى  
أن يعيش الناس حياة بائسة تعسة ، ويعانون من سوء التكيف Maladjustment كما يخلقون  
البؤس لفيرهم من الناس . بل إن الحروب ليست النتيجة للفشل للدرع لعملية التنشئة الاجتماعية  
في الجماعات ، وتحدث الصعوبات والأمراض الآتية نتيجة للفشل في عملية التنشئة الاجتماعية :

١ - الذهان العقلي أي المرض العقلي أو الجنون Psychosis



Deilnquency	٢ - الجنوح أو الانحراف السلوكي
Alcohol addiction	٣ - ادمان الكحول
Psychopathy	٤ - السيكوباتيه والجريمة .
Homosexuality	٥ - الجنسية المثلية
Mental deficiency	٦ - بعض أنواع الضعف العقلي
Neurosis	٧ - العصاب النفسي أو المرض النفسي .

ولسوء الحظ فان أكثر المجتمعات تقدما من ناحية العلوم الطبيعية والانتاج التكنولوجي مازال يفتقر الى علم صحيح للتنشئة الاجتماعية ، كما يحدث في المجتمع الأمريكي الذي تنتشر فيه مثل هذه الاضطرابات والجرائم أكثر من غيره على الرغم مما حققه من تقدم علمي وتقني . اننا في حاجة الى علم يحدد معالم عملية التنشئة الاجتماعية ، ولذلك نجد من يقول ان كل علم النفس « هو عبارة عن علم نفس اجتماعي » . ومن أكبر الفروض التي ينبغي اعتناقها ان عملية التطبيع الاجتماعي عملية تعلم في المحل الاول ، فليس الخير أو الشر فطريا في الانسان ، ويحدث هذا التعلم نتيجة لتوجيهات الآباء ، ونتيجة للخبرة الشخصية للطفل ونتيجة للنضج الجسمي والعقلي والنفسي والاجتماعي . ويحدث التعلم على المستويين الشعوري واللاشعوري .

ومن المبادئ الهامة في عملية التطبيع ان هناك فروقا فردية واسعة في مدى تطبيع الافراد أو خضوعهم لعملية التطبيع . ولقد سقطت فكرة « البذرة السيئة » التي كانت توحى بالانتقال الوراثي لسمات الشخصية الاجرامية والسيكوباتية . بل اننا لم نحصل على صلات واضحة بين الحالة الوراثية ومعظم الامراض العقلية والنفسية بل حتى الضعف العقلي . ولكن هناك تفاعل قوى وفعال بين الجيلة والاستعدادية وبين البيئة الاجتماعية والمادية . هذا التفاعل قد يجعل من السهل أو الصعب على طفل ما أن ينمو راشدا سويا منضبطا عاقلا .

ولقد لاحظ بعض الباحثين تأثير حالة الحمل والولادة على شخصية الطفل . فقد لاحظ سونتاج ( ٥٠ ) ( ١٩٤١ ) ان الاطفال الذين مروا بحمل صعب كانوا أكثر نشاطا أو اندفاعا وتهيجا ، كذلك كشفت الدراسات الطولية للنمو longitudinal studies ان التفاعل بين البيئة المادية والاجتماعية من ناحية والتكوين الجسمي physique وكذلك وقت الوصول الى النضج الجسمي ومستوى النشاط يؤدي الى تأثيرات مختلفة على الشخصية .

وتلعب العوامل الآتية دورا هاما في عملية التطبيع الاجتماعي :

١ - مركز الطفل أو تربيته في وسط اخوته ، فالطفل الوحيد غير الطفل الاخير غير الوسيط ،

( ٥٠ ) راجع « بحث حقلي للمؤلف عن « سيكولوجية المرأة العربية الحامل » ، الهيئة العامة للكتاب . مصر ( تحت الطبع )

والطفل المرغوب فيه غير المنبؤ ، والوحيد على عدد من البنات غير الموجود مع عدد كاف من البنات غير الموجود مع عدد كاف من الذكور... الخ .

٢ - سن الآباء ، فطفل الآباء المتقدمين في السن غير طفل الآباء الشباب .

٣ - البيئة المادية والاجتماعية المحيطة بالطفل .

٤ - الذكاء ، فالطفل ضعيف الذكاء أقل حساسية للمؤثرات التي تؤثر في التنشئة الاجتماعية .

٥ - التكوين الجسمي للطفل ، فالطفل القوي البنية غير الطفل الضعيف .

٦ - العلاقة بين الآباء والاطفال ونمط معاملة الطفل .

٧ - المستوى الاجتماعي والاقتصادي للأسرة .

٨ - انتماء الأسرة الى جماعات الاكثرية او الاقلية في المجتمع .

تنبع الدوافع الاجتماعية من المواقف التي يمتص منها الفرد المؤثرات الاجتماعية . هذه المؤثرات تكون في اول الامر خارجية بالنسبة للفرد . ان عملية نمو وتعلم التفاعل الاجتماعي والتي ينتج عنها ان يمتص الفرد Intrnalization المؤثرات الاجتماعية وبذلك تصبح مثيراته هو شخصيا ، وذوقه ورغباته ، هو ، هذه العملية هي عملية التطبيع الاجتماعي (٥١) .

ان النتيجة النهائية لتنشئة الفرد الاجتماعية تظهر في اتجاهاته الاجتماعية social attitudes وافعاله واقواله في التعبير عن هذه الاتجاهات . كما تظهر في تعامله اليومي مع غيره من الناس وتفاعله مع الجماعات الاخرى ، ومع نواحي ثقافته ، ويؤدي مثل هذا الاحتكاك الى نشأة اتجاهات محددة نحو هذه الاشياء . فالانسان لا يولد رأسماليا او شيوعيا او جمهوريا او ديموقراطيا ... الخ وانما هو يتعلم ان يكون ايا من هؤلاء بالخبرة والتجربة . ( ٥٢ )

#### مراحل النمو الاجتماعي :

يذهب ايركسون Erikson ( ١٩٥٦ ) الى القول بأن عملية التطبيع الاجتماعي تمر بشماني مراحل أو أطوار ، وهو في ذلك متأثر بعمق باتجاهات فرويد في هذه المراحل ، ولقد افترض هذه المراحل ، ليس بناء على أعمال تجريبية ، ولكن من خلال عمله المطول بالعلاج النفسي ، وخاصة مع الاطفال والمراهقين ، من أبناء الطبقات الاجتماعية الدنيا والوسطى والعليا . وهذه المراحل مرتبطة اقل بالنظام العضوي عنها عند فرويد ، ولكنها أكثر ارتباطا بالتعلم الذي يحدث في المراحل المختلفة . ويعتبر ايركسون ان كل مرحلة عبارة عن أزمة نفسية تتطلب الحل قبل الوصول الى

Sherif, M. and Sherif, G. An outline of social psychology Harper and Row, N.Y. 1956.

( ٥١ )

( ٥٢ ) راجع باب الاتجاهات في كتاب المؤلف « علم النفس الاجتماعي » دار النهضة العربية - بيروت

المرحلة اللاحقة . ويعتبر هذه المراحل كالطوابق المعمارية: فالتعليم المرضى وحل كل مشكلة ضرورى اذا كان للطفل أن يمر بالمراحل اللاحقة بنجاح ، بالمثل فان أساس المنزل يعد ضروريا بالنسبة للطابق الاول منه ، الذى ينبغى أن يكون قويا بدوره لتعضيد الطابق الثانى ... وهكذا .

### وهذه المراحل الثماني هي : -

١ - تعلم الثقة في مقابل عدم الثقة mistrust-trust  
وتقابل هذه المراحل مرحلة الرضاعة ، وتشمل العام الاول أو الثانى اذا تناولنا الطفل تناولا حسنا وتمت تغذيته وحببه ، فانه ينمى في نفسه الشعور بالثقة وبالأمان ، والشعور الاساسى بالتفاؤل . واذا عومل معاملة سيئة فانه يفقد الثقة والأمان . وجدير بالذكر أن فرويد أطلق على هذه المرحلة اسم المرحلة الفمية :

٢ - تعلم الذاتية أو الاستقلالية في مقابل الشعور بالعار . ويعتقد ايركسون أن الاثمة النفسية الثانية تحدث في الطفولة المبكرة ( من ٢ - ٤ سنوات ) وتقابل المرحلة الشرجية عند فرويد ، وهى المرحلة التى يحدث فيها أكثر مظاهر التعليم وضوحا وضبطا ، ونعنى التدريب على عادات الاخراج ، ويخرج الطفل الذى يلقي معاملة والديه حسنة من هذه المرحلة متأكدا من ذاته ، سعيدا مبتسما يتمكن من الضبط الجديد القوى ، ويشعر بالفخر أكثر من شعوره بالعار .

٣ - تعلم المبادرة learning initiative في مقابل الشعور بالذنب .  
ويعتقد ايركسون أن هذه الازمة تحدث في سن اللعب أو سنوات ما قبل المدرسة ، وتبدأ تقريبا من سن ١/٢ سنة ، وفي اثنائها يتعلم الطفل ، الذى ينمو نموا صحيا ، أن يتخيل وأن يوسع مهاراته من خلال اللعب النشط من كل الانواع بما في ذلك اللعب الخيالى ، كما يتعلم التعاون مع الغير وأن يقود غيره بالمثل كما يتبع أو ينقاد للغير . اما اذا اعاقه الشعور بالذنب فانه يصبح خائفا يقف دائما على هامش الجماعات ، ويستمر في الاعتماد على الكبار بدون حاجة فعلية الى ذلك ويعاق نموه في مهارات اللعب play skills وفي الخيال . وتقابل هذه المرحلة تقريبا المرحلة القضيبية وعقدة اوديب في الفكر الفرويدى A Phellic and Oedipal Stages .

٤ - تعلم الاجتهاد industry في مقابل الشعور بالنقص inferiority .  
وتحدث في سنوات المدرسة الابتدائية وقد تمتد لتشمل بعض سنوات المدرسة الاعدادية ، وهنا يتعلم الطفل اتقان المهارات الأكثر رسمية اللازمة للحياة ، كالتعامل مع الجماعة تبعاً للقواعد والتقدم من الالعب الحرة الى اللعب المنظم عمدا أو المشكل طبقاً للقواعد ، وقد يتطلب فريق للعب ، وكذلك اتقان الدراسات الاجتماعية والقراءة والحساب . وهنا يشعر الطفل أن عمل

الواجبات المنزلية أصبح ضروريا ، وأن التاديب الذاتي يزداد تدريجيا . وهنا يصبح الطفل ، الذى فقد الثقة ، شكاكاً في المستقبل ، والطفل الذى يشعر بالذنب من المراحل السابقة يشعر الآن بالهزيمة والنقص .

وتقابل هذه المرحلة مرحلة الكمون عند فرويد .

٥ - تعلم الهوية identity في مقابل اضطرابات الهوية ، وتحدث هذه الازمة النفسية في نظره في سن المراهقة ، من حوالى ١٣ - ٢٠ سنة . فقد أصبح الطفل الآن مراهقا ، يستطيع أن يجيب اجابة مرضية سعيدة للتساؤل : من اكون أنا ؟

ولكن احسن المراهقين تكيفا يعانون من بعض الاضطراب في الهوية identity diffusion وخاصة الذكور ، حيث يعانون من جنوح بسيط يظهر في شكل عصيان أو تمرد rebellion والخجل والشك الذاتي ، وهنا تنمو نظرة المراهق للزمين - ويكتسب اليقين الذاتي في مقابل الشك الذاتي والحساسية الذاتية . فيقوم بأدوار ايجابية في الغالب بدلا من اعتناق الهوية السلبية ( كالجنوح ) فيحاول المراهق الناجح أن يحصل على بعض الانجازات بدلا من الشلل من جراء مشاعر النقص . وفي المراهقة المتأخرة يكتسب المراهق الرجولة ويكتسب المراهقة الانثى صفة النسائية ، وأحيانا يسمى للقيادة وبالتدريج ينمى نمطا من المثل المرغوبة ، وفي الغالب ما يلعب المراهق عدة ادوار حتى يجد اكثرها ملائمة له .

٦ - تعلم الصداقة الحميمة intimacy في مقابل العزلة . لأول مرة يشعر المراهق الناجح بالصداقة الحميمة والحقة . . التى يمكن أن يقوم على اساسها الزواج الناجح أو الصداقة المستديمة .

٧ - تعلم الانتاجية generativity في مقابل الاستغراق في الذات self-absorption في مرحلة الشباب المبكرة يتطلب النمو النفسى تعلم الانتاج سواء في الزواج أو الابوة وفي العمل وفي الإبداع أو الابتكار .

٨ - تعلم التكامل integrity في مقابل اليأس despair اذا مرت الازمات السبع الماضية بنجاح فان الشباب الناضج يصل الى قمة التكيف أى التكامل .

فهو الآن يثق في نفسه ويشعر بالاستقلال ، ويعمل بجدية ، ويجد لنفسه دورا محددا في الحياة وينمى في نفسه مفهوما عن الذات self-concept ويكون سعيدا بهذا المفهوم . يصبح ودودا دون توتر أو ذنب أو أسف أو بعد عن الواقعية ، ويصبح فخورا بما يبتكر أو ينتج من أولاد وبعمله أو هواياته . اما اذا فشل في حل أى من الازمات السابقة فانه يشعر باليأس والاشمئزاز .

هذه المراحل ليست الا وصفها لفظيا لكيفية نمو الشخصية . ذلك لان المهم هو تحديد الظروف البيئية التى تساعد الطفل على نمو هذه الصفات الايجابية وغيرها .

ان التطبيع الاجتماعى هو عملية تعلم تحييل الكائن البشرى من جالة الطفولة او الرضاعة ومن حالة الضعف والانانية الى حالة الراشد المثالي الذى يدين بالامتثال المعقول sensible conformity مع وجود سمات الاستقلال والابتكار ( ٥٣ ) والخلق والابداع .



### التنشئة الاجتماعية في الطفولة المبكرة :

تستخدم المجتمعات طرقاً مختلفة في العناية بالطفل ، بل انه في داخل المجتمع الواحد تختلف هذه الطرق من طبقة اجتماعية الى اخرى . ان المؤثرات الثقافية تبدأ في التأثير في شخصية الطفل في اليوم الاول من ميلاده ... وتؤثر الام في الطفل عن طريق اسلوب معاملتها اياه في التغذية وطرق اطعامه . والمعروف ان الام تسعى لتحقيق هدفين من وراء تغذيته هما :

١ - تغذيته

ب - تدريبه على تناول الطعام بطريقة صحيحة .

التغذية مسألة فسيولوجية وان كان هناك بعض الثقافات التى تفضل الاطفال السمان ، بينما هناك ثقافات اخرى تفضل الاطفال الناحلين . وتستهدف « ام » الطبقة المتوسطة ان يتدرب طفلها على تناول طعامه بدون ضوضاء او احداث اصوات ، وبدون ان يسكبه على نفسه ، وان يأكل كل الطعام من طبقه ، وان يستخدم ملعقة وشوكة وسكيناً بطريقة سليمة . بل ان نظام تغذية الاطفال يتغير داخل المجتمع الواحد بمرور الوقت ، فقد تغيرت هذه العادات في المجتمع الامريكى منذ عام ١٩٢٠ حتى يومنا هذا عدة مرات على القليل فيما يختص بعدد الوجبات وموعد كل وجبة . ففي العشرينات كان اطباء الاطفال يوصون باتباع نظام منتظم في تغذية الاطفال مكون من ٣ وجبات يوميا . اما المستشفيات فكانت تتبع نظام تقديم اربع وجبات يوميا هي كالآتي :

١ - الساعة ٦ صباحاً

٢ - الساعة ١٠ صباحاً

٣ - الساعة ٢ بعد الظهر

٤ - الساعة ٦ مساءً

٥ - الساعة ١٠ مساءً

٦ - الساعة ٢ صباحاً .

اما الآباء فكانوا يرغبون في اتباع نظام يشبه نظام الكبار في الطعام ، ولذلك حذفوا وجبة الساعة الثانية صباحا ، ولكن الثقافة لا ينبغي ان تجمد نمو الطفل عن طريق وضع أنظمة صارمة في تغذيته ، وبالطبع لم يكن نظام الاربع وجبات هذا ملائما لكل الاطفال وكان على الآباء ان يتحملوا بعضا من صراخ الطفل قبل الوجبات .

وفي الاربعينات بدأ يتحول الاتجاه نحو نظام الطلب الذاتي Self-demand schedule وبموجب هذا النظام يقدم الطعام للطفل كلما بكى طلبا له . والتقيد الوحيد الذى وضع فى احدى الدراسات كان ضرورة انقضاء ساعة كاملة بين اى وجبة والاستجابة لطلب الطفل للطعام . ولقد تبين ان معظم الاطفال كانوا يطلبون الطعام بعد ثلاث ساعات، ونادرا ما كانت تصل هذه المدة الى اربع ساعات وخاصة فى الاسبوع الاول من الميلاد . وكانت هذه المدة اطول اثناء الليل عنها اثناء النهار ( ٣٦ فى مقابل ٢٩ ساعة ) وبالطبع يتغير النظام المرغوب بتقديم الرضيع فى السن . واستمر هذا الاتجاه فى التزايد حتى اصبح هناك حاجة الى الاستفادة من نظام الانتظام فى الوجبات . ومزايا الطلب الذاتي اى الايمان بنظام معين دون ان تكون عبيدا لهذا النظام ، مع مراعاة فردية كل طفل . والمقصود من خضوع الطفل لنظام الوجبات الثلاث أو الاربع، هو خضوعه للمعايير الحضارية فيما بعد ، ويؤثر الغذاء تأثيرا اكثر عمقا فى شخصية الطفل اذا لاقى صعوبات فيما يختص بالغذاء حيث يشعر بعدم الامان ولا يحتاج الطفل فقط لتفريغ زجاجات الطعام فى جوفه بطريقة آلية بل انه فى حاجة الى المص . ولقد وجد الطفل فى حاجة الى الامتناس لمدة ساعتين يوميا والا اضطر الى مص اصابعه او ملابسه او لعبه او اشياء اخرى . كذلك لعملية الفطام اثر نفسي قوى اذا تمت بطريقة فجائية او قاسية تؤدي الى صعوبات انفعالية يعانى منها الطفل . ( ٥٤ )



#### المؤسسات التي تسهم فى عملية التطبيع الاجتماعى:

نتساءل عن المؤسسات التي تسهم فى عملية التطبيع الاجتماعى هذه ، ومن اول هذه المؤسسات التي تؤثر فى نمو الطفل الاسرة ؟

#### دور الآباء :

ان عملية التطبيع الاجتماعى لا تعتمد على الطفل وحسب بل على الآباء ايضا ، لانها على القليل بمفهوم الضبط الاجتماعى ، لا تحدث الا اذا كان الآباء يعززون سلوك الطفل او يكافئونه عليه ، فاذا لم يقوم الآباء بدور تقديم التعزيزات والمكافآت للطفل فان عملية التطبيع الاجتماعى سوف تتأخر او تعاق . ويتحقق تعزيز سلوك الطفل عن طريقة عناية الآباء بجسمه ودثته ومأكله ومشربه ، على شرط ان يتم ذلك كله بطريقة رقيقة فى اثناء تغذيته وتنظيفه

واستحمامه وتغيير ملابسه ووضع في الفراش على شرط الا يتم ذلك ببرود او بطريقة آلية ميكانيكية ، وانما يصاحبه تقبيل الطفل « الدندنه » او التودد اليه والتربيت عليه ولمس جسمه وتدليكه والغناء له حتى ينام .

ولقد وجد رينجولد ( ١٩٥٦ ) Rheingold أن حاجات الطفل المصحوب بالمشيرات الاجتماعية بما في ذلك الاتصال الجسمي به ، يؤدي الى خلق طفل أكثر استجابة من الناحية الاجتماعية عن قضاء مثل هذه الحاجات بطريقة فائرة باردة وبكفاءة ولكن دون علاقات شخصية ولكن مثل هؤلاء الاطفال يسرعون في النمو الاجتماعي عندما يتغير نمط معاملة الآباء معهم ، ويشعرونهم بالرعاية والرقابة والحب ، كذلك وجد أن الرضيع يصبح قادرا على الاستجابة الاجتماعية وتزداد عنده عندما يستجيب الكبار بطريقة اجتماعية لاستجابات الطفل الصوتية المعبرة Vocal responses وينبغي تدريب الطفل على الاستجابة الاجتماعية او توجيهها الى القنوات الصحيحة عندما يبدأ في اظهار مثل هذه الاستجابات ، وذلك حتى تصبح مقبولة لدى الآباء والاخوان والاخوات ، ثم المجتمع ككل ، بحيث يظهر الطفل الاستجابات الملائمة في السن الملائم ، فاستجابات الفناء واشارات « باي باي » مناسبة لسن عام واحد ، ولكنها غير ملائمة لسن مدرسة الحضانة ، كذلك تبليد الفراش مقبول في سن عام واحد ، ولكنه غير مقبول في سن الأربع سنوات . وبالمثل البكاء من اجل الطعام مناسب في سن ٩ شهور ، ولكنه غير ملائم في سن ٩ سنوات مثلا . فهناك حاجة الى مزيد من الضبط والتوجيه لسلوك الطفل منذ الوقت الذي يبدأ فيه في عمل الاستجابات الاجتماعية حتى يصبح مدنيا او متحضرا خاضعا للقانون ، ونسبيا راشدا كبيرا ، وغريبا او غير انانسي .

وتبدأ عملية الضبط الاجتماعي والتكيف أو التلاؤم مع تفاعل الطفل مع الآباء ثم مع أسرته ، ثم تستمر مع زملاء اللعب والاقارب والمدرسين ، وينبغي على أي مؤسسة تعمل لتحقيق التطبيع الاجتماعي ان تقدم نمطا من الآتي :

١ - المكافآت

٢ - القبول

٣ - السماح

٤ - العقاب

بحيث يكسب الطفل الاتجاه نحو طاعة القانون واللياقة الاجتماعية في سن الرشد ، وبحيث يصبح سعيدا وهادئا قادرا على القيام بدور الذكر أو الانثى المطلوب ممن هم في مثل سنه ، وقادرا مهنيا على كسب عيشه .

#### نمط الآباء في التعزيز :

لا شك انه ، للمرور في مراحل النمو المبكرة ، هناك حاجة ماسة الى توجيه الطفل ومن البديهي أن يكون المنزل هو المصدر الاول لتقديم مثل هذا التوجيه ، ويمكن تمييز منهجين في مثل هذا التوجيه هما : -

١ - اتجاه سيكولوجى قائم على الحب والمكافآت غير المادية . هنا يسحب الحب أو يهدد بسحبه ، كما لاتعطى للطفل زجاجة الطعام في نفس اللحظة التى يطلبها فيها . وإذا أصبح « شقيا » ينعزل عن الآباء وهو يشتاق الى النشاط واللعب، ولكن ينبغى أن يبقى لبعض الوقت داخل عربته أو حجرته . يرى الطفل مثل هذه النماذج من الحرمان كتهديد بانسحاب الحب ، ولذلك فانه يعمل ، فيما بعد ، على تعديل سلوكه لكي لايفقد هذا الحب . وهناك أشكال أكثر تعقيدا من التهديد بسحب الحب كالحرمان من الملاطفة أو العناق أو التربيت أو الابتسامة أو كلمة المديح التى يتوق اليها الطفل .

٢ - يعتمد المنهج الثانى على الاشياء المادية، ويتراوح ما بين انزال العقاب البدنى الى حرمان الطفل من الطعام لتحويله الى السلوك الطيب . فى حالة منهج الحب تعمل على توضيح أن المعنويات تلفت أنظار الآخرين وانتباههم، لها أهمية خاصة. ويعلمه الآباء الضبط الذاتى خوفا من فقدان الحب .

أما المنهج السئ فانه يعلم الطفل الخوف من الاشياء المحسوسة المادية ، وهنا يقول الطفل لنفسه لابد أن تكون حسن السلوك حتى لاينكشف أمرى وتزال العقاب ، فالضبط هنا من خلال الشعور بالعار . أما فى منهج الحب فالضبط من خلال الشعور بالذنب ، ولكن اذا كان الشعور بالذنب قاسيا جدا فانه يشل حركة الطفل ونشاطه . أما الشعور بالعار فيعتمد على توقع رجل الشرطة فى كل مكان يترصد الطفل للمساكبه .

ولقد اتضح أن منهج الحب أكثر فاعلية من الناحية الاجتماعية بحيث يتجنب الطفل الخطأ فى غيبة الكبار أو ممثلى السلطة ، ويمكن تمييز نوعين من التعزيز فى معاملة الآباء للطفل :

١ - تعزيز ايجابى reinforcement ويتمثل فى عبارة الام « ماما تحبك لأنك عملت كذا وكذا .. أو ماما سوف تعطيك كذا وكذا اذا عملت كذا ... »

٢ - تعزيز سلبى ، ويتمثل فى قول الام لطفلها « ماما لن تحبك اذا عملت كذا وكذا .. أو ماما سوف تصفحك اذا عملت كذا وكذا .... »

وواضح أن التعزيز الايجابى يمنح المكافآت، أما السلبى فيعطى العقاب ، وهنا تسأل ، ايهما أكثر فاعلية فى تعليم الطفل الثواب أم العقاب ؟ هناك أدلة تجريبية مؤداها ان الطفل يتعلم أسرع اذا تلقى كلا من الثواب والعقاب فى التعزيز ، فالتعزيز الايجابى لتعليمه ما ينبغى أن يعمل ، والتعزيز السلبى يعلمه مالا ينبغى عمله . وعلى ذلك فاذا تلقى الطفل تعزيزات من النوعين فانه يحاط علما بصورة أكثر شمولاً عما لو تلقى تعزيزات من نوع واحد .

وتتضح هذه الفكرة من أبحاث كل من هارتوب ومون وسيجار Martup, Moore and Sager الذين وجدوا ( ١٩٦٣ ) أن الاطفال الذكور الصغار يتعلمون الادوار الجنسية الملائمة اذا منحت لهم المكافآت على السلوك بطريقة فيها ذكورة ، ويبحثون عن اللعب الذكورية ، ويعاقبون عندما يعملون أعمالا بنائية أو أنثوية أو يبحثون عن لعب ودمى البنات ، وبالنسبة للإناث ، على



العكس من ذلك ، فكانت تعطى لهن المكافآت عندما يبحثن عن الأشياء « البنائية » بما في ذلك اللعب ، وكن يهملن عندما يتصرفن بطريقة « صبيانية » أو يسعين للحصول على لعب الصبيان ، بل إن فاعلية التعزيزات تتوقف على الطريقة أو الأسلوب الذى يمنح به التعزيز . فلقد وجد أن التعزيز ، سواء كان إيجابيا أم سلبيا ، عندما يمنح مباشرة وبثبات أو ديمومة واستمرارية وبسخاء أو بكرم فإن التعلم يتم بسرعة أكثر منه عندما يكون مؤجلا ، أو بدون ثبات أو ضعيف أو هزيل أو قليل ، ولكن هذا الفرض يحتاج الى كثير من الدراسات ، لأن كمية التعزيزات تبعا لهذا الفرض ، تغير كمية التغيير فى السلوك ، ومعنى هذا أننا إذا أردنا أن نضعف من السلوك الحسن فى سلوك طفل ما فإننا نضعف من مقدار ما تعطيه له من مكافآت . كذلك فإن التعزيز الجزئى يجعل الطفل تواقا الى المزيد من التعزيز ، فيواصل العمل الجيد ، أما إذا حصل على كل التعزيز فإنه يفقد الاهتمام بمزيد من تحسين السلوك .

#### أثر وجود الأب فى الأسرة :

ما هو التأثير الذى يتركه وجود الأب فى الأسرة على شخصية الطفل ؟ لقد أجريت دراسات كثيرة منها دراسة سبرنر Sears ( ١٩٥١ ) ووجدان الصبيان الذين نشأوا فى بيوت مع الآباء كانوا أكثر عدوانا على القليل فى خيالهم عن زملائهم الذين غاب الأب عن منزلهم .

كما كانوا أكثر ثقة ، وكانوا أكثر استعدادا لتأجيل الحصول على مكافأة صغيرة فى سبيل الحصول على مكافأة أكبر ، ولكنها مؤجلة . كذلك وجد أن الأطفال الأكبر سنا والأكثر ذكاء كانوا أكثر استعدادا لتأجيل الأشباع المباشر . كذلك وجد مولتون Moulton ( ١٩٦٦ ) أن الآباء الأكثر قوة وحبا هم أكثر قدرة على إنتاج أطفال يضبطون أنفسهم بواسطة ضمائرهم ، وأن الأطفال الذكور الذين يمتاز آباؤهم بالقوة والحب كانوا أكثر ذكورة عنهم عندما تكون الأم هى الشخصية القوية والمحبة . كذلك وجد جروسىك Grusec ( ١٩٦٦ ) أن الكبار الذين يكافئون كثيرا يجعلون الطفل أكثر استعدادا لنقد نفسه ( أكثر عما يلوم الآخرين مثلا ) وذلك بالمقارنة بالآباء الذين لا يكافئون أطفالهم سواء كانت المكافأة بالاعطاء أو العقاب .



#### مصادر القوة فى عملية التنشئة الاجتماعية :

يحدد ولوتر Wolowitz ( ١٩٦٥ ) مصادر القوة التى يتم خلالها تقديم التعزيزات بأنها :  
١ - القوة الفيزيائية ، ويدركها الطفل مبكرا ، ويعتقد أن والده يمتلكها أكثر من والدته .

٢ - القوة الجنسية ، ولا يدركها الطفل إلا متأخرا نسبيا حيث يدرك أن والديه يمثلان قوة جنسية ، وإذا كانت العلاقات الجنسية مجرد علاقات شهوانية أو بهيمية بحتة فإن فكرة الطفل عن الجنس تنمو سيئة .

٣ - الحكمة ، وللأسف فإن الحكمة فى المجتمع الحاضر لا تبدو محترمة كما ينبغى .

{ - التأثير الاجتماعى ، ويتضمن نوعية الاشخاص الذين يعرفهم آباء الطفل والذين يتبادلون وإياهم الزيارة ، ويقدر الطفل آباءه وخاصة طفل الطبقة الاجتماعية الوسطى ، لمن يعرفهم من أشخاص ، ولما يبدونه من حكمة ومعرفة ، يقول الطفل . . « بابا ليس ضخما او قوى الجسم ، ولكنه يعرف الكثير ، والناس المهتمون بعزمونه لبيوتهم ، ويحضر للبيت اسبوعيا مبلغا ضخما من المال (٥٥) » .

وربما يرجع لهذا السبب خضوع اطفال الطبقات الوسطى للضبط ، ويبدو أن التعليم الاجتماعى عموما يتقدم اسرع عندما تفوق نسبة التعزيزات الايجابية أى المكافآت نسبة العقاب .

كذلك وجد ان الثبات او الديمومة فى المعاملة تساعد فى تعلم الطفل ، حيث يتعرف على تعديل سلوكه بحيث يحصل على ما يريد ويتحاشى ما يرغب فى تحاشيه .

### تفسير عملية التطبيع الاجتماعى :

هناك نظريات كثيرة لتفسير عملية التطبيع الاجتماعى . ان نمو الفرد يتوقف على مدى رؤيته وردة فعله لقوى التطبيع الاجتماعى التى يستخدمها المجتمع معه . يضع المجتمع الصورة التى يرغب أن يكون عليها نساؤه ورجاله . ويضع عدة قواعد لارشاد الآباء والمعلمين فى ذلك ، ولكن كيف يرى الطفل هذه العملية ؟ وما هى المفاهيم والقوى التى تكمن فى داخل الطفل والتى تحدد نوع استجابته لهذه المؤثرات الاجتماعية ؟

هناك اتجاهان نظريان فى عملية التطبيع الاجتماعى هما :

**أولا :** نظرية التحليل النفسى ونظرية التعلم الاجتماعى ، فكلاهما يرى ان الراشد الكبير هو المحصلة النهائية لعملية تعلم الاسرة والبيئة كما يراها الطفل ، وكما تؤثر فيه ، أى تعاليم الاسرة والبيئة . فاذا كانت هذه القوى معتدلة كان الطفل سعيدا ، واذا كانت مؤذية او ضارة كان الطفل تضا . فالكائن الحى تصقله وتشكله خبراته ، فيصبح جيدا أو سيئا تبعا لجودة او سوء مثل هذه الخبرات .

تصنع النظرية التحليلية توكيدا اكثر من نظرية التعلم الاجتماعى ، على بعض مراحل النمو التى تؤثر فيها الخبرات اكثر من غيرها من المراحل . وهذه السن تبدأ من الميلاد حتى سن السابعة . أما نظرية التعلم الاجتماعى فتري أن الطفل كائن قابل للتعديل والتغيير فى أى سن كانت .

**ثانيا :** الاتجاه الثانى يذهب الى الزعم بأن قوى النمو فى داخل الكائن البشرى هى فى الاساس خلاقة ، فاذا كان الطفل مقبولا ، واذا لم توصد الابواب امام اشباع حاجاته ، فانه ينمو شخصا سعيدا خلقيا واجتماعيا . مثل هذه النظرية لا تقلل من اثر التعلم . وانما هى فقط تدعى انه اذا اعطى الطفل ظروفًا بناءة فانه سوف يوجه نفسه نحو القنوات البناءة . وينحو

التعلم النشط دورا اقل في هذه النظرية عنه عند فرويد وفي نظرية التعلم الاجتماعي. والعنصر الاساسى في بيئة الطفل هو القبول ، وكان جان جاك روسو هو أول من قال بمثل هذه النظرية في كتابه « اميل » وما زال يعتنقها كثير من علماء النفس من أمثال كارك روجرز و Maslow وجيزل Rogers و Gesell وان كانوا يختلفون عنه في بعض التفاصيل .

ويمكن تشبيه هاتين النظريتين بحالات من مجال البستنة فالنظرية الاولى ينطبق عليها المبدأ القائل : كما يثنى الجذع تنمو الشجرة على غرارهِ .

وعلى ذلك يوصى بتوفير البيئة الجيدة ذات التربة الصالحة والضوء والماء والتخصيب الضرورى ، ولكن التعليم او التشذيب الفعال والتشكيل والتطعيم والتسميد لابد من ممارستها. والنظرية الثانية أيضا تطالب ببيئة ذات تربة ملائمة وضوء وماء وربما أيضا سماد ، ولكنها تميل الى الاعتقاد بأن الطبيعة لديها افضل معرفة من كيف تنمو الشجرة .

فالتعليم والتطعيم والتشكيل والتسميد والتلقيح التهجينى تترك كلها للمجرى الطبيعى للاحداث وللطبيعة الفطرية للكائن. النظرية الاولى تنادى بمزيد من التعلم النشط كعمل مرغوب ، والثانية تنادى بقليل من هذا التعلم . وطبقا للنظرية الاولى فان الطفل سوف يصبح اجتماعيا وغيريا وايتاريا وواقعا من نفسه للحد الذى يلزمه لى كيف نفسه مع الآخرين ولكن يشبع حاجاته . وتتوقف سهولة هذه العملية على مدى كفاءة المعلم ومهاراته ، وعلى مدى ملائمة وكفاءة وفعالية عملية التدريس . وطبقا للنظرية الثانية فان بدور عملية التنشئة الاجتماعية تكمن فى الناس ، وسوف تصل الى اقصى درجات النضج فى بيئة تمتاز بالقبول واللفظ ، ولكنها بيئة سلبية . وربما يضع جيزل كثيرا من الاهمية للاستعدادية الموروثة للوراثة اكثر من كارل روجرز ، فجيزل لا يقبل القول بأن اعطاء الفرد البيئة المناسبة سوف يؤدي الى نموه النمو الملائم .

والواقع اننا لا نعرف الصحيح من هاتين النظريتين ، بل ربما لا نعرف اذا كان كلاهما صحيح أم خطأ ، فكلاهما يضع وزنا كبيرا على جوانب البيئة فى التنشئة الاجتماعية . فالنظرية الاولى يمكن وصفها بأنها نظرية تعليمية ، بينما النظرية الثانية ارتقائية . ويمكن اعتبار فرويد ممثلا للنظرية الاولى وجيزل ممثلا للثانية . النظرية الفرويدية تؤكد دائما النزعة الاجتماعية الفطرية فى الانسان ، بمعنى ان الطفل الصغير الانانى يجب أن يتحول الى شخص راشد كبير ايثارى قادر على تأجيل لذاته .

ونظرية التعلم الاجتماعى لا تضع افتراضات ازاء هذه المسألة ، ولكنها تفترض ان الايثار وتأجيل اشباع الذات يتم تعلمهما اكثر من كونهما فطريتين ، ويضع جيزل كما يضع فرويد تأكيدا كبيرا على توابع ونواتج النمو ، ولكن فرويد لا يضع كل الاهمية - كما يفعل جيزل - للوراثة كعامل محدد للفروق الفردية بين الناس .

## الشيخوخة في المجتمع الانساني المتغير \*

أحمد أبوزيد

حين أصدر عالم الاجتماع البريطاني المعاصر  
بيتر تاونسند Peter Tounsند كتابه المتع  
عن « الحياة العائلية لدى كبار السن  
The Family Life of Old People (١)

اعتبر ذلك ايلانا ببدء الاهتمام بميدان جديد  
من ميادين البحث الاجتماعي ، كان مهملًا الى  
حد كبير حتى ذلك الوقت ، واخذ اهتمام  
السوسيولوجيين والانثربولوجيين يزداد

( \* ) سبق ان اصدرت المجلة عددا خاصا بالشيخوخة ، ونظرا لاهمية الموضوع توالى المجلة نشر بعض الدراسات الاخرى  
من حين لآخر - التحرير .

( ١ ) اعتمد تاونسند في تأليف كتابه على دراسة عميقة اجراها في المدة بين ١٩٥٤ ، ١٩٥٧ في حي Bethnal Green  
في لندن ودرس اثناءها مآتي حالة لشيخوخة متقاعد من العمل . وكان السبب الرئيسي وراء هذه الدراسة هو  
ازدياد الشعور بالقلق في بريطانيا على المسنين الذين كانوا يتزايدون في العدد بسرعة عالية والذين كانوا يعانون من  
الوحدة والعزلة والانقباض نتيجة لشعورهم بالاهمال من اولادهم والقاربهم ومن الدولة على السواء . وليس أدل على  
ذلك من أن ١٤٪ من سكان المنطقة كانوا معالين على المعاش ومتقاعدين عام ١٩٥١ ، وهي نسبة عالية ، وكان هناك  
احساس بان هذه النسبة في ارتفاع مستمر . وقد ضمت عينة الدراسة حالات من الجنسين وكانت كل مقابلة تستغرق  
حوالي ساعتين كانت تستخدم فيها الاستمارة والمقابلة المفتوحة ، وكثيرا ما كانت زيارة المؤلف تكرر لنفس الاشخاص  
مرتين وثلاث مرات واحيانا أربع مرات لاستكمال المعلومات ، ولكن الباحث كان يعتمد بالإضافة الى ذلك على بعض المصادر  
الاخرى التي تلقى مزيدا من الضوء على وضع الشيخوخة والمسنين بصفة عامة .

بدراسة الشيخوخة كظاهرة اجتماعية ، وبحياة كبار السن والشيخوخة في المجتمع العربي المتقدم ، والعلاقات الاجتماعية التي تقوم بين مختلف الاجيال ، والدور الذي يلعبه الشيخوخة في حياة المجتمع المعاصر والمشكلات التي يعانون منها ، ونظرة المجتمع والدولة اليهم والخدمات التي تقدم لهم ، ويقارنون هذا كله بما يحدث في المجتمعات التقليدية والمتخلفة او الثمانية والجماعات « البدائية » التي لم تصل بعد الى مرحلة التصنيع ، والتي لا يزال نظامها الاقتصادي يعتمد على أشكال أكثر بساطة ، مثل الجمع والالتقاط أو صيد السمك أو قنص الحيوان أو الرعي أو الزراعة البسيطة .

وليس معنى هذا أن دراسة تاونسند كانت أول دراسة على الإطلاق يطبق فيها المنهج العلمي وتتم بطريقة علمية منظمة ودقيقة . بل الواقع أنه هو نفسه كان قد تأثر بعدد من الدراسات التي ظهرت من قبل ، والتي عالجت مشكلة الشيخوخة في بعض المجتمعات المحلية في بريطانيا ، كما أنه يبدو أن عددا من الدراسات حول الموضوع ذاته كانت قد أجريت في بعض الدول الأوروبية ، وبخاصة في فرنسا ، حيث نجد بالذات سلسلة طويلة من مشروعات البحوث الكبرى عن سيكولوجية الشيخوخة تتم تحت إشراف سوزان بيكو Suzanne Becaud التي كانت تهتم في المحل الأول بتغيرات السن وأثرها في الذاكرة ، وفي الوظائف العقلية والسيكوكهرمية ، وكذلك تأثير التعليم على تراجع هذه الوظائف عند المسنين . كذلك كانت هناك دراسات كثيرة تعالج الشيخوخة من الناحيتين البيولوجية والطبية ، خاصة وأن علماء البيولوجيا في دراساتهم للكائنات العضوية الدنيا ذات دورة الحياة القصيرة كانوا يعتبرون الشيخوخة

خاصة أساسية في دورة الحياة بأكملها ، وكانوا بالتالي يميلون إلى فهمها على أنها جزء له مغزاه في عملية الحياة ، بينما كان الأطباء يهتمون بالشيخوخة نظرا لما يلعبه الطب في علاج أمراض الشيخوخة ومحاولة إطالة الحياة عن طريق التغلب على المرض والعجز (٢) . وكان قد سبق ذلك كله مرحلة كان الاهتمام فيها بدراسة الشيخوخة يعتمد على التأمل النظري البحث في الأغلب ، وأن كانت هناك إلى جانب ذلك بعض المحاولات الجادة للقيام بالبحوث الأمبيرية أو حتى التجريبية التي لادامى للخوض فيها هنا . ولكن على الرغم من هذا كله فإن دراسة تاونسند تعتبر أحد المعالم الرئيسية في البحوث الاجتماعية العلمية الدقيقة ، بحيث يمكن القول أنها أرست قواعد الدراسة السوسيوولوجية في هذا المجال الهام ، وبحيث نجد عددا من تلاميذ تاونسند يكرسون جهودهم للدراسة الشيخوخة من زواياها المختلفة ، ويصدرون في ذلك عددا من الكتابات والدراسات التي شجعت على القيام بدراسات مماثلة خارج بريطانيا ، مما أدى في آخر الأمر إلى أن أصبح علم الشيخوخة علما اجتماعيا بقدر ما هو علم بيولوجي ، بل لقد أخذ علماء الاجتماع والانثروبولوجيا في السنوات الأخيرة يسيطرون سيطرة كبيرة على دراسات الشيخوخة ، ويسلطون كثيرا من الضوء على النواحي والمظاهر الاجتماعية لمشكلة الشيخوخة ، وهي المظاهر التي لا يعطيها الأطباء وعلماء البيولوجيا ما تستحقه من عناية وذلك بحكم تخصصهم الدقيق . ولكن المهم هنا هو أن الاهتمام بدراسة الشيخوخة من الناحية الاجتماعية اهتمام حديث نسبيا رغم ما أحرزه من نجاح وتقدم . وأن معظم المحاولات التي بأيدينا تدرس المشكلة في جماعات وفئات معينة بالذات ، أو في مجتمعات محلية محددة

(٢) انظر في ذلك John E. Anderson, "Research on Ageing" in Burgess, E. W. (ed.) ; Ageing in Western Societies, A comparative Survey, Chicago University Press, 1960, 1969.

المعلومات المتعلقة بالشيخوخة والشيخوخة في هذه المجتمعات الأخيرة بوجه خاص . والواقع أن كثيرا من النظم الاجتماعية لدى القبائل الافريقية والاسترالية وقبائل الهنود الحمر وغيرها يصعب فهمها ان لم يؤخذ في الاعتبار موقف تلك المجتمعات من الشيخوخة والمكانة الاجتماعية التي يتمتعون بها هناك ، والادوار التي يقومون بها ، والوظائف التي يؤديونها في تماسك الجماعة .

فالمجتمعات القبلية التي توصف عادة في الكتابات الانثربولوجية بأنها مجتمعات بدائية او « متخلفة » تختلف في نظرتها الى الشيخوخة والشيخوخة اختلافا كبيرا عن المجتمعات الحديثة المتقدمة ، وبخاصة المجتمعات الصناعية . وربما كان السبب الرئيسي في تلك الاختلافات هو أن الظروف والاحوال العامة في المجتمع « البدائي » أو البسيط أو المتخلف لا تسمح الا لنسبة ضئيلة جدا من السكان بأن تعيش حتى مرحلة الشيخوخة المتقدمة ، وذلك نظرا لانخفاض مستوى العناية الطبية والتربية الصحية أو التشخيص الصحي هناك ، وتفشي الامراض والابوثة والمجاعات التي تقضي على نسبة كبيرة من السكان في مرحلة الطفولة أو الشباب . ولذا فان الشيخوخة كعملية بيولوجية تكاد لا تكون مفهومة تماما عند هؤلاء « البدائيين » حيث يموت الناس في العادة في سن صغيرة نسبيا وهم لا يزالون قادرين على العمل وعلى المشاركة في الحياة . ومن هنا فان عدد الاشخاص الذين يحتاجون فعلا الى الاعالة في الجماعات القبلية قليل نسبيا ويكاد لا يعتبر عبئا على الجماعة الا في الحالات التي يتعرض فيها المجتمع ككل الى المجاعات الشديدة .

وعلى ذلك فان الشيخوخة من حيث هي مشكلة تحتاج الى حل ليست قائمة هناك بنفس المعنى الذي نجده في المجتمع الصناعي الحديث الذي تؤلف فيه الشيخوخة مشكلة ضخمة تحتاج الى تكوين مؤسسات تتولى امر

لتحقيق أكبر قدر ممكن من الدقة العلمية ، ولامكان التعمق في التحليل . وعلى الرغم من تزايد الدراسات والبحوث الاجتماعية والانثربولوجية والسيكولوجية في هذا المجال، فان هذه الدراسات والبحوث لاتزال قليلة اذا هي قورنت بما حققه الاطباء وعلماء البيولوجيا الذين كان لهم بغير شك فضل السبق في دراسة ظاهرة الشيخوخة عند الانسان .

وعلى أية حال فان علماء الاجتماع والانثربولوجيا في دراساتهم للشيخوخة يأخذونها على أنها أكثر من مجرد تغيرات بيولوجية وفسولوجية وفيزيائية تطرأ على الجسم البشري نتيجة للتقدم في السن ، ويعتبرونها ظاهرة اجتماعية تتمثل في موقف معين يقفه المجتمع من الفرد ويفرض عليه بمقتضاه قيودا وحدودا وقواعد سلوكية يلتزم بها ، كما تتمثل من الناحية الأخرى في موقف معين يقفه الفرد نفسه من نفسه ومن الآخرين ، ويتمثل في التزامه بتلك القواعد والقيود والمبادئ التي يضعها له المجتمع ، كما يمتنع عن كثير من الأمور التي كان يبيحها لنفسه قبل أن يصل الى تلك السن . ويقول آخر ان علماء الاجتماع والانثربولوجيا يعتبرون الشيخوخة إحدى المراحل التي يمر بها الفرد خلال دورة الحياة وتلابسها مظاهر سلوكية وقيم اجتماعية معينة ، كما انها في الوقت ذاته منزلة اجتماعية يحتلها الفرد بحكم السن التي وصل اليها ، ودور اجتماعي يلتزم بالقيام به وأدائه ... وربما كان هذا أوضح في المجتمع البدائي والتقليدي منه في المجتمع الصناعي الحديث .

## ( ١ )

لقد اهتم علماء الانثربولوجيا بالذات بدراسة هذا الموضوع وتتبع ظاهرة الشيخوخة في الأساطير والتراث القديم وفي المجتمعات القبلية « البدائية » ولدينا ذخيرة هائلة من

الاقتصادي ، اذ أنهم يضطلمون بدور حيوي له أهميته في عملية الانتاج ، ونعني به الشعائر والطقوس السحرية والدينية التي تعتبر عنصرا أساسيا لضمان نجاح أية عملية انتاجية ، ويستوى في ذلك صيد السمك أو قنص الحيوان أو تفلح الارض أو بدر أو حصد المحصول أو غير ذلك . فهذه كلها أنواع من النشاط الاقتصادي لا يمكن البدء فيها ان لم تسبقها شعائر وطقوس معينة يقوم بها الشيوخ ، وتعتبر مهدة لذلك النشاط و متممة له . ومن هنا فان علماء الانثروبولوجيا الذين أتاحت لهم فرصة دراسة الدور الذي تلعبه هذه الممارسات السحرية والدينية في الحياة الاقتصادية يعتبرونها بالعقل جزءا من عملية الانتاج ، مما يعنى بالتالي أن الشيوخ يسهمون بالعقل ايضا في الانتاج ، وأن كان المجهود الفيزيقي الذي يبذلونه في ذلك عديم الاثر ، أو على الاقل غير واضح تماما .

والامثلة كثيرة على ذلك :

فبعض علماء الانثروبولوجيا من امثال مالينوفسكى Malinowski وايفانز بريتشارد Evans-Pritchard وفيرث Firth يميزون بين « أنواع » السحر المختلفة حسب وظائفها ، ويذكرون ضمن هذه الأنواع السحر الانتاجي Productive الذي يهدف الى تحسين الانتاج ووسائله وتنظيم العمل ، والتحكم في عوامل الطبيعة التي تساعد على ذلك مثل المطر . ومالينوفسكى بالذات يعطى لهذا السحر جانبا كبيرا من اهتمامه ، وهو يدرس عناصر الانتاج في المجتمع البدائي وبخاصة مجتمع التروبرياند Trobriand الذي درسه ، ويشير بوجه خاص الى ما يسميه بسحر الحدائق Garden Magic ، وهو السحر الذي يمارسه الناس هناك بقصد تحقيق محصول وافر من نبات اليام Yam الذي يعتبر الغذاء الرئيسي عندهم ، وبدون ممارسة هذا السحر لن تفلح

الشيوخ والعناية بهم ، ووضع القوانين والقواعد والتنظيمات التي تنظم حياة هؤلاء الشيوخ وتهتم بتوفير مستوى اقتصادي واجتماعي معين لهم بعد ان استغنى المجتمع عن خدماتهم . وليس ثمة شك في أن التكافل الاجتماعي القائم على أساس الروابط القرابية في المجتمعات البسيطة والتقليدية ، والذي يقضى على اعضاء الجماعة القرابية الاهتمام والعناية بأمر أفراد الجماعة من الشيوخ والمتقدمين في السن ، يساعد مساعدة فعالة على حل مشكلات الشيخوخة في تلك المجتمعات . ومما يخفف من وطأة الشيخوخة على الشيوخ أنفسهم وعلى بقية أفراد الجماعة في وقت واحد ان تلك المجتمعات البسيطة وبخاصة « البدائية » منها تحاول بقدر الامكان الاستفادة من هؤلاء الشيوخ ومن خبراتهم العميقة في شئون الحياة ، ومن هنا فانها تحدد لهم مركزا معيناً ودورا يتعين عليهم اداؤه ، وأنواعا محددة من النشاط الاجتماعي - أو حتى الاقتصادي - تتناسب مع ضعفهم الفيزيقي النسبي بحيث لا يشعر المجتمع بأنه يتحمل نحوهم مسؤوليات ثقيلة أو أنهم يشكلون عبئا يصعب حمله ماداموا يؤدون لهذا المجتمع وظيفة لها أهميتها بالنسبة اليه على ما ذكرنا من قبل .

والواقع ان الشيخوخة في المجتمع « البدائي » والتقليدي تعتبر في حد ذاتها انجازا له أهميته ومكانة متميزة ، وتجلب لصاحبها الاحترام الذي يتناسب مع المركز الاجتماعي السامي الذي يحتله في الحياة الاجتماعية . فأهمية الفرد في المجتمع البدائي لا ترتبط بالضرورة بقدرته على الانتاج الاقتصادي ، أو على الاصح بالمجهود الفيزيقي الذي يبذل في عملية الانتاج . اذ ليس من شك في أن العمل الشاق الذي يتطلب لياقة بدنية عالية وقدرة فيزيقية كبيرة انما يضطلع به الشبان . ولكن هذا لا يعنى اطلاقا عدم مشاركة الشيوخ في النشاط

على العموم باسم « صانع المطر » . ومهمة « صانع المطر rain-maker » هي القيام بالصلوات والادعية الخاصة بالاستسقاء واستنزال المطر في سنوات الجذب ، ولذا كانت وظيفته من أهم الوظائف المكملة للحياة الاقتصادية في تلك الشعوب . (٤)

ومن التسليم بأن أفرادا قلائلا فقط هم الذين يمارسون هذه المراسيم والطقوس في تلك المجتمعات نتيجة لخبرتهم ودرايتهم بفنون السحر ، فان القيام بهذه الممارسات يعتبر وقفا على الشيخوخة والمتقدمين في السن ممن يحذقون هذه الفنون ، بل انه ليس من المفروض ان يقوم باداء دور « شيخ الارض » او « صانع المطر » او ان يمارس سحر الحقائق وغيره من أنواع السحر الانتاجي الاخرى الا من يكون قد بلغ مرحلة معينة من العمر هي مرحلة الشيخوخة ، أى ان هذه الادوار تعتبر بالضرورة من ادوار الشيخوخة ومن اوجه النشاط التي ترتبط بالضرورة بتلك الرحلة . وربما كان هذا اوضح في المجتمعات القبلية التي يقوم تنظيمها الاجتماعي على ما يعرف باسم نظام او نسق طبقات العمر age-set system.



الزراعة ولن تحقق محصولا وفيرا . ويقوم الشيخوخ بأداء تلك الممارسات والطقوس ، ويعتبر ذلك هو الاسهام الذي يسهمون به في النشاط الاقتصادي ، على الأقل في ميدان الزراعة (٣) كذلك نجد عند كثير من القبائل الافريقية تدخل العناصر الفيبية المتعلقة بالآلهة والارواح والطواطم في النشاط الاقتصادي ، وهي عناصر يشرف عليها الشيخوخ وكبار السن في تلك الجماعات . فالشعوب النيلية مثلا تعرف ما يسمى بنظام « شيخ الارض » ، وهو من الرؤساء الدينيين الذين يتمتعون بقوة روحية خارقة ، وبمكانة دينية عالية، ويشرف على توزيع الارض في كل موسم زراعى بين العائلات المختلفة التي يحق لها زراعة تلك الارض ، كما انه يقوم بالصلوات والادعية والطقوس قبل الشروع في زراعة الارض حتى يضمن نجاح المحصول وابعاد الآفات عن الزراعة . وتعتقد هذه الشعوب ان زراعة الارض بدون الرجوع الى هذا « الشيخ » وبدون القيام بهذه المراسم والطقوس ، سوف يودى بالزرع والمحصول . وهذا نفسه يصدق على بعض الزعماء الروحيين والدينيين في تلك المجتمعات القبلية ذاتها ، وفي بعض المجتمعات النيلية الحامية في شرق افريقيا والذين يعرفون

( ٢ ) انظر بوجه خاص كتاب مالىنوفسكى عن حدائق المرجان وسحر الحقائق وهو بعنوان :  
Malinowski, B., Coral Gardens and Their Magic.

كذلك راجع ما ذكرناه في ذلك الصدد في الجزء الثاني من كتابنا : البناء الاجتماعي ( الانساق ) ، صفحة ١٢٨ هاشية ٢ حيث نقول ان الاستاذ مالىنوفسكى يذكر في كتابه Argonauts of the Western Pacific كثيرا من الطقوس التي يمارسها سكان جزر التروبريات قبل الخروج الى رحلات التبادل العروضة باسم الكولا ، وانهم يمارسون سحر الحقائق او « سحر الزراعة » حتى يضمنوا ليس فقط نجاح الحصول ، بل ولكي يحصلوا ايضا على ثمرات كبيرة من نبات الياقوت الذي يهتمون بزراعته . « فساكن هذه الجزر يتنافسون فيما بينهم على الحصول على درنات كبيرة الحجم يتخذون منها مصعدا للتفاخر فيما بينهم . ولكنهم يصلون الى ذلك ليس فقط بفضل الجهود الكبيرة التي يبذلونها فعلا في الزراعة والعناية بالحقول ، بل وايضا عن طريق ممارسة نوعين من السحر ، احدهما يهدف الى نجاح زراعة الشخص وكبر حجم الثمرات التي تثبت في ارضه ، والاخر يهدف الى افساد زراعة غيره من الزراعي الذين يتنافسون معه . وكان من نتيجة ذلك ظهور نوع ثالث من السحر يحاول كل منهم ان يطل به مفعول السحر الذي يوجه خصومه الى زراعته وهكذا » . وليس من شك في ان الشيخوخ وكبار السن هم الذين يقومون بهذه الممارسات السحرية التي تؤثر تأثيرا مباشرا في الحياة الاقتصادية .

Seligman, C. G. and Brenda Z., Pagan Tribes of the Nilotic Sudan, ( ٤ )  
Routledge 1932, pp. 195-200 ; 326-34 and 398-404.



المنزلة . وعلى هذا الأساس فإن ( طبقة العمر ) تختلف تماما عن ( مرحلة العمر ) التي تطلق عادة على تلك الأقسام المعروفة التي تنقسم إليها حياة الفرد من حيث هو فرد من الطفولة الى الشيخوخة ، وذلك بعكس الحال بالنسبة لطبقة العمر التي لها معنى اجتماعي وجماعي ، ولا ينظر للفرد فيها الا باعتباره عضوا في تلك الجماعة او ( الطبقة العمرية ) .

**فكانه يمكن حصر الفوارق الأساسية بين هذين النوعين من التقسيم ، أي طبقات العمر ومراحله ، في نقطتين : الأولى هي أن الرجل الفرد لا يستطيع بحال أن يغير طبقة العمر التي ينتمي إليها . فولادة الفرد أو تكريسه في طبقة عمر معينة يعنى انتماءه الى تلك الطبقة طيلة حياته . بينما هو ينتقل بالطبع وبحسب نموه من مرحلة عمر معينة الى المراحل التالية بمرور الزمن وبفعل تقدمه في السن . والنقطة الثانية هي أن فكرة التماسك والتمايز التي تعتبر ركنا جوهريا في ( طبقة العمر ) لا تظهر على الإطلاق في ( مرحلة العمر ) . فطبقة العمر هي جماعة من الناس تتميز باتحادها وتضامنها في أداء واجبات وأعمال معينة مرسومة ، كما تتمتع كوحدة بحقوق وامتيازات محددة ، وتؤدي - كوحدة أيضا - وظائف معينة في الحياة الاجتماعية بشكل لا يتوفر في مرحلة العمر . وهذا هو ماسبق أن المالحا اليه حين ذكرنا أن طبقة العمر لها معنى اجتماعي بينما يصطبغ مفهوم مرحلة العمر بصيغة فسيولوجية غالبية . ومع ذلك ، فهناك علاقة وثيقة بين الاثنين ، إذ لا يمكن فهم نظام طبقات العمر الا بدراسة هذه الطبقات في ضوء علاقتها بالمراحل العمرية التي يمر بها الانسان في حياته ، وذلك على أساس أن احتلال الطبقة**

ويظهر نظام « طبقات العمر » في عدد من المجتمعات « البدائية » التي يقوم التفاضل الاجتماعي فيها على أساس السن أو العمر وليس على أساس الثروة مثلا كما هو الحال بالنسبة للفاشية العظمى من المجتمعات . وليس المقصود من ( العمر ) هنا السن الفسيولوجية أو المراحل العمرية التي يمر بها الفرد في حياته من الطفولة الى المراهقة والشباب الى الرجولة الكاملة ، انما المقصود هو تقسيم أعضاء المجتمع - وبخاصة الذكور منهم - الى جماعات وفئات طبقية بحيث تشمل كل جماعة منها جميع الافراد الذين ينتمون الى سن معينة ، مما يؤدي في آخر الامر الى ترتيب السكان جميعا في طبقات تعلو احداها الأخرى ، ويقف كل منها موقفا معينا من بقية الطبقات التي تعلوها أو تأتي دونها في السلم الاجتماعي ، كما تعمل الطبقة الواحدة وتتصرف في كل شؤون الحياة الاجتماعية ككل أو كوحدة متماسكة . (٥)

**فكان طبقة العمر هي جماعة محددة منظمة تضم جميع الاشخاص الذين ينتمون الى سن واحدة ، وغالبا ما تتألف من الذكور وحدهم .**

وتتكون طبقة العمر في العادة من الاشخاص الذين يكرسون معا في وقت واحد . وبمجرد التحاق الشخص بطبقة عمر معينة نتيجة تكريسه فيها فانه يظل معتبرا عضوا في تلك الطبقة طيلة حياته . ويطلق على كل طبقة عمر في كثير من الاحيان اسم واحد يعرف به افراد الطبقة جميعا ويشاركون في حملته ، كما أنهم يشغلون جميعا نفس المركز الاجتماعي ويتبعون نفس أنماط سلوكه في معاملتهم بعضهم بعضا ، ويتخذون موقفا واحدا ازاء غيرهم من الناس ممن ينتسبون الى طبقة العمر التي تعلو طبقتهم أو التي تكون ادنى منها في

( ٥ ) يوجد هذا النمط من التمايز الاجتماعي في مجتمعات معينة بالذات في افريقيا وامريكا وبعض جزر المحيط الهندي وبعض قبائل استراليا ، ولكنه لا يتمثل بوضوح وقوة في أي منها كما يتمثل في شرق افريقيا عند مجموعة الشعوب المعروفة باسم الشعوب نصف الحامية Half-Hamites وبخاصة عند القبائل النيلية الحامية او النيلو حامية Nilo-Hamites وهي كلها مجتمعات تنفرد بنسق سياسي معين .

بوظيفة المحاربين الا بعد تقاعد الطبقة التي تقوم بالفعل بهذه الوظيفة وتنازلها عن السلطات المخولة لها لتلك الطبقة الجديدة الناشئة . ويتم هذا في معظم المجتمعات التي تعرف هذا النظام كل خمس عشرة سنة ، وبمقتضى ذلك تحدث نقلة الى أعلى في كل مكونات البناء الاجتماعي مع احتفاظ البناء ذاته بشكله وبالنسب القائمة بين تلك المكونات . أى ان الطبقات كلها تنتقل من مرتبة الى أخرى أعلى منها في ترتيب تصاعدي كلما تكونت طبقة جديدة ، ولكن العلاقات النسبية بين الطبقات التي تشغل مختلف المراتب تظل كما هى بدون تغيير . واختلاف الطبقات يستتبع بالضرورة اختلاف المرتبة والمركز . والطبقة تعتبر فى أدنى مستويات التمايز الطبقي بعد تكوينها مباشرة وتصل الى أعلى تلك المستويات حين تقترب نهايتها ، أى حين يموت معظم افرادها بفعل السن وتكاد تختفي من الوجود .

ويختلف عدد المراتب الاجتماعية التي تمر بها طبقة العمر الواحدة من مجتمع لآخر وان كان ثمة ميل عام الى التمييز بين ثلاث مراتب أساسية هى البطولة والرجولة الكاملة والشيخوخة . وقليل من هذه المجتمعات يعتبر الطفولة مرتبة تشغلها الطبقة لفترة معلومة من الزمن . ولكل مرتبة من هذه المراتب وظيفة خاصة بها . فالبطولة وظيفتها الحرب كما سبق ان ذكرنا ولكن هذه الوظيفة تتضمن بالضرورة وظيفة أخرى هامة هى الوظيفة الاقتصادية ، لأن الحرب فى كثير من الأحيان يكون الغرض منها شن الاغارات على معسكرات الاعداء لسرقة الماشية ( الإبقار ) التي تلعب دورا هاما جدا فى الحياة الاجتماعية كلها علاوة على قيمتها الاقتصادية ، وذلك على اعتبار ان الماشية هي أداة دفع المهر ودفع الدية وتقديم القرابين والاضحيات الى الآلهة فى تلك المجتمعات الوثنية وهكذا . وترتبط مرتبة الرجولة الكاملة بالاستغلال بامور الحياة المدنية

مركزا اجتماعيا معينا ، وانتقالها من مستوى اجتماعى الى مستوى آخر أعلى منه يرتبط بالانتقال التدريجى بين مراحل العمر المختلفة ، كما ان الطبقات التي ينقسم اليها سكان المجتمع تتوزع فى العادة بين مختلف المراحل العمرية ( انظر فى ذلك مقالنا عن : « نظام طبقات العمر - دراسة فى الانثروبولوجيا المقارنة » - مجلة الآداب جامعة الاسكندرية ، ١٩٦٣ ) .

وليس هنا مجال تفصيل القول فى الشعائر التي تمارس لتكوين طبقة جديدة أو للاحاق الشبان المراهقين بهذه الطبقة الجديدة ، وهى الشعائر التي تعرف عادة باسم شعائر التكريس initiation ceremonies ويكفى ان نقول ان هذه الشعائر هى التي تحدد تكوين الطبقة والاشخاص الذين ينتمون الى الطبقة الواحدة ، وأنها قد تستغرق عدة سنوات حتى يسمح لعدد كبير من الشبان بالدخول فيها لتكوين طبقة واحدة قوية ومتماسكة ومتعاونة ، وذلك قبل أن يفلق موسم التكريس وتمر سنوات أخرى طويلة تتراوح بين سبع سنوات وخمس عشرة سنة قبل أن يبدأ موسم جديد للتكريس لتكوين طبقة جديدة وهكذا .

وتعرف الطبقة الجديدة دائما باسم طبقة الابطال المحاربين لانهم يتولون الوظيفة الحربية ، أى الدفاع عن أرض القبيلة أو الهجوم على القبائل الأخرى المعادية . وتظل هذه الطبقات تمارس هذه الوظيفة حتى يتم تكوين طبقة عمرية أخرى تزيج طبقة المحاربين من وظيفتها وتحتل مكانها ، بينما ينتقل المحاربون القدامى الى مرتبة اجتماعية أعلى هى مرتبة شيوخ العشيرة ، وهذا يؤدي بالضرورة الى زحزحة جميع الطبقات الأخرى الموجودة بالفعل ونقلها الى مراكز أعلى من تلك التي كانت تشغلها قبل تكوين الطبقة الجديدة ، أى ان الطبقة الناشئة لا تمارس حقها فى القيام

طبقات الشيوخ كلها في هذه المهمة التربوية الحيوية بالنسبة للمجتمع والمحافظة على كيانه واستمرار تقاليده وقيمه الاجتماعية والثقافية . بل ان الحرب الهجومية ذاتها او الاغارات التي هي وظيفة طبقة الأبطال المحاربين لا يمكن أن تبدأ الا بعد استئذان شيوخ العشيرة وتلقى بركاتهم ودعواتهم التي تعتبر عنصرا أساسيا هاما لنجاح الاشارة او الحملة . والواقع أن الانتصار في الحرب ونجاح الحملة او فشنها هو مسؤولية الرؤساء الشعائريين او السحرة ورجال الدين قبل كل شيء ، لانهم هم الذين يعينون الوقت الملائم للحرب الناجحة ، وهم الذين يضمنون بذلك نجاح الحملة وانتصارها .

فواضح اذن من هذا كله ان الشيوخ في هذه المجتمعات يتعدون في وظائفهم المجال الاقتصادي البحث ، ويلعبون دورا أكبر وأوسع واشمل بحيث يتفلقون في كثير من نواحي الحياة الاجتماعية بطريق مباشر أو غير مباشر ، ويؤثرون في كل مجالات الحياة . وهذا معناه في آخر الأمر ان لهم في تلك المجتمعات التي يطلق عليها اسم المجتمعات البدائية دورا ايجابيا واضحا يساعد على تشكيل الحياة الاجتماعية واستمرارها . وقد تختلف تفاصيل هذا الدور من مجتمع لآخر وانما المهم هو أن الشيوخ في كل هذه المجتمعات يشاركون مشاركة فعلية وفعالة في حياة المجتمع ، وأنهم يشعرون بذلك ، كما أن المجتمع ذاته يشعرهم طيلة الوقت بحاجته اليهم . وهذه كلها مواقف تكاد لانجد لها مثيلا في المجتمعات الصناعية المتقدمة والمجتمع الحديث على العموم .

## ( ٢ )

هذا الوضع يعتبر في حقيقة الامر هو الوضع المنطقي في كل المجتمعات الانسانية التي تلعب الروابط العائلية والقراية فيها دورا هاما في الحياة اليومية ، وبالذات في الحياة الاقتصادية ، بحيث نجد ان أعضاء الجماعة القراية يعتبرون

والاقتصادية والسياسية ، وافراد الطبقة التي تشغل هذه المرتبة يدخلون في تأليف مجالس الوحدات الاقليمية والقبلية التي تنظر في المنازعات الداخلية بين افراد القبيلة وتحاول انهاء الصراع ، اى ان وظيفتهم في الاغلب وظيفة سياسية . واما مرتبة الشيوخ فانهما ترتبط بوجه خاص بالوظيفة الدينية . فطبقات الشيوخ هي التي تشرف على امور الدين وعلى الطقوس والشعائر باعتبارهم أكبر الأحياء سنا في المجتمع واقربهم بذلك الى الموت والى العالم الآخر وادناهم بالتالى الى الآلهة ، ولذا يلجأ الناس اليهم في اللغات والازمات ، كما يطلبون اليهم التحكيم فيما قد ينشب بينهم من خلافات ويقبلون آراءهم ويخضعون لشورتهم ونصحتهم نظرا لمكانتهم الدينية المتأثرة .

ولسنا هنا بصدد الحديث عن نظام طبقات العمر في ذاته وانما الذى يهمنا هو تبين دور الشيوخ في بعض المجتمعات ( البدائية ) والوظيفة التي يقومون بها في تلك المجتمعات وهي وظيفة أساسية وهامة ، ثم تحديدها لهم حسب نظام محكم دقيق في جملته ، وبأخذ في الاعتبار القدرات الجسمية والكفاءة الذهنية وما يكتسبونه من خبرة وتجربة نتيجة لتقدمهم في السن . ومما له دلالة هنا ان تكوين الطبقة الجديدة التي سوف تحتل مرتبة البطولة لا يتم الا بموافقة الشيوخ او اعلى طبقة من طبقات الشيوخ في حالة تعدد هذه الطبقات في المجتمع ، وأن الفتيان أنفسهم هم الذين يلجأون الى شيوخ العشيرة طالبين اليهم الاذن بالتكريس . ويخضع الفتيان اثناء شعائر التكريس ذاتها وفي خلال المدة التي تستغرقها تلك الشعائر والتي قد تمتد الى عدد من السنين لنوع من الاشراف من طبقة الشيوخ ، كما انهم يتلقون كثيرا من التعاليم والتوجيهات والدروس التي تتعلق بنوع السلوك المنتظر منهم بعد التكريس ، وتعاون

والتماسك بين افراد الطبقة وفي الامتناع عن التزاوج فيما بينهم أو من بين اولاد بعضهم بعضا على اعتبار أن العلاقات الجنسية بين الاخوة والاخوات وذريتهم علاقة محرمة . بل ان طبقة العمر الواحدة تنظر الى الطبقات التي تعلوها على أنها طبقات آباء واجداد اجتماعيين تقع عليهم كل المسؤوليات التي يجب أن يضطلع بها الآباء والاجداد الحقيقيون ، كما أنها تنتظر من الطبقات التي تصغرها أن تلتزم ازاءها بنفس الالتزامات التي يلتزم بها الأبناء الحقيقيون . فكان نظام طبقات العمر - بشكل ما ومن زاوية معينة - نوع من التنظيم القرابي الاجتماعي أو المتخيل الذي يلجأ اليه المجتمع القبلي لكي يحافظ به على كيانه واستمراره وعلى تماسكه ، على اعتبار أن اقوى اشكال التماسك في المجتمع البسيط هو ذلك الذي يقوم على اساس القرابة .

وللمجتمعات البسيطة اساليبها الخاصة في تشكيل نظمها الاجتماعية بحيث تتخذ في آخر الامر شكل التنظيم القرابي أو على الأقل تقوم على اساس العلاقات القرابية والعائلية الحقيقية أو الاجتماعية ( المتخيلة ) وبذلك يركز التكافل الاجتماعي في هذه المجتمعات على قاعدة قرابية وليس على مجرد المصالح الاقتصادية أو السياسية . وليس ادل على ذلك من النظام المعروف باسم النظام الطوطمي Totemism الذي يشيع في كثير من

الشيخوخ والمسنين عاملا من عوامل قوة الجماعة واستمرار وجودها وبقائها . ويصل الامر في بعض الاحيان وفي بعض المجتمعات الى حد أن نجد الشخص يبيع المرتبة الاجتماعية التي يحتلها بحكم السن ، الى من هم أصغر منه سنا لكي يشتري مرتبة اجتماعية أعلى ترتبط بدرجة أعلى من الشيخوخة . وهذا هو ما كنا نقصده حين ذكرنا أن الشيخوخة تعتبر في ذاتها نوعا من الانجاز في مثل تلك المجتمعات . وليس ادل على ذلك من أن المجتمعات البسيطة تترجم تنظيماتها الاجتماعية المختلفة في حدود والفاظ وعلاقات قرابية وعائلية على اعتبار أن هذه العلاقات هي الاساس القوي الذي يمكن أن تقوم عليه حياة المجتمع وتماسكه وتضامنه واستمراره . ونظام طبقات العمر ذاته الذي اشرنا اليه في الفقرة السابقة لا يخرج عن ذلك في آخر الامر . ذلك أن الانتماء الى أي طبقة عمرية إنما يتم بعد ممارسة شعائر التكريس التي بمقتضاها يصبح جميع افراد الطبقة اخوة واخوات على ما ذكرنا . (٦) وهذه اخوة اجتماعية أو اخوة متخيلة أو متوهمة fictitious كما يحب بعض علماء الانثروبولوجيا أن يصفوها ، وليست اخوة بيولوجية أو حقيقية ، ولكنها تخضع مع ذلك لجميع القواعد والالتزامات والحقوق والواجبات والمسؤوليات التي تخضع لها الاخوة الحقيقية . ويتمثل ذلك في التعاون

( ٦ ) تكتسب طبقة العمر وجودها التمايز وكيانها التماسك بعد أن يتم بالفعل تكريس كل الافراد الذين تتألف منهم ، أي أنها لا تظهر كوحدة وظيفية الا بعد التكريس . وتقام معظم حفلات التكريس على المستوى الجماعي ، ويعتبر الختان أهم عنصر فيها ، كما يتمرص الفتيان أثناءها لكثير من التعذيب والتألم التي تختلف في الشدة والقسوة من مجمع لآخر ، مثل خلع بعض الأسنان ، أو تشليخ الجبهة والرأس ، أو الوخز بالاشواك والشجيرات ، أو الجلد بالسياط ، وهذه كلها عمليات تهدف الى اختبار قوة احتمال الشبان على ملاقة العصاب كما أنها تعدهم للقيام بدور الأبطال المحاربين على ما ذكرنا . وليس من شك في أن الانتماء الى طبقة واحدة والبرود بفترة التكريس والخضوع لتلك الشعائر القاسية العنيفة التي قد تتضمن أحيانا عزلة افراد الطبقة لفترة معينة عن بقية المجتمع تخلق بينهم نوعا من ( الاخوة ) الاجتماعية التي لا تعتمد على روابط الدم ، وذلك على اساس أن افراد الطبقة ينتسبون في العادة الى عشائر مختلفة داخل القبيلة الواحدة ، ويساعد على خلق علاقة ( الاخوة ) الاجتماعية نفس عملية الختان أو التشليخ الجماعية حيث يمارسها على جميع افراد الطبقة شخص واحد في وقت واحد ، مستخدما في ذلك سلاحا واحدا لا يهتم بتنظيفه بعد كل عملية فتختلط الدماء تبعاً لذلك مما يوجد نوعا من الرابطة بينهم - انظر في ذلك كتابنا : « البناء الاجتماعي » ، الجزء الثاني - الانساني . صفحة ٣٠٠ .

ومتعاسكة . وبهذه الطريقة يتمكن المجتمع البسيط او البدائي أن يقضى على المشاكل التي تعاني منها المجتمعات الأخرى نتيجة لشيخوخة بعض أعضائها وتقديمهم في السن .



ويمكن ان نجد مثيلا لذلك في المجتمعات التقليدية التي لا يزال يغلب عليها طابع الحياة الريفية ، بل وأيضا في المناطق الريفية في الدول المتقدمة . وليس من شك في أن الثورة الصناعية وما ترتب عليها من آثار في بناء العائلة هي المسئول الأول عن ظهور مشكلة الشيخوخة بالحجم الذي نراها عليه في المجتمع الحديث ، وهذه مسألة سوف نعرض لها بالتفصيل فيما بعد ، ولكن الذي يهمنا الآن هو أنه قبل هذه الثورة الصناعية في أوروبا كان الشيوخ وكبار السن يجدون اشباعاتهم في انتمائهم العائلي ، حيث كان النمط السائد للعائلة هو العائلة الممتدة *extended family* التي يجد فيها الفرد - بصرف النظر عن سنه - الأمان والاطمئنان والاستجابة والاعتراف بالكيان ، وحيث كان الشيوخ يؤدون وظيفة وظيفية اجتماعية حيوية تتمثل - في أبسط صورها - في تقديم خبرتهم ونصائحهم وإرشادهم لأولادهم الكبار البالغين على ما يقول بيرجس Burgess (٧) .

والمعروف أن العائلة الممتدة تركز أساسا على مبدأ استمرار الأجيال المنحدرة من صلب رجل واحد في المعيشة معا بحيث يؤلفون وحدة اجتماعية واقتصادية متعاونة ، بمعنى أن الرجل لا ينفصل حين يكبر ويتزوج عن ( بيت ) العائلة بل يظل محتفظا بعضويته وانتمائه اليه ، وبذلك فقد تضم العائلة الممتدة أفرادا ينتمون الى ثلاثة أجيال أو أربعة ،

المجتمعات الأفريقية القبلية وفي استراليا وغيرها ، والذي يؤدي في آخر الأمر الى ايجاد روابط قرابية اجتماعية بين اشخاص لا يرتبطون في حقيقة الأمر بأية روابط قرابية فيزيقية أو دموية . فأعضاء الجماعة الطوطمية يعتبرون أنفسهم متحدرين من سلالة ذلك الطوطم ( وهو حيوان أو نبات أو قوة طبيعية تلعب دورا هاما في حياة الجماعة ) ويحملون اسمه ، وبذلك يعتبرون أنفسهم اخوة واخوات ، ويحرم عليهم بالتالي الزواج فيما بينهم . ومع أن أفراد الجماعة الطوطمية قد يكونون مبغضين كل التبغض وتكاد لا توجد بينهم روابط قرابية حقيقية فان هذا لا يقلل بحال من قوة الروابط القرابية الاجتماعية . والذي يهمنا هنا بصفة خاصة هو المسؤوليات التي تلقى على أعضاء الجماعة الطوطمية ، بصرف النظر عن وجود أو عدم وجود علاقات قرابية حقيقية ، وهذه المسؤوليات والالتزامات لها الى جانب مغزاها القرابي دلالات اجتماعية واقتصادية تتمثل في التعاون المتبادل الذي يعتمد الى رعاية الشيوخ والمسنين من أعضاء الجماعة .

وهكذا نرى أن المجتمعات البسيطة أو « البدائية » تستطيع بأساليبها واجراءاتها الخاصة في خلق روابط قرابية اجتماعية أو متخيلة حتى بين الأغراب إنما لتهيئ لنفسها نوعا من ( الضمان الاجتماعي ) ضد الأزمات التي تمر بها من ناحية ، بحيث يصلح هذا الضمان الاجتماعي لتأمين حياة أعضاء الجماعة تحت الظروف القاسية التي تسود في تلك المجتمعات . ويمتد هذا الضمان الاجتماعي بحيث يشمل بطبيعة الحال الشيوخ وكبار السن باعتبارهم أعضاء في الجماعة ( القرابية ) او باعتبارهم أقارب وعلى أساس أن الوحدة القرابية هي بالضرورة وحدة متعاونة

أخذة في الاعتبار المركز الاجتماعي لتلك العائلات بصرف النظر عن الميول الشخصية . ولا تزال بقايا هذا النظام موجودة الآن في بعض مناطق الريف الأوروبي . وكل هذا من شأنه توفير قدر من الطمأنينة والاستقرار والاحترام للأجيال السابقة وكبار السن الذين يتدخلون في معظم الأمور التي تعتبرها أمورا خاصة وشخصية مثل مسألة اختيار الزوجة .

وهذه كلها أمور مألوفة لدينا ، ونحن نعرفها من خبراتنا ومن حياتنا اليومية حيث أنها تسود في المجتمعات الريفية الشرقية ، ولكن هناك كثيرا من الشواهد التي تشير إلى أن هذا هو الوضع في بعض المجتمعات الريفية في أوروبا وأمريكا ، حيث لا تزال الروابط العائلية تتميز بدرجة عالية من القوة والتماسك ، وحيث لا تزال أنماط العلاقات القرابية تكشف عن مدى الاحترام الذي يتمتع به الشيخوخ الذين يلعبون دورا فعالا في حياة العائلة . (٨) وقد يحسن بنا أن نشير هنا إلى بعض ما سجله علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع بهذا الصدد في المجتمع الريفي في الغرب ونكتفي بمثال واحد

يتعاونون معا في الحياة اليومية ، ويقوم بينهم نوع من التكافل الاجتماعي الذي ينبع من شعور كل فرد بالمسؤولية نحو الآخرين اجتماعيا واقتصاديا . ونظرا لأن هذه العائلة تستمد قوتها إلى حد كبير من الأجيال السابقة ومن كبار السن والشيخوخ الذين يوجهون كل شئونها ويتحكمون إلى حد كبير في تصرفات الأعضاء الأصغر منهم سنا فإنهم يحظون لذلك بكثير من المهابة والاحترام . ولقد كان هذا النمط من التنظيم العائلي يسود كثيرا من المناطق الريفية حتى في أوروبا ذاتها ، كما أنه كان يوجد لطبيعة الحال في المجتمعات الأكثر بساطة والمجتمعات التاريخية ذات الحضارات القديمة ، ولا يزال هو النظام السائد في المجتمعات الشرقية على ما ذكرنا . واستمرار هذا النمط من التنظيم العائلي يدل على تماسك الأجيال والتمسك بالتقاليد كنتيجة حتمية لاستمرار بقاء الأبناء وزوجاتهم وأولادهم داخل نطاق العائلة ، وذلك فضلا عن ارتباط العائلات المختلفة ببعض عن طريق الزواج والمصاهرة فالعائلة الممتدة هي التي تحدد في الأغلب لأعضائها العائلات التي يمكن لهم الزواج منها

( ٨ ) الواقع أن بعض علماء الاجتماع البريطانيين الذين درسوا التجمعات العمالية في بعض المناطق المتخلفة في المدن الصناعية بانجلترا وبالذات في لندن قد سجلوا وجود بعض بقايا العائلة الممتدة في الأحياء الصناعية التي يسكنها العمال والتي يعملون فيها في الوقت ذاته ، أي الأحياء التي تعتبر مناطق عمل وسكنى وإقامة معا وبذلك تكون مناطق مغلقة إلى حد كبير إذ تتم كل أنواع النشاط الاجتماعي التي يقوم بها السكان داخل حدود تلك المناطق ، كما أن الرجل حين يتزوج فإنه يميل إلى الإقامة بجوار أسرته وبخاصة أسرة أمهات كانت تعيش في المنطقة ذاتها . ومن هنا فإن شكل العائلة الممتدة هو الشكل الأمومي ، وأن نواة هذه العائلة الأمومية الممتدة تتألف من الجدة ( أم الأم ) وبناتها وحفيداتها وهذه مسألة قد تبدو غريبة لمن لم يدرس هذا الموضوع ، كما أنها تختلف اختلافا كبيرا عن الاعتقاد السائد من أن نواة الحياة العائلية في المجتمعات الغربية الصناعية هي الروابط العائلية الأبوية التي تعتمد على الذكور لا الإناث . وقد أشار إلى هذه الظاهرة كل من تاونسند ، الذي سبقت الإشارة إليه ، ويونج وويلموت Young and Willmott اللذين اشتركا معا في دراسة بعض الأحياء المتخلفة في لندن ، واللذين تعتبر دراستهما تمهيدا للدراسات التي قام بها تاونسند فيما بعد . ومن الطريف أن نجد أن هؤلاء العلماء الثلاثة يجمعون على أن النساء في تلك المناطق الصناعية المتخلفة أكثر ارتباطا بأمهاتهن وأخواتهن ، وغير هؤلاء الأقارب النساء من ارتباط الرجل بأقاربه من كلا الجنسين حيث يفصل الرجل في العادة أن يقيم علاقاته الاجتماعية مع أصدقاء وليس مع أقارب . وقد أشارت إليزابيث بوت Elizabeth Bott إلى ذلك في دراستها القيمة عن Family and Social Network حين ذكرت أن أحد الرجال الذين كانت تعتمد عليهم في بحثها قال لها إن « الرجال لهم أصدقاء ، أما النساء فإنهن قريات وإنه ليس للنساء صديقات وإنما لهن أمهات فقط » . ويبدو ذلك واضحا بشكل قوى من التعاون المتبادل بين القريات وقت الحاجة والشدة . وهذه كلها مظاهر سائدة في المجتمعات البسيطة والتقليدية المتخلفة .

لذلك ، مستمد من الدراسة القيمة التي قام بها اثنان من العلماء هما آرنسبرج وكيملبول على المجتمع الريفي في ايرلندا ، وعن المنزلة الاجتماعية العالية التي يتمتع بها الشيوخ هناك ، والدور الاجتماعي الذي يقومون به في حياة المجتمع كنتيجة طبيعية لقوة الروابط العائلية وتماسك الوحدات القرابية هناك .

ولقد لاحظ الباحثان أن الفلاح الايرلندي يعيش في العادة الى سن متقدمة ، ومع انه من الصعب رد طول العمر في المجتمع الريفي الايرلندي الى اسباب معينة بالذات مثل الطعام والمناخ أو العوامل السلافية أو العناية الطبية التي يحظى بها الرجل الاوروبي عموما ، إلا انه ليس ثمة شك في أن الفلاحين الايرلنديين - كما يقول الباحثان - يعيشون طويلا ويتغلبون على الأمراض ، لأن لديهم ما يعيشون من اجله ، وهو كثير . ذلك أنهم في مجال حياتهم الخاصة يحظون بكثير من الاحترام ويتمتعون بكثير من القوة والسلطة والنفوذ . وسلوك الفلاح العادي هناك وعواطفه ومواقفه واتجاهاته وحديثه في الحياة اليومية تشير كلها الى ذلك الاحترام الذي يتمتع به الشيوخ والمسنون في المجتمع ، وأن هذا الاحترام وتلك المراعاة للسن وللشيخوخة يعتبران جزءا من اخلاق المجتمع الريفي وقيمه ، وأن الطفل يتعلم منذ صغره كيف ينبغي عليه ان يسلك ويتصرف مع الذين يكبرونه في السن ، وبخاصة الشيوخ ، ليس فقط داخل عائلته وإنما في نطاق المجتمع ككل ، وهذا في حد ذاته يساعد مساعدة فعالة وأكيدة على تحديد المراكز الاجتماعية والراتب التي يحتلها افراد المجتمع بحسب تقدمهم في السن ، كما يحدد انماط السلوك التي يجب اتباعها ، لدرجة ان المجتمع يفرض الجزاءات والعقوبات على كل من يخرج على قواعد السلوك التي يجب مراعاتها نحو الشيوخ ، وهي جزاءات تتراوح بين اللوم

والتوبيخ والمقاطعة والنبد وغير ذلك . ولا يعنى هذا اطلاقا أن الشباب لا يختلفون مع الشيوخ ، أو أنهم يقبلون دائما وجهة نظرهم وآراءهم ومواقفهم ، اذ كثيرا ما يعبرون عن معارضتهم للشيوخ وانتقادهم لآرائهم وأفكارهم التقليدية القديمة ، ولكن هذا يتم في حدود معينة مرسومة ، وإن كان الشباب فيما بينهم كثيرا ما يسخرون منهم دون أن ينسوا مع ذلك نسق القيم الذي يمثل الشيوخ فيه الحلقة الرئيسية التي تربط افراد العائلة بعضهم ببعض ، والذي يتمتعون فيه بأكبر قدر من الاحترام والمهابة والتبجيل . ومع أن الشباب يريدون دائما بطبيعة الحال ان يكون لهم كيانهم المستقل المتميز عن الشيوخ فانهم لا يجراون في كثير من الاحيان على الافصاح عما يدور في اذهانهم . وينعكس احترام المجتمع لكبار السن والشيوخ في كثير جدا من التصرفات العادية في الحياة اليومية ، وهي تصرفات قد تبدو عديمة الاهمية لأول وهلة ولكن لها دلالتها العميقة . فالشيوخ يجلسون دائما في صدر المكان على المقاعد المجاورة للنار للتدفئة ، بينما يجلس صغار السن في مؤخرة الحجرة . والشيوخ هم الذين يتكلمون بينما ينصت صغار السن والشبان ، وحتى حين يكون الكلام موجها الى أحد هؤلاء الشبان فكثيرا ما يجيب كبار السن عنه ، بل وقد يصل الحال بالشباب بان يتحرز من الكلام الا حين يؤذن له بذلك . ومن الطريف ما يلاحظه المؤلفان من أن « أفضل فنجان شاي ، وأكبر قطعة خبز ، والبيضتان بدلا من البيضة الواحدة ، وما الى ذلك تقدم كلها للشيوخ » دليلا على الاحترام والاعزاز والرعاية ، وهما يريان انه بدون هذه اللفتات الصغيرة تفقد حياة الجماعة الريفية طعمها ومعناها ، كما يصعب على الباحث ان يفهم العلاقات الاجتماعية بل وبناء المجتمع كله ان لم يأخذ هذه الامور في الاعتبار . (٩)

والتي كان الشيوخ يؤدون دورهم الواضح الحيوى فيها طالما كانوا قادرين على الحركة وعلى ابداء الراى فى شئون الجماعة التي ينتمون اليها ، ولقد تغير هذا كله تغيرا جذريا بدخول التصنيع الى المجتمع وظهور مراكز صناعية متقدمة كانت تعتبر - ولا تزال - مراكز جذب للسكان وللأيدي العاملة ، نظرا لما تتيحه من فرص جديدة للكسب والعمل لا تتوفر في المجتمع الريفي الذي يعتمد على الزراعة وغيرها من أشكال النشاط الاقتصادي الأكثر بساطة . ولقد ترتب على ذلك الحراك السكاني من أجل الالتحاق بالمصانع كثير من التغيرات الهامة التي تتمثل في انفصال الأفراد عن عائلاتهم الكبيرة الممتدة ، وتكوينهم عائلات صغيرة أو عائلات نووية - حسب التعبير الشائع في الكتابات السوسولوجية والانثربولوجية - تتألف من جيلين اثنين ( جيل الوالدين وجيل الاولاد ) بدلا من الاجيال الثلاثة أو الاربعة التي تتكون منها العائلة الممتدة ، وضعف الروابط العائلية والعلاقات القرابية نتيجة لذلك ، والفصل بين مناطق السكنى والاقامة ومناطق العمل ، بعد ان أصبح الشخص يعمل في المصانع الكبيرة التي تقام في أماكن معينة بعيدة عن الساكن ، بعد ان كان يعمل مع أعضاء عائلته في نفس موطن اقامته الاصلى ، وازدياد الاتجاه الى الفردية نتيجة لاستقلال الفرد اقتصاديا عن عائلته الممتدة ، وتبعثر أعضاء العائلة الواحدة بين مختلف مناطق العمل والصناعة ، والتحاقهم بأعمال مختلفة بحيث أن الزوجين كثيرا ما يعملان في مهن وأماكن مختلفة ومتباعدة بعد ان كانت وحدة العمل والنشاط الاقتصادي تجمع بينهما ، بل وبين كل أعضاء الوحدة القرابية ، وظهور التخصص الدقيق وبخاصة في مجال الصناعة مما أدى الى تباعد أعضاء العائلة الواحدة في عمليات الانتاج الاقتصادي بعد ان كانت وحدة الانتاج قبل الثورة

وهذه كلها كما ذكرنا من قبل أمور مألوفة وشائعة في مجتمعاتنا العربية التي يقوم تنظيمها الاجتماعي على أساس روابط القرابة والدم والمصاهرة ، وحيث لا تزال العائلة الممتدة هي النمط الغالب ليس فقط في المناطق الريفية بل وايضا في المراكز الحضرية والمدن . والمهم هنا هو ان هذه الروابط القرابية القوية هي التي تساعد الشيوخ على الاستمرار في أداء الدور الذي يتلاءم مع سنهم ، كما تساعد المجتمع على الاعتراف بهذا الدور وتقبله ، وبالتالي على تقبل الشيوخ واحاطتهم بالرعاية والاحساس طيلة الوقت بالحاجة الى وجودهم الذي يعتبر ( بركة ) في أغلب الاحيان . ومن هنا تعتبر الشيخوخة ليس مجرد انجاز كما قلنا ، بل انها تعتبر قيمة يحافظ المجتمع عليها ويسترشد بتعاليمها .

### ( ٣ )

هذا الالتزام بمساعدة المتقدمين في السن والشيوخ والذي يرتبط بالعائلة الممتدة وبالروابط القرابية القوية لم يلبث ان طرا عليه كثير من الضعف والوهن بتقدم المجتمع الانساني ، وتحول الكثير من المجتمعات من الحياة الزراعية البسيطة الى التنظيم الصناعي الأكثر تعقدا ، والذي أدى الى ظهور أنماط جديدة من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والقيم الاخلاقية التي لم تكن معروفة من قبل . ذلك انه قبل الثورة الصناعية التي بدأت بوادرها الأولى في أواخر القرن الثامن عشر ، ثم وضحت معالمها في القرن التاسع عشر ، كان النمط العام للحياة الاجتماعية في المجتمعات القريبة هو نفس النمط الريفي الذي لا يزال يسود في المجتمعات التقليدية البسيطة ، والذي كانت الروابط العائلية والقرابية تلعب فيه دورا أساسيا فعالا في كل مجالات الحياة ،



العمل سوى روابط المصلحة المشتركة . فصاحب العمل يحتفظ بالعمال طالما كانوا على درجة معينة من الكفاءة والمهارة واللياقة البدنية التي تؤهلهم للقيام بالعمل الذي يوكل اليهم على الوجه الاكمل ، والا استغنى عنهم بحجة عدم حاجة العمل اليهم او عدم امكانهم تحقيق المستويات المطلوبة في الانتاج . ويتضح ذلك بأجلى صورة في استغناء العمل عن العاملين حين يصلون الى سن معينة تقل عندها قدراتهم وكفاءتهم ومهارتهم . وهى امور غير مألوفة في المجتمعات التقليدية البسيطة او اساليب الانتاج الاقتصادى التقليدى . ومن هنا كان الراى الذى يذهب اليه الكثيرون من علماء الاجتماع والانثربولوجيا من أن مشكلة الشيخوخة والاحساس بها كمشكلة اجتماعية تحتاج الى حل ، انما هي وليدة الثورة الصناعية وما ادخلته من تغيرات على اساليب العمل والانتاج، وما ترتب على ذلك من تغيرات

الصناعية هي الوحدة القرايية الممتدة على ما سبق أن ذكرنا (١٠) . ولقد كانت النتيجة الحتمية لهذا كله هي أن اصبح الشيوخ يمثلون عبئا على العائلة . فالعائلة الصغيرة او النوواة لم تعد - بحكم تكوينها وبحكم الظروف التى تعيش فيها - تحتل او تستطيع اعالة الشيوخ او استيعابهم او العناية بامرهم . بل ان الشيوخ لم يعودوا يؤلفون جزءا في تكوين هذا النمط من العائلة نظرا لان الرجل ينفصل عن عائلته بمجرد أن يكبر ويتزوج ان لم ينفصل عنها قبل ذلك ويرحل للعمل في مكان بعيد . (١١) ومن ناحية اخرى فان التغيرات التى طرأت على طبيعة العمل وطبيعة العملية الانتاجية ادت الى ان تصبح الوحدة الانتاجية تقوم على اساس المصالح الاقتصادية بعد ان كانت تقوم على اساس روابط الدم والقراية . فالعمال الذين يعملون فى أى صناعة من الصناعات وفى أى مصنع من المصانع لا تربطهم ببعض ولا بصاحب

( ١٠ ) ترتبط فكرة التخصص وتقسيم العمل بالمعنى الدقيق للكلمة بالمجتمعات الأكثر تطورا ، وبخاصة المجتمعات الصناعية ، لدرجة أن اصبح نظاما لازما للصناعة الحديثة ويرتبط بها ارتباطا قويا في الاذهان ، وبحيث نجد أن الكثيرين من الكتاب ينكرون على الشعوب ( البدائية ) والبسيطة اية معرفة بالتخصص . والقصود بالتخصص وما يرتبط به من تقسيم للعمل هو توزيع الادوار المختلفة على اشخاص مختلفين بطريقة تكفل في آخر الامر تحقيق هدف واحد متكامل ومحدد بحيث يقوم الافراد باداء ادوار معينة وانجازها . والنسق الصناعي بالذات يعتمد أكثر من غيره من الانساق الاجتماعية والاقتصادية على الدقة النهائية في التخصص وفي تقسيم العمل والتمييز بين الادوار المختلفة التي تؤلف كلها في الوقت ذاته وحدة متماسكة متكاملة . وذهب الكثير من الكتاب ايضا الى أن التدقيق في التخصص يؤدي في آخر الامر الى كفاءة المصنع وكفاءة العملية الانتاجية وبسيط العمل ، وذلك نظرا لان العمال يصبحون أكثر كفاءة ومهارة في انجاز اعمالهم . والاتجاه العام على أى حال في الانتاج الصناعي يميل الى المبالغة في التخصص وتقسيم العمل بحيث اصبحت الناحية الفنية التي يتضمنها الدور الذى يقوم به أى عامل من العمال مجهولة تماما للعمال الآخرين الذين يشغفون في نفس الصناعة الواحدة ، ولكنهم يؤدون فيها ادوارا مختلفة ، وان بعض هذه الادوار يكاد لا يعرف معناها او اهميتها الا الذين يمارسونها بالفعل ، والاكثر من ذلك انه في بعض الاحيان قد يجهل العامل نفسه أهمية العمل الجزئى الذى يقوم به بالنسبة للعملية الانتاجية ككل . ويذكر عالم الاجتماع الأمريكى ماكيفر Mac Iver في هذا الصدد أن أكبر مساوئ التخصص وتقسيم العمل هي انهما يبعلمان الناس بمثابة أجزاء في آلة واحدة كبيرة . فبعضهم يصبح بمثابة ( الكباس ) وهكذا ، وبذلك يصبح العامل وعمله مجرد أجزاء صغيرة لا قيمة لها في ذاتها وبداتها ، انظر في ذلك :

Mac Iver, R. M. ; Community : A Sociological Study, Macmillan, London 1936, Pp. 359-62.

Clark Tibbitts, " Retirement Problems in American Society ", in Eisenstadt (ed.)

Comparative Social Problems, Free Press, N. Y. 1964, p. 195.

( ١١ )

زيادة انتاج العامل وتضاعفه من ناحية ، وعدم حاجة الصناعة في كثير من الاحيان الى كل الايدي العاملة المتاحة ، واحلال الآلة محل الانسان وبخاصة حين تتقدم السن بهؤلاء العمال ، كل ذلك ساعد على تضخم مشكلة الشيخوخة بحيث اصبحت تحتاج الى تضافر كثير من القوى لدراساتها وايجاد الحلول المناسبة لها وذلك بعد أن فقدت العائلة الممتدة وظيفتها ومبررات وجودها .

ولقد شغلت الازدهان مشكلة السن التي يمكن عندها أن يتقاعد المرء عن أداء عمله المألوف المعتاد ، أو التي ينبغي على المجتمع أن يجبره عندها على التخلي عن عمله والكف عن ممارسته ، وإن كان يبدو أن معظم الدول في الوقت الحالي ترى أن السن المناسبة لذلك هي الفترة بين سن الستين والسبعين ، وإن كان هذا التحديد لا يخلو من التعسف . ذلك أن مثل هذا التحديد ، وإن كان يركز بغير شك على كثير من الاعتبارات الاجتماعية والعملية يفصل الفوارق والاختلافات الفردية ، مثل القدرة الفيزيائية الفعلية على العمل والأداء ، والحالة الصحية عند مختلف الافراد ، والوضع المالي للفرد وحاجته الى العمل وإلى المحافظة على مركزه الاجتماعي ومكانته في العائلة والمجتمع ، وقدرته على الاحتفاظ بعمله وممارسته على مستوى معقول ومقبول . وثمة شواهد وأدلة كثيرة تشير إلى أن معظم الذين يحاولون إلى المعاش لبلوغهم سن التقاعد التي ترتبط بمرحلة الشيخوخة من وجهة نظر المجتمع إنما يميلون إلى الاستمرار في أداء عملهم ، أو على الأقل القيام بعمل ما يستطيعون أن يكسبوا منه بعض الدخل من ناحية ، وإن يرتبطوا عن طريقه من ناحية أخرى بالحياة الاجتماعية وبالمجتمع مما يشعرهم بأنهم لا يزالون قادرين على أن يؤديوا أعمالا يحتاج

في العلاقات داخل الوحدة الانتاجية وبين المشتركين في العمل الواحد . (١٢) واحد المظاهر الهامة لهذه الشيخوخة وما يترتب عليها من تغير العلاقات داخل العمل هو ظاهرة التقاعد عن العمل أو الاحالة إلى المعاش حين يبلغ العامل سنا معينة يفترض عندها أنه لم يعد قادرا على العمل والانتاج حسب المستويات المطلوبة على ما أشرنا إليه .

ويعتبر التقاعد عن العمل - من حيث هو نظام اجتماعي له قواعده المحددة - ظاهرة حديثة نسبيا حتى في المجتمع الأوروبي والأمريكي ، كما أنه يشكل نوعا من التحدي لنمط جديد من الحياة يختلف كل الاختلاف عن النمط المألوف الذي اعتاده المرء أثناء حياته العاملة النشيطة . ففي المجتمعات الريفية وقبل الصناعية ، أو المجتمعات التقليدية والبسيطة عموما وكذلك في العصور السابقة على الثورة الصناعية نجد أن نسبة ضئيلة جدا من السكان هي التي كانت تعيش حتى سن متقدمة وتصل إلى مرحلة الشيخوخة الفيزيائية ، أي أن عدد الشيوخ في هذه المجتمعات قليل نسبيا بحيث لا يؤلفون مشكلة اجتماعية خاصة ، وإن العائلة الممتدة كانت تتحمل مسؤولية العناية بهم وبدل الرعاية الضرورية لهم ، فضلا عن أن الشيوخ أنفسهم كانوا يساهمون في مختلف أوجه النشاط الاجتماعي والاقتصادي بما يتناسب مع حالتهم الفيزيائية والذهنية . إلا أن تقدم الخدمات والرعاية الصحية وتقدم الطب وما يترتب عليه من إطالة فترة الحياة وبالتالي ازدياد عدد الشيوخ في المجتمعات الأكثر تقدما ، وكذلك الانجازات العلمية والتكنولوجية التي أمكن تحقيقها وما يترتب عليها من ظهور اختراعات كثيرة ، واستخدام القوى الميكانيكية والآلية في الانتاج بدلا من القوى العضلية ، مما أدى إلى

اليها غيرهم من الناس ، وان لهم بالتالى وظيفة يقومون بها فى المجتمع الذى ينتمون اليه . ولكن الوضع يختلف بطبيعة الحال بالنسبة لصاحب العمل الذى يرى ان العنصر الاساسى الحاسم فى ذلك هو مدى كفاءة العامل او الموظف وقدرته على الانتاج ، فضلا عن الرغبة المشروعة فى استخدام ثبات اصغر سنا لقدرتهم ليس فقط على العمل بل وايضا على التكيف مع الازواضع الجديدة المتغيرة وعلى استيعاب التجديدات ، بل والقدرة على الابتكار وعلى الخلق والتجديد . (١٣)

واذا كان التقاعد يعنى بداية مرحلة جديدة بالنسبة للشيوخ فانها مرحلة لا تخلو من متاعب ومشكلات وصعوبات ، وربما كان اصعب هذه المشكلات التى تواجه الانسان بعد تقاعده هى مشكلة التكيف مع الازواضع الجديدة التى يجد نفسه فيها . وقد اجريت بعض الدراسات فى الخارج حول هذا الموضوع لمعرفة مدى قدرة الاشخاص الذين ينتمون الى مهن واعمال وطبقات اجتماعية ومستويات ثقافية مختلفة على التكيف مع هذه الازواضع الجديدة التى تحيط بهم ، ويبدو من تلك الدراسات ان المشكلات الرئيسية التى يحس هؤلاء الشيوخ المتقاعدون بضرورة ايجاد حل لها هى مشكلة ضمان توفير دخل يكفى لاشباع حاجاتهم ومتطلباتهم ، بحيث يتوفر لهم مستوى معين من الحياة الكريمة الصحية التى لا تخلو من ممارسة بعض النشاط والمشاركة فى حياة المجتمع ، ثم ايجاد فرص كافية للاتصال بالآخرين وخلق علاقات اجتماعية وصدقات جديدة ، ثم الرغبة الشديدة فى الاحساس

بالمحبة والعطف ، اعنى حب الآخرين وعطفهم وحنوهم ورعايتهم لهم . ومع ان معظم هذه الدراسات تبين ان غالبية الشيوخ المتقاعدين يتكيفون بشكل او بآخر مع ظروفهم الجديدة ، فثمة اعداد كبيرة منهم تشعر بالضيق والحيرة واتعدام الهدف وخلو الحياة من معنى ، وان كان ذلك لا يمنعهم من ان يبذلوا الجهد للتشبث بادوارهم القديمة التى كانوا يقومون بأدائها ، او بالبحث عن دور جديد مفيد وفعال ، وتوفير درجة معقولة من الأمن والطمأنينة . ومع ذلك فان ثمة اتفاقات فى كل هذه الدراسات والبحوث على ان الشيوخ المتقاعدين فى المجتمعات الصناعية الحديثة يعانون من انخفاض واضح فى مستويات الحياة سواء فى السكن او فى نوع الطعام او فى الحالة الصحية ، وذلك فضلا عن الانسحاب الجزئى او الكامل من الحياة الاجتماعية ، او على الاقل القدرة على المشاركة بطريقة فعالة فى النشاط الاجتماعية المنظمة . ولكن لعل اشد ما يثير فى نفوسهم الالم هو الشعور بأنهم يمثلون عبئا على اولادهم . ويزيد من حدة هذا الشعور انصراف الاجيال الشابة عن اعطاء هؤلاء الشيوخ ما يحتاجون اليه من رعاية وعطف وعناية نتيجة لانشغالهم هم انفسهم باعباء الحياة المتزايدة فى القسوة (١٤) .

وكان لابد لهؤلاء الشيوخ من ان يعثروا على بديل يعوضهم عن المصادر السابقة التى يستمدون منها العطف والمحبة والاعزاز ، التى تزودهم بشبكة العلاقات الاجتماعية التى كانوا يدخلون طرفا فيها . فاستقلال الابناء اقتصاديا وانتقالهم من موطن الإقامة

Tibbitts, op. cit., p. 196.

(١٣)

(١٤) من الدراسات الهامة التى عرضت لهذه المشكلات :

Susan H. Kubie and Gertrude Landau, Group Work with the aged, International Universities Press, N.Y. 1953 ; Retirement Policies and the Railroad Retirement System, Washington D.C. : Government Printing Office, 1953 ; Heron, A., Preparation for Retirement ; Solving New Problems, National Council of Social Service, London 1963.

وتقوم بوظائفها فيما يتعلق بالعناية بهؤلاء الشيوخ ، وذلك رغم الفجوة الواسعة الهائلة التي تفصل بين الحكومة والفرد . والملاحظ انه على الرغم من تزايد عدد الشيوخ والمسنين في كل المجتمعات الانسانية بدون استثناء ، نتيجة لتقدم الرعاية الصحية والخدمات الطبية بالذات ، أن الشيوخ لا يؤلفون قوة ضاغطة على الحكومات في أى من تلك المجتمعات ، حتى المجتمعات الصناعية المتقدمة ، بحيث يضطرونها الى الاستجابة لمطالبهم . أى أن الشيوخ - من حيث هم فئة متميزة عن بقية فئات المجتمع - يفتقرون الى التنظيم القوى الفعال المؤثر ، وإن كانت النقابات والاتحادات العمالية والمهنية المختلفة قد استطاعت ان تحقق الكثير من المزايا لعضائها الذين يصلون الى سن التقاعد ، بحيث توفر لهم في شيخوختهم درجة معينة من الحياة الكريمة المريحة . ولكن الشيوخ - كشيوخ ، أو كفئة بصرف النظر عن أعمالهم أو مهنتهم أو تخصصاتهم الاصلية وغير ذلك من عوامل التفاوت والتفاضل - ينقصهم ذلك التنظيم الذي يمكن ان يضمهم جميعا ويتكلم باسمهم كفئة ، ويطالب بحقوقهم كما هو الحال مثلا في تنظييمات الشباب . وليس من شك في أن الحكومات تعطى في الوقت الحالي اهتماما متزايدا لمشكلات الشيوخ والشيخوخة وتضع القوانين والتشريعات التي تكفل ضمان حقوقهم . ولكن مهما يكن من أمر هذه الجهود فإن الحكومات بكل تنظييماتها ومؤسساتها وأجهزتها التي تسخرها للسهر على رعاية الشيوخ لا يمكن أن تكون بديلا حقيقيا يحل محل العائلة الممتدة القديمة رغم قصور الامكانيات المادية للعائلة . فكل هذه المؤسسات والاجهزة لا تستطيع ان تعطي الشيوخ ما يحتاجون اليه حقا من دفء الصداقة والرفقة الحقيقية التي يشعر بها المرء بين افراد عائلته وبخاصة حين

الاصلى وثبعثرهم للبحث عن عمل يعتبر بغير شك خسارة عاطفية هائلة للآباء الشيوخ يصعب عليهم تعويضها ، كما انه يفرض على هؤلاء الشيوخ حياة الوحدة والحرمان من العلاقات القرابية والعائلية التي كانت تؤلف جزءا كبيرا من نشاطهم واهتماماتهم اليومية . ويزيد ذلك الشعور بالوحدة والعزلة عن حياة المجتمع حين يفقد المرء زوجه أو أصدقاءه مما يضع كثيرا من القيود والتحديدات على عالمه الاجتماعى وعلى نطاق علاقاته الشخصية بأفراد المجتمع الذى يعيش فيه . وهذا الانسحاب من المجتمع والحياة الاجتماعية يتم تدريجيا بحيث لا يكاد المجتمع أو حتى الفرد نفسه يشعر به في اول الامر الى ان يسلم الفرد في النهاية الى نوع من العزلة تكاد تكون تامة ، وبحيث يقع الفرد نفسه في ظل النسيان ممن يعيشون حوله كما بينت دراسة تاونسند ، وإن كان الكثيرون من الشيوخ ، وبخاصة الذين قاموا بأدوار هامة اثناء حياتهم العاملة والنشيطة ، كثيرا ما يقاومون هذا الميل الى التراجع والانسحاب من الحياة العامة ، ويحاولون الاستمرار بقدر الامكان في ممارسة نشاطهم بشكل أو بآخر ، لانهم يجدون من الصعب عليهم النزول عن المكانة التي كانوا يتمتعون بها أو التفريط في حقوقهم وسلطتهم . ولكن النتيجة النهائية على أى حال والطابع العام السائد الذى يطبع حياة الشيوخ هو ازدياد الشعور بالوحدة والانعزال والانحصار داخل دائرة من العلاقات الاجتماعية التي تضيق بالتدريج (١٥) .

وهذا كله من شأنه أن يلقى مسئولية رعاية هؤلاء الشيوخ والمسنين على عاتق المجتمع ككل ، أو على عاتق الدولة التي يتعين عليها ازاء هذه التغيرات العميقة في العلاقات القرابية والعائلية التقليدية ان تحل محل العائلة الممتدة

تتقدم به السن . ولذا فانه رغم كل الجهود التي قد تبذلها بعض الحكومات والهيئات لتهيئة واعداد بيوت للشيخوخة والمعائز وتزويدها بمختلف وسائل التسلية والتثقيف ، ومحاولة شغل أوقات هؤلاء الشيخوخ فان الشعور والانعزال والتمركز حول الذات يظل مسيطرًا عليهم . ويكشف هذا الشعور عن نفسه في كثرة الشكوى والتدسر التي تميز حياة الشيخوخة ، وهي شكوى تمتد في كثير من الاحيان الى كل الاوضاع العامة السائدة في المجتمع ، وتتخذ شكل المقارنة بما كان يحدث في العهود السابقة ، وان كانت هذه الشكوى تصل الى ذروتها فيما يتعلق بانصراف الأبناء والاقارب عن الاهتمام بهم واعطائهم ما يستحقونه من رعاية ، وما هم بحاجة اليه من عطف .

وعلى أية حال فاللاحظ هو ان الحكومات في محاولتها رسم سياساتها الخاصة برعاية الشيخوخة تتخذ بوجه عام احد اتجاهين متعارضين تماما .

**فاما الاتجاه الاول** فانه يقوم اساسا على الايمان باستقلال الفرد في اتخاذ قراراته ورسم حياته بنفسه دون تدخل من السلطات ، وان ذلك يجب ان يكون الحال فيما يتعلق بالشيخوخة . ولذا يرسم أصحاب هذا الاتجاه سياستهم على أساس ضمان تحقيق استقلال هؤلاء الشيخوخ والمسنين والعجزة وتوفير حرية الحركة والعمل لهم بحيث يستطيع كل منهم ان يأخذ زمام المبادرة بنفسه مثلما كان يفعل خلال مراحل حياته السابقة قبل ان يصل الى مرحلة الشيخوخة . وهذا معناه ان رعاية الدولة للشيخوخة يجب ان تأخذ في الاعتبار امكان توفير الظروف التي تساعد الفرد على ان يختار بنفسه أسلوب حياته اثناء الشيخوخة ، وهذا الاتجاه يسخر من الاعتقاد السائد عن كثير من الناس من ان المرء يفقد استقلاله وقدرته على اتخاذ القرارات حين تتقدم به السن ويصل

الى الشيخوخة الفيزيكية . ولذا فان المهم عند اصحاب هذا الاتجاه هو الكشف عن مصادر القوة الكامنة في الفرد ، وعن المقومات الاساسية في شخصيته وتكوينه لاتي تساعد على الاحتفاظ باستقلاله وكيانه المتميز ، وانه لا بد للمرء من ان يتنبه في مرحلة مبكرة من حياته الى مرحلة الشيخوخة التي سوف يصل اليها في وقت من الاوقات ، ان طالت به الحياة وطال به العمر ، وان يستعد لهذه المرحلة ليس فقط بتوفير ما قد يحتاج اليه حينئذ من مال او ممتلكات ، بل وايضا عن طريق تنمية اهتمامات جديدة يمكن ان تملأ عليه حياة الوحدة والوحشة والفراغ . وهذا كله كفيل في آخر الامر بان يجذب الشخص المسن الى حياة المجتمع من جديد ، بحيث يشارك في حياته وحياة الجماعة ويقوم بدور ايجابي فعال في حياة ذلك المجتمع .

**وأما الاتجاه الثاني** فانه على العكس من ذلك تماما يأخذ في الاعتبار سلبية الفرد وبخاصة حين يصل الى مرحلة الشيخوخة . فالشيخوخ بحكم واقعهم وضعفهم وتدهور قواهم الفيزيكية والذهنية لا يستطيعون ان يهتموا بانفسهم او ان يعطوها ما تستحقه من عناية ورعاية . كما ان الفرد بطبيعته قلما ينتبه اثناء شبابه الى ما سوف يؤول اليه امره بمضى السنين . وبذلك فانه قلما يأخذ عدته للمستقبل ، وان يعمل مقدما على توفير ما سوف يحتاج اليه حين يصل الى الشيخوخة . ولقد وصلت الحياة الحديثة الى درجة من التعقيد يعجز معها الشيخوخ عن ان يواجهوها وحدهم وبدون عون من الدولة ذاتها ، ومن هنا كان اصحاب ذلك الاتجاه يرون ان من أهم ما يجب على الدولة ان تظطلع به هو ان توفر للشيخوخ والمسنين والمعائز من أعضاء المجتمع الضمانات المادية والاجتماعية التي تسمح لهم بأن يمضوا الفترة الباقية من حياتهم دون ان يشغلوا انفسهم بأمر العيش

الشيخوخ والعجائز في المجتمع العربي المعاصر ، كما أن الجامعات العربية لم تول هذا الموضوع ما يستحقه من عناية واهتمام ، على الرغم من أن العالم العربي مقبل الآن على تغيرات سريعة وعميقة نتيجة للاتجاه نحو التصنيع والتحديث ، وما سوف يترتب عليهما من تغييرات في البناء الاجتماعي والنظم الاجتماعية وأنساق القيم والثقافة التقليدية والعلاقات بين الناس وبخاصة داخل نطاق العائلة . وإذا كان الشيخوخ في مجتمعاتنا لا يزالون يجدون الكثير من الرعاية والاحترام والمراعاة ، ولا يزالون يلعبون دورا في الحياة الاجتماعية ، وإن كان يختلف من مجتمع لآخر ، فإن ذلك يرجع في المحل الأول الى روح التكافل الاجتماعي الذي يركز كما رأينا من قبل على الروابط القرابية والعائلية التي تستمد قوتها من القيم التقليدية المتوارثة ، وهذا كله سوف يتعرض للتغير بغير شك نتيجة للاتجاه نحو الحياة الحديثة ، وبذلك فإن مكانة الشيخوخ والنظرة اليهم والى الشيخوخة سوف تتغير بدورها . وقبل أن تظهر المشكلة بنفس الحجم الذي نجده في المجتمعات الأوروبية الحديثة قد يكون من الخير أن نعد لها العدة من الآن من طريق الدراسة والبحث ، ليس لكي نمنع وقوع المشكلات والصعوبات المتعلقة بالشيخوخة ولكن لكي نخفف من وقعها ومن آثارها بقدر الامكان . وسوف يتطلب ذلك بالضرورة اتخاذ خطوات ايجابية مدروسة لتحديد موقف المجتمع من الشيخوخ واعدادهم لمواجهة الظروف الجديدة التي سوف يجدون أنفسهم حيالها .

والذي يبدو للمرء من دراسة الاوضاع في المجتمعات الصناعية الحديثة هو أنه مع التسليم بكل ما فعلته المدينة الغربية الحديثة في مجال اطالة فترة الحياة بالنسبة للغالبية

أو الخوف من المرض . ويقول آخر فإن ما يحتاج اليه الفرد حين تتقدم به السن ويصل الى مرحلة الشيخوخة هو مختلف الخدمات الاجتماعية والصحية والترفيهية دون أن يحمل هو نفسه ما لا يطيق من أجل البحث عنها ، أو من أجل أن يثبت لنفسه وللآخرين أنه لا يزال قادرا على المشاركة في حياة المجتمع والقيام بدور ايجابي يعود بالخير على الآخرين . (١٦)



وأيا ما يكون موقف الحكومات والمؤسسات من الشيخوخة والشيخوخ فالشيء الواضح الآن هو أن الشيخوخة تعتبر من أهم المشكلات الرئيسية التي تواجه المجتمعات الحديثة والتي تشغل بال الكثيرين من العلماء من مختلف التخصصات . ولقد كان معظم اهتمام العلماء في الماضي موجها الى النواحي الطبية والبيولوجية كما ذكرنا ، وفي هذين المجالين بالذات تتمثل أهم الاسهامات في بحوث الشيخوخة ، ولا تزال هذه النواحي تحظى حتى الآن بكثير من العناية ، بينما قليل جدا من البحوث تعرضت للجوانب الانسانية والاجتماعية للمشكلة رغم أنها تتصل في المحل الأول بالفرد من حيث هو انسان وعضو في مجتمع . ولقد جاءت هذه الاسهامات متأخرة نسبيا ولكنها حققت كثيرا من النجاح وكشفت عن ميادين كثيرة غنية وعميقة ، وإن تكن هناك ميادين أخرى أوسع وأرحب وأعمق لا تزال مجهولة وتحتاج الى كثير من البحوث والدراسات الميدانية الجادة في مختلف المجتمعات والثقافات . ومما يؤسف له أننا هنا لم نكد ننتبه الى هذا الموضوع الحيوي ، ولم تقم حتى الآن أية دراسات جدية حول المشكلات الاجتماعية الواقعية التي يواجهها

Havighurst, R. J. ; " Life Beyond Family and Work ", in Burgess, op.cit., ( ١٦ ) pp. 303-4.

الحياة ، وتميزه تماما عن مرحلة النضج والرجولة الكاملة فان الباحثين عموما يميلون الى أن يعتبروا الشيخوخة مجرد امتداد بانس وتعييس لمرحلة النضج والرجولة ، وانها بذلك تمثل نوعا من التراجع والتدهور والاضمحلال والهبوط عن المستويات والمعايير التي يحققها الانسان الناضج المكتمل الرجولة حين يبلغ أواسط العمر ، وذلك بدلا من أن ينظروا الى الشيخوخة على انها تمثل نوعا من التحدى لنمط من الحياة له آفاق مختلفة وجديدة تماما في تجربة الحياة . والواقع أن هناك من الاسباب والمبررات ما يدعو لأن ننظر الى الانتقال لمرحلة الشيخوخة وما يصاحبه من تغيرات هامة وحيوية في شخصية ونفسية وعلاقات الشخص بالمجتمع بنفس النظرة التي ننظر بها الى الانتقال من المراهقة الى النضوج ، والى أن نعطي لمرحلة الشيخوخة نفس العناية التي حظيت بها مرحلة المراهقة . بل ان مجالات البحث في مرحلة الشيخوخة باعتبارها تجربة فريدة ومتميزة في حياة الانسان ، وما قد يمر به المرء من تجارب ويتعرض له من اساليب وأنماط سلوكية جديدة قد تجعل البحث في الشيخوخة أكثر إثارة من البحوث التي أجريت على مرحلة الشباب مثلا .

ثم هناك نقطة أخيرة يوجه النظر اليها كثير من العلماء وهي أن الباحثين حين يتكلمون عن الشيخوخة يركزون كلامهم في الأغلب على « المشكلات » ويكادون لا يتكلمون عن انجازات الشيخوخة او امكاناتها أو عن الفرص المتاحة للشيخوخ في حياتهم الجديدة أو التي يجب العمل على استغلالها والافادة منها . فهم يصورون الشيخوخة كما لو كانت « لعنة » - كما يقول سيمونز - بدلا من أن يعتبرونها مرحلة عادية وطبيعية من مراحل العمر التي

العظمى من السكان في تلك المجتمعات نتيجة لتقدم الطب بالذات فان هذه المدنية الحديثة ذاتها أساءت اساءة بالغة لكثير من الاساليب القديمة التي كان الشيوخ يعتمدون عليها في تكيفهم مع واقع الحياة ومع الظروف الجديدة التي يواجهونها بحكم شيخوختهم . بل انه يمكن القول ان اساليب المدنية الحديثة في حل مشكلات الشيخوخة تكشف عن كثير من نواحي النقص والقصور اذا هي قورنت بالاساليب والازواض التقليدية القديمة التي كانت تسهم اسهاما كبيرا في أن يمضى الشيوخ الفترة الأخيرة من حياتهم وهم ينعمون بغير قليل من الطمأنينة والسعادة وراحة البال ، وهي العناصر التي تؤلف ما يحب بعض الكتاب أن يسموه « الشيخوخة الناجحة » ، ايا كان المقصود من هذه التسمية . وربما كان الدرس الذى يمكن استخلاصه من كل البحوث والدراسات التي أجريت حتى الآن عن الشيخوخة في مختلف الشعوب والمجتمعات هو - كما يقول سيمونز Simmons (١٧) - أن المقومات الاساسية للشيخوخة الناجحة - بالإضافة الى الراحة النفسية التي اشرنا اليها - تتركز بعد كل شيء على قدرة الافراد انفسهم على التلاؤم بنجاح مع الاطار الاجتماعى السائد في العصر الذى يعيش فيه هؤلاء الافراد ، ولقدرتهم على توكيد حقوقهم في اطالة فترة اسهامهم في الحياة الاجتماعية ، واجبار المجتمع على الاعتراف بهم لاطول فترة ممكنة ، ثم قدرتهم على ان يدركوا متى ينبغي عليهم أن يتوقفوا عن ذلك كله .

ولعل مما يلفت النظر حقا في موضوع الشيخوخة أننا نجد أنه في الوقت الذى اهتم فيه العلماء والباحثون من مختلف التخصصات بدراسة المراهقة كمرحلة فريدة في تجربة

( ١٧ ) Simmons, Leow. ; " Social Participation of the Aged in Different cultures ", The Annals of the American Academy of Political Science, Vol. 279, p. 50.

قدرات وكفاءات ومهارات وخبرات يستطيعون ان يقدموها للمجتمع وأن يفيدوا بها غيرهم . ان علينا أن نكشف عن القدرات والامكانيات الكامنة عند الشيخوخ ، وأن نعمل على تنمية هذه القدرات والامكانيات وتطويرها للظروف الاجتماعية القائمة . وهذا كله سوف يتطلب في آخر الامر أن نراجع موقفنا ونظرتنا الى الشيخوخة ، وان نعيد تقييمنا لأساليب البحث والدراسة والموضوعات والجوانب التي يمكن ان نهتم بها في دراستنا للشيخوخة وحياة الشيخوخ .

سوف نصل اليها جميعا ، ان لم يكن هناك من الاسباب ما يمنع دون ذلك ، وان لم تحدث الوفاة في سن أصغر لسبب من الاسباب ، والتي يجب لذلك أن نهىء أنفسنا لها باعتبارها تجربة تستحق أن يخوضها الانسان بكل قوة وعمق . ومن الملاحظ أيضا ان معظم الدراسات التي أجريت على الشيخوخة تميل الى توكيد وإبراز ما يقدمه - أو ما يجب أن يقدمه المجتمع للشيخوخة والمسنين والعجائز بدلا من أن تحاول البحث عما يمكن لهؤلاء الشيخوخ والمسنين والعجائز ان يكتشفوه في أنفسهم من





### أهم المراجع

- Birren, J. E. ; (ed.) Handbook of aging and the Individual, Chicago 1959.
- Bromley, D. B. ; The Psychology of Human Ageing, Penguin, London, 1966.
- Burgess, E. W. ; (ed.) Ageing in Western Societies, Chicago 1969.
- Clark, F. Le Gros ; Growing Old in a Mechanized World, Nuffield Foundation, London 1960.
- Comfort, A., ; The Process of Ageing, Signet, N.Y. 1964.
- Eisenstdt, S. N. ; Comparative Social Problems, Free Press, N.Y., 1964.
- Felstein, I. ; Later Life : Geriatrics Today and Tomorrow, Penguin, London 1969.
- Gilbert, Jenne G. ; Understanding Old Age, Ronald Press, N.Y. 1952.
- Havighurst, R. J. and Albrecht Ruth ; Older People, Longmans, N.Y. 1953.
- Lehman, H. C. ; Age and Achievement, Princeton U.P. 1953.
- Munn, N.L.; Evolution and Growth of Human Behaviour ; Houghton Muffin, Boston 1955.
- Rosset, E. ; Ageing Process of Population, Pergamon Press, Oxford 1964.
- Sheldon, J. H. ; The Social Medicine of Old Age, O.U.P. 1948.
- Towns end, P., The Family Life of Old People, Penguin, London 1963.
- and Wedderburn, Dorothy ; The Aged in the Welfare State, Bell London 1965.
- Zubek, J. P. and Solberg, P. A.; Human Development, McGraw-Hill, London, 1954.



## ميكلائنجلو

( بمناسبة ذكرى مرور خمسمائة عام على مولده )

### د . ثروت عكاشة

عام واحد للالتحاق بمدرسة النحت في حدائق آل مديتشى حيث عاش بين تمائيل العصر الكلاسيكى التى تضمها مجموعة لورنزو العظيم . وهناك ينحت رأس تمثال لجنى صغير ( فون ) يراها الأمير لورنزو حاكم دوقية فلورنسا فتبهره مواهب الصبى ميكلائنجلو ، ويدعوه للإقامة فى قصره وسط مجموعة الفلاسفة والادباء والشعراء الذين صاغوا فلسفة المذهب الانسانى خلال مناقشات طويلة ، كان ميكلائنجلو يتشربها وتتسلل الى اعماق نفسه ، فاذا بها تشكل خلفيته الفكرية التى تظل متوثبة فى وجدانه طوال عمره .

منذ خمسمائة عام على وجه التحديد وشمس النهضة الايطالية تتوهج ، ولد طفل انفصل من أيامه الأولى عن أبيه القاضى المتقاعد وعن أمه ليعيش فى كنف زوجة عامل فى محاجر الرخام ، فاذا الطفل يرضع مع لبن حاضنته حب الرخام ونحته وتشكيله ، واذا بأمه تموت بعد ستة أعوام وهو بعيد عنها فحرم من حنانها الى الأبد .

وما يكاد يبلغ الثالثة عشرة من عمره حتى ينضم الى مرسوم الأخوة « جيرلا ندايو » ليتدرب على انجاز رسوم الفريسك الجدارية، لكن هواية النحت تجتذبه الى ترك المرسوم بعد

كان دعاة المذهب الانساني قد اكتشفوا في الحضارة اليونانية القديمة أنماطا فكرية وفنية أكثر ثراء وخصوبة ، فتأقوا الى التوفيق بين الافكار والاشكال الوثنية وبين الاعراف المسيحية ، وراوا في الأفلاطونية مثلهم الأعلى، فهموا بتطبيقها في سلوكهم ومنجزاتهم .

على أن تأثر ميكلانجلو بأفلاطون كان مرنكزا على عدة نقاط في فكره ستكون نبراسا نستهدي به في أعمال ميكلانجلو الفنية . كانت محاوره أفلاطون « تيمائوس » عن الخلق والتكوين ، وكذلك محاوره « المادبة » ( سمبوزيوم ) عن الحب والجمال أكثر ما شدد ميكلانجلو الى أفلاطون ، ولم يلبث أن صار السلف الفلسفي لجميع أعمال ميكلانجلو الفنية .

شده الى أفلاطون نظرتة الفلسفية الى المثلث والدائرة والمربع بوصفها الاشكال الخالدة التي تهىء مفتاحا لطبيعة الكون الحق حتى قال في محاوره فيليبيوس : « ليس ما أعنيه بجمال الاشكال ما يراه الناس عادة جميلا أو يحسبونه كذلك وراء ما برونه من كائنات أو صور لهذه الكائنات ، وإنما الجميل عندي قد يكون حزمة من الخطوط المستقيمة وما ينتج عنها من مسطحات وكتل شكلها الفرجار والمنقلة والمثلث ، لكنها فريدة في ذاتها ، ينطلق جمالها من نبع روحها ، يعيش لاصقا بها الى الأبد » .

وأغراه التثييث الأفلاطوني الذي قسم الوجود الى مستويات ثلاثة هي عالم الوهم والخيالات ، وعالم الصيرورة المادي المتغير ، والعالم العقلي ، والتي على أساسها قسم المجتمع البشري الى طبقات ثلاث أيضا : المنتجون من العمال والزراع ، والمحاربون ، والفلاسفة والحكام ، ورمز لهم على التوالي بالنحاس والفضة والذهب ، وحدد لكل طبقة

هدفا : الكسب للعمال ، والطموح للمحاربين ، والهيام بالحقيقة المطلقة للفلاسفة ، كما قسم التعليم الى مراحل ثلاث : الجهل والراي والمعرفة . وجعل للنفس الانسانية ثلاث ملكات : الشهوانية والوجدانية والعقلانية ، وزعها على ثلاثة مواضع : المعدة والصدر والراس . وجعل للملكة العقلية اسمى المهام وهي نشدان الخلود ، فالانسان بحكم ذكائه « كالشجرة لا تضرب بجذورها في الارض بل تشب بفصولها الى السماء » . ومن ثم كان العنصر العقلاني في النفس هو الذي يرتفع بنا من الارض « الى اشباهنا القابعة في السماء » . وهو ما سوف نرى تطبيقه العملي المذهل في تصوير ميكلانجلو بسقف مصلى سيستينا .

كما تصور أفلاطون صعود الانسان من أدنى مراتبه حتى بلوغ أصله الالهى . وفي هذه العودة الى العالم الالهى ، تدرك النفس الاله ، وهي مازالت في أسار سجنها الدني تصارع من أجل ذلك ، وتبذل الجهد والمعاناة فتنتقل من المحدود المتناهي الى اللامحدود اللانهائي ، حتى تنفلت من الاسر المادي الى الحرية الروحية والخلود .

ولذلك كان أفلاطون يكن للحياة الدنيوية احتقارا عميقا ، فهو يعدها عبئا ثقيلا وعقوبة للانسان على نسيانه لأصله الالهى وانجذابه الى عالم الحس ، مخلفا وراءه عالم التأمل العقلي الذي سقط منه في الاصل ، على ما سوف نرى في تماثيله للأسرى .

ويسمعا أفلاطون في « المادبة » صوت أريستوفانس شاعر الملهة يتحدث عن الحب قائلا : « سمعت على لسان الكاهنة ديوتيميا أن الكائنات كانت مركبة : اما من جنس مذكر خالص أو جنس مؤنث خالص ، أو من الجنسين معا . وعندما تعالت هذه الكائنات على الآلهة

والتصوير والعمارة والشعر . وإذا كانت عظمة الانسان تكمن في استهائه بالعقبات المادية وشحذه لقدراته العقلية والروحية، فلا بد من أن نمد ظهور ميكلانجلو أحد الأحداث العظمى في تاريخ الإنسانية .

**ولما كان العمل الفني بالنسبة لميكلانجلو هو أن يشارك على الدوام في عالم الأفكار ، جاءت كل انجازاته الفنية فلسفية كما هي جمالية ، وثنية كما هي متدينة ، وأفلاطونية كما هي مسيحية .**

ففي عالم النحت حمل تمثال (بأكخوس) اله الخمر المبكر ( لوحة ١ ) بصمات وثنيته الدفينة بحيث لا تكاد تفرق بينه وبين تماثيل العصر الكلاسيكي ، ومالبت تمثاله التالي « العذراء الآسية ( بيتيا ) » أن كشف عن إيمانه الدينى الصادق ( لوحة ٢ ) .

وفي عالم التصوير جمعت رسوم ستيف مصلى سيستينا العرافات الوثنيات (لوحة٣) جنبا الى جنب مع الانبياء العبريين (لوحة٤) كما أفسحت المكان للنظرية الافلاطونية عن العودة الى العالم الالهى ، الى جانب نظرية الخلاص المسيحية .

وتجىء لوحة يوم الحساب في عنفها وضراوتها الشبيهة بسفر الرؤيا في الروعة والترهيب لتتجاوز الشخصيات الأسطورية مثل شخصية خارون حارس العالم السفلى لدى الاغريق مع شخصيات العهد القديم والجديد .

وتمثل سنوات حياته الأخيرة مرحلة من التبتل والورع المسيحى لم تنطفئ معها شعلة الافلاطونية في أعماقه . ففي الوقت الذى كان يمنع جهده كله لخدمة العقيدة المسيحية كان

عاقبتها بأن شطرتها الى أنصاف . ومن هنا جاء نزوع الانسان اما الى مثيله او الى الجنس الآخر وفق الكائن الذى انحدر عنه .

**كذلك كانت تلج على ميكلانجلو نظرة أفلاطون بأن الانسان قد عب مرة من مياه نهر النسيان فأنسى أصله الالهى ، حتى اذا رأى امرأة جميلة ذكرته بأصله الالهى . ولكن لا يلبث الاغراء الجسدى والجمال الزاوى أن يشده الى جمال الحقيقة الأبدى . . . ثم فى النهاية الى تأمل حقيقة الحق والخبر الخالدة .**

**وأخيرا رأى ميكلانجلو فى المثل الأفلاطونية روحانية مطلقة ، وعشق الجمال بوصفه مثالا مطلقا أزليا أبديا ، تحتفظ الروح الإنسانية بذكرى مبهمة لمعيشته في ماض بعيد سابق على الحياة فوق الأرض ، فلا تنفك - الروح - تعشق ذلك الجمال وتصبو اليه وتبحث عنه .**

**لقد آمن ميكلانجلو أن على العاشق أن يسمو من الحب الجسدى الى الحب الروحى، الى حب الجمال المثالى الذى هو جزء من القداسة والخير . وذلك هو المجال الذى يشتاقه العباقرة والفلاسفة ويطمحون اليه .**

**كان ميكلانجلو ثنانا شكلته الفلسفة ، شأنه شأن الفنان فيدياس الذى عاش خلال العصر الذهبى الكلاسيكى ، غير أن صوت سافونا رولا الراهب المسيحى التأثير كان يطارد ميكلانجلو ، بينما كان ذهنه مؤهلا لتمثل التجريدات الافلاطونية . فكان قدره أن يظل عقله العاصف نهيا لهاتين الفلسفتين المتصارعتين خلال أعماقه حتى آخر حياته، مترجما رؤاه فى اشكال درامية مرئية ، فأبدع لنا روائع خالدة فى عالم النحت**

ينظم شعرا يفيض بالوهج الأفلاطوني الذي تجلى من قبل :

- في تماثيل العذراء حين عبر عن اتحاد الجمال الجسدى بالجمال الأبدى .

- وفي تمثال موسى حين ربط بين قوى الإنسان المادية والمعنوية وبين الخير الأبدى .

- وفي وقوعه تحت سيطرة الأشكال الأفلاطونية الخالدة التى تهيم مفتاحا لطبيعة الكون والتى تلمسها في سقف مصلى سيستينا ( لوحة ه ) .

- وحتى في أشكاله المعمارية المجردة نجده يقيم الأعمدة وكأنها الأسرى ، تشدها انقيود فلا تستطيع فككا من ثقل الحمل المادى الذى لا مفر من حمله ( لوحة ٦ ثم ٩ ب ) ، على حين تحوم القبة الشامخة عاليا في الكمال الهندسى للشكل الدائرى ، الرامز للسماوات التى هبط منها الإنسان والتى يجب أن يلمس طريقه نحوها من جديد .

اننا نقف اليوم في خشوع وذهول ونحن نتأمل هذه العبقرية الفنية التى بزغت في مجالات فنون أربعة هى النحت والتصوير والعمارة والشعر .

● ● ●

وقد ظن فنانون عصر النهضة أنهم توصلوا الى القواعد الجمالية النهائية المحددة للشكل . وما ينبغي أن ينطوى عليه من توافق، خلال فترة التطور التى أعقبت جوتو وماتياسيو وبلغت ذروتها بـرافائيل ، وإذا بميكلائيلو يضرب عرض الحائط بهذه القواعد في مستهل القرن السادس عشر . وكان واعيا بما يموج في وجدانه من قلق وما يعتمل في

داخله من صراع . كان إيمانه التقليدى بالشكل قد وثق روابطه بالنحت أكثر من التصوير مع أنه كان عبقرى في كليهما ، كما شده هذا الإيمان التقليدى بالشكل الى الجسد الإنسانى في الوقت الذى استهان فيه بمشاهد الطبيعة . غير أنه لم يكن راضيا عن التقديس الممنوح للشكل في عصره ، فأطلق في مقابل الشكل نقيضه ، وهو الطافة الكامنة فيه ، التى تطمح الى التحرر من سجن الشكل ، لكنها لا تملك الا التمرد وتمزيق بعض القيود ، التى لا تتيح لها الا أن تطل برأسها فحسب ، بينما يبقى الجسد كله سجيناً .

وقد تجلى كفاحه ضد قواعد الشكل المألوفة في عصره في افتتاحه بموضوع الأرقاء والأسرى المغلوبين ، الذى يعد صياغة جديدة لموضوع هيلنستى قديم ، هو صراع لاوكون كاهن أبو للو الطروادى ضد الأفاعى الضارية التى أرسلتها الآلهة المناصرة للاغريق فتكت به هو وبنيه . فنشهد في تماثيله التوكيد على العضلات المتوترة ، بصفتها باعثة الحركة المهددة بتفجير أغلال الشكل ، والمعبرة عن تبرم الأرقاء الساخطين بأغلالهم التى تقيّد أطرافهم ، بينما يتجلى الانفعال محتدما في أجسادهم وهى تصارع لتحرر نفسها من قالب الصخر الذى يحاصرها ويطوق حركتها والذى توقف أزميل المثال قبل انفلات الأرقاء من ربقتهم .

لقد تجسدت أزمة الشكل في أوج عصر النهضة في منحوتات ميكلائيلو حيث يبدو الشكل وكأنه يصارع ضد ضغط خانق في التماثيل التى تتجلى قوتها المعبرة في كونها لم تكتمل .

ومن بين تماثيل الأرقاء اثنان بمتحف اللوفر ، يعد تمثال العبد المغلول أقربها الى الاكتمال ( لوحة ٧ ) .

وبوبولى بفلورنسا . ويكاد الصخر أن يمثل سجنًا قاسيًا في هذين التمثالين ، إذ يبدو الأسيران محتجزين بين ثنابا كتلة الصخر دون سبيل إلى الخلاص منها ، رغم كل ما يبذلانه من جهود . ويشى شكلهما الذى لم يكتمل بأن أسلوب ميكلانجلو فيهما كان قريب الشبه بلوحات فن النقش الشديد البروز .

وما أجمل ما تحدث به ميكلانجلو إلى صديقه وهاديته فيتوريا كولونا عن النحت حين قال في إحدى قصائده :

« ليس فن النحت ياسيدتى هو تشكيل قطعة صخر صلبة ، ولكنه تحرير للشكل من سجن الصخر ، بزالة الزوائد عن الصورة التخيلة في الذهن للشكل الكامن في الصخرة » .

هكذا كان التمثال لميكلانجلو شكلا كامنا في كتلة رخام ، ينتظر يد أستاذ النحت البارع كى يولد على يديه ، وكأنه يعبر من خلال تماثيله عن فكرة افلاطون بأن نفس الانسان ما تزال سجنه في جسده حتى ترقى إلى الكمال بواسطة قوة خلاقه تفوقها سموها ورفعة .

وفى تمثال العذراء الآسية « بيتا » لوحة ( ١١٤٢ ) يكتشف جمال التنفيذ ودقة التفاصيل واثارة المشاعر عن أن ميكلانجلو كان ما يزال واقعا تحت تأثير طراز النهضة الفلورنسية .

غير أنا نلمح أن ميكلانجلو قد بدأ بالفعل يدخل بعض التعديلات على النمط الهرمى الشائع وقتذاك ، إذ جعل ثنابا ثوب العذراء العديدة قاعدة للهرم ورأس العذراء قمة له ، وشكل جسد المسيح على غرار آلهة الاغريق ، بينما احتفظت العذراء رغم شجنها بالوضعة الكلاسيكية ، فبدت بحق ، الأم راعية الاحزان

ويبدو كأنه يمثل فتى نائما يقض مضجعه حلم مرعب ، أكثر مما يمثل أسيرا يحتضر كما يحلو لبعض مؤرخى الفن تسميته . فبينما نجد القيود مجرد شرائط رقيقة تعجز عن أن تكون وثاقا ، تتجلى الروح الجبسة التى تعذبها ذكرى أصولها الالهية ، وكأنما وجدت راحتها فى النوم بعد عذاب نفسى ممزق .

ويصور التمثال الآخر المعروف باسم **العبد المتمرد ( لوحة ٨ )** عنف صراع كائن مفتول العضلات كتب عليه أن يضيع كفاحه هباء .

وفى كلا التمثالين نشهد نفس الصراع اليائس مع القدر . انها مأساة الانسان الذى يحد الزمن من امكاناته ، ويعيبه ادراك سر الوجود ، ويتطلع رغم فنائه الى الخلود ، ولا تعوقه قيود الجسد عن أن يحلم بحرية بلا حدود .

ولا شك فى أن أشكال أرقاء ميكلانجلو ذات وشائج قريى مع نقوش أقواس النصر والاضرحة والتواييت الرومانية ، فان نماذج الارقاء المفلولين يمكن اقتفاء اثرها فى المنحوتات الهيلنستية التى تصور مارسىاس الشمس وأبوللو يسلخه حيا لتجاسره وتحديه له فى مباراة موسيقية . كما أن الشبه بين هذا العبد المفلول وذاك المتمرد ، وبين الابن الاصفر فى مجموعة تمثال الكاهن لاوكون فى غير حاجة الى تعليق جديد .

ونلمس نفس الأثر فى تمثالى الأسيرين المعروفين باسم أسيرى بوبولى ( لوحة ٩ ) ، ( ١٠ ) . والمعروف انهما قد صمما كتمثالى كاربائيد بطرفى قاعدة ضريح البابا يوليوس الثانى عام ١٥٣٢ ، غير أنهما أستبعدا ، فأهداهما ميكلانجلو الى الدوق كوزيمو دى ميدتشى الذى احتفظ بهما فى كهف بحدائق

الجليلة التي لا تهون من شأنها دموع أو انات . فضلا عن أن ميكلائجلو قد استباح لنفسه تناول مقاييس أشكال بحرية تؤجج تأثيرها التعبيري ، وتؤكد التوافق والانسجام في تصميمه ، كما أكثر من الاردية ليضمن فيضا من الاطواء والخطوط ، وصاغ جسد المسيح اصفر حجما من العلداء ليحقق التوازن في تكوينه ، وأقام تمثاله المثلث بلا كوة داخلها أو خلفية معمارية تدعمه ، فكان تمثال العلداء الاسية بمثابة اعلان لاستقلال النحت ، كما ينفرد بأنه العمل الوحيد الذي وقعه ميكلائجلو .

وعندما طرد اهل فلورنسا أسرة مدينتي وأسسوا الجمهورية عام ١٤٩٤ بزعامة الراهب سافونارولا مضوا يجسدون انتصارهم في اعمال فنية ذات صبغة وطنية بطولية كان احدها تمثال عملاق لدواد ( لوحة ١٢ ، أ ، ب ) قاتل الطاغية جالوت . وهو تمثال هرقل الطابع ، هائل الضخامة يبلغ ارتفاعه حوالي ستة أمتار ، يقف عاريا ممسكاً بمقلعه منتظرا وصول جالوت عدو شعبه .

ولو اننا وقفنا عند حد تأمل جسد داود وحده ، لخليل الينا بتوتره وحيويته انه ينتمي الى العهد الكلاسيكي ، والى الطابع الهليني على وجه التحديد أكثر مما يحمل طابع القرن السادس عشر . ولكننا ما نكاد نتطلع الى رأسه حتى ندرك القوى الروحية التي لم يعرفها الاقدمون ، وهي تنطق بازدياد المتع الحسية .

وقد انجز ميكلائجلو تمثال موسى ليقام في ضريح البابا يوليوس الثاني المعروف باسم البابا الرهيب ، وكان قوى الفكر عامر النفس بخشية الله . وإذا كان ميكلائجلو قد تخيل موسى على انه تجسيد للارادة القوية فقد أراد له في نفس الوقت أن يكون صورة

شخصية مثالية للبابا يوليوس الذي كان مشرعاً للقوانين شأن موسى العبري ( لوحة ١٣ ، ب ) . ويبدو موسى وكأنه تجسيد لقوى الطبيعة ، أو بركان بشري موشك على ثورة غاضبة على عصيان البشر . ففي سكونه نذير عاصفة ساخطة ، وتكاد قسماته تنطق بالوصايا العشر ، وتحكي لنا قصة صعوده جبل سيناء وحديثه مع ربه . ونكاد نحس أنه قد اتخذ جلسته هذه ليحاسب البشرية من فوق منصة القضاء . ومنذ عهد قريب ابدى المثال الفرنسي أوجست رودان ملاحظة وجيهة بأنه يمكن دحرجة التمثال من فوق جبل دون أن يتشم منه أى جزء اساسي . ويكشف هذا التماسك عن قدرة ميكلائجلو على تطويع الرخام الى الحد الذي يحتشد فيه بالقوى التعبيرية والجيشان المستكن في ثنايا الاطواء والمكاسر وعضلات الذراعين المفتولة ، والعقلانية المسيطرة على ملامح الوجه ، والمزاج الناري الملتهب .

• • •

وفي تماثيل ضريح مدينتي تتجلى من جديد روعة النحت التي تجلت في تمثال موسى وتتكون كل مجموعة من مجموعتي النحت الشهيرتين من شخصية جالسة في ثياب الحرب المدرعة داخل كوة ، مع شخصية رمزية راقدة على كل جانب من جانبي التابوت . فيعتمر لورنزودي مدينتي ( لوحة ١٤ ) بخوذة مجسدا الرجل المفكر ، على حين يحمل جوليا نودي مدينتي عصا القيادة مجسدا رجل المآثر البطولية ( لوحة ١٥ ) . وهكذا يمثل احدهما حياة التأمل والآخر حياة الحركة المفعمة بالنشاط . ولم يصف ميكلائجلو على شخصيات آل مدينتي الجالسة أية ملامح ذاتية ، وهو ما أصاب اهل فلورنسا بالدهول أمام هذا المفهوم المثالي . وقد طمأنهم

المختلفة ، وهو ما ينفرد برنارد بيرنسون بتسميته « القيمة اللامسية » . كما أنه اختار موضوعا لرسمه الجسد البشرى الذى كان موضوع تماثيله ، مؤمنا بأنه ليس مثل الجسد البشرى العارى شىء قادر على التعبير عن نفسه ، وعن تنبيه وعينا بكل ما يطرا من تغيرات ، وليس مثله شىء يمكن أن ندركه نحن ، بمجرد تماثله لنا في الصورة التى يتبدى فيها في الحياة اليومية الواقعية ، وليس مثله شىء يمكن أن يثير احساسنا بأننا جميعا نشاركه في تجربة الحياة ، وهو ما جعل ميكلانجيلو لا يرى في عالمنا كله شيئا يستحق النحت والتصوير غير الجسد الانسانى ، ليس الانسان العادى الذى يدب فوق الارض كما تدب الالاف ، بل جنس انسانى خاص يتميز بالجلال ، والطاقة ، والقدرة على التعبير والاثارة ، وقد كان ميكلانجيلو نفسه انسانا متميزا ، يحيا وحيدا ، زاهدا في متع الحياة المادية . بل ان المرأة الانثى الناعمة الجمال والداقة الفتنة لم تجتذبه في حياته الخاصة ، ولم تشده في حياته الفنية الا في عمل فنى واحد لم يلبث ان اهمله وراء ظهره ، ليقدم لنا جنسا من عالم خياله ومثله .

**كان حرص ميكلانجيلو على العرى في الاجساد البشرية التى يصورها قائما على ايمانه بان الاردية تمثل عائقا في ترجمة حركة الجسد البشرى ، وفي اثارة احساس المشاهد بالضغط التى يقاومها الجسد ، والمقاومة التى يبذلها ، والنفض الخفى السجين باعماقه . وما دامت الاردية تحول بيننا وبين التأثير المباشر بالطاقة التى يعيشها الجسد المصور ، كان من الضرورى تصوير الجسد عاريا ، حتى يمتلك ناصية القدرة على اثارة حسنا بالحركة المتماثلة في توتر عضلاته ، وارتعاش بشرته واسترخاء وضعته ، وتميز أعضائه من ربعة الكتف الى النتوءات التى تطفو فوق جسده كله وكأنها**

في سخرية وثقة بالنفس ثبت صدقها فائلا بان احدا لن يذكر بعد الف عام ما كان عليه شكل الدوقين .

وعند قدمى جوليانو يرقد تماثالا الليل والنهار . وتمثل الليل ( لوحة ١٦ ) انثى تغفو في نعاس ثقيل . ونحن اذا اطلنا النظر في تكوين هذه الانثى التى تتفجر اثاره ، والتى قد تفرينا فيها الاثداء الشبيهة الريانة الممتلئة ، والتى قد تخذعنا سيقانها البضة الفارحة ، فان قدرا اكبر من التأمل سيكشف لنا عن اختباء ملامح غلمانية وراء كل هذا .

فان أفسحنا لصورة هذه الانثى مكانا في ذاكرتنا دقائق قليلة ، ريثما نلتقى بصور غلمان ميكلانجيلو المصورين على سقف سيستينا حيث أخفى وراء فتوة غلمانيتهم سحرا انشويا دفيننا ، سوف نصل في النهاية الى اكتشاف عالم غريب من غلمان ميكلانجيلو وفتيانه لم يعرفه بعد عالمنا الواقعى .

ويمثل **النهار** ( لوحة ١٧ ) عملاق هرقل الطابع مفتول العضلات يلتفت برأسه من فوق كتفه ، غير أن وجهه غائم القسمات .

فاذا انتقلنا الى تابوت لرونزو نرى الجلال مشرقا على جسدى الراقدين بين النوم واليقظة . ويمثل الرجل الغروب ( لوحة ١٨ ) على حين تمثل المرأة الفجر ( لوحة ١٩ ) وهى صنو الانثى الفافية التى تجسد اللبل في ضريح جوليانو .

• • •

دلف ميكلانجيلو من عالم النحت الى عالم التصوير مزودا بملكة اعطاء صوره القدرة على اثارة احساس المشاهد ، فيوهمه بأنه يلمس بأعصاب كفه وأصابعه الجسد المصور حتى لتدور انامله مع انثناءاته واستداراته



لقد جاء اختياره لهذه الزاوية من الموضوع نتيجة إيمانه بقدرة الجسد البشرى العارى على حمل جميع الأفكار والعواطف والتعبير عن مختلف الانفعالات . ولا شك أنه كان أقدر على أن يجسد أفكاره وانفعالاته في عراة النهر أكثر مما يجسدها في حركة الجنود المتطعين صهوات الجياد . ومن المؤسف أن المخطط البدئى الكامل لهذه اللوحة بحجمها الاصلى، وهو التصميم الذى نسميه « بالكرتون » لم يترفق به الزمن اذ فقد بعد أن تحدث عنه بينفينوتو شليني بأنه كان أعظم عمل قدمه ميكلانجلو ، وأنه يمثل بحق « أكاديمية الرسم العالمية » بل أنه يفوق في عظمتة سقف سيسيتينا الذى سنعرض له الآن . ( ٢٠ )



ولقد أضاف ميكلانجلو مثلاً أعلى للجمال مقرونا بالقوة ، ورؤيا لانسانية عظيمة كان يتوق الى رؤيتها تدب على أرضنا يوما من الأيام . فنحن لن نلتقى كثيرا بمثل هذه الفحولة والعنف وقوة التأثير، وتجسيد حلمنا بروح عظيمة تسكن جسدا جميلا ، مثلما نلتقى بالاشكال المرسومة على سقف مصلى سيسيتينا. لقد اتم ميكلانجلو ما بداه مازاتشيو وهو ابداع نمط انساني مؤهل اى تأهيل ، لى يخضع الارض ويسوسها نحو التآلق والحق والخير والجمال .

كان ميكلانجلو مكباً على تشييد الضريح الذى اراد يوليوس الثانى تشييده لنفسه ، غير أن البابا مالبت أن نحاه عن هذا العمل الذى كان قد منحه فكره وقلبه ، وكان على وشك أن يمنحه بقية عمره ، فقد كان يتضمن نحت اربعين تمثالا يفوق كل منها الحجم الطبيعى للانسان ، اكمل منها تمثال موسى الذى عرضناه منذ لحظات ، ولو أنه ظل

انبثاقات طاقة دفينه من جسد عملاق ... فهذه العلامات كلها توقظ في الذهن على الفور اسم ميكلانجلو .

وقد أصبحنا الآن قادرين على أن نفهم لماذا ينبغى أن يهتم بالعرى كل فن يدور حول الجسم البشرى ، ولماذا استحوذ العرى على الفن الكلاسيكى في مختلف اطواره ، ليس فقط بوصفه أفضل وسيلة تبث الحياة في الفن ، بل لكونه كذلك أكثر الموضوعات أهمية في العالم الانسانى . وكان ميكلانجلو أول فنان بعد عصر النحت الاغريقى يدرك تماما هوية العرى في فن تصوير الشخصوس ، فمن قبله كان العرى يدرس كوسيلة علمية تعين على تصوير الانسان المكسو بالثياب ، ولكنه اكتشف أهمية العرى كفاية في نفسه ، وكهدف نهائى لفنه ، فالفن والعرى بالنسبة اليه متردافان .

ولن نجد في غير أعمال ميكلانجلو - اذا ما طرحنا جانبا روائع الفن الاغريقى - اشكالا تعزز احساسنا بقوة اثر الصورة علينا ، وتصل حركاتها الى وجداننا مباشرة ، فتلهمه بنفس القدر من العمق .

واننا لنرى عمق ايمان ميكلانجلو بالجسد البشرى العارى كموضوع اساسي للفن التشكيلى ، في أنه حين كلف في غمرة الحماس الذى صاحب قيام الجمهورية بفلورنسا برسم لوحة بطولية تزين القاعة الكبرى المتخذة لانعقاد مجلس المدينة الجديد ، لم يختر ميكلانجلو من معركة كاسكينا التى نشبت خلال الحرب بين بيزا وفلورنسا عام ١٣٦٤ الا لحظة غريبة هى تلك التى كان الجنود الفلورنسيون يستحمون اثناءها في نهر الأرنو ، بينما كان التحذير ينطلق معلنا هجوم العدو .

هذا العذاب ليجد وجدانه وقد غاب في هذا العالم السحري . فما بالناس حين نذكر أن ميكلانجلو قد اضطر ، لانجاز هذه الرسوم ، أن يضطجع على ظهره طوال أربعة أعوام . وقد عبر عن هذا العقاب الذي ينوء بحمله البشر في كلمات بالغة البساطة والرقّة باحدى قصائده جاء فيها ما ترجمته :

« الى السماء تشمخ لحيتى .

والى الوراء ينثنى قفاى .

مثبتا فوق عمودى الفقرى .

وترقوتى تنتصب عالية كأنها قيثارة .

وعلى وجهى ترسم لوحة ثرية ملونة .

من قطرات الفرشاة الثخينة والدقيقة » .



هجر ميكلانجلو من ناحية المبدأ فكرة زخرفة الاسطح المستوية بتصميمات زخرفية مقتبسة من عالم الاشكال النباتية ، فحيث يتوقع المرء أن يشهد نبتة متحوية يجد مكانها اجسادا بشرية ، ولا شيء غير الاجساد البشرية . ثم ما يلبث أن يدرك الايقاع المتناغم الذى يربط بين هذه الكتل ويفصل بينها .

لقد اختار ميكلانجلو أن يروى قصصه عن طريق الاجساد العارية - كما مر بنا - ونحن ندرك من القاء أول نظرة على هذه الرسوم الفسيحة غياب الابنية ومشاهد الطبيعة الا رموزا موجزة كالشجرة الوحيدة التى تمثل الجنة ، وعشبة هنا واخرى هناك تشير الى خصوبة الارض ، وهكذا استخدم ميكلانجلو وسائل التعبير فى ايجاز بليغ فى هذه التصاوير . وكان المزج بين ايقاع الخطوط

يتابع هذا العمل الخارق رغم كل ما نعلمه عن قدرته المذهلة فى نحت الرخام الذى كان سريع الاستجابة لضربات ازميله الحاسمة ، لأمضى عشرين عاما فى اتمامها .

وقد حنق الكثيرون على البابا الذى ازاح مثالا عبقرى عن النحت ، ليفرقه فى تصوير سقف مصلى سيستينا بمبنى الفاتيكان ، الا ان احدا لا يملك الا أن يعترف الآن أن هذا القرار الذى اتخذه البابا كان اقرب ما يكون الى الالهام الاسطورى . ذلك أن هذا العمل قد فجر طاقات ميكلانجلو الخبيثة ، وانا له التعبير من رؤيته الباطنية للعلاقات الانسانية والمصير البشرى . وقد ترك البابا لميكلانجلو الحرية فى اختيار الموضوع الذى يصوره ، وهو استثناء لم يتمتع به احد فى هذا العصر الذى كان الفنانون يلتزمون فيه بنصوص القصص الدينى وتعليمات القساوسة . وقد استطاع ميكلانجلو أن يعمل خياله فى القصص الدينى وان يصور عملا يبهز مشاهديه . والذين شاهدوا تصاوير هذا السقف من نقاد الفن على مر التاريخ وقفوا مذهولين امام هذا الموضوع الذى لعب فيه خيال ميكلانجلو دورا كبيرا بعد أن استمد من نصوص سفر التكوين ، فلم يتفقوا على تفسير واحد . غير أنهم أحسوا جميعا هذه الوحدة المتوهجة المشبوبة التى ربط بها ميكلانجلو جسد الانسان بعقله وروحه . فاعجبوا بكل ما ينبض به الجسد من القوة العضلية التى كانت طابع تماثيل الكوروس الاغريقية ، كما انبهروا بما يشع حوله من القوة المعنوية الدفاقة فى صور العرافات والانبياء ، وأن كان من الواضح أن ميكلانجلو قد منح الروح اهتماما يفوق مامنحه للجسد .

وليس من شك فى أن متابعة رسوم السقف تسبب عذابا كبيرا للمشاهد حين يضطر الى ثنى عنقه الى الخلف طويلا ليستكمل جوانب هذه الملحمة الهائلة ، غير أنه سرعان ما ينسى

والإيحاء بالعمق وسيلة أعانته على رواية القصص بهذا الإيجاز الفريد .

ولو أنا تأملنا تصميم ميكلائجلو لسقف سيستينا لوجدناه تكويناً عضوياً متماسكاً تسيطر عليه فكرة فلسفة وفنية موحدة ، يمزج في أيقونوغرافيته بين اللاهوت التقليدي العبري المسيحي والفلسفة الأفلاطونية التي تشر بها - كما مر بنا - في صباه أثناء أقامته بقصر لورنزودى مدينتى ، وهى التى شكلت وجدانه فبقى الى آخر حياته مسيحياً مؤمناً بالأفلاطونية ، أى مؤمناً بوجود قوة خارقة تعلو قوة الإنسان وتوجه حركته ، هى قوة الإلهام .

قسم ميكلائجلو فراغ السقف الى الاشكال الهندسية الأفلاطونية التى ذكرناها من قبل وهى المثلث والدائرة والمربع . ( لوحة ٥ ) .

ثم عاد ميكلائجلو فقسم التكوين ثانية الى ثلاث مناطق تلعب فيه كثافة الضوء دورها . تغطى ادناها وأشدها قتامة البنيقات الثمانى المثلثة وبنيقات الأركان الأربعة على شكل المقرنصات . وتشمل الثانية الفراغ المحصور بين البنيقات المثلثة والمنطقة الثالثة العليا المخصصة للوحات التسع الرئيسية .

وتواكب هذه التقسيمات من الناحية الرمزية مستويات الوجود الأفلاطونية الثلاثة التى سبق ذكرها .

- **عالم الوهم والخيالات :** وقد عبر عنه ميكلائجلو بالإنسان غير الملهم الذى لم يتلق الوحي بعد ، وصوره فى أدنى المستويات على البنيقات المثلثة الثمانى .

- **وعالم الصيرورة المادى المتغير ،** وعبر عنه ميكلائجلو بأنبياء العهد القديم والعرفات الوثنيات الذين يتوسطون بين الإنسان والله

بحكم ملكاتهم العقلية السامية . وصوره فى المنطقة المتوسطة بين المثلثات واللوحات التسع .

- **على حين صور فى المساحة العليا قصة الخلق والإنسان وعلاقته المباشرة بالله ،** والتى تبدو لنا من خلال التقسيم المعماري مشرفة علينا من أعلى مستوى كونى .

وبلغت مساحة السقف التى صورها ميكلائجلو حوالى ثلاثة آلاف وخمسمائة متر مربع ، ويضم التكوين ثلاثمائة شخصية . وقد رسم ميكلائجلو المخطط المبدئى (الكرتون) على الورق أولاً ثم قسمه الى أجزاء يتسع اليوم لتنفيذ أحدها وراء الآخر .

وبدل خروج ميكلائجلو عن رسوم المخطط المبدئى على أن عنصر الارتجال قد صاحبه أثناء العمل . وكانت ألوانه محددة بألوان سطح الفريسك ، وكلما تقدم العمل كان يؤثر تدرجات اللون الرمادى الذى كان يسبغ على أشكاله المصورة طابع التمايل المنحوتة . وقد كان الشائع إياها أن يتولى القيام بهذه الاعمال الكبرى الاستاذ بمساعدة تلامذته ، ولكن الثابت أن ميكلائجلو قد قام بتصوير السقف كله وحده ، واقتصر عمل المساعدين على التجهيزات الأولية فحسب .

وإذا كان ميكلائجلو قد وقع اختياره من سفر التكوين على قصة الخلق من بدايتها حتى انتشاء نوح بالخمر . فقد شاء لنا أن نطالع هذه القصص مصورة على سقف المصلى بادئين من النهاية ، لأنه رسمها بطريقة عكسية ، فبدأ بنوح وانتهى بلوحة فصل النور عن الظلمة .

فما تكاد ندلف الى القاعة حتى يعلنونا نوح بجسده المستلقى ثملاً ( لوحة ٢١ ، ب ) .

من شجرة معرفة الخير والشر التى تنتصب بينهما . لكن ميكلانجولو لا يقتنع بتقليد الاسلاف بل يبتكر تكوينا جديدا ، كما انه لا يصور الفواية كما كانت تصور قبله عملية سلبية بل يحيلها الى فعل ايجابى يختاره الانسان بارادته . فيصور حواء فى وضعة الاسترخاء المعهودة فى التصوير الرومانى مولية ظهرها للشجرة ملتفتة لفتة عابرة نحو الحية التى لها جذع امرأة ، وتتناول التفاحة متشاقلة ، وصور آدم فى الشطر الايسر من الصورة ضخم الجسم اذنى مرتبة من الانسان ، وهو يمد يده الى غصن الشجرة الممتد فوق حواء ، التى يبدو جسدها ناعما شهوانيا ، ويواكب حركة ذراعها الممدودة غصن مواز ينبثق من جذع شجرة فى الخلفية .

وكما خلق ميكلانجولو تكوينا جديدا لقصة الفواية ، فقد أعرب من خلال جسد حواء عن فكرة جديدة ايضا هى ان الكسل الانثوى المترف يوقظ الرذيلة فى اعماق الانسان .

ولا تضم جنة عدن سوى اوراق شجر قليلة ، فام يشأ ميكلانجولو ان يجسد المكان بأسلوب مادي . ومع ذلك فهو يحتال كى يوحى بالتلف والحركة بواسطة خطوط الارض والايحاء بمق الفراغ . وكلاهما يتباين مع الارض المستوية الجرداء فى النصف الايمن من الصورة ، مجسدا شقاء آدم وحواء بعد طردهما من الجنة حين ازاحمها الى طرف الصورة الايمن ، محتفرا فجوة عميقة بينهما وبين الشجرة .

ويفسر بعض المؤرخين الثنائية التى تجمع بين الحية والملاك المنتقم فى مشهد الطرد من الجنة باللوحه بانها نطوى على فكرة ان الجريمة والعقاب مثل العلة والاثر ، هما مظهران توأمان للشر .

وكما يصور ميكلانجولو نوحا الانسان فريسة لشهواته الجسمية يصوره كادحا من أجل لقمة العيش ، فجعله على يسار اللوحه يحث التربة القاحلة قوى البدن واهن الروح . كما أوقف أبناء حوله ، دون ان يبدو عليهم الاسى لشهود عورة أبيهم ، ودون أن يتعجلوا باخفائها بالرداء كما جاء فى سفر التكوين ، بل جعلهم شهود المصير المأساوى للانسان نفسه الذى ينبغى له ان يلهب ويكد ويخطو الى الشيوخوخة ، وينتهى الى الموت . وتذكرنا وضعة نوع المستلقية بالهة الانهار الرومان ، وقد مالت رأسه فى هذه اللوحه على صدره فى ارهاصة بليغة بالنهاية المرتقبة وهى الموت .

ثم تأتى لوحه الطوفان ( لوحه ٢٢ ) ، التى تذكرنا اشكالها بالجنود العراء المستحمين فى نهر الارنو خلال معركة كاسكينا . وتكشف لنا عن فكرة ميكلانجولو فى تمثيل الفراغ للايحاء بأن الشخوص وافدة صوب المشاهد من وراء الجيل متعاقبة عصية على الاحصاء ، فلايسع المرء الا التسليم بضخامة الحشد المتدفق . وترمز هذه اللوحه للمأزق الذى يسقط فيه الانسان عندما تحاصره عوامل الطبيعة القاسية التى لا يملك معها الا الاستسلام .

وتصور اللوحه الثالثة ( لوحه ٢٣ ) نوحا وابناءه حول المذبح وهم يقدمون القرابين ويجمعون الوقود ويشعلون النار ليتنسب الله رائحة الرضا من ذبائحهم التى يضحون بها شكرا لله على نجاتهم من الطوفان .

وما تكاد المساحة المتاحة لميكلانجولو تتسع حتى تتضاعف قدراته فنراه فى لوحه خطيئة آدم وحواء وطردهما من الجنة يبسط جناحيه محلقا الى ذرى لم يبلغها أحد من قبل او من بعد ( لوحه ٢٤ ) . كان من قبله يصورون خطيئة الانسان بواسطة شخصين واقفين متواجهين يربط بينهما مشهد تناول التفاحة

ونلاحظ اختلاف تعبير آدم في مشهد الطرد عنه في مشهد الفواية ، اذ يبدو مدركا خطيئته وان مضى في طمأنينة وكبرياء ، محاولا أن يدفع بحركة ذراعيه حد السيف الذي يهدده به الملاك المنتقم . على حين بدت حواء منكشمة محاولة أن تحتوى بظله وهى تسرع الخطى وقد انحنى ظهرها والتفتت بوجهها نحو الجنة آسفة وكأنها تسترق نظرة أخيرة .

وهكذا نرى في الشطر الايسر من الصورة مشهد الفواية والخطيئة حيث تتجلى الرغبة العمياء ، بينما نرى في الشطر الايمن مشهد الطرد حيث تتجلى المعرفة والتندم .

وتشمل اللوحات الخمس التالية مراحل خلق الله للكون والطبيعة .

ففى لوحة خلق حواء ( لوحة ٢٥ ) يبدو الاله يهوه لأول مرة وهو يخلق الانثى باشارة أمرة من يده التى لا تلمس جسد حواء أو ضلع آدم كما اعتاد المصورون من قبل ، وانما يتجلى داخل اطواء عباءته وقد آمال التفكير العميق رأسه ، وحواء تنهض بطريقة تعرب بوضوح عن أنها طوع أمر الله ، وتتسم ايماءة الدهشة والعجب المرتسمة عليها - وكأنها فى صلاة ورعة ضارعة - بجمال لانهاى اودع ميكلائجلو فيه مفهومه عن الجمال الجسدى ، بينما يرقد آدم مستندا الى صخرة ، متكوما كأنه جثة هامدة ، وقد اندفع كتفه الايسر الى الامام ، وقبضت يده برخاوة على جذع خشبى . ويساير الخط المحيط للتل شكل جسم آدم ويحتويه ، على حين يتوازى مع شكل حواء واتجاهها جذع شجرة مشدب الاغصان . لقد احتشد كل شئ فى المساحة المتاحة وشارف الحواف حتى لم يعد مكان للاله الخالق لكى ينتصب فيه . ونكتشف هنا مفهوم ميكلائجلو الافلاطونى عن الخلق ، بأنه

عملية عقلانية خالصة . ثم نشهد بعد ذلك الموضوع الرئيسى فى عملية الخلق وهو خلق آدم ( لوحة ٢٦ ) ، وهو أحد الاعمال النادرة التى تجمع بين العظمة الفائقة والبساطة المعجزة ، حتى بالنسبة لأولئك الذين لاينفعلون فى يسر بالاعمال الفنية . فمعناها واضح ومؤثر من الوهلة الاولى ، ويزيد شغف المرء بها كلما طال تأمله لها ، اذ نرى الجسد الانسانى فى روعة ليس لها مثيل سابق ، مستلقيا على الارض فى الوضعة التى اعتدنا ان نرى عليها التماثيل اليونانية لالهة الانهار والخمر ، الذين ينتمون الى الارض ولايتطلعون الى الفكاك منها .

ويتجه الاله الخالق فى سحابة سماوية تضم زمرة من الملائكة صوب جسد آدم الخامد الملتصق بمضجعه الصخرى . ونتأمل الانسان يمد يده حتى تكاد تلمس يد الله ، وكأن شحنة كهربائية تسرى بين أصابعهما . وعبر هذه الشحنة الدافقة فى هذا النموذج الطبيعى الفذ ، خلق الله النفس الانسانية . فما يكاد الاله يلمس طرف أصبع آدم الممتدة حتى تدب فيه الحياة ، فتنتطلق القوى الكامنة فى جسده ، التى تتجلى - رغم عجزه عن الحركة - فى اثناء ساقه اليسرى ، وبروز جذعه المصور بالمواجهة وتوتر عضلات ساقه اليمنى المصورة بالمجانبة . ولكن آدم يتقبل الحياة على مضض وهو ما يعبر عن ذلك التشاؤم الذى يشيعه احتقار افلاطون للحياة الدنيوية واعتباره لها عبثا ثقيلا وعقوبة للانسان على نسيانه لأصله الالهى ، وانجذابه الى عالم الحس ، مخلفا وراءه عالم التأمل العقلى . ومن خلف الله وفي ظل عباءته تترأى حواء غامضة مستخفية وكأنها ما تزال كامنة فى اعماقه ترهص بما سوف يكابده آدم على يديها من شقاء .

• • •

والغريب في هذه اللوحة تكرار صورة الله، حيث يستدير فنراه من الخلف مندفعاً وكأنه أعصار صوب عمق الصورة، غير أن هذا التكرار تقليد فني قديم، فلو أننا غطينا نصف الصورة لتجلى لنا كيف أن تكرار الشكل منفلتاً، هو جزء جوهري من الأثر الشامل للحركة المدومة.

وبين الإيجاز المتتابع في تصوير المخلوقات، أن فكرة ميكلانجلو هي تصوير طبيعة الله الخلاقة أكثر مما هي تصوير الأشياء والكائنات التي يخلقها.

وفي النهاية نصل إلى الدروة مع لوحة فصل النور عن الظلمة ( لوحة ٢٩ ) حيث ينبثق الوضوح من العلماء، وتتعانق الحكمة المسيحية الداعية إلى معرفة الحقيقة كطريق لتحرير النفس، مع النصيحة الهاتفة الإلهية لسقراط: « اعرف نفسك ». أن مفهوم الله قد تطور: من اتخاذ شكل الإنسان في لوحة خلق حواء، إلى التجلي في الروح الكونية في اللوحات التالية، ثم يستحيل في هذه اللوحة تجريداً شائماً نابضاً في ملكوت الوجود الخالص، بعد أن أصبح الجسد رمزاً للروح واتشحت قسماً الوجه بالضبابية.

لقد تحقق الهدف الأفلاطوني الجديد لاتحاد الروح من الله عن طريق التدرج من قيد البنيقات، إلى البصيرة التنبؤية للعرفات، وأخيراً صعود سلم القصص الديني نحو ضوء المعرفة النقي، للوصول إلى نقطة الدوبان والتلاشي في حرية اللانهاية.

ومن بين كافة المحاولات التي قام بها الإنسان الفاني المحدود كي يقدم صورة للطاقة المطلقة بلا حدود، نجد هذه اللوحة أكثرها اقناعاً، وإن لم تكن أشدها واقعية. ولا غرو فإن الصور الفوتوغرافية الحديثة لتكوين رؤوس المذنبات النجمية تعرض نفس هذه الحركة الشبيهة بالدوامة.

وتتوالى مشاهد مراحل الخلق المبكرة في تصاعد دافق بالحركة والحيوية.

ففي لوحة فصل اليابسة عن الماء ( لوحة ٢٧ ) تتفجر قدرة الإله مانح البركة، وهو يندفع من خلفية الصورة باسطاً يديه فوق سطح الماء، فنظن إلى أن ميكلانجلو قد نقل الشعور بالسلام الذي ينطلق عن هذا المشهد بإيماءة من الله وكأنه يبارك الكون. كما تعمد التعبير عن التضائل النسبي للذراع اليميني، وغمر التكوين المساحة التي حددها إطار الصورة تماماً.



ثم نشهد الله بعد ذلك يخلق الشمس والقمر والنجوم ( لوحة ٢٨ ) بإشارات آمرة للأحياء بضرورة إخضاع هذه العناصر النارية الملهبة بالحزم والقوة لا باللين وال مباركة.

وهنا يغدو الله تجسيدا « لفكرة الخلق » نفسها شأنه شأن الأجرام السماوية، فينطلق في فلكه ينثر النجوم والكواكب التي تنطلق بدورها في المدار الذي يرسمه لها.

ونلمس في هذه اللوحة بوضوح ازدياد الدينامية في اندفاع الإله إلى الامام باسطاً ذراعيه إلى أن يوقف مسيرته بحيث ينحني جذعه إلى الوراء، كي يتسنى له أن يخلق الشمس والقمر أثناء هذه الوقفة العابرة. ومع أن كلا الذراعين يומئان بحركة الخلق إلا أن الذراع اليميني تبدو أقوى تأثيراً، ليس فقط لأن الله ينظر في اتجاهها بل لأنه قد لحقها نصيب كبير من التضائل النسبي.

كذلك فإن المساحة التي تمثلها صورة الله أكبر من سابقتها، حتى لا تترك موضع قدم لفراغ زائد لا ضرورة له.

حلقة أخرى من الانبياء والشهداء والنساء العبريات والقديسات العذارى والعرافات الوثنيات .

ويشرف من إحدى الكوتين العاليتين جماعة من الملائكة يحملون صليب المسيح ، ومن الكوة الثانية جماعة أخرى يحملون العمود الذى عذب عليه . وتبدو الملائكة بلا أجنحة ، والقديسون بلا هالات في أجساد عملاقة ، تتحرك محتدمة كأوراق الشجر الصخرية في أتون العاصفة .

ويعج القسم الاوسط بحشود البشر ، بعد الفراغ من الحساب ، حيث يرقى الطائعون الى الجنة ، بينما يتهاوى العصاة في الجحيم ( لوحة ٣٢ ) ، ورسل الرب تنفخ في الصور ، بينما يحمل ملاك صغير كتاب الحسنات الدقيق ، وينوء ملاكان قويان بحمل كتاب السيئات البالغ الثقل والضخامة .

ويحتجز ميكلائجلو القسم الاسفل لصورة الجحيم اليونانى ( لوحة ٣٣ ) كاشفا بذلك المنبع الثانى لفكر ميكلائجلو الذى شكلته المسيحية الافلاطونية ، حيث يبسط خارون مملكته في العالم السفلى حول نهر ستيكس الى اليمين ، وحيث تحتشد زبائنه وزبائنه . على حين يتدافع الى اليسار الموتى مبعوثين من قبورهم يوم القيامة والذين يتطلع اليهم المسيح في جلاله لحظة وصولهم الى الجحيم ، شاهرا يده اليمنى في حركة تلقى الرعب وهو يصدر حكمة عليهم بالهلاك ، مشيرا بيمنه الى الطائعين ليشهدوا جرح جنبه الدامى ( لوحة ٣٤ ) .

لقد بعثت هذه اللوحة انتفاضة هائلة في فن التصوير ، وخلقت أسلوبا جديدا مثله الاعلى :

- كونية الفضاء اللانهائى .

لقد استطاعت تصاوير سقف مصلى سيستنيا هي والتصاوير الجدارية لرفائيل في غرفة التوقيع بمبنى الفاتيكان ان تنقل من فكر ايطاليا في عصر النهضة أكثر مما نقلته آدابها المكتوبة . كما أنها كشفت عن عمق بصيرة ميكلائجلو وقدرته على التنبؤ بما يوحى للمشاهدين بأنه فنان كل العصور ، وربما بصفة خاصة عصر الرومانسيين ، وهذه هي الصفة التى تميزه عن منافسه العبقري رافائيل .

ونستطيع قبل مغادرة سقف المصلى أن نتمهل لحظة أمام تصاوير **الفلمان العراة** ( لوحة ٣٠ ) لنقارنها بتمثال **الانثى الفافية** التى ترمز لليل ( لوحة ١٦ ) . وتلك التى ترمز للفجر ( لوحة ١٩ ) ، والتى رجوت استضافتهما في الذاكرة عدة دقائق ، ولنتأمل جيدا هؤلاء الفلمان الذين يمتلكون من السحر والفننة والاثارة ما يستطيعون به منافسة جميلات الفتيات ، ليس في بشرتهم المصقولة ، ولا في رقة الملامح ، ولا استدارات المناكب ورشاقة السيقان ، ولا في انبثاق الاثداء ، وانسدال الشعور ، بل كذلك في التثنى والتأود في الوضعة المثيرة واللفتة الداعية ، المترددة الحائرة بين الجسارة والحياء .

في أى عالم رأى ميكلائجلو ذلك الجنس البشرى الغريب ؟ لا شك أنه جنس ابتدعه هو بخياله . ولعل لوحة يوم الحساب ( لوحة ٣١ ) هي أشهر تصاوير روما الجدارية ، وهي بلا شك اكبرها حجما ، اذ تغطى مساحة قدرها ستة عشر مترا في اثني عشر مترا . وقد توزعت رسومها على ثلاثة أقسام رفق التثليث الافلاطونى : تسود في أعلاها مملكة السماء يتوسطها المسيح في جلاله على عرش السحب بوصفه قاضيا والعذراء الى جواره . ومن حوله حلقة من الرسل وآباء الجنس البشرى المذكورين في التوراة تحيط بهم

عجالة تخطيطية ، أو على خطاب أو ظهر فاتورة حساب ، مما يجعلنا نرى بوضوح أنه كان يسجل خواطره — أو على الأقل مسودتها — على أول ورقة تقع بين يديه .

وتحمل أشعار ميكلانجلو التي تبلغ حوالى المائتين وخمسين قصيدة طابع التكثيف لانفعالاته ، بلا تكلف أو أسهاب مصطنع أو بلاغية لفظية ، فالشعر هو مملكة ميكلانجلو الخاصة . ولم يكن يكتب أشعاره للعامة بل لنفسه هو ، أو لإنسان بذاته . ومن ثم كان ديوانه الشعرى أشبه بيوميات لعواطفه، ومرآة لقلبه ، وسيرة ذاتية عاطفية وروحانية.

وفي عصر كان كل عمل فنى خاضعا للتقاليد أكثر مما هو الحال الآن ، كان على ميكلانجلو رغم تفوقه على غيره في التعبير عن نفسه الحقيقة ، ورغم أن ممارسته للشعر قد بقيت في إطار الهواية بعيدا عن الاحتراف ، أن يلتزم بالتقاليد الفنية التي لا يستقيم الشكل الشعرى من غيرها ، ودون أن يكون مع ذلك مؤمنا بها ، وذلك ما هو بصنعة الشعرية عن مستوى رفاق فنه .

كان عالم الشعر ملاذ ميكلانجلو ، يفرع إلى خلوته كلما أججت انفعالاته عذاب القلق في أعماقه . وما أكثر ما كان يهرب إلى الشعر . فما كانت حياته إلا قطعة متصلة من العذاب الداخلى العاصف الذى يتضاءل أمامه كل حزن عابر . وكان احتدام مشاعره يشده إلى عزلة موحشة ، يرفض داخل أسوارها رؤية الأصدقاء ، ويعسر عليه أن يعيش في سلام حتى مع نفسه ، لكنها كانت تتيح له اشباع حاجته إلى التأمل والتركيز الهائل لانجاز أعماله الإبداعية . ومع ذلك فكم كان رقيق المشاعر مع بسطاء الناس ، عطوفا حانيا على الفنانين الناشئين ، كلما عرف الانفلات لحظات خارج أسوار العزلة .

— والانفلات عن أسار الزمان والمكان .

— وتحريك الوجدان البشرى بآثار الشفقة والرائء .

على أن هذه اللوحة التي أحدثت هذا التأثير الهائل على المصورين المعاصرين قد أثارت عداً محموماً من جانب رجال الدين والفكر الذين كانوا يقاومون حركة الإصلاح الدينى . وهكذا امتدت أيدى التزمّت لتفطى معظم الاشكال العارية في لوحة يوم الحساب .



فاذا تركنا عالم النحت والتصوير والعمارة ودلفنا إلى عالم الشعر وجدنا الباب مفتوحا إلى أعماق ميكلانجلو ، فليس غير الشعر ساحرا يزيح بعصاه الستر .

وكان ميكلانجلو واحداً من أعظم أربعة أو خمسة شعراء إيطاليين في عصره ، وإذا كان أشدهم صدقا فقد كان أقلهم شأنا من ناحية الصنعة الشعرية ، فكان تعبيره الشعرى من أكثر الأشعار الفنية الإيطالية تركيزا وغموضا ، حتى كان بعض ناشري شعره يتبعون كل قصيدة بشرح هو في حقيقته ترجمة نثرية بالإيطالية الحديثة .

وليس يعنى هذا أن لفته نفسها كانت عسيرة بالنسبة للقارئ العصرى ، ولكنه الفكر وراءها الذى يبدو ساطعا وخفيا في آن معا . والواقع أن شعر ميكلانجلو هو شعر ذاتى بحت . وأغلب الظن أنه لم ينظم قط قصيدة دون أن يكون واقعا تحت تأثير انفعال ما ، فلم يكن ينظم إلا مدفوعا بحاجة قوية ، أو ممزقا بعذاب ، أو محاصرا بعاطفة وتكشف مخطوطاته التي خلفها عن تلقائية الهاماته . فقد كانت كثرتها مسجلة على طرف رسم أو



تجعلنى لا أعبأ بالضجر .

ولا أخشى الموت .

حتى اذا ما أطلت المرأة على أفق حياته  
أقبلت في ثياب سيدة مترهبة تعيش في دير  
القديس سلفستر بروما تحمل أربعين عاما من  
الثقافة الرفيعة والورع والفضيلة ، وتمنحه  
أهم ما كان في حاجة اليه : حنان الامومة الذى  
لم ينعم به لوفاة والدته في طفولته ، وطمأنينة  
النفوس التى كان يطاردها شعوره بالاثم  
وخوفه من عذاب النار . بينما كانت فيتوريا  
كولونا تبشر بعقيدة جديدة تجعل من الايمان  
وحده مخلصا من كل الآثام .

وهكذا وجد ميكلانجلو أخيرا المرأة الصديق  
والمرأة العزاء ، والمرأة الطمانينة ، والمرأة  
الخلاص .

**وايقظت فيتوريا المسيحية ، في أعماق**  
ميكلانجلو ، فاشتعل بحماس خلاق ، وعكف  
على انجاز أعمال فنية دينية تمثل فكرة  
الخلاص بواسطة السيد المسيح ، كانت قممتها  
لوحة يوم الحساب التى واكب تنفيذها هذه  
العلاقة المتسامية .

وحين ماتت فيتوريا بعد أن أضاعت حياة  
ميكلانجلو عشرة أعوام بكى العملاق كطفل  
رضيع فقد الى الابد أمه ، والتفت التشاؤم  
ثانية حول وجدانه ، وصبغ شعره بالأسى  
وتوقع الموت وراح يقول : -

« اتق أن الفناء مقبل

لكنى لا أعلم موعد اقدامه

العمر قصير

لم يبق لى منه سوى القليل

حتى الانثى لم تعرف طريقها الى خلوته ،  
فعاش دون أن يتخذ زوجة أو خلية مع أن  
صداقته بمساعدته ونماذجه كانت تفوق في  
عنفها وصداقتها أعماق العلاقات البشرية .

**وليست نظراته للحب بعيدة عن النظرة**  
**الافلاطونية :** فالجمال البشرى يوقظ في النفس  
أصالتها الالهية ، ويرتقى بها الى عالم الآلهة  
أن هى انسلخت من الانجذاب الجسدى  
وهامت بالروح . وهكذا أحب ميكلانجلو  
صديق عمره تومازو كافاليري النموذج الذى  
التقى فيه جمال الروح بجمال الجسد ، فخلد  
صداقتهما في قصائد من شعر أخاذ ، ترجمته  
هو وغيره عن الفرنسية لا الايطالية :

« بلا روية انطلقت اليك .

ظننتنى على شاطئ جدول نحيل .

أعبره دون أن يبلل ماؤه ما فوق قدمى .

لكن .. ها أنذا مذ خلفت الشاطئ .

محاصرا وسط خضم محيط هائل .

تسمح أمواجه من كل جانب .

آه لو كنت مستطيعا العودة للشط .

لهرولت سريعا .

لكنى مادمت بلغت مكائى .

فلأ صنع من قلبي صخرة .

وأخوض بها اليم .

واسمك في روحي وكيانى .

يملؤنى ربا وعدوبة .

ثم يخلفنا دون حراك

في نفس الوضع الذي يلقانا فيه .



ومع احساس ميكلانجلو بأقترب الموت  
دب فيه التخاذل فلم يعد يكمل رسومه او  
تمائيله، وأخذ يشوه نسب الجسم التشريحية  
عامداً ، ففتح الابواب على سعتها أمام المدرسة  
المتكلفة « مانريزم » ثم لطارز الباروك .

كتب الى فاسارى مؤرخ فنانى عصر  
النهضة عام ١٥٥٩ قبل وفاته بخمسة أعوام:  
« ليس ثمة فكرة في أعماقي لم يتسرب اليها  
الموت » ، وأصر على قضاء بقية أيامه في خدمة  
بلاط البابا بروما لعله يظفر بالخلاص .

وانتقل العبقري العملاق الى عالم الخلود،  
وبقيت تماثيل باكخوس وداود وموسى والعداء  
الاسية ، وتصاوير سقف مصلى سيستينا  
ولوحة يوم الحساب لتذكر الاحياء بأن رجلا  
فذا قد شارك بازميله وفرشاته في صنع  
عصر كامل هو عصر النهضة الايطالية ، وفي  
دفع البشرية خطوة حاسمة على طريق التقدم .  
كان اسمه وسيبقى ميكلانجلو . . . او الملاك  
ميكايل .

الحياة الدنيا تستهوى حواسي

بينما تستحبنى روحى للقاء الموت .

العالم ضير شرير

يعصف بالاشياء بضربات علوية

النور انطفأ

فولئى معه كل امان .

ينتصر الزيف

ويستخفى الحق

وا اسفاه . . رباه ، متى يتحقق امل المؤمن  
بك ؟

وطول الانتظار يفتك بالآمال

ويترك الروح فريسة للموت .

ما قيمة النور الفامر . . الذى تعد به

مادام الموت سيقبل بفتة .

ويقبح المرء أمامه بلا حول ولا قوة



### الراجع

- Bottari, Steffano      Michelangel. La Cappella Sistina. Eratelli Fabri — Albert Skire 1968.
- Berenson, Bernard      Italian Painters of the Renaissance vol. 2. Florentino and Central Italian Schools. Phaidon, London. New York, 1968.
- Clar , Keneth      Civilisation, a personal view. British Broadcasting Corporation and John Murray 1969.
- Forlani, Anna      Michelangelo. Fratelli Fabri Editori 1963.
- Fleming, William      Arts and Ideas, Holt, Rinehart and Winston New York 1961.
- Goldscheider, Ludwig      Michelangelo. Complete edition. Phaidon 1959.
- Huygho, René      l'Art et l'Ame. Flammarion 1960.
- Pope Hennesy, J.      Italian High Renaissance and Baroque Sculpture, 1963.
- Revel, Jean - Francois      Michel-Ange: Le Secret d'un coeur révélé par les Sonnets. Collection Génies et Realités. Paris Hachette 1961.
- Redig de Campos D.      Michelangelo ... Cappella Paoline in Vatican. Collezione Silvana Milano 1956.
- Vasari, Giorgio      Life of Michelangelo Buonarroti, The Folio Society. London 1970.
- Wolfflin, Heinrich      Classic Art. An Introduction to the Italian Renaissance, Phaidon. London, New York 1968.

— العهد القديم من الكتاب المقدس .

\*\*\*



( لوحة ١ ) باخوس



( لوحة ٢ ) الغدراء الاسمية ( بييتا ) الفاتيكان



( لوحه ۳ ) سقف مصلی سستینا عرافه کومای

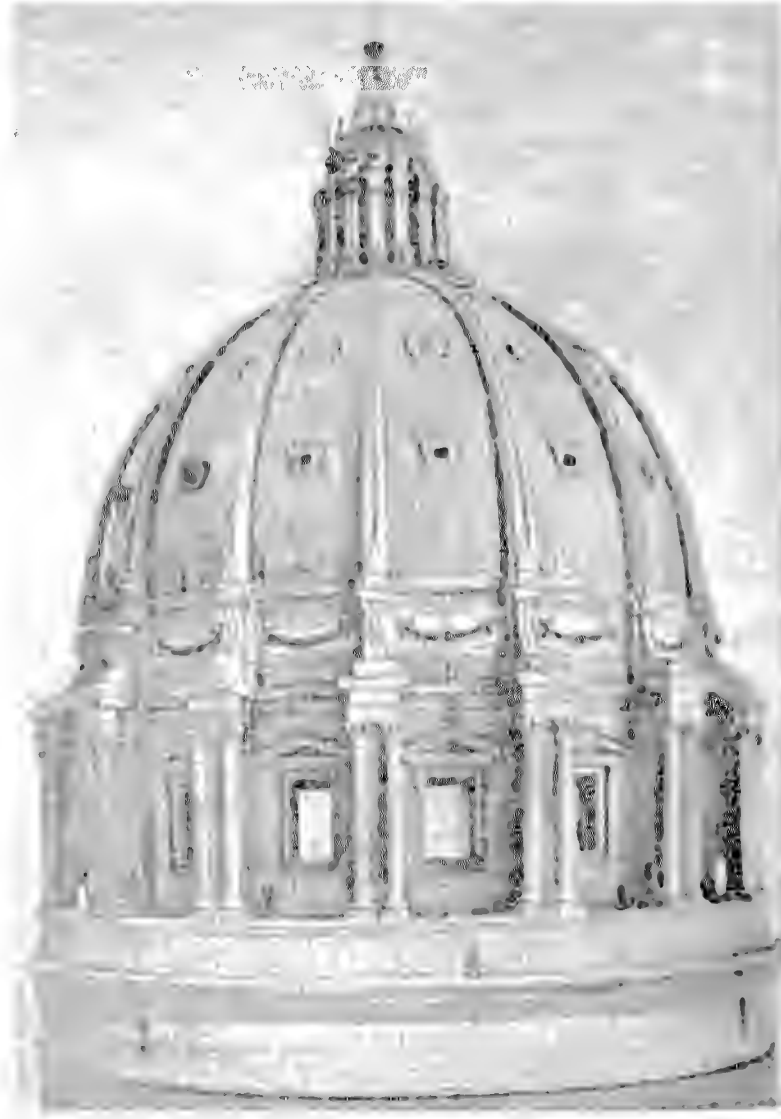


( لوحة ٤ ) سقف مصلى سيستينا النبي يونس والحوت

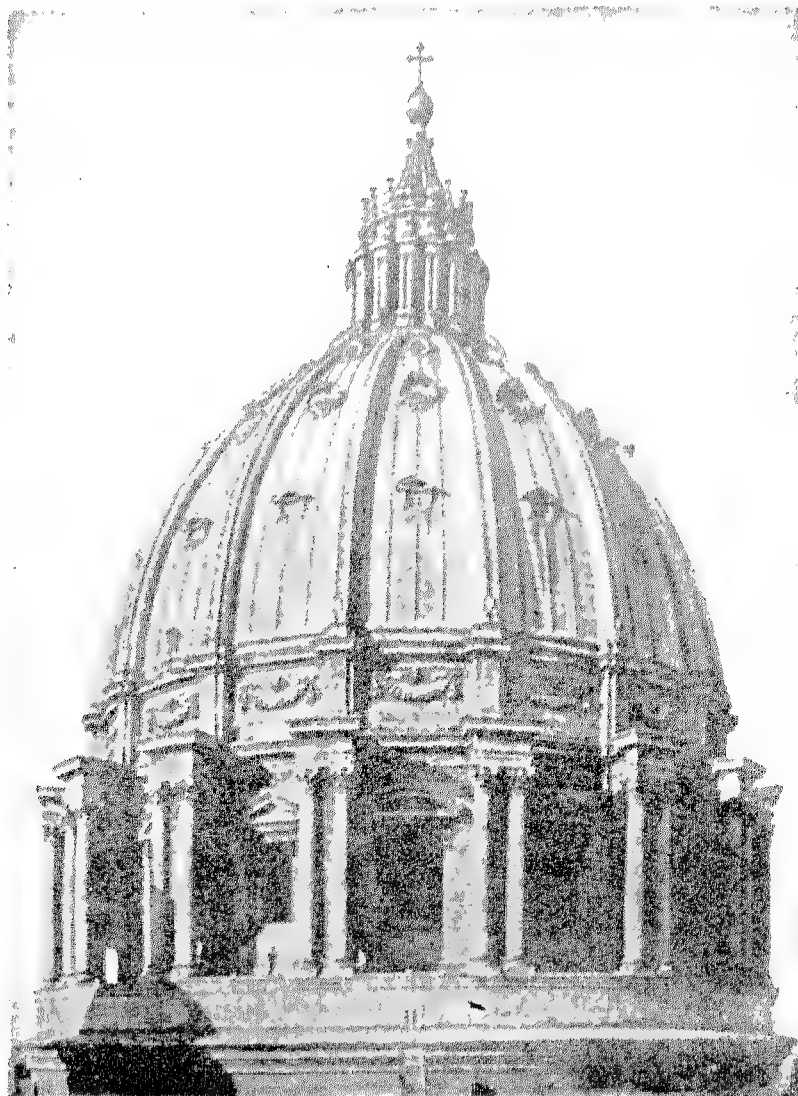


( لوحة ٥ ) سقف مصلى سيستينا

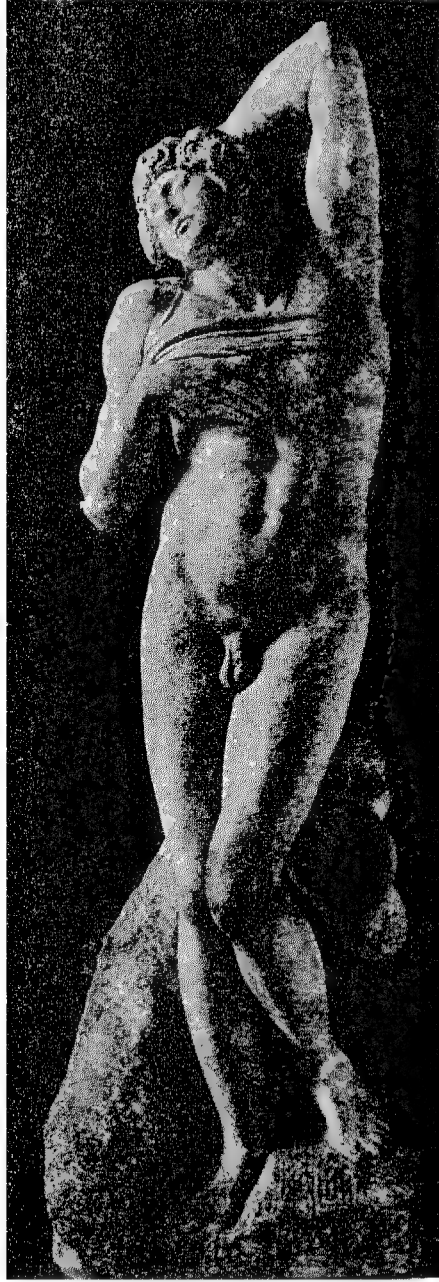




( لوحة ١٦ ) نموذج خشبي لقبة كنيسة القديس بطرس بروما



( لوحة ٦ ب ) قبة كنيسة القديس بطرس بعد الانتهاء منها



( لوحة ٧ ) العبد المفلول - متحف اللوفر



( لوحة ٨ ) العبد المتمرد - متحف اللوفر



( لوحة ١٠ ) أسير بوبولي المتنحي



( لوحة ٩ ) أسير بوبولي



( لوحة ١١ ) القراء الآسية (تفصيل) وجه المسيح



لوحة (٢١٢) داود.



( لوحة ١٢ ب ) داود





( لوحة ١٢ ) موسى



( لوحة ١٣ ب ) موسى - تفصيل اليد اليمنى واللحية



( لوحة ١٤ ) ضريح لورنزو

( لوحة ١٥ ) ضريح جوليانو



( لوحة ١٦ ) جوليانو - الليل



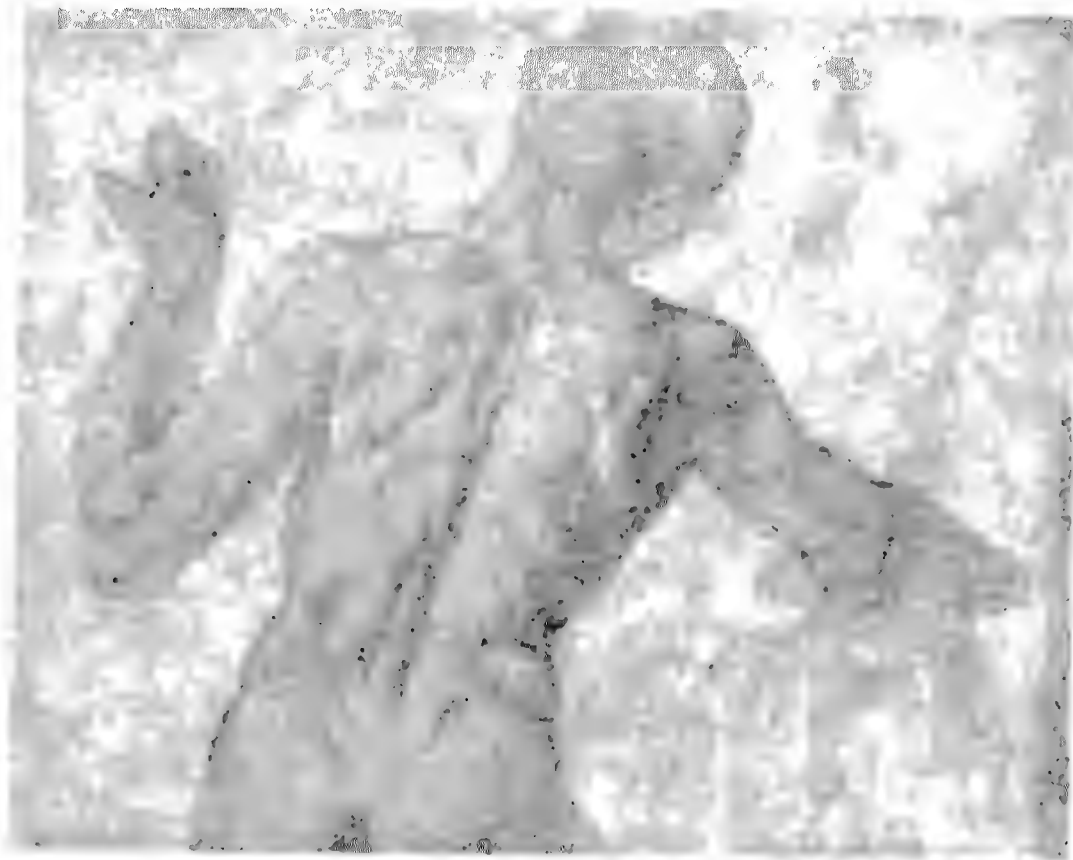
( لوحة ١٧ ) ضريح جوليانو - النهار



( لوحة ١٨ ) ضريح لورنزو - الفروب



الوجه ١٩ ، صرح لوبلزو - ألام



( لوحة ٢٠ ) دراسة المرأة كاسكينا





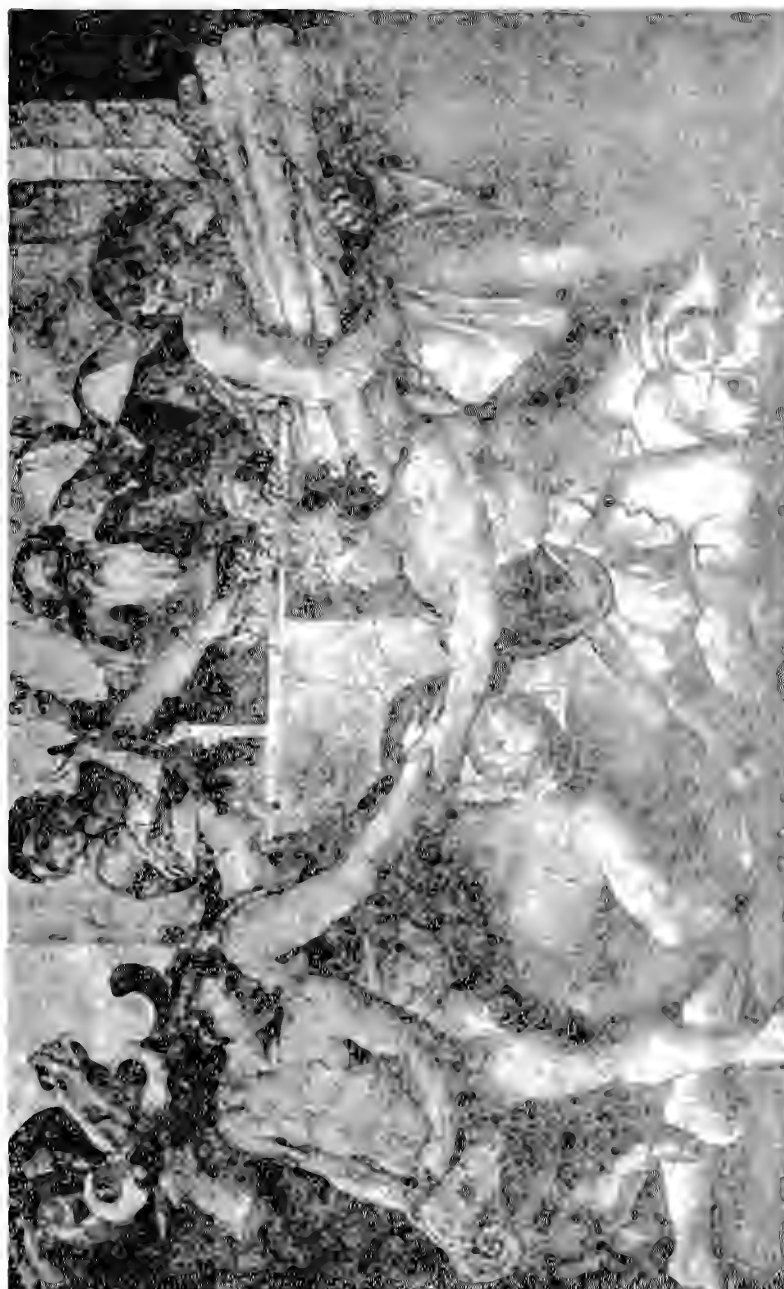
( لوحة ٢١ ) سقف مصلى سيستينا - نوح لهلا



۱. راجا ۱۱۱۱ء کی سنگلا تھلو - ۱۱۱۱ء



لوحة ( ٢٢ ) سقف معبد بعلبك - لبنان



دا لوله ۴۳ | یسوع مصلی دیمینا - خروج را ایلزاد یللیون الفرائیو



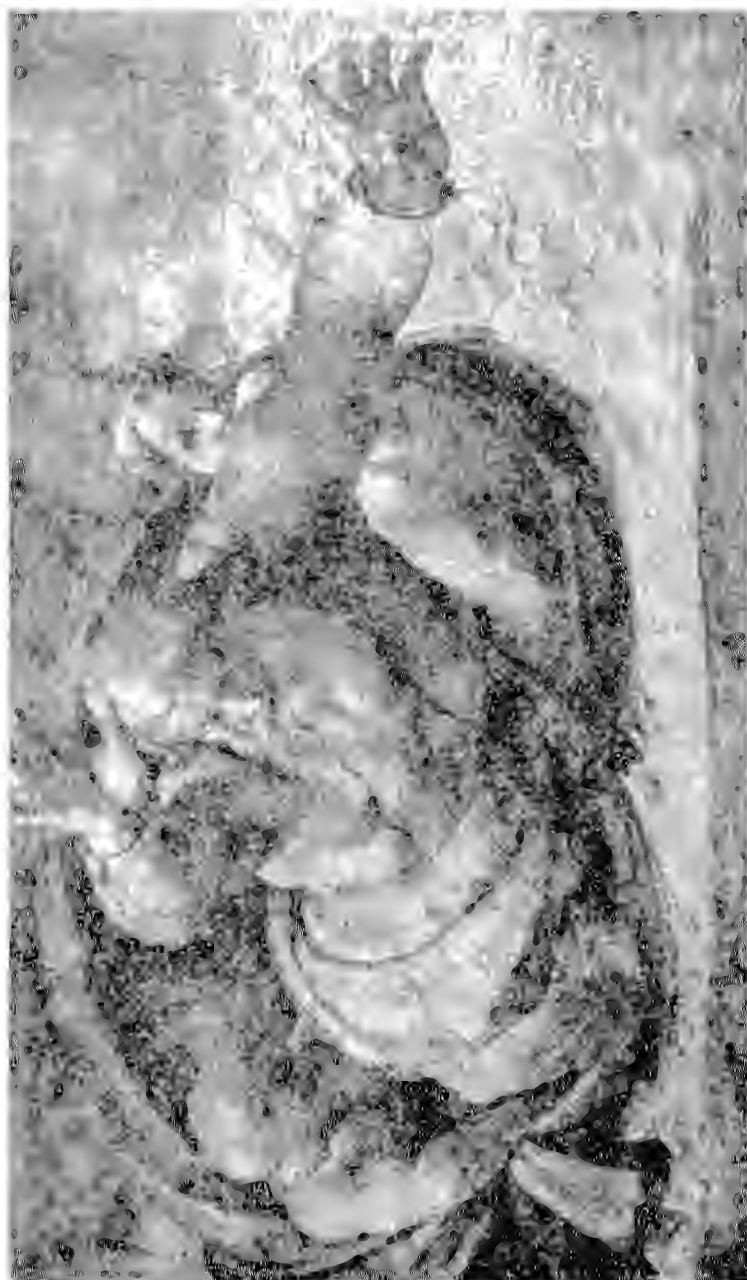
الوجه ٢١ - سقف مغطى مسطوحاً - حفرة الدمار وحرارة طردتها من البيت



لوحة ۱ سقف صلی - حلی حوله

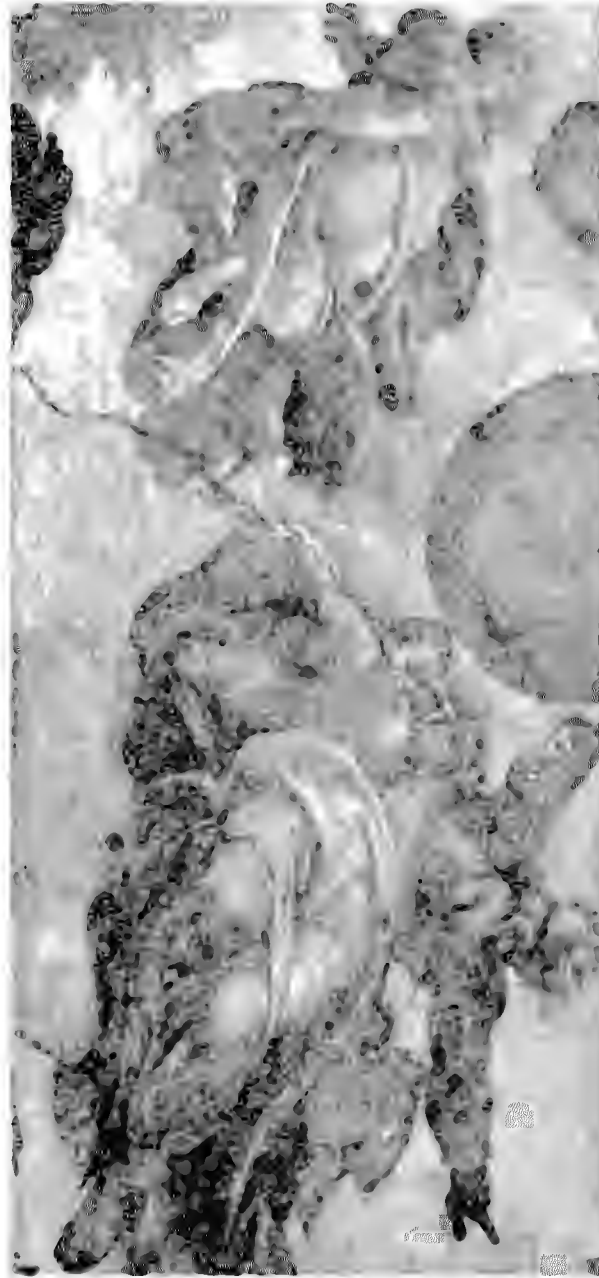


( لوحة ٢٩ ) سقف معبد سستينا - خلق آدم

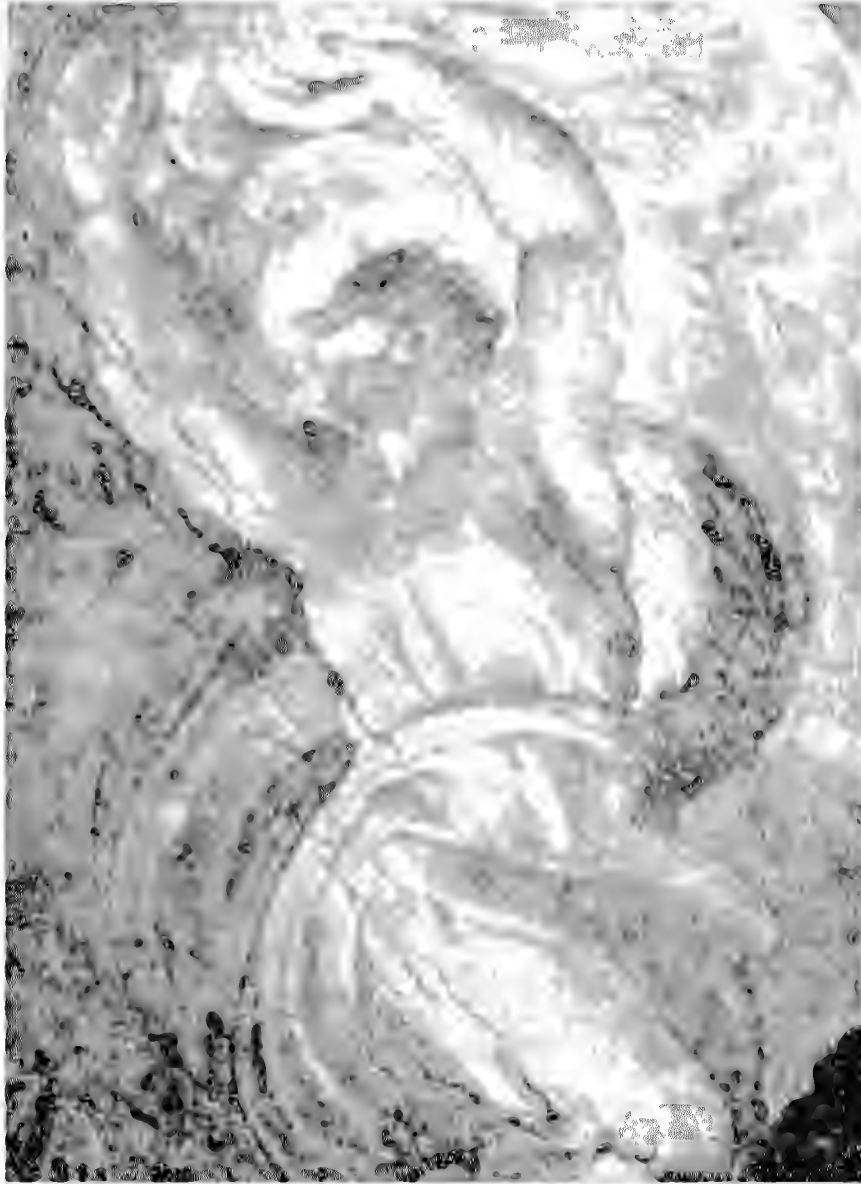


الوجه ٢٧ ( سطح وصلى مستينا فصل الباسة من الماء





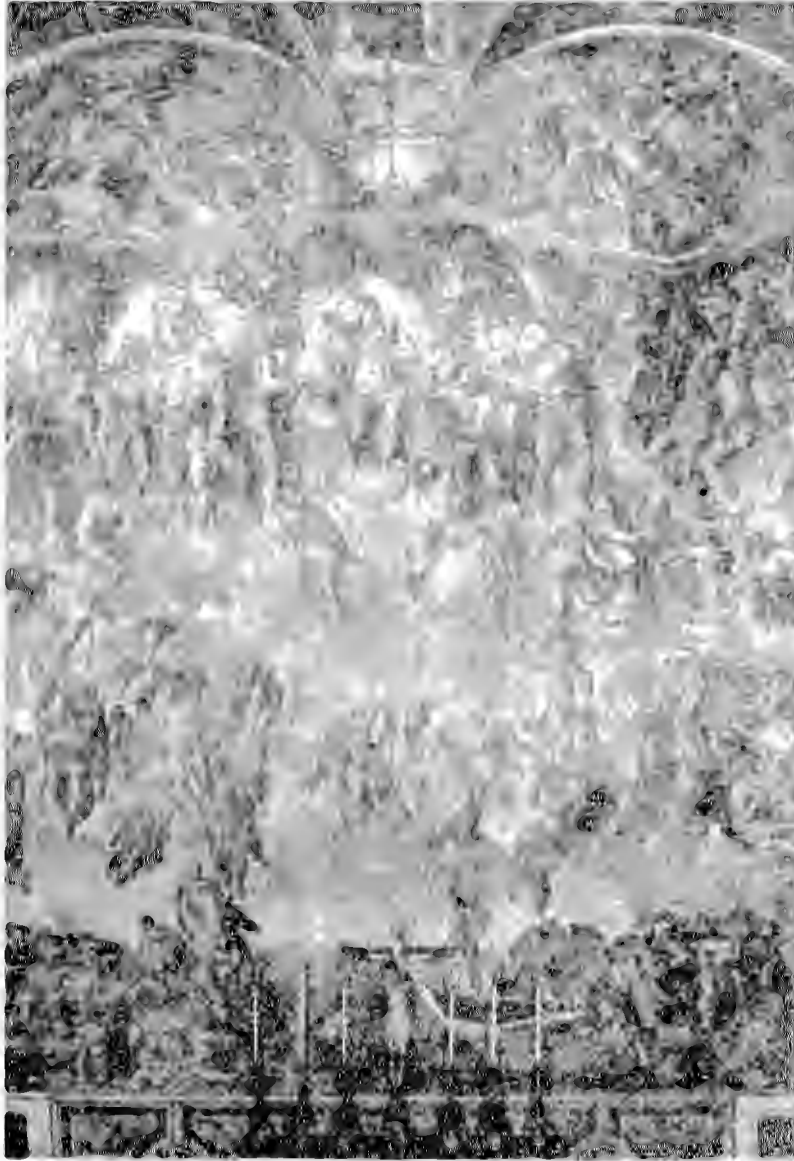
( لوحة ٢٨ ) سقف معلى - مستيلا - خلق السموات والارض



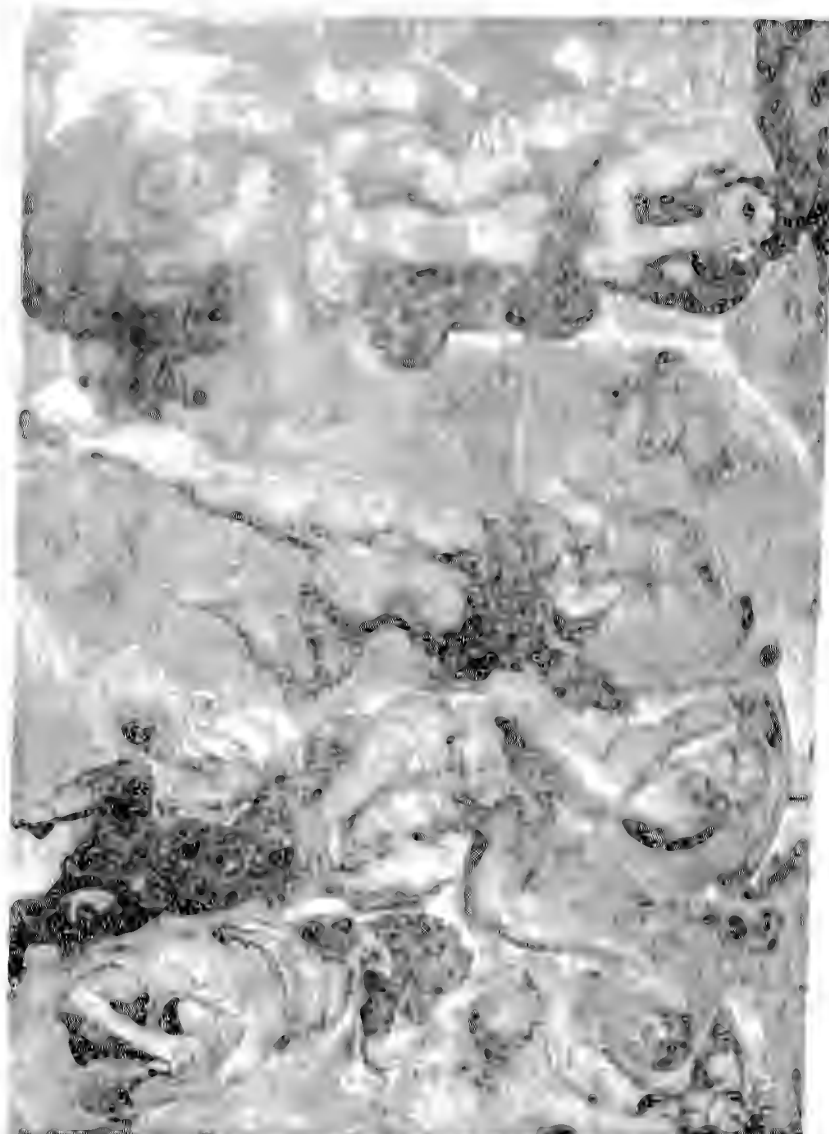
( لوحة ٢٩ ) سقف مصلى سيستينا - مشهد فصل النور عن الظلمة



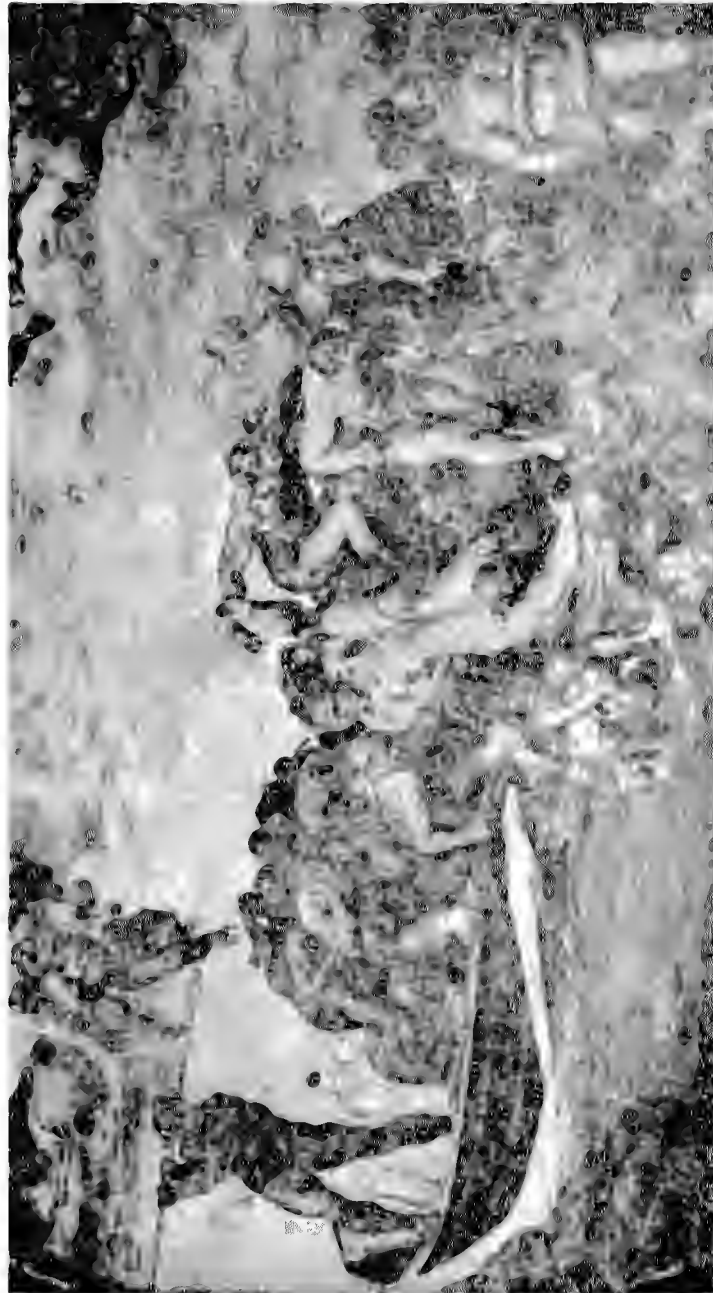
( لوحة ٣ ) سفف مصلى سيستينا غلام عار (انيودى)



( لوحة ٣١ ) مصلى سيدينا - لوحة يوم الحساب



( لوحة ٢٢ ) - مملكة سبأ - تمثيل من لوحة يوم الحادي - المعاصرة  
بتعاون إلى الجحيم

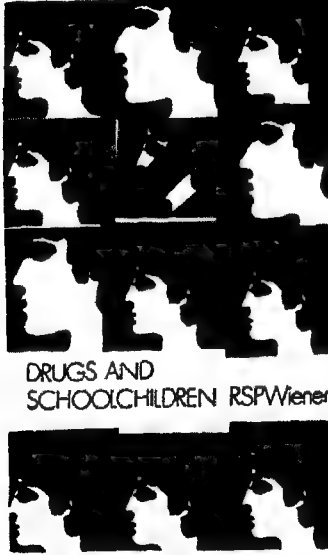


١. كوكب ٢٠٠٠ ميلادي - كوكب من كوكب  
«الشمس»



( لوحة ٢٤ ) مصلى سيستينا - تفصيل من يوم الحساب - المسيح في  
جلاله بوصفه قاضياً

## عرض الكتب



### المخدرات وطلبة المدارس

تأليف: ر. س. ب. وايسر

عرض وتحليل الدكتور: عدنان الدوري

في الجامعة المذكورة . أما كتابه هذا فهو حصيلته  
البحث العلمي الذي تقدم به لنيل درجة  
الدكتوراه في جامعة لندن .

ينقسم الكتاب الى اقسام ثلاثة خصص  
القسم الاول كمدخل نظري لعرض أبعاد مشكلة  
المخدرات بوجه عام وبيان أهداف الدراسة  
وايجاز بعض الدراسات العلمية التي تناولت  
هذه المشكلة . وقد خصص القسم الثاني  
لعرض ماهية الدراسة الميدانية حيث تناول  
طريقة البحث وكيفية اختيار عينات البحث  
وعمليات الاستبيان وجمع المعلومات المطلوبة .  
أما القسم الثالث فقد تضمن خلاصة النتائج  
وبعض التوصيات المتصلة بموضوع المشكلة .  
كما ذيل الكتاب بملاحق خاصة باستمارات  
البحث والاستبيان وبعض الرسائل المتداولة  
لعرض جمع المعلومات المطلوبة .

ان موضوع العقاقير المخدرة يشكل موضوع  
الساعة في أوليته بين البحوث والدراسات  
الاجتماعية والنفسية والطبية، والطبية العقلية  
والقانونية المعاصرة . لقد ظهرت كتب عديدة  
ودراسات علمية لا حصر لها تناولت هذا  
الموضوع ، الا أن الجديد في هذا الكتاب انه  
يعالج جانباً حيويًا من هذه المشكلة ، وهي  
ظاهرة تفشي هذه السموم المخدرة بين فئة  
طلبة المدارس من المراهقين الذين لا تتجاوز  
أعمارهم التاسعة عشرة .

مؤلف هذا الكتاب الدكتور برايسر من  
الباحثين العلميين المتخصصين في معالجة  
المشكلات الاجتماعية الذين يعملون في مدرسة  
لندن للدراسات الاقتصادية ، كما قد درس  
علم النفس في جامعة سدني باستراليا ، وعمل  
فترة ما في المعهد القومي لعلم النفس الصناعي



وعلى الرغم من أن الباحث في كتابه هذا لم يهدف الى معالجة مشكلة المخدرات بوجه عام ، الا انه أفرد ما يزيد على السبعين صفحة من كتابه لعرض ارضية أكاديمية نظرية لموضوع المخدرات ، وهذا لا شك يعكس اهتمام الباحث بالاطار النظري العام الذى يشكل المدخل الأكاديمي للدراسة موضوع الكتاب .

واذا كان الانسان قد استخدم العقار المخدر منذ آلاف السنين الا أن هذه العقاقير المخدرة لم تصبح مشكلة ذات أبعاد اجتماعية ونفسية وطبية وقانونية الا خلال القرنين الماضيين . اما اليوم فقد بلغت مشكلة العقاقير المخدرة أبعادا خطيرة لدى الكثير من المجتمعات المعاصرة ، وليس أدل على ذلك من بعض الاحصائيات العالمية التي تشير الى أن عدد الاشخاص الذين يتناولون نبات الماروانا يزيد على المائتي مليون شخص في جميع أنحاء العالم . وهناك احصائيات عالمية لعام ١٩٦٢ تشير الى أن عدد الذين يتناولون بعض العقاقير المهذلة والمنشطة بصورة غير مشروعة يزيد على العشرة ملايين شخص في العالم . أما في الولايات المتحدة الاميركية فان مشكلة المخدرات تجاوزت أبعادها التقليدية المألوفة، حيث يشير المكتب الفدرالى للمخدرات في احصائية صدرت في عام ١٩٦٥ أن عدد المدمنين على عقار الهيروين وحده بلغ ( ٥٥٨٩٩ ) شخصا ، هذا على الرغم من تلك العقوبات الشديدة التي تضعها القوانين الجزائية الاميركية لمنع تداول هذا العقار منذ عام ١٩١٤ .

ما هو المقصود بالعقاقير المخدرة ؟

هناك تعريف عام ورد بقاموس أكسفورد الانجليزي يعرف العقار بأنه كل مادة طبية جوهريّة عضوية أو غير عضوية تستخدم بصورة نقيّة أو في تركيب كيماوى خاص . وهذا التعريف لا شك لا ينصرف الى العقار المخدر الذى يتناوله الشخص بصورة غير مشروعة ، فالعقار لا يصبح مشكلة اذا استخدمه صاحبه

لأغراض طبية علاجية مشروعة أو تحت اشراف طبي . اما العقار المخدر الذى يمنع القانون تداوله فهو كل مادة كيماوية تؤدي الى تغير محسوس في مزاج الشخص الذى يتناوله ، والى تبدل واضح في شعوره وفي ادراكه ، وذلك حين يستخدم هذا العقار بصورة غير مشروعة وبأسلوب يخالف معايير المجتمع ونظمه . ولكن ما هى تلك المواد المخدرة التي يمنع القانون تداولها خلافا للأغراض الطبية المشروعة ؟

ان العقاقير المخدرة التى يشيع استعمالها اليوم بين غالبية الشباب والمراهقين هى الانواع التالية :

( ١ ) مركبات الأفيون opiates وبوجه خاص مركب الهيروين heroin .

( ٢ ) مركبات نبات القنب cannabis

( ٣ ) عقاقير الهلوسة وبوجه خاص المركب المعروف LSD .

( ٤ ) مركبات الامفيتامين amphetamines

( ٥ ) مركبات حامض البريتيوريك barbiturates .

( ٦ ) المركبات التى تشتمل على الامفيتامين وحامض البريتيوريك معا .

ولعل من الضروري أن نتناول هذه العقاقير بتعريف موجز لبيان بعض صفاتها المميزة وتأثيراتها المختلفة .

أولا - مركبات الأفيون : وقد عرف الانسان الأفيون opium منذ أربعة آلاف سنة قبل الميلاد ، اما عقار الهيروين heroin وهو من مركبات الأفيون فقد ظهر في المانيا منذ عام ١٨٩٨ وهو عقار يجرى تصنيعه من

اما التأثيرات الشائعة لهذه المركبات فهي طلاقه اللسان واحلام اليقظة وزوال القلق والمعوقات الباطنية لحرية النشاط والشعور بالمرح والتفكير والارتخاء . كما وهناك خطا شائع يدعو الكثير للاعتقاد بأن لهذه المركبات تأثير معين في زيادة الطاقة الجنسية ، ولكن الثابت علميا انه لا توجد علاقة بين مثل هذه المركبات وبين زيادة الحيوية الجنسية ، ولكن ربما لبعضها تأثير في اطالة العملية الجنسية . أما بعض التأثيرات الضارة لمثل هذه المركبات فهي لازالت موضوع خلاف كبير . فقد يجد البعض ان الاعتياد على هذه المركبات لمدة طويلة يؤدي الى تدهور القدرات الذهنية ويضعف القدرة على مواصلة العمل المنتظم ، كما يؤدي الى اضطراب العلاقات الاجتماعية بالآخرين ، وهو في الغالب يقود الى حالة الادمان على المخدرات . الا ان منظمة الصحة العالمية لا تؤيد ظهور حالة الاعتماد البيولوجي نتيجة تناول هذه المركبات ، ولكن مثل هذه المركبات تؤدي الى حالة الاعتماد النفسي . كما يرى البعض الآخر ان هذه المركبات هي اقرب في تأثيرها الى تأثير الكحول ، وهذا يجعلها بعيدة عن مركبات الافيون ، اذ ان استعمال مركبات نبات القنب بصورة معتدلة، كما يراها البعض ، لا تزيد في خطورتها عما يتعرض له الانسان نتيجة اسرافه في تناول الكحول . الا ان هناك من يعتقد بان تناول هذه المركبات يشكل جواز سفر للعبور الى ادمان عقاقير مخدرة اخرى اشد خطورة كالهيروين حيث تؤيد غالبية الاحصائيات وجود مثل هذه العلاقة .

ثالثا - عقاقير الهلوسة hallucinogenics ومن أبرز أنواعها العقار الشائع باسم LSD والعقار DET والعقار DMT والعقار DPT . وربما يكون عقار LSD أكثرها شيوعا لسهولة الحصول عليه . وهذه عقاقير في الغالب تؤدي الى تغيرات محسوسة في التفكير وفي الإدراك

عقار المورفين ويطلق عليه علميا مصطلح diacetylmorphine . ولا شك ان

مركبات الافيون ومنها عقار الهيروين تعتبر من أخطر العقاقير المخدرة ، حيث تقول منظمة الصحة العالمية ان هذا العقار يؤدي الى حالة الادمان addiction حيث تتبلور الرغبة الشديدة لاستمرار تناول العقار بأية وسيلة كانت والرغبة المستمرة لزيادة كميته ، وبالتالي الاعتماد المباشر على العقار يوما بعد يوم . ويرى الكثير من العلماء ان هذا العقار يؤثر على الجهاز العصبي المركزي ، والى هبوط الفعاليات الجثمانية والعقلية واحتقان حدقة العين والامساك المعوي وانقطاع طمث النساء وتطور في الرغبة الجنسية وغير ذلك من الامراض الاخرى . ولاشك ان ادمان عقار الهيروين يفقد المدمن قدرته على مواصلة حياة اجتماعية سوية وتكوين علاقات سليمة بالآخرين ، كما وان المدمن لا يسعى في الواقع الى عقد صداقات جديدة خارج اطار علاقته بالمدمنين من أمثاله ، ولذلك فهو غالبا ما يفضل العزلة على تكوين صداقات جديدة .

ثانيا - مركبات نبات القنب cannabis وهذه عقاقير عرفها الانسان منذ عام ٢٧٣٧ قبل الميلاد ، وهي تستخرج من اوراق او بدور او قشور نبات يعرف بالقنب cannabis saliva ومن أشهر أنواعه الماريوانا marijuana وتستخرج من الازهار المجففة لأنثى هذا النبات ، والنوع الثاني هو الحشيش hashish وهو يستخرج من مسحوق النبات المجفف بعد مزجه بالمادة الصمغية التي تكسو قشرة هذا النبات . وهناك أكثر من ثلاثة وتسعين اسما يطلق على مستحضرات نبات القنب ، الا أن الشائع منها الماريوانا والحشيش والكيف والداجا والجانجا .

تشير بعض الاحصائيات الاميركية الصادرة في عام ١٩٦٥ الى ان عدد الوصفات الطبية التي صرفت من قبل الجهات الصحية بصورة مخالفة للقانون تجاوزت ٣٨٠.٠٠٠ وصفة طبية . أما تأثير هذه المركبات فيقول الاطباء المتخصصون انها تزيد من ارتفاع ضغط الدم وارتخاء العضلات واتساع حدقة العين ، وهي في الغالب تساعد على زوال الارهاق الجسدي والعقلي وتضاعف الحيوية وتزيد الثقة بالنفس . ويؤكد بعض الاطباء ان تناول هذه المركبات بصورة معتدلة وبكميات صغيرة وفي اوقات متفاوتة لا يثير مشكلة ادمان بالمعنى الطبي ، الا ان تناولها بكميات كبيرة وبأوقات متكررة يؤدي الى حدوث تأثيرات سلبية كحدوث زيادة مفرطة في الحيوية ربما تقود الى بعض النتائج غير المرغوب فيها اجتماعيا ، كما قد تؤدي الى حالة الانهيار او الى ادمان عقاقير مخدرة اخرى .

خامسا - مركبات حامض البريتيوريك Barbiturates وهذه تدخل في الغالب تحت مركبات الامفتامين الا انها تختلف في تأثيراتها الكيماوية والنفسية ، فالامفتامين عقار منشط يضاعف حيوية الجهاز العصبي ، بينما تعتبر مركبات حامض البريتيوريك عقاقير مسكنة مهدئة خافضة للحياة . ولعل مركبات حامض البريتيوريك أقل خطورة من مركبات الامفتامين ، وذلك لعدم شيوعها بين الشباب والمراهقين على نطاق واسع .

والدراسة الميدانية او البحث العلمي موضوع هذا الكتاب جاء عرضه في القسمين الثاني والثالث من الكتاب . ففي القسم الثاني طرح الباحث خطته في البحث والطرق التي استخدمها في جمع البيانات المطلوبة ، وكيفية اختيار عينات البحث وتنفيذ خطوات البحث . أما القسم الثالث فقد خصصه الباحث لنتائج البحث وتحليل المعلومات المتحصلة وطرح بعض التوصيات .

وفي المزاج ، ولكنها لا تؤدي الى اضطرابات دائمية في الشخصية . وقد اكتشف عقار LSD علميا منذ عام ١٩٣٨ ، الا ان الاهتمام بدراسة آثاره تبلور خلال عام ١٩٤٣ . ويمكن ايجاز أبرز الآثار الجثمانية التي تنشأ عن تناول هذا العقار بأنها تشتمل على اتساع حدقة العين وثبات نسبة ضغط الدم ورعشة سريعة وحادة في الركبة وزيادة في النبض وضعف واضح في النطق . أما الآثار النفسية فيمكن تلخيصها بظهور حالة امتزاج بين الذات والعالم الخارجي وظهور الشعور بالاتحاد مع كل الأشياء أو حالة انفصام عن الذات ، أو حالة انفصام عن العالم الخارجي . ويقول أحد العلماء بأن هناك حالة انتحار واحدة تحدث بين كل ( ٢٥٠٠ ) حالة ممن يتناولون هذا العقار . كما ويتفق غالبية العلماء على ان غالبية الذين يتناولون هذا العقار يعانون من بعض الاضطرابات العاطفية أو أنهم يعانون من اضطراب واضح في شخصياتهم .

رابعا - مركبات الامفتامين وهذه تشتمل على مجموعة كبيرة من العقاقير يزيد عددها على العشرين ، ويشيع تسميتها بالحبوب المنشطة للحياة أو تلك التي تعرف بـ PEP-PILLS وهي إما أن تكون من مستحضرات الامفتامين بصورة نقية أو مختلطة بمركبات حامض البريتيوريك . أما المراهقون فهم يطلقون على هذه المركبات تسمياتهم الخاصة مثل مصطلح METH أو DEXIES أو BENNIES أو PURPLE HEARTS .

والأصل في هذه المركبات انها تستعمل لأغراض طبية خاصة عرفها الطب الاميركي منذ عام ١٩٢٧ تحت اسم البنزيرين BENZEDRINE لمعالجة حالات الصرع والتسمم والحالات الكحولية وبعض الاضطرابات النفسية والعصبية الاخرى . الا أن استخدامها لأغراض غير مشروعة جاوز أهدافها المشروعة ، حيث

٢ - لم يجد الباحث اختلافات تتصل بالجنس ، أى بين الذكور والإناث ، ولكن ظهر أن غالبية أفراد الجنسين يمثلون سنا متقدمة نسبيا ، وأن غالبيتهم تد اعتادوا على الانقطاع عن الدراسة بصورة متكررة ، كما أن غالبيتهم أيضا لا يلجأون إلى آبائهم لحل ما يعترضهم من مشكلات ، وأن هؤلاء الآباء في الغالب يتميزون بلبين واضح وعدم اكتراث بضبط سلوك ابنائهم أو الإشراف على تربيته .

٣ - لقد ظهر أن نوعية النشاطات التي يمارسها أفراد الجماعة التي تستخدم العقاقير المخدرة في أوقات فراغهم هي أقرب إلى تلك التي يزاولها البالغون بوجه عام ، كالتردد على المقاصف ودور الرقص ودور التسلية ، وأن هذه الطائفة تنفق الكثير من المال على التدخين وعلى المشروبات الكحولية وعلى العناية بالملبس وتيسير العقاقير المخدرة ، ويميل أفراد هذه الطائفة إلى الاختلاط بمن يكبرهم سنا ولا يجدون حرجا في تقليد الانماط السلوكية الخاصة بالبالغين ، ولذلك فإن أفراد هذه المجموعة يسلكون سلوكا يفوق سلوك الأطفال الذين هم في سنهم .

٤ - ويتميز أفراد عينة البحث بأنهم أقل احتراما وأكثر اندفاعا في سلوكهم ، وهم يعلمون الكثير عن المخدرات واستعمالها ومزاياها .

٥ - وقد ظهر أن أفراد عينة البحث يعتقدون بأن تناول العقاقير المخدرة يزيد من جاذبيتهم الجنسية لدى الجنس الآخر .

أما القسم الثالث فقد تضمن توصيات الباحث بهدف تقرير سياسة تربوية تعليمية تتعلق بموضوع مشكلة المخدرات بين طلبة المدارس . ويعتقد الباحث بادئ ذي بدء بأن مشكلة تعاطي المخدرات بين طلبة المدارس

ويقوم البحث على خطة اختيار مجموعتين من الأطفال أحدهما مجموعة بحث ضمت ( ١٠٣٩ ) طالبا من طلبة المدارس ممن تتراوح أعمارهم بين الرابعة عشرة والتاسعة عشرة ، وقد اختارهم الباحث كعينة للطلاب الأطفال الذين يعتقد أنهم تناولوا بعض العقاقير المخدرة في فترة من فترات حياتهم ، وهم يمثلون أربع مناطق جغرافية مختلفة من منطقة مدينة لندن . أما المجموعة الثانية فهي مجموعة ضابطة تمثل عددا مماثلا من الأطفال الذين أنكروا استعمالهم للعقاقير المخدرة بشكل من الأشكال طيلة حياتهم .

وعلى الرغم من أن الباحث شعر بصعوبة التأكد من صحة استعمال الأطفال للعقاقير المخدرة ، وذلك بمجرد الاعتماد على ادعائهم المجرد ، فقد قام بتجربة تحضيرية أولية تناولت مجموعة صغيرة من الأطفال لمعرفة مدى إمكانية الاعتماد على مجرد الادعاء باستخدام العقار المخدر ، وقد دلت نتائج هذه التجربة الأولية على إمكانية الحصول على مثل هذه الاعترافات إلى حد ما .

ويظهر أن البحث كان يقوم على فرضية أولية وهي إمكانية تشخيص بعض الاختلافات بين طائفة الذين يستعملون العقاقير المخدرة وبين أولئك الذين لم يستعملوها ، وقد أمكن اختبار هذه الفرضية بطرح استبيان مفصل على الطائفتين لتحقيق هذا الغرض . ويمكن تلخيص أبرز النتائج التي توصل إليها الباحث بما يلي :

١ - ظهر أن نصف أفراد مجموعة البحث قد اعتادوا على استعمال عقاقير مخدرة بصورة فعلية وأن ٧٥٪ منهم قد تناولوها بصورة غير منتظمة ، كما تأيد أن بعضهم تناولوها عن جهل لتأثيرها بينما تناول البعض نوعا واحدا أو نوعين أو ثلاثة أنواع من هذه المخدرات .

لم تبلغ بعد مرحلة خطيرة من حيث انتشارها او شيوعها . ففي تقدير الباحث أن أقل من ١٠٪ من طلبة المدارس ربما تناولوا بعض العقاقير المخدرة في فترة من فترات حياتهم تحت دوافع التقليد أو لغرض الظهور على الاقران .

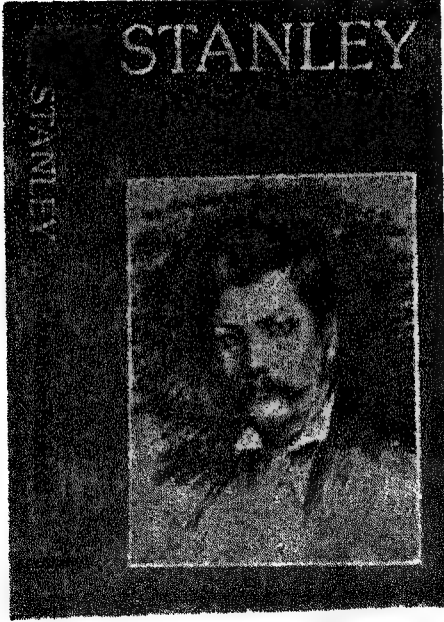
ويرى الباحث ان القيام بحملة اعلامية اصلاحية بهدف تبصير الاطفال بخطر المخدرات وآثارها السيئة قد تكون في جدواها أقرب الى تلك الحملات الاعلامية العقيمة التي تقوم بها بعض الجهات الصحية من وقت لآخر لتبصير أطفال المدارس بأضرار التدخين ومساوئه . ويفسر الباحث عدم جدوى هذه الحملات الاعلامية الواسعة بأنها قد تزيد من وعي الاطفال بوجود مثل هذه المخدرات التي يجهلون موضوعها جهلا تاما ، ولذلك فان مثل هذه الحملات تعرف الاطفال بوجود مشكلة المخدرات ، الامر الذي يدفعهم الى تجربتها بدافع الفضول وبوصفها عادة شائعة غير ضارة بدليل انها شائعة بين عدد كبير من الاطفال في كل مكان .

وربما يكون لبعض الافلام الخاصة بموضوع المخدرات فائدة ارشادية في هذا الباب ، الا

ان الدراسات العلمية المتيسرة في هذا المجال لم تؤيد بالرائى القاطع ايجابية مثل هذه الافلام التعليمية ، ولذلك فان الباحث يعتقد بإمكانية القيام بحملات اعلامية بين الاطفال ، ولكن على أسس محددة واهداف مدروسة ، وبناء على دراسات ميدانية لتحديد نطاق هذه الحملات ونوعية المعلومات التي تقدم للاطفال وكيفية تقديمها والاشخاص الذين يقومون بعمليات التوعية المطلوبة ، الى غير ذلك من المتطلبات الاخرى .

وعلى العموم فان مثل هذه الدراسة الرائدة أن لم تأت بالشئ الكثير الجديد في ميدان واسع كبير فهي بلا شك قد ألقت الضوء على زاوية حيوية من هذا الموضوع حيث أظهرت نوعية الاطفال الذين يستخدمون العقاقير المخدرة ، ولكن ينبغي أن لا يقف البحث عند تشخيص الافراد الذين يستعملون هذه العقاقير المخدرة ، بل بمتابعة وملاحقة حياتهم لمعرفة من يعتاد منهم على هذه العقاقير في مستقبل حياته ومن ينقطع عن استخدامها لاكثر من سبب ، وبالتالي معالجة أولئك الذين تصبح العقاقير المخدرة مشكلة كبيرة في حياتهم ومشكلة أكبر بالنسبة لمجتمعاتهم .





## ستانلى المستكشف المفاخر

عرض وتحليل . الدكتور عبدالرحمن الشرنوبلى

عقولهم ، لاتزال جذوته متقدة حتى الان .  
فرحلات ستانلى التاريخية ظلت وستظل من  
اعظم ماسجلته قصص الرحلات اثارة فى تاريخ  
كشف افريقيا .

لقد قام ستانلى بأربع رحلات ناجحة الى  
اواسط هذه القارة . كانت رحلته الاولى خلال  
عامي ١٨٧١ و ١٨٧٢ ، وكانت الغاية منها  
البحث عن الدكتور لفنجستون الذى سافر  
الى القارة فى مهمة كشف بتكليف من الجمعية  
الجغرافية الملكية البريطانية ، ولكن بعد ان  
اعتلت صحته وانقطعت اخباره ، كان لابد من  
البحث عنه ، وتقصى اخباره ، فكان ان سافر  
ستانلى موفدا من قبل الجريدة الامريكية التي  
كان يعمل بها انذاك وهي جريدة النيويورك  
هيرالد .

صدر هذا الكتاب فى عام ١٩٧٤ ، اى بعد  
مائة عام تماما على بدء ستانلى رحلته الشهيرة  
الى افريقيا ، حيث كشف مصب نهر الكنفو  
الحقيقى . الف هذا الكتاب الصحفى «ريتشارد  
هول » واصدرته دار جوليتز للنشر فى لندن  
ويبدو ان موضوع هذا الكتاب لم يكن ليشغل  
بال مؤلفه لولا ان اتاحت له الفرصة - كصحفى  
- لكي يعيش فى قلب القارة الافريقية لعدة  
سنوات ، استطاع فيها ان يغطي بقلمه احداث  
الثورة الكونغولية فى بداية الستينات ، بنفس  
القدر الذى استطاع فيه ان يغطي بقدمه كل  
المناطق التي بلغها ستانلى فى النصف الثانى  
من القرن التاسع عشر ، ان لم يكن قد زاد  
عليها .

من هنا نستطيع القول بأن طريق تلك القارة  
وسحرها ، الذى طالما سلب الاوروبيين

**اما الرحلة الثانية ، فكانت في الفترة من ١٨٧٤ الى ١٨٧٧ . وكانت غايتها كشف المنطقة من زنبار شرقا حتى مصب نهر الكونغو على المحيط الاطلسي غربا ، وكان بعد نجاحه فيها اول رجل ابيض يكتشف مجرى هذا النهر العظيم .**

**ولم تخرج رحلته الثالثة ( ١٨٧٩ - ١٨٨٤ ) عن كونها رحلة تقليدية كما يحلو للبعض ان يطلق عليها ، الا انها كانت الرحلة التي مهدت لحكم الملك ليوبولد وسيطرته على الكونغو بواسطة ستانلي وأعوان آخرين .**

**امارحلته الرابعةوالاخيرة ( ١٨٨٦ - ١٨٨٩ ) فقد جاءت تلبية للدعوة من بريطانيا لانقاذ امين باشا الذي تخرج موقفة وانقطعت اخباره بعد الثورة المهدية ، وحقق فيها عبورا شبيها بعبوره في رحلته الثانية .**

**هذه كانت رحلات « هنرى مورتون ستانلي » التي سجلها في مؤنفة الخاصين :**

**How I found Livingstone and The Dark Continent** وفيها كل الاثارة ، وكل الفموض ، وكل المبالغة . الامر الذي جعل العالم ينظر الى هذا الرجل - ستانلي - كمعجزة عصره وبطل زمانه .

**وحينما يفوس المرء في قراءته لهذا الكتاب ، سوف تعود به الذاكرة الى رائحة التاريخ الذي ميز القرن التاسع عشر وتاريخ الكشوف الجغرافية فيه كشف منابع النيل ، كشف بحيرات وسط افريقيا ، وكشف مصب ومجرى نهر الكونغو .. لاشك ان هذا الاطار التاريخي في حد ذاته ينبغي الا يجعل من ريتشارد هول بطلا حينما يغطي نفس الاجزاء التي جابها ستانلي وأكثر ، فالمؤلف حينما يعلن عن ذلك صراحة ، انما يعترف ضمنا بمقدار**

**الجهد الذي بذله ستانلي بين مستنقعات افريقيا وغاباتها ورطوبتها وامراضها ومواطنيها وسوف يدرك القارئ مباشرة ان الجهد الذي بذله المؤلف في رحلاته لكي يستفيد منها في كتابة مؤلفه الذي بين ايدينا عن ستانلي ، لم تحقق شيئا ولم تات بجديد . الامر الذي يدفعنا للتصور بأن المؤلف ثمت لدية فكرة الكتابة عن ستانلي ، بعد عودته كمراسل صحفي من القارة الافريقية .**

**لقد اصطحب « هول » معه الى افريقيا كتاب ستانلي : « كيف وجدت دكتور لفنجستون » ، ومن ثم اصطبغ في رحلة « هول » خيال ستانلي مع مواقع اقدامه ووقعها ، فبدت رحلة ستانلي كما لو كانت قد تراءت تماما امام اعين ريتشارد هول ، الذي تحركت مشاعره نحو ستانلي ، فتحول من ناقد عليه - كشأن الكثيرين ممن يعرفون حقيقته - الى متعاطف معه .**

**ها هو ذا كتاب « ستانلي » يقسمه المؤلف الى ثلاثة اقسام لتضم سبعة وعشرين فصلا قصيرا . القسم الاول يتناول فيه رحلة ستانلي الرئيسية ( ١٨٧٤ - ١٨٧٧ ) ، والقسم الثاني ينقلنا الى شخصية ستانلي وطفولته ونشأته وحبه ، بالإضافة الى عودته من جديد الى الاستطراد في سرد ظروف كشوفه ورحلاته وعلاقاته في افريقيا . ثم ينتهي بالقسم الاخير ليحكى قصة المعاناة التي تميزت بها حياة ستانلي ، حتى بعد ان نجح في تحقيق الكثير من آماله وتطلعاته ، حتى مات في العاشر من مايو عام ١٩٠٤ .**

**زودنا ريتشارد هول في كتابه باثنين واربعين رسما وصورة ولاشك كان خلفها جهد كبير بذله المؤلف لكي يحصل عليها من مصادرها المتباعدة ، ربما ساعده على ذلك**

« اليك بيك » وفشل في ذلك الحب اثر ؟ ترى . . هل كان لبحثه من رجل يتبناه في نيو اورلينز مهما كانت شخصيته ، وبأى أسلوب ممكن (حتى تحقق له ما أراد على كبر ) اثر في غموضه وحزنه ؟ ام لانه كان يتصف بالشذوذ الجنسي كما قال بعض علماء النفس عنه وبعض اصدقاءه المقربين ؟ يالها من تساؤلات مزعجة تحيط به حقا ويكفي أن تثار . . مجرد افاره ، لكي ندرك خلفيات هذه الشخصية والغموض الذي يكتنفها .

لقد كان « ريتشارد هول » مستعدا لتبنى وجهة النظر التقليدية عن ستانلي البارد المعقد ، الذي ترتبط باسمه مظاهر الرعب والقسوة . ولقد كتب يقول : ان الخوض في دراسة شخصية ستانلي ، كتسلق جدار عمودي صلد من الجرانيت . الامر الذي يفسر احجام الكثيرين من الكتاب والمحللين عن الكتابة عن الجوانب الخاصة جدا من حياة ستانلي ، رغم انه كان من اجرا مفامرى القرن التاسع عشر ، واكثرهم اصرارا ونجاحا على الاطلاق .

لكن . . لماذا كان انطباع العالم عن ستانلي الى هذا الحد من السوء طالما لم يفص الكتاب والمحللون بين جوانب شخصيته وحياته الشخصية ؟ لقد نقلت رواية جوزيف كونراد : « قلب الظلام » ، صورة ملطخة بالرعب والفرع والدماء واهدار الحقوق الانسانية على ارض هذا الجزء من افريقيا الذى طرقه ستانلي . وكان دور هذا الاخير في تلك الرواية ، دور الخادم الانتهازي الذى بنى للملك ليوبولد امبراطوريته في افريقيا . فكان لا بد ان يكون قاسيا دمويا ، لما اربط به تاريخ السيطرة والاستعمار من امور لانسانية في تلك البقعة من العالم .

مهنته كصحفى ، وعلاقته بالوكالات والشخصيات الصحفية .

لقد ضمن ريتشارد هول كتابه بالاضافة الى المقدمة التقليدية في بدايته ملحقاتضمن كلمة شكر لمن قدم له يد المساعدة في انجازه هذا وفهرسا للامكن ، وآخر للأشخاص بالكتاب وقائمة جيدة ومطولة بالمراجع والمصادر قسمها وفقا لترتيب فصول الكتاب ، وعلق على كل منها .

هكذا . . وعلى امتداد اربعمائة صفحة تضمنت كافة محتويات الكتاب ، استطاع المؤلف الصحفى ان يمزج بين روح البحث والرواية ، ليخرج حقيقة ملامح وقسمات ستانلي . لقد اجهد المؤلف نفسه كثيرا لكي يميظ اللثام عن الشخصية الحقيقية لهذا الرجل الذى طالما اخفاها عن الناس . ولقد حقق المؤلف غايته ، اذ يدرك القارى ، عقب سرد المؤلف لطفولة ستانلي وظروف نشأته ، التفسير الحقيقي للغموض المتعمد الذى ميز ستانلي وتصرفاته ، فكان حزيننا ابدا مفتقرا الى الثقة بالنفس .

ان المؤلف يعرض حقائق هذه النشأة ، ويترك القارىء يتساءل : ترى بعد ان قرأت هذا الجزء عن ستانلي . . هل كان لاصل نشأته تأثير على شخصيته اذ انه حقا « ابن زنا » لسيدة تدعى ( Elizebith Parry ) من ويلز ام لدخوله اصلاحية الاحداث فترة من الزمن ؟ فقد دخلها وهو في السابعة من عمره وهرب منها بعد تسع سنوات ليعيش بعدها حياة التشرد والسعى المضني للرزق ، معتمدا على نفسه ، خلال سنوات العذاب والمهانة في انجلترا والولايات المتحدة . ام كان لحبه من تلك الفتاة ذات السبعة عشر ربيعا



اليه معونة عاجلة . وبر ستانلى بوعده فعلا  
ووصله ما يريد فى اغسطس عام ١٧٨٢ .

لقد ذهل ستانلى - الذى طافت مقاله  
عن هذه المهمة الناجحة كل ارجاء العالم -  
عندما سمع اسمه يتردد كبطل من الابطال ،  
وأصبح العالم المفتون ينظر اليه كبطل الساعة ،  
لقد استطاع ان ينقل الدكتور لفنجستون ،  
ويعيد للعالم صلته به ، بل ويحقق مع كل  
هذا جانبا من الكشوف الجغرافية التى ذهب  
من اجلها لفنجستون ( ٣ ) ويعود بالاخبار  
والحقائق والفرائب معا .

لكن ستانلى الذى استطاع ان ينقل  
لفنجستون وفريقه لم يكن ليقنع بهذه المهمة  
التى انجزها فى افريقيا . انه مجرد صحفى  
يتابع الاخبار ويحقق الحوادث ويراسل  
صحيفته . لا .. هذه المرة لا بد من سبر  
اغوار افريقيا . نعم ، سأكون مكتشفا ..  
هكذا اراد وصمم وخطط لمهمته القادمة ..  
لقد جربت بنفسى الامر ، ونجحت فيما عجز  
عنه آخرون ، بل واشتركت مع لفنجستون  
نفسه فى جزء من المحاولة .. لماذا اذن لا اكون  
فى سجل الخالدين من امثال بورتون وسبيك  
ولفنجستون نفسه ؟ . اننى ستانلى المنقذ .

لقد تردد وارتاب فى امكانيات نجاحه فى  
بادىء الامر ، بل داخله شعور بأن الصدفة  
وحدها كانت وراء خروجه سالما من رحلته  
الاولى . وان الحظ لاشك سوف يخلدله هذه

الا ان افكار المؤلف قد تغيرت تماما عن  
ستانلى - على حد قوله - عندما سلك نفس  
الطريق الذى سلكه صاحبنا من قبل فى رحلة  
بحثه عن الدكتور لفنجستون .

يقول ريتشارد هول : لقد احسست بمقدار  
الجهد الجهد الذى بذله ستانلى وهو يخترق  
تلك المسافات منذ قرن مضى . لقد ادرك  
المؤلف ان ستانلى حجب شخصيته الحقيقية  
خلف مظاهر كاذبة ، او على الاقل ، لا يعرفها  
العالم عنه . لقد وقف « هول » امام النصب  
التذكارى الحقيقى لستانلى وقال : ينبغى ان  
يكون الكونفو بأسره صاحب هذه الحدود  
المتراصة فى افريقيا (١) ، هو النصب التذكارى  
الحقيقى لهذا الرجل .

لقد كان ستانلى عدوا حقيقيا لذاته . ولقد  
كان تعاميه عن اظهار بعض الحقائق ، سببا  
كافيا للانتقاص من روعة انجازاته . ان  
المؤلف يحاول السمو والتحليق بستانلى  
كواحد من اكبر اصحاب الانتصارات فى العالم ،  
ليمحو السمعة السيئة التى التصقت بهذا  
الرجل . الا ان الانسانية لن تغفل له ما ارتكب  
فى حق ابنائها من جرائم فى سبيل تحقيق  
غاياته .

نجح ستانلى فى رحلته الاولى وعاد بأخبار  
مطمئنة عن الدكتور لفنجستون ( ٢ ) الذى  
رفض العودة معه ، مفضلا استمرار عمله ليلم  
كشوفة ، فتركه ستانلى على أمل ان يرسل

( ١ ) يشترك الكونفو بحدوده مع عشر دول مجاورة تحيط به من جميع الاتجاهات تقريبا .

( ٢ ) أوفد لفنجستون من قبل الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية عام ١٨٦٦ لحل لفز شبكة التصريف النهري  
فى وسط افريقيا ؟ وبحيرات هذه المنطقة ، وبذل الجهد لتحقيق منع تجارة الرقيق فى اكبر اسواقه .

( ٣ ) انتهت الفرصة ليصبح دكتور لفنجستون فسادمه وحققا معا كشف الاجزاء الشمالية من بحيرة تنجانيقا ،  
وتأكد أنها ليست ضمن منابع النيل ، كما اعتقد « بورتون » من قبل .

ان التفاصيل الدقيقة التى يذكرها المؤلف ليست جديدة على الجغرافيين ، الا ان المتتبع للسرد السلس الجذاب الذى تميز به اسلوب ريتشارد هول يكتشف مقدار مفامرة ستانلى بحياته وسمعته ورجاله ومستقبله . كان انتهازيا يحارب مع الاقوى من الجماعات الافريقية المتصارعة ، وحدث هذا عندما انضم الى رجال مملكة متيسا Mtesa ضد القوما Voma عند الطرف الشمالى لبحيرة فكتورا ، وبنفس القدر كان قاسيا لا يعرف الرحمة . . فقد قتل امامه العشرات ، وهو واقف يتسلى بمنظرهم ، حدث هذا وسجله بالصورة ريتشارد هول مع وصف دقيق لطريقة الاعدام المحلية هناك ، وقد وقف ستانلى يشاهد ويتمعن .

اخيرا وصلت جماعة الى بوما عند مصب الكنفو . بالها من مفامرة حقيقية راى فيها ستانلى لم يره انسان ن نقائض الطبيعة . . كم مرة اجتمعت فيها المشاكل مع المظهر الطبيعى الرائع لقلب افريقيا . كم مرة سقط امامه المرضى على بسط خضراء بين افناء يعجز امهر الفنانين عن رسمها ، او حتى تخيلها . وكم كان مضحكا فعلا منظره بلباسه الفرنجى بين جماعات ضحكت عليه قبل ان يحاول حتى ان يقترب ليكتشف ما يريدون . كل هذا غير ذى موضوع امام ستانلى الآن . لقد حقق انجازا هائلا قفل بعده هائلا مرة اخرى الى زنزبار عن طريق راس الرجاء الصالح .

الا ان ريتشارد هول يعود مرة اخرى الى شخصية ستانلى فى قسمه الثانى ولا يستطرد فى نتائج رحلة ستانلى . فمن هو ستانلى هذا ؟ وما هو الاسم الحقيقى له ؟ ماهى ظروف نشأته المشينة البائسة ؟ .. انها ولا شك

المرة . لقد كان ستانلى قليل الثقة بنفسه دائما لقد كان يتصور ان الرحالة والمستكشفين يكونون من علية القوم وكبراءه ، ابناء الاسر العريقة من الضباط والرياضيين . . . . . الا انه - ولاول مرة - يصمم على كسر هذا الحاجز النفسى الذى افنتله بنفسه . لقد قرر ان يفرض اسمه فرضا على العالم بأسره . . . . . لابد ان يحدث هذا . . نعم لابد .

ان المؤلف ريتشارد هول يتحدث بأسهاب فى القسم الاول من الكتاب عن ادق التفاصيل المتعلقة بفتاة حبه ( اليك بيك ) ، شكلها ، ممرها ، ودارها ، ثم عن تفاصيل اتفاقه معها على الزواج قبيل رحلته . . ذلك الزواج الذى لم يتم قط . ثم يقدم سردا لتحركاته بين نيويورك ولندن ، ومناطق اخرى من العالم وكيف سبق له ان وطد علاقته بالعديد من الشخصيات الانجليزية حينما كان ضمن فريق المراسلين لجريدة النيويورك هيرالد ، وكيف كان « وقحا » فى شجاره بالجمعية الجغرافية الانجليزية ، حينما ساورتها الشكوك حول رحلته لانقاذ لفينجستون ، ولماذا وصفته الملكة فكتوريا بعد ان دعى لمقابلتها بقصرها بأنه رجل عنيد وقبيح .

ان ستانلى مرة اخرى فى لندن يحاول ان يعد لرحلته انسب الظروف ، كما سعى للاتصال بمصادر جديدة لتمويل رحلته الثانية ، ونجح فى اجتذاب جريدة الدبلى تلجراف التى وافقت على الاشتراك مع النيويورك هيرالد لتمويل المشروع . هكذا اصبحت رحلته بعثة انجلو امريكية ، وفر لها قسيسا من لندن ، والاخوين Pocock ادوارد وفردريك ، والافريقى المخلص الذى رافقه من زنزبار Kalulu ، مع بعض كلابه .

استفسارات بعيدة تماما عن خواطر المهتمين بدراسة تاريخ الكشوف الجغرافية التي ارتبطت في جزء منها - بشخصية ستانلي . ولكنه كصحفي ، تحركه كوامن المهنة و « فريزتها » ، فيسعى بصبر لتحقيق سبق لا جدال ، حول هذه الشخصية ، والجوانب النفسية التي تتحكم في تصرفاتها .

ولد جون رولاندز ( John Rolands ) وهو الاسم الحقيقي لستانلي ، من ابنة جزار كانت تعمل في مخبز عند اطراف مدينة ( Denbigh ) الصغيرة ، الواقعة في شمال شرق ويلز في ٢٨ من يناير عام ١٨٤١ (٤) . ويقال ان المخبز الذي كانت تعمل فيه هذه السيدة واسمها اليسزابيث بارى ( Elizebeth Parry ) كان يقع خلف مكتب للشئون القانونية والمحاماة ، يعمل به شخص يدعى فوغان هورن ( Vaughan Horne ) الذي ولع بها حباً ، وتورطت معه في علاقة غرامية حملت خلالها منه سفاحا هو جون رولاندز ( ستانلي فيما بعد ) . الا ان ابوة هذا الرجل لجون ، او حتى ابوة غيره لهذا الطفل ، لا تزال لغزا غامضا ، خصوصا وان امه قد انجبت بعده ، وخلال الخمس عشرة سنة التي أعقبت ميلاده ، انجبت ثلاثة أبناء آخرين غير شرعيين . يالها من امرأة سيئة السمعة اذن ، ويالها من نشأة قائمة لجون !

لقد وجد نفسه وهو في سن السادسة - اي جون رولاندز - بين اسوار اصلاحية للاحداث ( منذ فبراير عام ١٨٤٧ ) . ولا

يزال اسمه مدونا في سجلات الاصلاحية وقد كتب امامه اصطلاح ( لقيط ) . وفي هذه الاصلاحية حيث بقي تسع سنوات ، تلقى كل تعليمه . وكان مجيدا للرياضيات والجغرافيا والرسم ؛ الا انه كان سيء السلوك ، مشافيا . فقد حاول الهرب من الاصلاحية مرتين وفشسل ، ولكنه حينما تسلق سور هذه الاصلاحية للمرة الثالثة واستطاع ان يتخطاه ، اطلق ساقيه للريح هاربا . والى الابد من هذا المكان البغيض .

اتجه بعد هربه الى مسقط رأسه ، ولكنه لم يجد ارضا صلبة يقف عليها ليحصل حتى على قوت يومه . . انه ابن تلك السيدة سيئة السمعة . ولكنه نجح بعد اسابيع قليلة في الحصول على وظيفة مساعد مدرس بمدرسة ( St. Asaph )

ويتحدث « ريتشارد هول » عن كيفية التوصل الى حقيقة اسم ستانلي الحقيقي وذلك عن طريق خطاب ارسله الى خاله في ليفربول ، عقب هربه من الاصلاحية ، لكي يساعده في الحصول على عمل . ثم يتتبع تنقلاته وظروف عمله وكيف كان ضعيف السيطرة على الطلاب ، وكيف كان فاشلا في الحصول على وظيفة بمحطة سكة حديد ( مؤلد ) . وحينما وفر له خاله وظيفة كاتب في مكتب للتأمينات في ليفربول تركها ليعمل ساعيا خصوصا .

وفي خضم بأسه وامراره على عمل ، تساءل : الا يمكن ان تكون ليفربول بداية النهاية لشقاء السنين الماضية ؟ الهجرة في

( ٤ ) لم يحدد ستانلي مطلقا تاريخ ميلاده ربما عن عمد . وكان يفضل ان يقول انه من مواليد عام ١٨٤٣ . كتب على قبره انه ولد في العاشر من يونيو عام ١٨٤٠ . ويذكر سجل وفيات التاييز انه ولد « حوالي » عام ١٨٤٠ . اما دائرة المعارف البريطانية فتذكر في طبعتها العادية عشرة اوجه لولده عام ١٨٤٢ ، كما يذكر قاموس ناشيونال بيوجرافي ، ان ستانلي من مواليد عام ١٨٤١ .

لم يدم عمله خلال الحرب الاهلية ، فقد كان جنديا فيدراليا ، ولكنه مرة أخرى كان مشبوه التصرف كالمرتزقة ، يحارب مع الجانبين . وأصبح يحس في قرارة نفسه بأنه فعلا كالمتشرد الذي يحيا حياة مشبوهة يعوزها الاستقرار .

وفي اجازة له كان يقضيها في اوروبا زار مدينته ( Benbigh ) وكتب في سجلها اسمه الحقيقي : انا جون رولاندز الملازم في البحرية الامريكية ، ملتحق بالفرقاطة Teconderoga ، وأعمل حاليا في تركيا . وكتب تاريخ الزيارة : ١٤ ديسمبر ١٨٦٦ .

وحينما قام برحلة الى لندن ، استطاع ان يقابل مندوب جريدة النيويورك هيرالد ، وهو الكولونيل اندرسون ( Finaly Anderson ) عام ١٨٦٧ ، ووطد علاقته به ، الامر الذي مهد لستانلي ليصبح مراسلا لنفس الجريدة فيما بعد ، بل بعد قليل جدا من تركه عمله بالبحرية الامريكية في نفس السنة ( ١٨٦٧ ) .

بدأ عمله مراسلا بمخالفة أوامر المسؤولين في هذه الجريدة الذين طلبوا اليه ان يتجه غربا من لندن ، ولكنه رفض واتجه شرقا . . هكذا . كما اخفى اسمه الحقيقي - والى الابد هذه المرة - ولم يكن قد استقر على اسمه الاوسط حتى أصبح بورتون . هنرى بورتون ستانلي ، ذلك المراسل الصحفي لجريدة نيويورك هيرالد الامريكية ، الذي تنقل بين الحبشة والهند والاسكندرية والقاهرة وغيرها من مدن شرق افريقيا والشرق الادنى .

ومن خلال العودة الى الحديث عن مغامراته في افريقيا بعد هذا السرد المطول والدقيق من

ذروتها ، والميناء يستقبل الف اسرة مهاجرة الى العالم الجديد اسبوعيا . والميناء غاص بالسفن ، والبحارة بالعشرات والمئات .

نجح ستانلي في العمل على ظهر السفينة وندرمير ( Windermere ) المتجهة الى نيو اورليانز كمنظف للكبائن ، لقد رأى الاهوال في أول رحلة له استغرقت سبعة اسابيع . لقد وجد نفسه مرة أخرى فريسة للوحدة والانزعال والمهانة ، كما قاسى كثيرا من نومه تحت المقاعد ، ومن اضطراب صحته بتأثير دوار البحر . . . وغير ذلك كثير .

وحينما دخلت السفينة الى الميسيسيبي ، وقعت عينه على عظمة هذا النهر ، وشاهد ما عوضه عن شقاء الاسابيع الست ، وفي وصف ادبي رائع يتحدث المؤلف عن هذا المشهد مستطردا : انه الجنوب ، ارض القطن والزئوج وملاك الاقطاعات الزراعية الهائلة من المهاجرين الاوروبيين .

وحينما كان المعجوز « ستانلي » الذي يعمل سمسارا للقطن بين الزراع على امتداد الميسيسيبي ، وتجار نيو اورليانز ، وقعت عيناه على جون رولاندز الذي بادره بالسؤال في رنة حزين شيقة : سيدى . . . هل تريد غلاما يكون في خدمتك ؟

بعد ان رحب المعجوز ستانلي الذى لم فى ينجب ولم يتخذ من قبل ولدا ، وكذلك زوجته ، بمقدم هذا الغلام ، لم يلبث ان طرده لقلّة حيائه ولسوء أدبه ، ولكنه بعد ان استقام ومارس العمل الشريف ، وحقق ارباحا سال لها لعابه ، استقل في أعماله وكان محبا مخلصا لعمله لدرجة كبيرة . وكان قد عرف آنذاك باسم هنرى ، انه الآن هنرى ستانلي .

الزعيم العربي (Tippu Tib) الذي ساعده في الهبوط الى نهر الكونغو .

ويكتب المؤلف عن رحلته في مجرى هذا النهر الكبير بأسهاب ، ويكتب عن تفاصيل توزيع قواته او افراد حملته في النهر والبر ، وكيف تعرضت جماعة النهر الى متاعب جمة ارتبطت في معظمها بالاندفاع الشديد للمياه والشلالات ، بنفس القدر الذي تعرضت فيه جماعات البر لمتاعب المستنقعات والغابات والأمراض والحيوانات المفترسة . ولكنه بعد كل هذا ، استطاع ان يبلغ مدينة بوما Boma على مصب هذا النهر ، ولقد اكد المؤلف - وهو موفق في هذا كل التوفيق - على وقفة الركب عند الشلالات التي سميت فيما بعد بشلالات ستانلي ( يناير ١٨٧٧ ) ، والمدينة الصغيرة التي عرفت كذلك فيما بعد بمدينة ستانلي ( ستانلي فيل ) . واخيرا ... عاد « ستانلي » الى زنبار بطريق البحر عن طريق رأس الرجاء الصالح . وهكذا وفق المؤلف في عرض هذا الجانب ، ولكنه عرض اساسه المعلومات التاريخية التي اتي بها غيره من قبل . ولقد سجل خط سير الرحلة على الخريطة الوحيدة بالكتاب ، التي وضعها « ديكورا » للغلاف الداخلي للكتاب .

حكى « ستانلي » وكتب ونشر العديد من المقالات عن رحلته الرئيسية هذه . وكان من بين ما ذكره طواف العالم وفتن رجال اعمال اوروبا واقتصاديينها ، حديثا مسهبا عن الاقتصاد الفابي الممكن قيامه في افريقيا ، نخل الزيت ، الاخشاب بأنواعها ، والمطاط ... وغيرها كثير كثير . فسال لعاب القوم ،

حياته الشخصية ، يعود « ريتشارد هول » مرة اخرى ليحكى ادق علاقاته مع جماعات الكشف التي صاحبته من الاهالي او المرافقين البيض ، ومقدار حرصه على الحصول على أية مكاسب ترفعه الى حد الشهرة او الفنى ، وفي سبيل ذلك استخدم اسلوب المرتزقة تارة والمهادنة تارة اخرى والقمع والكر والخداع تارة ثالثة ، حتى انه عالج تمرد جماعة الوطنيين التي كانت تصاحبه في احدى رحلاته ، بالقتل رميا بالرصاص . ولقد سجل ريتشارد هول هذه الحادثة بين حوادث اخرى تنم عن نفس شرسة بعيدة عن الرحمة ، كما صور لنا كيف كان ينتقل من ورطة الى اخرى خلال تجواله في وسط افريقيا بين وحوش مفترسة ، وغابات هائلة كثيفة ، وامراض قاتلة ، وشلالات رهيبة ، بالاضافة الى ما ذكره من مشاكل « ستانلي » مع بعض الشخصيات والجمعيات العلمية ، ووصف مفصل للقاءه بالدكتور « لفنجستون » .

حينما توجه ستانلي الى زنبار عام ١٨٧٤ - كما يقول « ريتشارد هول » حقق بعد انطلاقه منها أهم هدف له ، حينما اطمأن الى انه اتى بجديد حينما اكد ان بحيرة فيكتوريا بحيرة واحدة ، واكتشف لأول مرة وادي نهر كاجيرا كمخرج وحيد لهذه البحيرة . ثم اتجه الى تنجانيقا ، ووصل الى اوجيجي ، ودار محاذيا سواحلها بقرابه واثبت انها بحيرة مغلقة لا علاقة لها بنهر النيل كما قال « بوتون » من قبل ، والتقى - بعد ان عبرها الى الجانب الغربي - بالشيخ حميد بن محمد

بين صفحاته ، قصة الصراع العالمي الدموي على ارض افريقيا ، قصة الصراع على الارض والرجال والثروات ، اجرت فيها اراض افريقية ، وبيعت اخرى ، ودار قتال على انتزاع ثالثة من ابناءها.. وهكذا سار الشوط بافريقيا الصابرة .

ان المؤلف يختم كتابه بعرض لشخصيات مجهولة وقفت وراء ستانلي تدفعه وتؤازره ، مالا وعطفا وحبا . ولكنه ابدا لم يتغير حتى آخر ايام حياته حينما وافته المنية صباح العاشر من مايو عام ١٩٠٤ . فرغم انه منح الجوائز والتقدير من الملوك والعظماء ودور الصحف الكبرى في اوروبا وامريكا ، الا انه لم يدفن بجوار العظماء في كنيسة « وست منستر » بجوار لفنجستون كما اراد لنفسه في بداية الشوط . لقد رفض رئيس الكنيسة دفنه بها بدون ابداء الاسباب . ويبدو ان شعورا خفيا لدى ستانلي كان يحركه نحو عدم الثقة بما يود ان يبلغه ، فكتب في مذكراته بالحرف الواحد : « انني لم آت الى الدنيا من اجل الحصول على السعادة ، او السعي اليها ، فقط اتيت من اجل عمل خاص اؤديه ... » .

ان الكتاب يزخر بالتحقيقات الدقيقة التي تتبع حياة الرجل ، ساقها « ريتشارد هول » بأسلوب ذكي ، ولكنه بسيط وسلس وجذاب ، شأن الكتابة الصحفية المتمرسية التي تخاطب العامة والمثقفين على حد سواء . والكتاب بهذا الاسلوب حين يجمع بين البحث الدقيق لبعض القضايا التاريخية والجغرافية مما لا يتسع المجال لعرضه في هذا السياق ، وبين الرواية الجذابة المثيرة المصورة ، هذا بالإضافة الى قرب المؤلف الشديد من دقائق اسرة

وتشكلت الرابطة الدولية للكونغو ( ٥ ) برأس مال بلجيكي الماني ايطالي ، لكن حماس مساهمة ملك بلجيكا « ليوبولد » كان ينبىء بأن امرا ما ينتظر تلك المنطقة .

وبالتدريج ، تحول ستانلي الى خادم مخلص للملك « ليوبولد » حينما سافر للمرة الثالثة عام ( ١٨٧٩ ) وظل حتى عام ( ١٨٨٤ ) جعل الكونغو خلالها مزرعة هائلة لهذا الملك . فكانت الشرارة الاولى التي احرقت هذه القارة فيما بعد .

وفي عام ١٨٨٦ — علمت اوروبا بحصار وعزل الحاكم المصري للمنطقة الاستوائية — الذي لم يكن مصريا ابدا — بعد قيام الثورة المهدية ، ولا بد من العمل على انقاذه . وعندما تشكلت لجنة الانقاذ هذه ، كان على رأسها « ستانلي » ، وكيف لا .. الم ينقل دكتور « لفنجستون » من قبل ؟ ..

وصل « ستانلي » فعلا الى حيث التقى بأمين باشا على شاطئ بحيرة البرت ، وبدلا من انقاذه ، عرض عليه العمل كمدير في خدمة الملك « ليوبولد » بشروط مالية لم يوافق عليها « أمين باشا » . وفي طريقه الى الساحل الافريقي ، استطاع ستانلي عقد عدة اتفاقيات مع الزعماء الوطنيين من النوع الذي احكم قبضة الاستعمار على مناطقهم فيما بعد ، حتى كانت معاهدة ( ماكينون ) المعروفة التي ابرمت بين الشركة البريطانية لشرق افريقيا وحكومة الكونغو .

وهكذا تدخل افريقيا دورا لا يستغرق « ريتشارد هول » كثيرا في الحديث حوله ، ولكن التاريخ الافريقي يعرفه ويسجله بدقة

لم يخل الكتاب من بعض الأخطاء المطبعية - شأن بعض الكتب التي تخرجها دور النشر الانجليزية في الآونة الأخيرة للأسف على غير ما عودتنا . والكتاب يفتقر الى ترتيب افكاره ترتيبا علميا،بالإضافة الى ان المؤلف استخدم عناوين فصوله بأسلوب مثير فيه تورية . ومع كل هذا ، فان الكتاب بحجمه وأسلوبه وصوره ومستنداته ، يرقى الى مصاف الكتب التي يسعى المرء لاقتنائها .

« ستانلي » وارثيفها « سواء في اتجلترا او الولايات المتحدة ، مع التجربة الخاصة والمباشرة للمؤلف في افريقيا ، يجعل كل هذا من كتاب « ستانلي » المستكشف المغامر ، كتابا مفيدا بحق لما يضيفه من جديد ، ويعدل مسار بعض الافكار عن هذه الشخصية ، ولكنه لم يأت بجديد في مجال الكشف او التحقيق التاريخي الذي كان بعيدا عنه كل البعد .



### من الكتب الجديدة

كتب وصلت الى ادارة المجلة ، وسوف نعرض لها بالتفصيل في الاعداد القادمة

1. Clark, W., Ronald, *The Life of Bertrand Russel*, Jonathan Cape and Weidenfeld & Nicolson, London 1975.
2. Frye, Richard N. , *The Golden Age of Persia, The Arabs in the East*, Weidenfeld Nicolson, London, 1975.
3. Haswell, Margaret, *The Nature of Poverty, A Case-History of the First Quarter Century After World War II*, Macmillan Press Ltd., 1975.
4. Howe, Michael, *Learning in Infants and Young Children*, Macmillan Press Ltd., 1975.
5. Swingewood, Alan, *The Novel and Revolution*, Macmillan Press, 1975.





